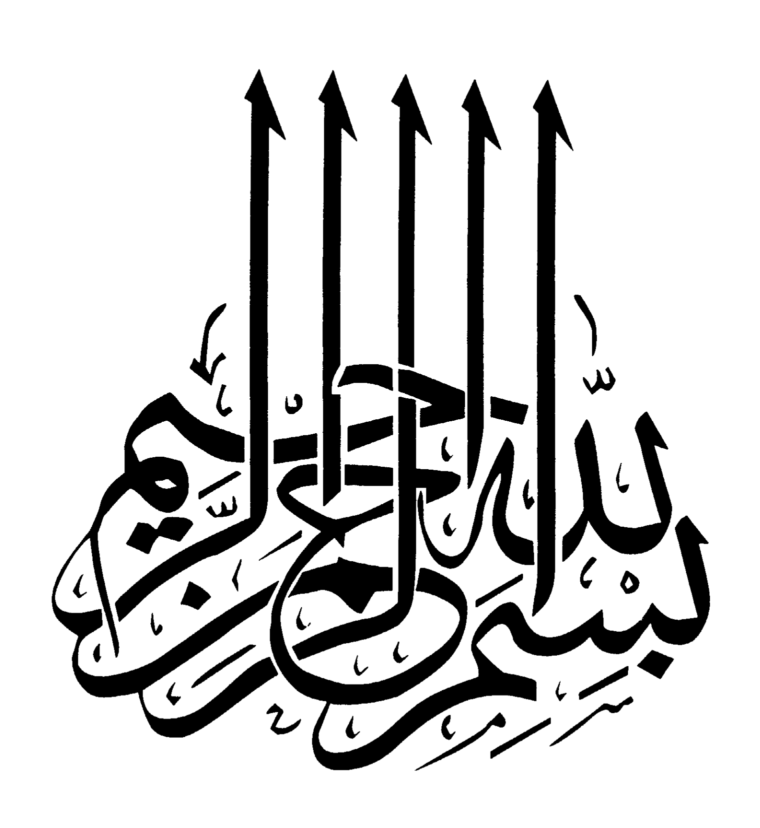

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

كلية الآداب قسم التاريخ

الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري/كلية الآداب قسم التاريخ - الرياض، ١٤٢٦هـ

٢ مج

ردمك : ٤ - ٩٢٦ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

٢ - ٩٣٠ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (ج١)

١- الجزيرة العربية - تاريخ- العصر العباسي أ- العنوان

ديوي ٩٥٣,٧٣٩١ ١٤٢٦/٦٠٤٣

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٦٠٤٣

ردمك : ٤ - ٩٢٦ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

٢ - ٩٣٠ - ٣٧ - ٩٩٦٠ (ج١)

النشر العلمي والمطابع ١٤٢٧هـ

دراسات في تاريخ الجزيرة العربية

الكتاب الخامس

الجزيرة العربية

من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري

(الجزء الأول)

هيئـــة التحريـــر

أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي

أ. د. أحمد بن عمر الزيلعي　　　أ. د. محمد بن فارس الجميل

د. مشلح بن كميخ المريخي　　　د. خالد بن عبدالكريم البكر

المحتويات

(الجزء الأول)

دراسات تاريخ في الجزيرة العربية

هـذا عنوان لسلسلة من الدراسات في تاريخ الجزيرة العربية، تحتوي على الأبحاث التي قدمت في الندوات العالمية الخمس. كانت الندوة الأولى نظمها قسم التاريخ بكلية الآداب، بجامعة الملك سعود (الرياض آنذاك) في جمادى الأولى ١٣٩٧هـ (أبريل/ نيسان ١٩٧٧م)، وموضوعها: "مصادر تاريخ الجزيرة العربية" ويحوي أبحاثها الكتاب الأول في جزأين.

أما الندوة العالمية الثانية فكان قد اشترك في الإعداد لها وعقدها قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بالكلية ذاتها، في جمادى الأولى ١٣٩٩هـ (أبريل/نيسان ١٩٧٩م) وموضوعها:

"الجزيرة العربية قبل الإسلام" ويضم أبحاثها الكتاب الثاني.

أما الندوة العالمية الثالثة التي نظمها القسمان فعقدت في الفترة ١٥-٢١ محرم ١٤٠٤هـ (٢١-٢٧ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٨٣م)، وموضوعها: "الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين"، ويضم أبحاثها الكتاب الثالث بجزئين.

وأما الندوة العالمية الرابعة التي نظمها القسمان وعقدت في الفترة ٧-٩ ذي القعدة ١٤٢٠هـ (١٣-١٥ فبراير/ شباط ٢٠٠٠م) وموضوعها: "الجزيرة العربية في العصر الأموي"، فإن أبحاثها يضمها الكتاب الرابع بجزء واحد.

وأما الندوة العالمية الخامسة التي نظمها القسمان فقد عقدت في الفترة ٢١- ٢٣ محرم ١٤٢٤هـ (٢٤- ٢٦ مارس/ آذار ٢٠٠٣م) وموضوعها: "الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري"، ويضم أبحاثها هذا الكتاب وهو الكتاب الخامس من حيث التسلسل.

والقسمان يعدان الآن لعقد الندوة العالمية السادسة لتاريخ الجزيرة العربية وموضوعها: "الجزيرة العربية من بداية القرن الخامس حتى نهاية القرن السابع الهجري"، وسوف تنشر أبحاثها في الكتاب السادس إن شاء الله.

لجان الندوة

أولاً: اللجنة التحضيرية

١ - أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي	قسم التاريخ	رئيساً
٢ - د. عويضة بن متيرك الجهني	رئيس قسم التاريخ	نائباً للرئيس
٣ - د. خليل بن إبراهيم المعيقل	قسم الآثار والمتاحف	نائباً للرئيس
٤ - د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	مقرراً للجنة
٥ - أ. د. عبدالله بن محمد السيف	قسم التاريخ	عضواً
٦ - أ. د. أحمد بن عمر الزيلعي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٧ - أ. د. سعد بن محمد الغامدي	قسم التاريخ	عضواً
٨ - أ. د محمد بن فارس الجميل	قسم التاريخ	عضواً
٩ - د. عبدالله بن إبراهيم العسكر	قسم التاريخ	عضواً
١٠ - د. عبدالغفور بن إسماعيل الروزي	قسم التاريخ	عضواً
١١ - د. عبدالله بن علي الزيدان	قسم التاريخ	عضواً
١٢ - د. عبدالرحمن بن مديرس المديرس	قسم التاريخ	عضواً
١٣ - د. عبدالله بن إبراهيم العمير	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
١٤ - د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	عضواً
١٥ - د. خالد بن عبدالكريم البكر	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
١٦ - د. طلال بن محمد الشعبان	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
١٧ - د. عبدالله بن عبدالرحمن الدوسري	قسم الآثار والمتاحف	عضواً

ثانياً: اللجنة العلمية

١ - أ. د محمد بن فارس الجميل	قسم التاريخ	رئيساً
٢ - أ. د. أحمد بن عمر الزيلعي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٣ - أ. د. سعد بن محمد الغامدي	قسم التاريخ	عضواً

٤- د. خليل بن إبراهيم المعيقل	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٥- د. عبدالله بن علي الزيدان	قسم التاريخ	عضواً
٦- د. عبدالغفور بن إسماعيل الروزي	قسم التاريخ	عضواً

ثالثاً: أمانة الندوة

١- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	أميناً
٢- أ. نايف بن عبيد ثنيان الحربي	قسم التاريخ	عضواً

رابعاً: اللجنة المالية

١- د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	مقرراً
٢- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً

خامساً: لجنة البرنامج

١- أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي	قسم التاريخ	رئيساً
٢- أ. د محمد بن فارس الجميل	قسم التاريخ	عضواً
٣- د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	عضواً
٤- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً

سادساً: لجنة العلاقات

١- د. سعد بن عبدالله القحطاني	قسم التاريخ	رئيساً
٢- د. مشلح بن كميخ المريخي	قسم الآثار والمتاحف	عضواً
٣- أ. بندر البصيص	الإدارة العامة للإعلام والعلاقات الجامعية	عضواً
٤- أ. نايف بن عبيد ثنيان الحربي	قسم التاريخ	عضواً
٥- أ. عادل بن هزاع القحطاني	قسم التاريخ	عضواً

مقدمو الأبحاث عند انعقاد الندوة

(أسماء مقدمي الأبحاث وعناوينهم عند انعقاد الندوة)

البابطين، د. إلهام أحمد

قسم التاريخ -مركز الدراسات الجامعية للبنات- جامعة الملك سعود -الرياض

بطانية، أ. د. محمد ضيف الله

قسم التاريخ -جامعة اليرموك- إربد- المملكة الأردنية الهاشمية

البكر، د. خالد بن عبدالكريم

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

بوتشيش، أ. د. إبراهيم القادري

قسم التاريخ -جامعة مولاي إسماعيل- مكناس -المغرب

البيطار، أ. د. أمينة محمد علي

قسم التاريخ -مركز الدراسات الجامعية للبنات- جامعة الملك سعود -الرياض

جارالله، د. عبدالرحمن حسن

قسم التاريخ -جامعة صنعاء- الجمهورية العربية اليمنية

أبوجبلة، د. عامر جاد الله

قسم الآثار والسياحة -جامعة مؤته- الكرك -المملكة الأردنية الهاشمية

الجميل، أ. د. محمد بن فارس

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

الحارثي، أ. د. ناصر بن علي

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية -جامعة أم القرى- مكة المكرمة

الحارثي، د. عبدالله بن ناصر

قسم التاريخ -جامعة السلطان قابوس- سلطنة عُمان

الحداد، د. عبدالله عبدالسلام

قسم التاريخ -جامعة صنعاء- الجمهورية العربية اليمنية

مقدموا الأبحاث عند انعقاد الندوة

أباحسين، د. علي

مركز الوثائق التاريخية –البحرين

الروزي، د. عبدالغفور بن إسماعيل

قسم التاريخ –جامعة الملك سعود– الرياض

الروسان، د. محمود

قسم التاريخ –جامعة اليرموك– إربد– المملكة الأردنية الهاشمية

الزيدان، د. عبدالله بن علي

قسم التاريخ –جامعة الملك سعود– الرياض

الزيلعي، أ. د. أحمد بن عمر

قسم الآثار والمتاحف –جامعة الملك سعود– الرياض

السروري، أ. د. محمد عبده

قسم التاريخ –جامعة تعز– الجمهورية العربية اليمنية

السري، د. أحمد بن علي حيدر

قسم التاريخ والآثار –جامعة الإمارات العربية المتحدة– العين –الإمارات العربية المتحدة

السنيدي، د. عبدالرحمن

قسم التاريخ –جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية– الرياض

السويلم، د. ابتسام عبدالمحسن

قسم التاريخ –مركز الدراسات الجامعية للبنات– جامعة الملك سعود –الرياض

سيف، د. علي سعيد

قسم التاريخ –جامعة صنعاء– الجمهورية العربية اليمنية

الشجاع، أ. د. عبدالرحمن

قسم التاريخ –جامعة صنعاء– الجمهورية العربية اليمنية

الطايش، د. علي

قسم التاريخ –جامعة الملك سعود– الرياض

الطراونة، أ. د. خلف فارس

قسم الآثار والسياحة –جامعة مؤته– الكرك –المملكة الأردنية الهاشمية

العامودي، د. محمود

قسم التاريخ –الجامعة الإسلامية– غزة

مقدموا الأبحاث عند انعقاد الندوة

العسكر، د. عبدالله بن إبراهيم

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

علي، د. أحمد رجب محمد

قسم التاريخ والآثار -جامعة الإمارات العربية المتحدة- العين -الإمارات العربية المتحدة

القحطاني، د. سعيد بن عبدالله

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

المحمودي، د. أحمد

قسم التاريخ - جامعة مولاي إسماعيل- مكناس -المغرب

موسى، أ. د. عز الدين عمر موسى

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

الهلابي، أ. د. عبدالعزيز بن صالح

قسم التاريخ -جامعة الملك سعود- الرياض

ولد داداه، أ. د. محمد ولد مولود

نواكشوط -الجمهورية الإسلامية الموريتانية

يوسف، د. فرج الله أحمد

دار القوافل للنشر والتوزيع- الرياض

تمهيد

تتشرف الندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية بإصدار"الكتاب الخامس" من سلسلة تاريخ الجزيرة العربية وهو يضم معظم أبحاث الندوة العالمية الخامسة وموضوعها:

"الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية وحتى نهاية القرن الرابع الهجري"

وعقدت في الفترة ٢١ -٢٣ محرم ١٤٢٤هـ (٤٢ - ٢٦ مارس/آذار ٢٠٠٣م) وقد اشترك في تنظيمها قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بكلية الآداب، جامعة الملك سعود بالرياض.

وتتقدم الندوة بالشكر والتقدير للباحثين الكرام من خارج المملكة العربية السعودية ومن داخلها الذين أسهموا بـبحوث قـيمة في هذه الندوة التي يضمها هذا السفر، كما تشكر المشاركين في الندوة من غير الباحثين لإسهامهم الفعال في الحوار والمناقشة مما ساهم في إثراء البحوث وتدارك ما في بعضها من نقص أو قصور.

والتزاما منا في قسم التاريخ وقسم الآثار والمتاحف بمواصلة كتابة تاريخ الجزيرة العربية من خلال حلقات هذه الندوة وبمشاركة زملائنا أساتذة التاريخ والآثار في كل الجامعات والمؤسسات العلمية فسوف يكون موضوع الندوة السادسة:

"الجزيرة العربية من بداية القرن الخامس وحتى نهاية القرن السابع الهجري"

(١١١٠ - ١٣٠٠م)

وقـد أعدت محاورها وأرسلت الدعوات للباحثين والمختصين للمشاركة، وسوف تعقد في الفترة من ٥ صفر ١٤٢٧هـ الموافق ٥ مارس ٢٠٠٦م، وحتى ٩ صفر ١٤٢٧هـ الموافق ٩ مارس ٢٠٠٦م.

والـندوة رئيسا وأعضاء مدينون بالشكر والتقدير لمعالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد الفيصل لوضع إمكانات الجامعة سواء المادية أو الخدمات والمرافق تحت تصرفنا واهتمامه بها ومتابعة تنظيمها والتأكد من جودة مطبوعاتها وتوج ذلك برعايته لافتتاحها، كما يشكرون سعادة وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي (مدير جامعـة القصيم حاليا) الأستاذ الدكتور خالد بن عبدالرحمن الحمودي لمؤازرتنا في كل ما كان يقع تحت اختصاصه فساهم في إنجاحها، ويخصون كذلك عميد كلية الآداب الأستاذ الدكتور رشود بن محمد الخريف الـذي ساهـم في

تذليل العقبات التي اعترضتها، ومتابعة أعمالها والحرص على إنجاحها.

وواجب الشكر حق علينا للأخوة الكرام في العلاقات العامة وعلى رأسهم الزميل الدكتور علي بن دبكل العتري لما بذلوه من جهود كبيرة على كل المستويات، وللعاملين بالنشر والمطابع بالجامعة لما قاموا به من عمل متقن ودقيق نقدره لهم في المجلدات السابقة، ونحن على يقين أنهم سوف يبذلون قصارى جهدهم في طباعة وإخراج هذا الكتاب بمستوى يليق بسمعة جامعة الملك سعود.

وختاما أسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصا لوجهه، وأن يوفقنا للصواب في القول والعمل، إنه سميع مجيب.

رئيس الندوة

أ. د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي

المقدمة

تنوعت موضوعات "الكتاب الخامس" فشملت جوانب هامة من تاريخ الجزيرة العربية في الحقبة الزمنية التي تبدأ مع بداية الدولة العباسية وتنتهي مع نهاية القرن الرابع الهجري وليس للنهاية أي معنى موضوعي سوى أن العصر العباسي مدته الزمنية طويلة واقتضت الضرورة شطره إلى شطرين، حتى نكمل الشطر الثاني من هذا العصر في أبحاث الندوة السادسة لتاريخ الجزيرة العربية. وبدأ الكتاب بالأحوال العامة في الجزيرة العربية قبل قيام الدولة العباسية ليكون بمثابة تمهيد وانتقال بين عصرين. وتناولت أبحاث أخرى بعض حركات التمرد (الثورات)، وبعض الحركات التي حملت مضمونا عقديا في نواحي متفرقة من الجزيرة العربية وناقشت أسبابها المحلية والأسباب الناجمة عن سياسات الحكومة المركزية في بغداد، ووسائل إخمادها والنتائج التي تمخضت عنها. أما الأبحاث التي تناولت الجوانب الاقتصادية فهي اثنان وهذا يكشف أن تغطية هذا الجانب المهم ومثله الدراسات المجتمعية لا زالت بحاجة كبيرة إلى المزيد من البحوث والدراسات. أما الأبحاث التي عنيت بالموضوعات الحضارية خاصة الحركة والتواصل العلمي بين أقاليم الدولة الإسلامية فهي معقولة من حيث حجمها وممتازة من حيث معالجتها. ومن حسن حظ هذه الندوة أنها بمقارنتها بسابقتها حظيت ببحوث آثارية متنوعة وغنية فمنها المكتشفات الأثرية وعمارة المساجد والكتابات والمسكوكات. كما تميزت أبحاث هذه الندوة بتغطيتها لمعظم أقاليم الجزيرة العربية بدأ من الحجاز ثم وسط الجزيرة فشرقها فجنوبها الغربي ونقصد تهامة ثم اليمن، وقد حظيت اليمن بنصيب طيب نتيجة لمساهمة كريمة من عدد من الباحثين اليمنيين. وكذلك خدمت العلاقات العلمية بين الجزيرة العربية وكل من المغرب والأندلس خدمة طيبة.

أما عملنا في هيئة التحرير فتمثل في حرصنا على أن تكون الأبحاث في نسق واحد من حيث التوثيق وطريقة الإحالات على المصادر والمراجع ووضعها في أواخر البحوث. كما التزمنا أن تقتصر تعديلاتنا التحريرية على الشكل والصياغة ولا تمس المضمون بحال من الأحوال مثل تصويب أسماء الأشخاص والأمكنة وما إلى ذلك، فإن كان لنا ملاحظة على المضمون أبديناها على الباحث إن شاء أخذ بها أو صرف النظر عنها.

أما ترتيب الأبحاث فقد خضع لاعتبارات ثلاثة هي التسلسل الزمني والتقارب الموضوعي والتقارب المكاني، و لم يدخل في الاعتبار مكانة الباحثين ورتبهم العلمية.

نتقدم بالشكر الجزيل للزملاء الباحثين على تعاونهم معنا ونعتذر لهم وللقراء جميعا إن شاب عملنا بعض القصور علما أننا بذلنا جهدنا على أن يخرج هذا السفر بأفضل صورة ممكنة.

ختاما نشكر كل من ساهم في عقد الندوة وشارك فيها باحثا ومشاركا ومنظما ونخص بالشكر والتقدير النشر العــلمي ومطــابع الجامعــة على تعاونهم وحرصهم على إتقان طباعة هذا الكتاب وعلى رأسهم المشرف على النشر العلمي والمطابع أ. د. علي بن محمد الدربي.

والله الموفق؛؛؛

هيئة التحرير

الأربعاء ٢٧ صفر ١٤٢٦هـ

٦ أبريل/ نيسان ٢٠٠٥م

البحـــوث

الأحوال العامة في الجزيرة العربية عند قيام الدولة العباسية

عبدالعزيز بن صالح الهلابي
قسم التاريخ / كلية الآداب
جامعة الملك سعود / الرياض

عرفت الجزيرة العربية الانضواء تحت حكومة مركزية لأول مرة في التاريخ عند ما أقام النبي ﷺ دولته بعد الهجرة في المدينة والتي ظلت عاصمة للدولة الإسلامية حتى مقتل ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان في آخر سنة ٣٦هـ. وفي التقسيم الإداري للدولة الإسلامية في ظل الحكم الأموي لم تعامل الجزيرة العربية بصفتها إقليما واحدا يحكمها وال واحد بإدارة إقليمية مركزية بل تم تقسيمها إداريا وفقا لطبيعتها الجغرافية إلى ولايات بعضها يرتبط مباشرة بالحكومة المركزية بدمشق وهي الحجاز واليمن. أما وسط الجزيرة العربية المتمثل بولاية اليمامة فترتبط إما بوالي الحجاز أو والي البصرة، وأما إقليما البحرين وعمان فكانا تابعين لولاية البصرة.

وبسبب فقر الجزيرة العربية الاقتصادي لم تولها الحكومة الأموية المركزية -باستثناء الحجاز- إلا القليل جدًا من الاهتمام، إضافة إلى تعسف ولاة الأمويين وسوء سيرتهم مع السكان وهذا يفسر حركات التمرد والانفصال التي قامت في وسط وآخر العهد الأموي في كل من اليمامة والبحرين وعمان واليمن ووجدت في إيديولوجية الخوارج تعبيرا عن سخطها من جانب وتطلعاتها من جانب آخر.

وما يهمنا في هذا المقام هو الأوضاع السياسية والإدارية في الجزيرة العربية قبل قيام الدولة العباسية، ويمكن وصف هذه الفترة أنها كانت استمرارا لأوضاعها في العهد الأموي كله. وتقتضي طبيعة الموضوع تقسيمه إلى وحداته الإدارية والجغرافية:

أولاً: الحجاز

نظرا لأهمية الحجاز الخاصة عند خلفاء بني أمية وعند المسلمين عامة لمكانته الدينية، فبعد القضاء على حركة ابن الزبير سنة ٧٣هـ يئس أهل الحجاز من استعادة الدور المفقود وقبلوا الواقع واستكانوا، وأخلدوا إلى الهدوء والدعة، واشغلوا أنفسهم بنشاطات غير سياسية مثل الاشتغال بالتجارة والزراعة أو الانكباب على التحصيل العلمي أو العناية بالشعر والأدب وجوانب من الترفيه خاصة الغناء.

كانت سياسة خلفاء بني أمية في اختيار ولاة الحجاز في الأحوال العادية تخضع لاعتبارات أهمها القرابة والولاء وتأتي الكفاءة ومراعاة المصالح العامة بعد ذلك. وانسجاما مع هذه السياسة فقد ولى الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك (١٠٥- ١٢٥هـ) الحجاز خاله ابراهيم بن هشام المخزومي سنة ١٠٦هـ[١] وبقي واليا حتى عزله سنة ١١٤هـ وولى بدلا منه أحد أقربائه من جهة الأم أيضا هو خالد بن عبدالملك بن الحارث بن أبي العاص المخزومي الملقب بابن مطيرة[٢]، ثم أعقبه سنة ١١٨هـ بخاله الثاني محمد بن هشام المخزمي.[٣]

وبعد وفاة هشام تولى الخلافة ولي عهده و ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥هـ) وعهد بولاية الحجاز إلى خاله يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي.[٤]

وبعد مقتل الخليفة الوليد بن يزيد في جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ استولى على السلطة زعيم الثواراابن عمه يزيد بن الوليد بن عبدالملك وأعلن نفسه خليفة في شهر رجب من نفس السنة وولى على الحجاز عبدالعزيز بن عبدالله ابن عمرو بن عثمان بن عفان ثم عزله وولى عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز بن مروان وقام الأخير بإمرة موسم الحج في هذه السنة.[٥] توفي الخليفة يزيد بن الوليد في شهر ذي الحجة من هذه السنة، وتولى الخلافة الأموية من بعده أخوه إبراهيم لكن لم تستقر له الأمور إذ كثر منازعوه وأهمهم مروان بن محمد ولم يكن لإبراهيم من خيار أمام قوة مروان إلا أن أعلن خلع نفسه ومبايعة مروان في سنة ١٢٧هـ.[٦]

وتصف بعض المصادر[٧] عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز خلال إمرته لموسم حج سنة ١٢٧هـ بـ "عامل مروان على المدينة ومكة والطائف" مما يدل على أن مروان أبقاه على ولايته. واستمر عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز واليا على الحجاز لسنة ١٢٨هـ بدليل إمرته لموسم الحج في هذه السنة.[٨]

وفي موسم حج سنة ١٢٩هـ يبرز ذكر عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك فجأة على أنه والي الحجاز لمروان بن محمد وذلك عند ما حج أبو حمزة الخارجي ومعه جيش في حدود ألف رجل قدم به من اليمن وكادت أن تحصل مواجهة عسكرية بينهما أثناء موسم الحج لولا سعي بعض الوسطاء لتجنيب الحجاج الحرب[٩]، وليس لدينا ما يفيد متى ولاه الخليفة مروان بن محمد على الحجاز.

ويظهر أن الخليفة مروان أبقى عبدالعزيز بن عمر نائبا لعبدالواحد أو قصر سلطة عبدالعزيز على إمرة المدينة فقط ويكون خاضعا لعبدالواحد. بسط أبو حمزة نفوذه على مكة بعد هروب الوالي عبدالواحد بن سليمان عنها، وعندما خرج أبو حمزة منها متوجها نحو المدينة ولى على مكة إبرهة بن الصباح الحميري[١٠] وترك معه فرقة من جيشه لإحكام قبضته عليها.

وبسبب فشل عبدالواحد في مواجهة الخوارج بقيادة أبي حمزة عزله الخليفة مروان بن محمد واختلفت المصادر في توقيت عزله فبعضها يجعله بعد فشله في مواجهة أبي حمزة الخارجي وهربه من مكة مباشرة[١١]، بينما الآخر يجعله

بسبب هزيمة الجيش الذي تم تسييره من أهل المدينة لمحاربة الخوارج في قديد في صفر سنة ١٣٠هـ. [١٢] وتتفق جميع هذه المصادر على أن الخليفة مروان بن محمد أعاد تولية عبدالعزيز بن عمر على كل الحجاز بعد عزل عبدالواحد.

تشير بعض المصادر[١٣] إلى أن أبا جراب محمد بن عبدالله بن محمد بن أبي أمية الأصغر ولي مكة في أيام بني مروان دون تحديد تاريخ ولايته لمكة، ومن المحتمل أنها كانت في فترة الاضطراب السياسي في عهد يزيد بن الواليد وبداية عهد مروان بن محمد في الفترة التي كان فيها عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز واليا على الحجاز كله وأنه عهد إلى أبي جراب بإمرة مكة أو أن أهل مكة ولوه عليهم إبان فترة الاضطراب خاصة أنه وصف بأنه من أفضل رجال قريش بمكة، وقد قتله والي الحجاز للسفاح داود بن علي العباسي مع من قتل من بني أمية بمكة مطلع سنة ١٣٣هـ.

لقد شكل الخوارج بقيادة أبي حمزة تهديدا خطيرا للحكم الأموي في اليمن والحجاز ففشل ولاة الأمويين في التصدي لهم، و لم تجد المقاومة الرسمية والشعبية التي قام بها أهل المدينة شيئا. ويقول أحد رواة أهل المدينة وهو هارون ابن موسى الفروي (ت ٢٥٢هـ) عن أبي حمزة زعيم الخوارج الإباضية، سمعت جدي يقول: "كان قد أحسن السيرة في أهل المدينة حتى استمال الناس حين سمعوا كلامه".[١٤]

من الملاحظات الجديرة بالرصد انضمام أفراد كانوا يدينون بمذهب الخوارج من قريش وأهل المدينة إلى جانب أبي حمزة، ففي معركة قديد كان أبو بكر بن محمد بن عبدالله القرشي ثم أحد بني عدي بن كعب يقود إحدي فرق جيشهم الثلاث.[١٥] وإن كان هذا مستغربا في الحجاز فحدوثه في فترة الاضطراب السياسي ليس كذلك في العراق حيث خضع لسلطتهم عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز بن مروان، وكذلك ولى الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي على الكوفة (سنة ١٢٩هـ) المثنى بن عمران من عائذة قريش من بني مخزوم.[١٦] وانضم إلى أبي حمزة الخارجي في المدينة من أهلها عبدالعزيز القارئ المعروف بيشكست النحوي، وكان يكتم مذهب الخوارج، فلما قتل الخوارج قتل معهم.[١٧] ويمكن فهم العبارة الأخيرة أنه بعد هزيمة الخوارج بوادي القرى وقام أهل المدينة بقتل من بالمدينة منهم فقتلوا معهم عبدالعزيز القاري. وأغفلت المصادر ذكره بصفته من رواد الدراسات النحوية لعله بسبب موقفه السياسي والمذهبي، وأنا أرجح أنه أخذ النحو عن عبدالرحمن بن هرمز المدني (ت ١١٧هـ) الذي وصف بأنه من أول من وضع العربية وكان من أعلم الناس بالنحو وأنساب قريش. [١٨] وقال فيه أحد شعراء المدينة:

لقد كان بشكست عبدالعزيـز ... مـن أهـل القـراءة والمسـجـدِ
فبعـدا لبشكست عبدالعزيـز ... وأما القـرانُ فـلا يبعـدِ[١٩]

بعث أبو حمزة جيشا من المدينة بقيادة بلج بن عقبة الأزدي فسار شمالا حتى عسكر في وادي القرى[٢٠]. وقد تكون مهمة ذلك الجيش الاستطلاع وتقييم الموقف والسيطرة على مناطق خيبر ووادي القرى الغنية بالمحاصيل والثمار الزراعية، على أن إحدى الروايات تذكر أن أبا حمزة خطب أهل المدينة مودعا فقال: "يا أهل المدينة، إنا خارجون إلى

مروان، فإن نظفر نعدل في أحكامكم، ونحملكم على سنة محمد ﷺ، ونقسم فيئكم بينكم، وإن تكن الأخرى فسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون."[٢١]

أصبح لزاما على الخليفة مروان بن محمد التخلي عن السياسة التي درج عليها خلفاء بني أمية عندما تكون الأحوال مستقرة وهي إسناد ولاية الحجاز إلى أقاربهم من جهة الأب أو من جهة الأم، خاصة بعد الفشل الذريع لولاة مروان من الأمويين في مواجهة أبي حمزة وقواته من الخوارج، وأصبح الموقف يستدعي اختيار وال يتميز بالمهارة العسكرية والشجاعة لاستعادة الحجاز واليمن من أبي حمزة والخوارج فاختار قائدا عسكريا من أكفأ قواده هو عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي، من بني سعد بن بكر من هوازن، وسيره على رأس جيش عدده أربعة آلاف انتخبهم مروان من أفضل عسكره وأعطى لكل جندي حوافز تشجيعية، إضافة إلى عطائه المقرر في الديوان، هي مائة دينار وفرس عربية وبغل لثقله. وكانت تعليمات مروان لقائده إن تغلب على أبي حمزة فعليه مواصلة زحفه لليمن حتى يلتقي زعيم الخوارج في اليمن عبدالله بن يحي ويقاتله.[٢٢]

التقى جيش مروان بقيادة عبدالملك بن محمد بن عطية وجيش أبي حمزة بقياد بلج بن عقبة الأزدي بوادي القرى في معركة انتصر فيها القائد الأموي وقتل بلجا وعامة جيشه وأخذ يطارد فلول المنهزمين الذين يقدر عددهم بألف مقاتل، وثار أهل المدينة بمن عندهم من أصحاب أبي حمزة فقتلوا من قدروا عليه منهم كرها لهم وثأرا لقتلاهم بمعركة قديد، وانسحب من نجا من فلول الخوارج إلى مكة.[٢٣] وكانت سيطرة الخوارج على المدينة حوالي أربعة أشهر.[٢٤]

دخل عبدالملك بن محمد بن عطية المدينة وأعاد سلطة الأمويين عليها وأقام بها شهرا وأناب ابن أخيه عليها الوليد بن عروة بن محمد بن عطية عليها ثم زحف بجيشه نحو مكة لمطاردة أبي حمزة وجيشه هناك، ودخل معه في معركة شرسة في الأبطح بمكة استمرت أكثر من نصف يوم قتل فيها أبو حمزة وعدد من قواده ومعظم جيشه.[٢٥] ولم تحدد المصادر تاريخ المعركة التي وقعت بمكة ونقدر أنها كانت في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٠هـ.

رتب عبدالملك بن محمد بن عطية الأوضاع بمكة وأناب عليها رجلا من جيشه من أهل الشام اسمه رومي بن ماعز الكلابي[٢٦]، ثم عزله بعد مدة قصيرة وأناب ابنه محمد بن عبدالملك بن عطية على الحجاز وموسم الحج لسنة ١٣٠هـ.[٢٧] توجه عبدالملك بجيشه إلى اليمن قاصدا زعيم الخوارج الإباضية عبدالله بن يحي الكندي، المتلقب بطالب الحق، إنفاذا لأوامر الخليفة مروان بن محمد.[٢٨]

قتل عبدالملك في اليمن وهو عائد في طريقه إلى مكة ليتولى إمارة موسم حج سنة ١٣٠هـ وأسندت ولاية الحجاز إلى ابن أخيه ونائبه على المدينة الوليد بن عروة بن محمد بن عطية في سنة ١٣١هـ[٢٩]، واختفى اسم ابنه محمد من مسرح الأحداث فإما أنه كلف بمهام عسكرية في اليمن أو أنه فشل في أداء ما أسند إليه من مسؤوليات مما أدى إلى إقصائه.

وخرج الوليد بن عروة إلى اليمن بعد مقتل عمه فولى مروان الحجاز أخاه يوسف بن عروة بن محمد بن عطية وقدم المدينة في شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ وظل واليا عليها حتى دخل الحجاز تحت سلطة العباسيين حيث قتل مروان بن محمد في شهر ذي الحجة من هذه السنة، وأول ولاة العباسيين في الحجاز كان،عم الخليفة السفاح، داود بن علي بن عبدالله بن عباس الذي وصل الحجاز في شهر ذي الحجة وأقام الحج للناس.(٣٠)

أما حدود ولاية الحجاز فتصفها بعض الروايات وصفا غير دقيق إذ جاءت في سياق شكوى إلى الخليفة هشام ابن عبدالملك ضد واليه على الحجاز إبراهيم بن هشام المخزومي "إنك أطعمت إبراهيم بن هشام ما بين منابت الزيتون في الشام إلى منابت القرض في اليمن فلم يغنه كثير ما في يده عن قليل ما بأيدينا".(٣١) وجاءت في رواية أخرى(٣٢): "فإنك وليته ما بين المدينة واليمن...". وتمتد شمالا وشرقا لتشمل قبائل طيء في منطقة الجبلين وقبيلة أسد التي تمتد مواطنها إلى القصيم وذلك بدليل إرسال ولاة الحجاز عمالا لجباية الصدقة من هذه القبائل.(٣٣) وكان عمال والي المدينة يجبون الصدقة من قبيلة كلاب بن عامر(٣٤)، وموطنها يمتد من شرقي المدينة إلى الجنوب الغربي لمنطقة القصيم (ضرية) وتشاركها في سكنى هذه المناطق قبائل أخرى.

أما سلطات الوالي فينص عليها في الغالب بأنها تشمل المدينة ومكة والطائف، وفي حالات قليلة جدا يعين على مكة وال مستقل يرتبط بالخليفة مباشرة ونادرا ما تكون مدة ولايته طويلة.

وتشمل سلطات الوالي تعيين القضاة ويختارونهم من أهل الفضل والمروءة والهيئة والعلم(٣٥)، من ذلك أن إبراهيم ابن هشام المخزومي والي الخليفة هشام بن عبدالملك على الحجاز استقضى محمد بن صفوان الجمحي ثم عزله واستقضى الصلت الكندي.(٣٦) وولى والي الحجاز خالد بن عبدالملك المخزومي على قضاء المدينة محمد بن صفوان بن عبيدالله.(٣٧) وعند ما ولى الخليفة الوليد بن يزيد خاله يوسف بن محمد الثقفي على الحجاز استقضى يوسف على المدينة سعد بن إبراهيم ثم عزله وولى القضاء يحي بن سعيد الأنصاري.(٣٨)

ومما يلاحظ على قضاة مكة والمدينة أنهم كانوا ينتسبون في الغالب إلى قريش مع استثناءات قليلة بتعيين قضاة من الأنصار أو من العرب في المدينة. ومنصب القاضي يلي منصب الوالي من حيث الأهمية، وكثيرا ما ينيب الولاة قضاتهم في إدارة الولاية عند اضطرارهم للسفر. وعند ما يعزل الخليفة الوالي و لم يستقر رأيه على تعيين بديل له يكلف القاضي بعمل الوالي حتى يصدر قرار بتعيين وال جديد، من ذلك أنه عندما عزل الخليفة سليمان بن عبدالملك خالد بن عبدالله القسري عن ولاية مكة عهد بولايتها إلى قاضي مكة داود بن طلحة الحضرمي.(٣٩) وعند ما عزل الخليفة هشام بن عبدالملك واليه على الحجاز خالد بن عبدالملك بن الحارث المخزومي أرسل تكليفا إلى قاضي المدينة أبي بكر ابن حزم الأنصاري للقيام بأمر الولاية واستمر ذلك ستة أيام حتى قدم خاله محمد بن هشام المخزمي من مكة واليا على المدينة.(٤٠)

وكانت هناك تجارب في القضاء جديرة بالتنويه وهي وجود ما يشبه هيئة محلفين، فقد كان بين عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر ورجل من أهل المدينة خصومة ورفع عبدالرحمن شكواه إلى الخليفة هشام بن عبدالملك مدعيا أن والي الحجاز خالد بن عبدالملك بن الحارث مال عليه، فكتب الخليفة هشام إلى الوالي خالد: " أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فاحضر رجالا من أهل الفضل والستر والصدق والعفاف ممن يخيرهم [يجيزهم/ يخبرهم؟] عبدالرحمن ابن القاسم، ثم اجمع بينه وبين خصمه، ثم مرهم أن يجزموا [؟] القضاء على أحدهما ...". (٤١) وهذه التجربة حسب ما تبين لنا كانت حالة معزولة فلم تقر قاعدة ثابتة للتقاضي أو على الأقل لم يتكرر تطبيقها من حين لآخر، ولو حدث ذلك لشاع تطبيقها في النظام القضائي الإسلامي.

كان المركز الرئيس للولاية في العهد الأموي المدينة ويعين الوالي في الغالب نائبا له في مكة وقد يكون التعيين مباشرة من الخليفة. ويولي الوالي عمالا على الطائف والبلدان الأخرى مثل ينبع وخيبر ووادي القرى ومعدن بني سليم (مهد الذهب حاليا) ومع أن معلوماتنا قليلة في هذا الشأن إلا أن هذا أمر تقتضيه الضرورة ونملك أدلة قليلة عليه، منها: أن الحجاج بن يوسف كان من أول ما أسند إليه من الأعمال ولاية تبالة فلما رآها عاد زاهدا في ولايتها فقيل في المثل: أهون من تبالة على الحجاج. (٤٢) ومنها أن راشدا أبا علي مولى بني فقعس (من بني أسد) كان عاملا على الربذة إبان ولاية عمر بن عبدالعزيز على المدينة وقد استغل منصبه فتعدى على أحد الشعراء بالضرب دون وجه حق فاشتكى الأخير إلى الوالي عمر فأقصه منه. (٤٣)

ومنها أن أبا حمزة الخارجي قدم من البصرة قبل أن يقود حركة الخوارج من اليمن إلى مكة والمدينة ومر في طريقه بمعدن بني سليم، وكثير[كبير] بن عبدالله بن زمعة عامل على المعدن فسمع بعض كلامه الذي يحرض فيه على الثورة [الخلاف] ضد السلطة الأموية [مروان بن محمد] فقبض عليه العامل وجلده سبعين سوطا ثم أفرج عنه وتركه يواصل سفره إلى مكة. فلما قدم إلى المدينة بعد انتصاره على أهلها في معركة قديد سنة ١٣٠هـ اختفى عامل المعدن كثير[كبير] خشية من انتقام أبي حمزة. (٤٤) وتشير المصادر إلى تعيين عمال على الطرق المهمة الموصلة بين المدن خاصة الموصلة إلى مكة، فقد كان معبد بن خالد بن ربيعة من قبيلة عدوان يسمى "معبد الطريق" لأن بني مروان ولوه الطريق يمنع الميرة أن تأتي ابن الزبير. (٤٥) والظاهر أن المقصود الطريق بين الطائف ومكة. ولا نعرف أن كانت هذه الوظيفة مؤقتة اقتضتها ظروف حصار ابن الزبير أم أنها كانت دائمة لحفظ الأمن والنظام للمسافرين ولسكان القرى والقبائل المقيمة على جوانب الطريق.

وأشارت بعض المصادر(٤٦) إلى أن أمية بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان كان عامل الخليفة مروان بن محمد على الأعراض والأعشار والصدقات بالمدينة. ولا نظن أنها وظيفة مستحدثة بل كانت قائمة.

وفي مطلع العهد العباسي كانوا ولاة الحجاز يجعلون ما بين مكة والمدينة من البلدان والقرى والأمواه وحدة

إدارية واحدة يولون عليها عاملا. [٤٧] ولا بد أن هذا العامل يولي رجالا آخرين على البلدان التابعة له حسب حجمها وأهميتها. وأغلب الظن أن مثل هذا التنظيم ليس مستحدثا في العهد العباسي بل كان استمرارا لما كان موجودا في العهد الأموي بدليل أن معدن بني سليم على صغرها كان عليها عامل في العهد الأموي. ومن البلدان الواقعة على الطريق قديد التي وقعت فيها معركة الخوارج مع أهل المدينة وكانت في هذا الزمن قرية تسكنها قبيلة خزاعة. [٤٨] أما العلا التي توجه إليها أبو حمزة بعد معركة قديد فلا بد أنها كان بلدة كبيرة ومهمة لأنها بعيدة نسبيا عن المدينة وتقع في منطقة زراعية وعلى طريق تبوك – الشام مما يعني أنها من البلدان التي يولى عليها ولاة وقد عسكر فيها عبدالملك بن عطية السعدي قائد جيش مروان بن محمد لمحاربة أبي حمزة وأصحابه. [٤٩]

أما بالنسبة للقبائل في البادية فأغلب الظن أنه ترك لها إدارة نفسها وفق التقاليد القبلية في اختيار زعامالها وتكون مسؤولة عن تصرفات أفرادها تجاه الآخرين خاصة انضباطهم الأمني وعلاقالها بالقبائل الأخرى ويحتكمون في نزاعالهم وخصوماتهم إلى الولاية وقضالها في المسائل التي لا يحلونها قبليا. أما الولاية فترسل السعاة سنويًا إلى القبائل لجمع الصدقات وقد يقوم مثل هؤلاء السعاة بإرشاد أهل البادية إلى أمور دينهم والفصل في بعض نزاعالهم إذا حكموهم فيها. ولدينا معلومات ليست كثيرة عن السعاة وهي تفيد في معرفة مدى امتداد سلطات الولاية الجغرافية ومعايير اختيار السعاة وتصرفهم بأموال الصدقات.

ومن الملاحظ على ولاة الحجاز في عهد هشام السابق لمدة الاضطراب السياسي (١٠٥– ١٢٥هـ) أنهم يتصفون بسلوك استبدادي مستندين في ذلك إلى علاقة قرابتهم بالخليفة والتي هي السبب في اختيارهم ولاة من حيث الأصل. من ذلك أن الوالي إبراهيم بن هشام المخزومي كان يتعدى على ممتلكات الناس حتى وجهاء قريش فقد شكاه عبدالله بن عروة بن الزبير على هشام قائلا :

"يا أمير المؤمنين، أعدني على خالك إبراهيم بن هشام فإنك وليته ما بين المدينة واليمن فلم يمنعه كثير ما في يده عن قليل ما في أيدينا، فأنشدك الله أن تصل رحما بقطيعة أخرى." [٥٠]

وهناك أمثلة على إساءته لاستخدام السلطة وتحيزه فعند ما أمره الخليفة هشام أن يفرض عطاء للناس في المدينة فتقدم إليه حفيد للصحابي عبدالله بن حجش الأسدي وهو ابن عمة النبي ﷺ وقاد سرية نخلة (رجب سنة ٢هـ) واسشهد في غزوة أحد سنة ٣هـ طالبا تسجيله في ديوان العطاء فلم يستجب له، وفي المقابل تقدم إليه حفيد لأبي تجراة، وأصله من قبيلة كندة حالفوا في الجاهلية عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وذكر للوالي حلفهم لعمه عمارة الذي كان من معارضي الإسلام، فأجابه : لتعلمن أن مودة أبي فائد قد نفعتك اليوم، ففرض له ولأهل بيته. [٥١]

ولما تولى الخلافة الوليد بن يزيد، وكان ناقما على عمه هشام بن عبدالملك لسوء معاملته إياه، فاستغل سوء سيرة إبراهيم وأخيه محمد ابني هشام المخزوميين أثناء ولايتيهما على الحجاز لتصفية حسابه مع أقارب عمه هشام

فكلف واليه على الحجاز وهو خاله يوسف محمد بن يوسف الثفقي أن يقيمهما للناس في المدينة ليقتصوا منهما ما لهم عندهما من حقوق ومظالم، وأمره أن يبعث بهما إلى واليه على العراق يوسف بن عمر الثقفي ليحاسبهما ويأخذ حقوق الناس منهما فعذبهما حتى قتلهما سنة ١٢٥هـ.(٥٢)

ومن استغلال ولاة الحجاز للسلطة الممنوحة لهم تعيين والي هشام على الحجاز خالد بن عبدالملك بن الحارث المخزومي خاله غضي بن عياش بن الزبرقان بن بدر من بني تميم على شرط المدينة.(٥٣)

ثانياً: اليمن

كانت اليمن في العهدين النبوي والراشدي تقسم إلى ثلاث وحدات إدارية كل وحدة تسمى مخلافا هي صنعاء ومخاليفها والجند ومخاليفها وحضرموت ومخاليفها ويعين على كل منها وال واحد يكون اتصاله بالسلطة المركزية مباشرة. وفي آخر العهد الراشدي في فترة الاضطراب السياسي عين الخليفة الراشد علي بن أبي طالب على اليمن جميعها واليا واحدا، وسار الأمويون طيلة فترة عهدهم على إسناد اليمن كلها إلى وال واحد.

وبما أن البحث غير معني بالحقبة المبكرة من العهد الأموي فنذكر ولاتها منذ تمكن عبدالملك ابن مروان من القضاء على حركة ابن الزبير في الحجاز (سنة ٧٣هـ) على يد قائده الحجاج بن يوسف الثقفي فولاه على الحجاز وولى أخاه محمد بن يوسف على اليمن، وقد استمر الثقفيون من هذه الأسرة ولاة على اليمن. وليس من باب الاستطراد الإشارة إلى أن والي علي بن أبي طالب ابن عمه عبيدالله بن العباس عند ما فر من اليمن تجنبا لمقابلة الجيش الذي أرسله معاوية أناب على اليمن عمرو بن أراكة الثقفي، كما أن معاوية بن أبي سفيان ولى على اليمن بعد أن استتبت أوضاع الخلافة له فيها عثمان بن عثمان أو ابن عفان الثقفي.(٥٤)

استمرت أسرة محمد بن يوسف الثقفي ولاة على اليمن حتى قبيل سقوط الحكم الأموي مع تقطعات قليلة، فمحمد بن يوسف استمرت ولايته حتى وفاته سنة ٩١هـ(٥٥)، وولى الخليفة الوليد بن عبدالملك على اليمن بعده، بتوصية من الحجاج، قريبه أيوب بن يحي الثقفي.(٥٦) ولما تولى الخلافة الأموية سليمان بن عبدالملك سنة ٩٦هـ بعد موت الوليد وفي إطار سياسته في عزل ولاة والده وولاة أخيه الوليد عزل أيوب بن يحي عن اليمن وولى عليها عروة ابن محمد السعدي. ولا نعرف شيئا ذا بال عن ماضي عروة هذا وهل كان يتولى مسؤولية في اليمن إما واليا على مدينة أو مخلاف أو قيادة كتيبة مرابطة إبان ولاية محمد بن يوسف أو أيوب بن يحي سيما أنه ينتمي لقبيلة سعد بن بكر والتي موطنها قريب من الطائف ولحسن سيرته في عمله ولخبرته ومعرفته باليمن اختاره الخليفة سليمان واليا على اليمن كلها أم أنه كان مقيما بدمشق أو الحجاز. ويمكن أن يفهم من قوله في خطبته عند بداية ولايته: "يا أهل اليمن، هذه راحلتي فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق"(٥٧)، أنه كان حديث القدوم إلى اليمن إلا إذا كان الخليفة استدعاه للعاصمة قبل توليته لمقابلته والتأكد من صلاحيته للمنصب. ولدينا نص آخر هو: "ولي عروة اليمن عشرين سنة

وخرج حين خرج ومعه سيف ومصحف.[٥٨] والمؤكد أنه تولى على اليمن في وقت ما في سنة ٩٦هـ وعزل في وقت ما سنة ١٠٣هـ، ولا يمكن أن تكون ولايته عشرين سنة إلا إذا كان تولى قبل سنة ٩٦هـ ولاية ناحية في اليمن لمدة تصل إلى ثلاث عشرة سنة وبذلك يكون مجموع خدمته في اليمن عشرين سنة. ووصف بأنه من صالح العمال، وكان يحاسب عماله حسابا دقيقا ويأخذ الحق منهم.[٥٩] وعهد إليه الخليفة عمر بن عبدالعزيز بتنفيذ سياسته الإصلاحية وفي إحدى المرات تبرم عمر من عدم حسمه في تطبيق الإصلاحات فكتب إليه: "إني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم، فتكتب إلى تراجعني ولا تعرف مسافة ما بيني وبينك، ولا تعرف أخذات الموت، حتى لو كتبت إليك أن ترد على رجل مظلمة شاة لكتبت إلي: أردها عفراء أم سوداء، فاردد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني. والسلام."[٦٠]

وكان أحد مبعوثيه إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز من قبيلة ناصرة واسمه إبراهيم بن يزيد النصري.[٦١] ويقود ذلك إلى الاستنتاج أن ولاة اليمن من أهل الطائف كانوا يستعينون بقبائل الطائف والقبائل المجاورة لها ثقيف وبني سعد وناصرة وربما بني عدوان وثمالة وغيرها.

وطبيعي أن تكون سياسة الولاة الثقفيين الذين تولوا اليمن بسبب الحجاج من مدرسته في الحكم فهو أستاذهم وقدوتهم وبفضله علا شأنهم فساروا على نهجه. من ذلك الظلم في جباية الصدقات وفرض ضرائب غير شرعية، فعبدالله بن طاوس الذي يقيم معه أبيه في الجند يقول: "كان على أبي ضريبة يؤديها على أرضه كل عام أخرجت شيئا أو لم تخرج فكلم الوالي أو كلم له يلقيها عنه، فقال: نعم، ويضعها على غيره، فأبى أبي فكان يؤديها." [٦٢] ولما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة (٩٩-١٠١هـ) وقام بإصلاحاته ورفع المظالم عن الناس رفع إليه واليه على اليمن عروة بن محمد السعدي تقريرا عن الممارسات غير الشرعية السائدة في اليمن، فكان جوابه عليه: "أما بعد فقد جاءني كتابك تذكر أن من كان من قبلك من العمال قد وضعوا على أهل اليمن صدقاتهم وظائف، إن افتقروا لم ينقصوا، وإن استغنوا زيد عليهم، وتؤامرني في ذلك، ولعمري إن هذا لهو الجور حق الجور، فإذا جاءك كتابي هذا فخذهم بما ترى عليهم من الحق..."[٦٣]، وورد جواب عمر إما بصيغة أخرى أو هو جواب آخر وبنفس المضمون تقريبا: "أما بعد، فإنك كتبت إلي تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة في أعناقهم كالجزية يؤدونها إن أخصبوا أو أجدبوا، أو حيوا أو ماتوا ..." [٦٤] وأمره عمر بإلغا تلك الضريبة والإكتفاء بالعشر ضريبة الأراضي الشرعية، وقال: "لأن يأتيني من اليمن حفنة كتم أحب إلي من أن تقر هذه الوظيفة." [٦٥]

على أن هذه السياسية الإصلاحية سرعان ما تم الانقلاب عليها من قبل الخليفة التالي يزيد بن عبدالملك (١٠١-١٠٥هـ) فكتب إلى نفس الوالي عروة بن محمد السعدي: "إن ابن عبدالعزيز كان مغرورا منك ومن أشباهك، فأعد على أهل اليمن الضريبة التي كان عمر أسقطها ولو صاروا حرضا"[٦٦]، أي حتى لو اشرفوا على الهلاك.

ويبدو أن الوالي على اليمن عروة بن محمد السعدي لم ينسجم مع سياسات الخليفة يزيد فعزله سنة ١٠٣هـ واستبدله برجل من أهل الشام هو مسعود بن عوف [أو غوث] الكلبي.(٦٧) ولا تذكر المصادر شيئا عن سيرة مسعود في ولايته وإن كان المتوقع أنها تنسجم مع سياسة الخليفة يزيد بن عبدالملك الذي أخذ في إلغاء الإصلاحات التي قام بها عمر بن عبدالعزيز. استمر مسعود واليا على اليمن حتى مطلع خلافة هشام بن عبدالملك وفي أول سنة ١٠٦هـ ثار الإباضية بقيادة عباد الرعيني المعافري ومعه ثلاثمائة رجل وفشل مسعود في القضاء عليهم(٦٨)، ولعل هذا أحد الأسباب التي جعلت الخليفة هشاما يعزله عن اليمن. وولى هشام سنة ١٠٧هـ على جميع مخاليف اليمن يوسف بن عمر الثقفي. وقد ورد اسم يوسف ضمن أسرة آل أبي عقيل الثقفيين (أسرة الحجاج) الذين عهد الخليفة سليمان بن عبدالملك، عند اعتلائه سدة الخلافة سنة ٩٦هـ، إلى واليه على العراق يزيد بن المهلب بتعذيبهم في العراق.(٦٩) على أن المصادر لم تذكر له أي دور تحت إمرة الحجاج. وبتولية يوسف عاد الثقفيون إلى حكم اليمن بعد انقطاع دام عشر سنوات. وكان من أول مهامه القضاء على تمرد الإباضية بقيادة عباد الرعيني المعافري ونجح في ذلك.(٧٠) وتذكر بعض المصادر(٧١) حركة تمرد أخرى للإباضية كان يقودها زحاف بن عباد الحميري الإباضي. وهنا نحن أمام احتمالين أولهما: إما أن تكون هذه الحركة نفس الحركة الأولى مع تحريف باسم قائدها، وثانيهما: أن يكون زحاف ابنا لعباد قائد الحركة السابقة (مع اختلاف النسبة: الرعيني المعافري/ الحميري) وقام بحركة جديدة وقد عهد يوسف بقيادة الجيش لقتال المتمردين إلى أبي العاج السلمي ونجح في القضاء عليها. واستمر يوسف في منصبه حتى نقله الخليفة هشام واليا على العراق سنة ١٢٠هـ خلفا للوالي خالد بن عبدالله القسري.(٧٢)

ولا نعرف عن سياسة يوسف في اليمن شيئا بسبب تجاهل المؤرخين لما كان يحدث باليمن، لكنه لما أصبح واليا على العراق انكشفت سياسته على حقيقتها لأن الرواة دونوا سيرته وهي سيرة غير مشرفة تتصف بالجبروت والعسف والظلم ولهذا السبب اختاره على ما يبدو هشام كأنه أراد أن يولي على العراق حجاجا جديدا. فكان كل من هشام ومن بعده الوليد بن يزيد يحيلون إليه من يريدون أن يترلوا به أقسى أنواع العذاب أو التصفية الجسدية تحت التعذيب من خصومهم أو من يحل عليه غضبهم من رجال دولتهم كالوالي الشهير خالد بن عبدالله القسري.

ويبدو أن والي اليمن كان لديه حامية من جنود الشام كما كان الحال مع ولاة بني أمية في العراق بدليل الإشارة إلى أسماء مثل الكلبي والسلمي، ومن المحتمل أنهم كانوا يستعينون برجال من أهل الطائف من ثقيف وغيرها لتوليتهم الولايات والوظائف الأخرى مثل الإمارة على البلدان والسعاية على الصدقات إضافة إلى حراسة الوالي وحفظ الأمن بصفة عامة. ولا بد أنهم كذلك وظفوا من كانوا يثقون بولائهم من أهل اليمن.(٧٣)

وعندما نقل يوسف إلى العراق عين ابنه الصلت بن يوسف مكانه واليا على اليمن واستمر في ولايته خمس سنوات حتى وفاة الخليفة هشام سنة ١٢٥هـ.(٧٤) ولا نعرف عن سياسة الصلت في حكمه لليمن شيئا إلا أن المتوقع أن تكون نفس سياسة والده إن لم تكن أسوأ لحداثة سنه وقلة تجربته.

ولما تولى الخلافة الوليد بن يزيد (١٢٥هـ) عين خاله مروان بن محمد بن يوسف الثقفي واليا على اليمن.[٧٥]، على أن ولايته لم تطل بسبب قتل الوليد بن يزيد (سنة ١٢٦هـ) .

ثم حصل انقطاع آخر يسير في ولاية الثقفيين لليمن، ففي إطار نهج الخليفة الجديد يزيد بن الوليد في تصفية رجال ابن عمه المقتول ولى على اليمن الضحاك بن زمل السكسكي[٧٦]، وهو من يمانية الشام الذين ساندوا الخليفة يزيد في الثورة على ابن عمه واعتمد عليهم في حكمه.[٧٧]

وبعد موت يزيد واضطراب أحوال الخلافة الأموية في الشام انتهز زعيم الإباضية في اليمن عبدالله بن يحي الكندي الفرصة وأعلن الثورة في حضرموت ثم تقدم نحو صنعاء وألحق الهزيمة بالوالي الضحاك بن زمل.[٧٨]

لم يكن أمام الخليفة الجديد مروان بن محمد من خيار بعد تدهور نفوذ الأمويين في اليمن سوى أن يعيد تعيين أحد الثقفيين على اليمن لخبرتهم بها وبقبائلها فعين القاسم بن عمر الثقفي ومعه ابن أخيه والوالي السابق الصلت بن يوسف بن عمر وغيره من أفراد الأسرة، وبقي الضحاك بن زمل السكسكي نائبا له، لكن نفوذ الإباضية بقيادة عبدالله ابن يحي الكندي أخذ يزداد قوة وانتشارا فسيطر على دار الإمارة بحضرموت وأسر عاملها إبراهيم بن جبلة الكندي ثم أطلقه فأتى صنعاء. كثر جمع عبدالله وتسمى بطالب الحق، ثم كتب إلى من بصنعاء من الإباضية إني قادم عليكم واستخلف على حضرموت عبدالله بن معبد(سعيد؟) الحضرمي وزحف نحو صنعاء في ألفين من رجاله وذلك في سنة ١٢٩هـ. قاد الوالي القاسم بن يوسف جيشا وصف بأن عدده كبير وعدته ظاهرة وسلاحه شاك ومع ذلك وقابل الإباضية بقرية لحج وكانت النتيجة لصالح الإباضية، وتقدموا نحو صنعاء فوجه القاسم جيشا قوامه ثلاثة آلاف رجل من أهل الشام واليمن وأسند قيادته إلى يزيد بن الفيض الثقفي فكانت بينهم مناوشة ثم تحاجزوا، ثم دخل معهم الصلت بن يوسف في معركة قتل فيها، ثم قاتلهم بعده يزيد بن الفيض ثم انهزم هو وجيشه، فلحق بالقاسم وأخبره بالهزيمة وبمقتل الصلت بن يوسف. وبنتيجة هذه المعركة أسدل الستار على الثقفيين ولاة اليمن قبل أن يسدل الستار على الحكم الأموي بالمشرق بقليل.

أما الإباضية فقد أصبحت السلطة لهم واتخذوا من صنعاء مقرا لهم ولكنهم كانوا في تلك المرحلة الزمنية أصحاب رسالة أكثر منهم طلاب حكم وهذه الرسالة تقتضي القضاء على الاستبداد والظلم الذي يمثله حكم بني أموية من وجهة نظرهم ونشر العدل والعمل الصالح في بلدان المسلمين وتجسيدا لهذه الرسالة أرسل طالب الحق عبدالله ابن يحي الكندي أبا حمزة المختار بن عوف السلمي (نسبة إلى سليمة من الأزد) إلى مكة في موسم الحج سنة ١٣٠هـ ومعه بلج بن عقبة الأزدي وابرهة بن الصباح الحميري في جيش يصل تعداد الألف رجل وأمر المختار أن يقيم بعد موسم الحج في مكة ويرسل جيشا مع بلج إلى الشام.[٧٩]

بعد فشل الولاة الثقفيين في اليمن والولاة الأمويين في الحجاز في مواجهة الخوارج الإباضية وسيطرة الأخيرين

على اليمن والحجاز اختار الخليفة مروان بن محمد قائدا على قدر عال جدا من الكفاية والأهم من هذا أنه ذو علاقة وثيقة باليمن هو عبدالملك محمد بن عطية السعدي فهو أخو عروة بن محمد بن عطية السعدي والذي امتدت ولايته عليها بين سنتي ٩٦- ١٠٣هـ، والذي ربما لم تشهد اليمن واليا في العهد الأموي مثل عدله وصلاحه. ولا نستبعد أن عبدالملك بن محمد كان في اليمن مع أخيه عروة، وهو أمر طبيعي فالولاة يستعينون بأقاربهم وربما عهد إليه بمسؤوليات فيها كأن يكون عاملا على أحد المخاليف أو المدن، وأراد مروان من تعيينه إضافة إلى كفاءته العسكرية ومعرفته باليمن وقبائلها استمالة بعض أهل اليمن لمحبتهم لبيت السعدي.

المهم أنه بعد نجاح عبدالملك بإلحاق الهزائم المتوالية في الإباضية بالحجاز وطردهم منها كلية تابع مطاردتهم في اليمن. استولى على صنعاء وولى عليها قريبه عبدالرحمن بن يزيد بن عطية السعدي وفرق عماله على المخاليف وفرغ نفسه لمحاربة الثوار من الإباضية وألحق بهم الهزائم بالجَند وفي عدن، وتوجه إلى معقلهم الرئيسي في حضرموت. وتذكر بعض المصادر[٨٠] أنه ألحق بهم في حضرموت هزائم متوالية،إلا أن توصله معهم في النهاية إلى تسوية من بنودها: أن يعيد إليهم ما غنمه منهم في الحرب، وأن يستعمل على حضرموت رجلا منهم يختارونه من بينهم، وكتبوا بذلك كتابا بينهم، تجعل الباحث يشكك في أن انتصاراته كانت فعلا حاسمة. وقد بررت المصادر[٨١] توصله إلى التسوية مع الإباضية في حضرموت بأن الخليفة مروان كتب إليه في شهر شوال سنة ١٣١هـ يأمره أن يستخلف رجلا على اليمن ويحضر الموسم فيقيم الحج للناس، وهو أمر مستغرب من خليفة حاسم حازم كيس لقائد في وسط معارك قتالية يحقق انتصارات متوالية -حسب زعم المصادر- وتنفيذ الأمر من قبل القائد أكثر استغرابا. مع أنها تذكر أن عبدالملك كتب إلى ابن أخيه والي المدينة الوليد بن عروة بن محمد: أن يوافي مكة من المدينة فإن أبطأ قدومه يقيم أمر الموسم ويصلي بالناس ...[٨٢] فلماذا إذن يهدر انتصاراته ويتنازل لخصومه؟

وأناب عبدُالملك عبدَالرحمن بن يزيد بن عطية السعدي على اليمن وأقدم على عمل طائش إذ خرج قاصدا مكة ومعه عدد صغير جدا من الرجال قيل إنه ١٢ وقيل إنه ٤٠ مع أنه يدرك أن لأهل اليمن ترات كثيرة في رقبته من جراء حروبه معهم وقتله لكثير من رجالهم في هذه الحروب سواء كانوا يعتنقون مذهب الإباضية أو مجرد ثائرين على السلطة كعادة قبائل اليمن في تلك الأزمنة، فأصبح صيدا سهلا في أيديهم فلما صار بأرض مراد اتبعه قوم من قبيلتي همدان ومراد ممن لهم ثارات في رقبته فقبضوا عليه وقتلوه وبعثوا برأسه إلى حضرموت.[٨٣]

أرسل نائبه على اليمن عبدالرحمن بن يزيد بن عطية جيشا بقيادة شعيب البارقي للانتقام من القبائل التي قتلته فارتكب أعمالا -إذا هي صحيحة- في منتهى الوحشية فقتل الرجال والصبيان وبقر بطون النساء وأخذ الأموال وأخرب القرى.[٨٤]

وبعث الخليفة مروان بن محمد الوليد بن عروة بن محمد،ابن والي اليمن السابق (٩٦- ١٠٣هـ)، واليا على

اليمن وارتكب أعمالا لا تقل فضاعة عن أعمال البارقي السابقة إن لم تكن هي نفس الأعمال نسبت لكل منهما. وقام بمحاربة زعماء الإباضية في حضرموت وقتلهم، وبقي واليا على اليمن حتى قضى العباسيون على الخلافة الأموية.[٨٥]

وهنا لا بد من التوقف عند ظاهرة امتداد حركة الخوارج إلى اليمن في مطلع القرن الثاني الهجري مع أن الحركة في نشأتها بعد قبول التحكيم لحسم النزاع بين علي وأهل العراق ومعاوية أهل الشام في معركة صفين سنة ٣٧هـ لم يكن من بين أعضائها أحد من أهل اليمن بل أن القبائل اليمانية وقبائل غرب الجزيرة العربية لم تجتذبهم أفكارها وشعاراتها وإنما اجتذبت أفرادها بشكل رئيس من قبيلة تميم وقبيلة ربيعة خاصة حديثي العهد منهم بحياة الاستقرار والتحضر ولذا كانوا يوصفون من قبل خصومهم بأنهم "أعراب بكر وتميم". أما أهل اليمن في العراق فكانوا عماد شيعة علي بن أبي طالب أو ضمن التيار العام غير المنتمي لأي من هاتين الحركتين. وكانت اليمن إبان النزاع بين علي ومعاوية تميل إلى التعاطف مع علي وقضيته.

إذا ما أسباب تحول المزاج الشعبي لأهل اليمن؟ لا نملك تفسيرا لهذا التحول سوى أن سياسة الأمويين تجاه اليمن كانت تقوم بشكل رئيس على تحصيل أكبر قدر من الضرائب وتركوا حكمها لولاة اتصفوا بالقسوة والجور في حكمهم لليمن. من هنا تكونت أرضية خصبة لامتداد الفكر الخارجي الذي يقوم على أن بني أمية جائرون ويجب مقاومتهم بالسلاح فكان هذا الفكر يلبي معاناة أهل اليمن إضافة إلى أن "أمير المؤمنين" في الفكر الخارجي يمكن اختياره ممن تتوفر فيه الشروط لشغل هذا المنصب بصرف النظر عن نسبه. والملاحظ أن معقل هذه الحركة في اليمن كان في حضرموت وينتمي إليها معظم أتباعها، أما باقي القبائل والمناطق فهي كعادتها متذبذبة الولاء، فلعل بعض من انتموا إلى هذه الحركة لم يكن فهمهم لمبادئها عميقا أو جديا بل كانوا يوظفونها لمصلحتهم عندما يحتاجونها أو كانوا يخضعون لها اضطرارا عندما تمثل قوة تقتضي المصلحة مسايرتها. على أية حال إنها ظاهرة جديرة بدراسة معمقة أكثر من إبداء ملاحظات عابرة.

ثالثًا: اليمامة وبلاد الجبلين:

لم يكن وسط الجزيرة وحدة إدارية واحدة وإن كانت ولاية اليمامة تشكل أكبر أجزائه ويولى عليها الولاة وكانت تتبع والي المدينة في الحقبة السفيانية من العهد الأموي (٤٠ – ٦٤هـ) ثم انتقلت إلى التبعية لوالي العراق في الحقبة المروانية في وقت ما بعد سنة ٧٥هـ.

وقاعدة اليمامة "حجر" وهي سرة اليمامة ومنزل السلطان والجماعة.[٨٦] على أن امتداد سلطات والي اليمامة جغرافيا ليس واضحا وقد حاول بعض الباحثين المحدثين تحديدها إداريا وجغرافيا.[٨٧] وهناك الكثير من المناطق المهمشة في وسط الجزيرة وشمالها مما لا تعين المصادر في تحديد تبعيتها الإدارية ولا كيف كانت تدار، وهل للدولة وجود فعلي

فيها أم لا، مثل وجود عمال وقضاة ومؤسسات إدارة أم أنها تركت تسير وفق نظامها القبلي السابق من حيث الزعامة وحل الخصومات، وإن عجزوا عن حل خصوماتهم رفعوا ظلاماتهم إما لوالي اليمامة أو لوالي المدينة وقضاتها. كل ما هناك هو بعض الإشارات اليسيرة إلى السعاية على الصدقات، وإن كانت الصدقة تشكل الركن الخامس من أركان الإسلام إلا أنها في ذات الوقت يفترض أنها تمثل التبعية الإدارية فكل ولاية تجبي الصدقة من المناطق التابعة لها، ومع ذلك فأقوى الظن أن الصدقات تتم جبايتها على أساس القبيلة لا على أساس المكان، فبعض القبائل تكون تابعة لوالي المدينة وأخرى لوالي اليمامة وقد تكون متداخلة في السكنى، وكثيرا ما يشار إلى بعض الأماكن أنه يسكنها أخلاط من الناس. يقول صاحب كتاب "بلاد العرب": "... أن جميع قيس [عيلان بن مضر بن نزار] جبايتها إلى اليمامة، ما خلا بني كلاب، فإن جبايتهم إلى المدبنة. فأما عقيل والعجلان وقشير ونمير ونهم وباهلة وكل قيس فإلى اليمامة. وأما جميع بني سعد وضبة والرباب والحزن،حزن بني يربوع، وغير بني يربوع فإن جبايتهم إلى ليمامة".[٨٨] والأصفهاني من رجال القرن الثالث الهجري ووفاته في مطلع القرن الرابع،[٨٩] ولا نعرف على وجه التحديد إن كان يتحدث عن عصره أو العصور التي سبقته لكنه في كل الأحوال لا نتوقع حدوث تغييرات جذرية فيما يتعلق بجباية الصدقات ما بين القرن الأول والثالث وربما حدثت بعض التعديلات. وقد اقتصرنا في الاقتباس السابق عن الأصفهاني على ما نطمئن إلى أنه ينطبق زمنا حتى نهاية العهد الأموي وتركنا تحديداته الواسعة التي ذكر أن جابي اليمامة يجبي بجوف المربد وبرمال اليمن قريبا من صنعاء والبحرين وجبلي طيئ فهو إما أن يكون أخطأ أو أنه ينطبق قوله على فترة زمنية غير الفترة التي ندرسها لأنه شمل بتحديده الجزيرة العربية باستثناء الحجاز والشمال الغربي للجزيرة العربية، وهذا التحديد ينطبق تقريبا على امتداد نفوذ نجدة بن عامر الحنفي الذي اتخذ من حجر اليمامة قاعدة له. ونملك من الأدلة القوية ما يؤيد استبعادنا لتحديداته الواسعة، منها ما ذكر الأصفهاني نفسه[٩٠]: "والقصيم ... فيه مياه كثيرة وقرى ... وأهل القصيم يسكنون في خيام الخوص، وهي منازل بني عبس وغيرهم، وفيه نخل كثيرة. وهو من عمل المدينة ... وبالقصيم ماء لبني أسد..". ومنها ما ذكره غيره فالحكم بن المطلب المخزومي عهد إليه والي المدينة في وقت ما بين سنتي ١٠٧-١٢٠هـ بسعاية المدينة والحجاز وبعض نجد وكانت بلدة فيد بالجبلين من المراكز التي يترل فيها لأداء مهماته.[٩١]

ورمز السلطة الآخر هو "العريف"[٩٢]، فالولاة يعينون عرفاء على القبائل ومهمتهم تتداخل مع مهمة السعاة بشكل رئيس، ولعل الفرق بينهما أن العريف يكون مستقرا في مكان عرافته وله أعوان مكلفون رسميا بتنفيذ تعليماته وأوامره، وسلطاته واسعة نسبيا، بينما فِرق السعاة تزور المناطق موسميا في وقت محدد من السنة، فبالنسبة للبادية يكون في الغالب في نهاية فصل الربيع وقت نتاج المواشي، وفي جباية المحاصيل والثمار من المزارع والبساتين في المدن والقرى يكون قبل حصاد المحاصيل وجني الثمار. وقد اتصف العرفاء عامة بالعسف والظلم والتعدي على أموال الرعية باسم السلطة سواء كان ذلك باسم جباية الصدقة أو باتخاذ أدنى ذريعة للعقاب عن طريق مصادرة الممتلكات سواء بعض المواشي أو كلها.[٩٣]

لقد كان وسط الجزيرة مثل اليمن مهملا من قبل الحكومة المركزية في دمشق سيما أنها أضعف اقتصاديا من اليمن وليس فيها ما يجذب اهتمام الخلفاء، ومن هنا جاء تسلط الولاة وظلمهم للرعية. وإذا أخذ في الاعتبار طبيعة السكان وعدم قبولهم بالضيم وحساسيتهم من التسلط مما أدى إلى نفورهم من حكم الأمويين المركزي وتطلعهم إلى التخلص منه كل ذلك قاد إلى أن أصبح وسط الجزيرة وشرقها بيئة حاضنة لحركات الخوارج بما تقوم عليه من عدم اعتراف بحكومة الأمويين وعدها غير شرعية والثورة عليها واجبة. وقد أحسن الجاسر[٩٤] في تحليله لسرعة انقياد أهل اليمامة للانضواء تحت لواء الزعيم الخارجي نجدة بن عامر الحنفي، الذي امتدت حركته بين سنتي ٦٣هـ/ ٦٨٢م-٧٢هـ/٦٩١م)، فيقول: "... أحس سكان هذه البلاد من آثار انصراف هذه الدولة عنهم ... ما دفعهم إلى التطلع إلى حالة أحسن مما هم عليها، وهذا حملهم على سرعة الانقياد بسهولة ويسر لهذا الحاكم الجديد، الذي قد يكون له من معرفته بأحوالهم، وإدراكه جوانب مما يتذمرون منه، مما كان خير عون له في استجابتهم وانضوائهم تحت حكمه، قبل أن تثبت دعائم هذا الحكم، أو تتضح معالمه، بل لا يزال أشبه بـ (مشيخة قبلية) من (المشيخات) التي طالما خضع لها أولئك القوم لنفوذها منذ أقدم عصورهم، ولا يزالون يخضعون، إذ لم يتمتعوا بحكم خير منه يتلاءم مع ظروف حياتهم التي لم تتغير بعد عما كانت عليه مما ألفوه واعتادوه في تلك العصور على تعاقبها.

وكان استيلاء نجدة على تلك البلاد سهلا ولكن الأمر انفرط من يده بسرعة مذهلة حين تفرق عنه أصحابه."

ومما يلاحظ على سكان وسط الجزيرة حاضرة وبادية أنهم ينتمون بصفة رئيسة إلى قبائل، ففي وسط اليمامة خاصة قبيلة بني حنيفة وقيس بن ثعلبة وسدوس بن شيبان ويشكر وهي إجمالا قبائل مستقرة في قرى على امتداد الوادي وتشتغل بالزراعة بشكل رئيس، وقبائل عامر بن صعصعة وهؤلاء يسكنون جنوبي اليمامة وغربيها، ولوفرة المياه في الجنوب فكان بعض هذه القبائل يشتغل بالزراعة، أما التي تسكن في الغرب فحياتهم تقوم على الرعي بشكل رئيس. أما بطون قبيلة بني تميم فيسكنون شرقي اليمامة ويتصلون بتميم في البحرين وشمالي اليمامة ويمتدون شمالا غربيا في شرق القصيم وشمالا شرقيا حتى كاظمة (الكويت). وتسكن قبيلة طي في الجبلين وتمتد بعض بطونها شمالا فيما وراء النفود وتجاور قبيلة كلب وتجاورها قبيلة أسد من الغرب والجنوب الغربي كما تتجاور في بعض الأماكن وخاصة من ناحية الشرق والجنوب الشرقي مع بطون مع بعض قبائل غطفان مثل فزار ة وعبس.

وولاة اليمامة في العهد المرواني هم:

١ - يزيد بن هبيرة المحاربي[٩٥]، وهو أحد قواد عبدالملك بن مروان أرسله مع سفيان بن الأبرد الكلبي وحبيب بن عبدالرحمن الحكمي في جيش قوامه ستة آلاف جندي إلى العراق بناء على طلب الحجاج لمحاربة الخوارج، فشارك في محاربتهم.[٩٦] ولاه عبدالملك بن مروان اليمامة، وكان ممدحا من قبل الشعراء فقال فيه جرير:

وأرى الإمام إذا تبيّن ناكثـــا   أو ناكثون رماهـــمُ بيزيـــد[٩٧]

مما يمكن الاستنتاج منه أن يزيد تولى محاربة بعض الأفراد أو القبائل المتمردة على السلطة سواء كانوا يدينون بمذهب الخوارج أو لم يكونوا. وقوم إبراهيم هذا بنوجسر حلفاء لبني عامر بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.(٩٨)

٢ - إبراهيم بن عربي الليثي الكناني ولاه عبدالملك اليمامة وكان مرتبطا بالخليفة مباشرة بدليل أن الحجاج كتب إلى عبدالملك: "إن قطريا [بن الفجاءة الخارجي] قد شغل من قبلي من المقاتلة فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب إلى إبراهيم بن عربي في أمر هذا الخارجي." فكتب إلى إبراهيم وهو باليمامة: "أن ســر إلى البحرين، فإن ظفرت بالمحاربي فلا تقتله وأحسن إليه، واحفظ له بلاءه عند أمير المؤمنين مروان، فإنه لجأ إليه يوم الجمل، ثم تحول إلى بني هميم." فخرج إبراهيم إلى البحرين في ألفين فهزم الخوارج وتفرقوا، ورجع إبراهيم إلى اليمامة.(٩٩)

ونملك نصا يتضمن أن والي اليمامة إبراهيم بن عربي يرتبط بعامل الخليفة عبدالملك على بادية قيس، فالشاعر والخطيب التميمي البعيث واسمه خداش بن بسر بن أبي خالد كان الوالي إبراهيم بن عربي أضرّ به في إبل له، فخرج إلى عبدالملك وتظلم لديه مما صنع به ابن عربي، فكتب عبدالملك إلى حصين بن خليد العبسي، وكان على بادية قيس، يأمره أن يأخذ إبراهيم بإنصافه ففعل.(١٠٠)

والمرجح أنه في وقت لاحق تم ربط والي اليمامة بالحجاج والي العراق بدليل أن الشاعرة ليلى الأخيلية ذهبت إلى الحجاج في العراق تشكو قائلة : "أضر بنا العريف في الصدقة، وقد خربت بلادنا، وانكسرت قلوبنا، فأخذ خيار المال. قال: ... اكتبوا إلى صاحب اليمامة بعزل العريف الذي شكته."(١٠١)

وظل إبراهيم بن عربي على ولاية اليمامة طيلة عهد عبدالملك وابنه الوليد من بعده(١٠٢)، ثم عزله سليمان بن عبدالملك عندما تولى الخلافة سنة ٩٦هـ في إطار سياسته في عزل ولاة والده وأخيه الوليد. ويذكر خليفة ابن خياط(١٠٣) أن يزيد بن عبدالملك عندما تولى الخلافة أعاد ابن عربي مرة ثانية واليا على اليمامة. وهو أمر فيه نظر.

٣ - نوح بن هبيرة. ذكر خليفة بن خياط(١٠٤) أن سليمان بن عبدالملك ولى على اليمامة سفيان بن عمرو العقيلي ثم نوح بن هبيرة. لكن البلاذري(١٠٥) ينص أن عمر بن هبيرة الفزاري والي العراق ليزيد بن عبدالملك (١٠١-١٠٥هـ) هو الذي ولى على اليمامة سفيان بن عمرو العقيلي، وأن سفيان وأهل اليمامة ألحقوا هزيمة بمسعود ابن أبي زينب الخارجي الذي قدم من البحرين إلى اليمامة. وتابع ابن الأثير(١٠٦) البلاذري في روايته كلها ويضع قدوم مسعود بن أبي زينب إلى اليمامة وهزيمته في أحداث سنة ١٠٥هـ. وما يقوي رواية البلاذري أن عمر ابن هبيرة الفزاري تربطه بعض الوشائج مع العقيلي إذ كان عمر مقدما في جيش لغزو الروم يقوده عمرو بن معاوية العقيلي والد سفيان.(١٠٧) وابن خياط نفسه(١٠٨) يذكر في أحداث سنة ١٠٥هـ: "وفي ولاية ابن هبيرة خرج مسعود ابن أبي زينب فغلب على البحرين واليمامة فقتله سفيان بن عمرو العقيلي."

أما نوح بن هبيرة فيبدو لأول وهلة أنه أخ ليزيد بن هبيرة المحاربي والي اليمامة الذي تم ذكره آنفا لكني أظن أنه

ابنه، لأن يزيد يكنى أبا داود فيقول الشاعر عبدالله بن الحجاج الثعلبي:

رأيـــتُ أبا داود في محـــدثاتهـــا زعيما على قيسٍ لقد أبرح الدهرُ [١٠٩]

ولا يستبعد أنه سمى أبناءه بأسماء الأنبياء ومنهم نوح هذا.

٤ - زرارة بن عبدالرحمن، ذكر خليفة بن خياط[١١٠] أنه وال لعمر بن عبدالعزيز. و لم أجد معلومات عن زرارة هذا في المصادر التي تيسر لي الإطلاع عليها. والمرجح أن المقصود زرارة بن مصعب بن عبدالرحمن بن عوف، والكتب التي ترجمت لزرارة بن مصعب بوصفه من رجال الحديث.[١١١] ووالده مصعب بن عبدالرحمن تولى الشرطة في المدينة والقضاء في العهد السفياني ومشهود له في الكفاءة في عمله، ثم انضم إلى ابن الزبير في حركته في مكة وكان من أكفأ أنصاره وأبرزهم في ميدان القتال وقتل معه.[١١٢]

٥ - ونقل الجاسر[١١٣] عن أبي زرعة: أن عمرو بن عبدالله الأنصاري كان عامل عمر بن عبدالعزيز على اليمامة، على أن ابن حجر [١١٤] قال في ترجمته لعمرو بن عبدالله بن أبي طلحة الأنصاري: "استعمل عمر بن عبدالعزيز عمرو بن عبدالله بن أبي طلحة ... وكان عاملا على عمان."

(البلاذري: أنساب ٣٥١/٨ وأما الغمر بن يزيد فهو صاحب سيح الغمر باليمامة، وولي اليمامة، وكانت له ضياع بالسواد فقبضها بنو هاشم)

٦ - سفيان بن عمرو العقيلي. أشرنا آنفا أن عمر بن هبيرة الفزاري والي العراق ليزيد بن عبدالملك ولى سفيان بن عمرو العقيلي على اليمامة.

٧ - المهاجر بن عبد الله الكلابي ولاها إياه هشام بن عبدالملك.[١١٥] وقياسا على التولية السابقة فلا يستبعد أن يكون والي العراق لهشام خالد بن عبدالله القسري هو الذي ولى المهاجر على اليمامة، على أن الذي يجب الإشارة إليه أن قبيلة بني كلاب بن عامر بن صعصعة لها حضور قوي في الشام خاصة في الجزيرة.

٨ - قام علي بن المهاجر الكلابي بشؤون ولاية اليمامة بعد وفاة أبيه فأقره والي العراق يوسف بن عمر الثقفي واليا عليها.[١١٦] وظل واليا عليها حتى قتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـــ، وبعد مقتل الوليد ثارأهل اليمامة على الوالي علي بن المهاجر وأخرجوه منها، و لم يستعد الأمويون السلطة على اليمامة إلا بعد أن ولى آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري العراق سنة ١٢٨هــ[١١٧] وأسند هذا الوالي ولاية اليمامة إلى ابنه المثنى ويبدو أنه لم يجد مقاومة تذكر في استعادة السلطة للأمويين[ابن ألثير ٣٠١/٥ فوردها وهم سلم، فلم يكن حرب]، وظل المثنى واليا على اليمامة، واستقرت الأحوال بها. [١١٨]

ويلاحظ أن أطول ولاة اليمامة حكما إبراهيم بن عربي الذي حكم اليمامة في عهدي عبدالملك وابنه الوليد.

وقد ألف الجاسر كتابا بعنوان: "إبراهيم بن عربي –موطد الحكم الأموي في نجد" خصص معظم أبحاث الكتاب لدراسة أوضاع اليمامة إبان ولايته وطبيعة حكمه. وخلص الجاسر [١١٩] إلى أن إبراهيم بن عربي "سار في تصريف أمور البلاد، وحكمها بالأساليب التي كان يحكم بها الحجاج ولايته الواسعة، والتي يقطنها أقوام مختلفون في كل أمورهم عن سكان الجزيرة العربية من العرب، وعما ألفوه من حياة تحرر وانطلاق ... ومن سمات ذلك الحكم أنه كان يأخذ البريء بجريرة غيره..."

ويليه المهاجر بن عبدالله الكلابي وابنه علي اللذين حكما اليمامة في عهدي هشام والوليد بن يزيد (١٠٥-١٢٦هـ). ويلاحظ كذلك أن معظم الولاة كانوا من قبائل قيس عيلان والتي ذكرنا أن بطونا منها تسكن في جنوبي وغربي اليمامة وهم (يزيد بن هبيرة –محارب بن خصفة، نوح بن يزيد بن هبيرة، سفيان بن عمرو العقيلي – عقيل، المهاجر بن عبدالله الكلابي- كلاب بن عامر بن صعصعة، علي بن المهاجر الكلابي، المثنى بن يزيد بن عمر الفزاري- فزارة) وأن بطون قبيلة ربيعة وهم حنيفة وسدوس وقيس بن ثعلبة وغيرهم الذين يسكنون في وسط اليمامة في مجتمع حضري مستقر وحجر قاعدة اليمامة لهم وكذلك الخضرمة البلدة الزراعية المهمة والواقعة على الطريق التجاري وغيرهما من البلدات تم استبعادهم كلية من السلطة وليس هناك ما يشير إلى الاستعانة بهم حتى بالوظائف الثانوية. كما تم استبعاد بطون قبيلة تميم كذلك، التي تأتي بالمقام الثاني بعد حنيفة وبطون ربيعة في سكناها لليمامة، وإن كانت حياة بطون هذه القبيلة أكثرهم بادية.

ولعل تفسير هذه السياسة أن هاتين القبيلتين هما الأقوى في وسط الجزيرة العربية خاصة حنيفة، وهما اللتان تمدان فرق الخوارج بالقادة والأتباع.

أما سياسات الولاة والعمال بصفة عامة فكانت تقوم على الاستبداد والعسف والتعصب لقبيلة على أخرى خاصة التعصب للقبائل القيسية على بني حنيفة. وقد أخفقت المدونات التاريخية في رصد شيء من الممارسات الظالمة لممثلي الدولة سواء كانوا ولاة أو عرفاء أو سعاة إلا أنه لحسن الحظ أن بعض الشعراء أصبحوا ضمير المظلومين ومشاعرهم فرصدوا جانبا من مظالمهم وأناتهم في قصائد صادقة مؤثرة أوصلوها إلى الخلفاء فاستجابوا لقليل من شكاواهم وذهب أكثرها أدراج الرياح. من ذلك الشاعر الراعي النميري (ت ٩٦هـ) الذي وفد على الخليفة عبدالملك بن مروان شاكيا ظلم العمال والسعاة وألقى أمامه قصيدة تستلين قلب الحجر لو كان للحجر قلب، منها:

أوليَّ أمـــر الله إن عشيرتـــي ... أمسَى سَوامُهمُ عزيـــنَ فُلُـــولا

قطعوا اليمامةَ يُطرَدُونَ كأنهـــمْ ... قـــومٌ أصابـــوا ظالمين قَتيـــلا

يَحدونَ حُدباً مائـــلاً أشرافُهـــا ... في كل منزلة يَدَعْـــنَ رَعِيـــلا

شَهْرَيْ ربيعٍ ما تذوقُ لبونُهـــمْ ... إلا حُموضا وَخْمَـــة وذويـــلا

حتى إذا جُمعتْ تُخيّرَ طِرقُهـا وثَنَى الرعاءُ شَكيرَها المَنْخُـولا
وأتَوْا نساءهم بنِيـبٍ لم يـدَعْ سوءُ المحابسِ تحتَهـنّ فَصيـلا
أوليّ أمـر الله إنـا معشـرٌ حُنفاءَ نَسجُدُ بكـرة وأصيـلا
عـربٌ نَـرَى لله في أموالنـا حقَ الزكـاةِ مُنَـزلاً تنزيـلا
قومٌ على الإسلام لَمّا يَمنعـوا ماعونَهم ويُضيعـوا التهليـلا
فادفـعْ مظالمَ عَيّلـتْ أبناءنـا عنا وأنقِـذْ شِلْوَنـا المأكـولا[١٢٠]

...

وأعاد الشاعر الراعي الكرة مرة أخرى، وكرر الشكوى في عام آخر، ووصف ما يعانيه قومه من الجور والظلم ما إن يرفع عنهم أهلكهم، ومن قوله في ذلك:

أزرَى بأموالنـا قـومٌ أمرتَهـمْ بالعدل فينا فما أبقَوْا وما قَصَدُوا
نُعْطِي الزكاةَ فما يَرْضَى خطيبُهُمُ حتى تُضاعفْ أضعافـا لها عَـددُ

...

أما بلاد الشاعر وقومه بني نمير فهي الشُريف[١٢١] وتقع غرب حجر (الرياض) حاليا بحوالي ٣٣٠ كيلا، ومن بلدان الشريف العامرة في هذا العهد: الدوادمي والشعراء وما حولهما من الهجر والقرى.[١٢٢]

ولا يقتصر ظلم الولاة على قبيلة دون أخرى فقبيلة باهلة تضج بالشكوى مثل قبيلة نمير فشاعرها عمرو بن أحمر الباهلي يجأر بالشكوى من شدة ما يلاقيه قومه من عمال الزكاة لا باصطفاء خيار أموالهم فحسب بل بجلدهم بالسياط الأصبحية ليرغموهم على الخضوع والخنوع ليأخذوا نجائب إبلهم فيقول مخاطبا يحي بن أبي الحكم بن العاص والي المدينة لعبدالملك بن مروان سنة ٧٥هـ:

يا يحيَ يا ابنَ إمـامِ النـاسِ أهلَكَنـا ضربُ الجلودِ وعُشْرُ المـال والخسـرُ

...

إني أعـوذ بمـا عـاذ النبيُ بـه وبالخليفـةِ أنْ لا تقبـل العـذُرُ
من مترفيكمْ وأصحابٍ لنـا معهـمْ لا يعـدلـون ولا نأبَى فننتصـرُ

...

هل في الثماني مِنَ التسعـين مظلمـةٌ وربـهـا لكتاب اللـه مستطـرُ

يكسونهم أصبحيات محدرجة إنّ الشيوخَ إذا ما أُوجِعُوا ضَجِرُوا
حتى يَطِيبوا لهم نفسا علانيةً عن القِلاصِ التي من دونها مَكَرُوا
لسنا بأجساد عادٍ في طبائعنا لا نألَمُ الشر حتى يألَمَ الحَجَرُ
ولا نصارَى علينا جزيةٌ نُسُكٌ ولا يهود طغاما دينُهم هَدَرُ
إنْ نحنُ إلا أناسٌ أهلُ سائمةٍ ما إنْ لنا دونَها حرثٌ ولا غُرَرُ
ملّوا البلادُ وملّتهمْ وأحرقهمْ ظلمُ السعاةِ وباد الماءُ والشجرُ
إنْ لا تداركهُمْ تصبحْ منازلُهمْ قفرا تَبيضُ على أرجائها الحُمُرُ
أدركْ نساءً وشيباً لاقرارَ لهم إنْ لم يكنْ لك فيما قد لَقُوا غِيَرُ
إنّ العيابَ التي يُخْفُونَ مشرجةً فيها البيانُ ويُلْوَى دونَك الخبَرُ
فابعثْ إليهم فحاسبْهُمْ مُحاسبةً لا تخفَ عينٌ على عينٍ ولا أَثَرُ (١٢٣)

.....

وتسكن هذه القبيلة فيما يسمى قديما "عِرض باهلة" وما يسمى حديثا "عِرض شمام أو عِرض القويعية". وكانت تتجاور في السكنى مع قبيلة نمير. أما مدينة القويعية الحالية فتقع غرب مدينة الرياض وتبعد عنها حوالي ١٧٥ كيلا.(١٢٤)

ولعل قول الشاعر عمرو بن أحمر الباهلي السابق: "ملوا البلاد وملتهم وأحرقهم ظلم السعاة" هو الذي دفع بادية بني مجاشع التميمية لترك بلادها والهجرة إلى الشام بحثا عن حياة أفضل وأكثر عدلا في موطنها الجديد، ويتذكرهم الشاعر الفرزدق فيقول:

ألا ليتَ شعري ما أرادتْ مجاشعٌ إلى الشام أم ماذا أراد أميرُها

وقال أيضا في الحنين إليهم:

إن أبكِ قومي يا نوارُ فإنّني أرى مسجدَيْهم بعدهم كالبلاقعِ (١٢٥)

وكان الذين يمارسون السلطة والظلم عمال وافدون من خارج اليمامة ويستعينون بأعوان محليين وهو ما عناه الشاعر عمرو بن أحمربقوله السابق: "من مترفيكم وأصحاب لنا معهم". وكان ولاة اليمامة مثل ولاة العراق واليمن يسعينون بالمحافظة على الأمن والنظام وتثبيت سلطة الأمويين بكتيبة أو كتائب من الشام فهذا الإمام عبدالرحمن

الأوزاعي الشامي (ت ١٥٧هـ) خدم في شبابه عسكريا في اليمامة حيث يذكر "أن مكتبه باليمامة" أي في ديوان الجند[١٢٦]، وأخذ الحديث عن بعض محدثيها[١٢٧]، وقد ذكر بعض ما شاهده من مساوىء ولاتها فقال: "كنت باليمامة وعليها رجل وال يمتحن الناس من أصحاب رسول الله ﷺ: إنه منافق وما هو بمؤمن، ويأخذ عليهم بالطلاق والعتاق أن يسمى المسيء منافقا وما يسميه مؤمنا فأطاعوه على ذلك وجعلوه له ..."[١٢٨]

وعندما خشي والي اليمامة المهاجر بن عبدالله الكلابي أن يتعرض الشاعر جرير لأذى جسدي من خصومه بني ربيعة وضع عليه حراسة خاصة مكونة من خمسين رجلا من جند الشام وأمرهم أن يلزموا باب دار جرير وأن يكونوا معه في ركوبه.[١٢٩] ويذكر أنه كان مع والي اليمامة علي بن المهاجر الكلابي ستمائة جندي من أهل الشام.[١٣٠]

وعندما تدهورت أوضاع الخلافة بعد مقتل الخليفة الوليد بن يزيد (١٢٦هـ)، ثم قتل بعده والي العراق يوسف بن عمر الثقفي الذي ولى عليا على اليمامة رأى زعماء بني حنيفة أن الوالي فقد شرعيته لعدم وجود سلطة يمثلها، فعرض زعيمهم المهير بن سلمي الحنفي على الوالي ثلاث خيارات وقال له: إن الوليد قتل، وإن لك عليّ حقا، وكان أبوك لي مكرما، وقد قتل صاحبك، فاختر خصلة من ثلاث: إن شئت أن تقيم فينا وتكون كأحدنا فافعل، وإن شئت أن تتحول عنا إلى دار [بني] عمك فتنزلها أنت ومن معك إلى أن يرد أمر الخليفة المولّى، فتعمل بما يأمر به فافعل، وإن شئت فخذ من المال المجتمع والحق بدار قومك. لكن علي بن المهاجر رفض جميع هذا الخيارات ورد على زعيم بني حنيفة بصفاقة قائلا: أنت تعزلني يا ابن اللخناء! تفاقم الوضع فالتف أهل اليمامة حول المهير وتعبأ أعوان الوالي وهم ٦٠٠ جندي من أهل الشام ومثلهم من بني عامر قوم الوالي وأتباعه. وفي محاولة أخيرة لحل الإشكال سلميا عرض المهير على جيش الوالي وأتباعه الخيارات التي سبق أن عرضها على الوالي لكنهم رفضوها إتباعا له، ونشبت الحرب بينهم بالقاع في سوق حجر وأسفرت عن هزيمة ساحقة للوالي وأتباعه وتمكن من النجاة بنفسه والهرب إلى المدينة. واستطاع أحد زعماء اليمامة وهو عبدالله بن النعمان القيسي أحد بني قيس بن ثعلبة في نفر من قومه من السيطرة على بيت مال اليمامة وحملوه معهم.[١٣١]

أقام المهير حكومة محلية مستقلة فرض فيها سلطة بني حنيفة على اليمامة للمرة الثانية بعد حكومة نجدة بن عامر الحنفي، واستعمل على شرطه عبدالحكم بن حكام العبيدي، ويظهر أنه جعل عبدالله بن النعمان القيسي نائبا له. إن ملامح هذه الحكومة وإن لم تكن واضحة تماما تدل على أنها كانت إئتلافية و لم تكن على أساس أسري بدليل أن المهير من قبيلة بني حنيفة ونائبه عبدالله بن النعمان من قبيلة قيس بن ثعلبة، وكلا القبيلتين من ربيعة، أما صاحب الشرطة عبدالحكم فلم يتضح لنا لأي بطون ربيعة كان ينتسب. لم يلبث المهير أن مات فاستخلف عبدالله بن النعمان على حكم اليمامة وارد عبدالله أن يبسط سلطته على قبائل كعب بن عامر بن صعصعة في جنوبي اليمامة فاستعمل على الفلج (الأفلاج) المندلث (المندلف) بن إدريس الحنفي وهي بلاد قبيلة بني جعدة بن كعب وأمره أن يأخذ

صدقات بني كعب (عقيل وقشير وجعدة والحريش) جميعا، لكن قبائل بني كعب بن عامر لم تكن مستعدة للقبول بحكم بني حنيفة فجمعت جموعها وحاربت المندلث وقتل هو وأكثر أصحابه.(١٣٢) أعد حاكم اليمامة عبدالله بن النعمان جيشا من حنيفة وغيرها من سكان وسط اليمامة قوامه ألف مقاتل وسار بهم نحو الفلج لإخضاع أهلها والثأر للوالي المعين المندلث بن إدريس ودخل معهم في معركة بالفلج (الأفلاج) وألحق بهم الهزيمة.(١٣٣)

استمرت الجولات بينهم في حرب عبثية أرهقتهم جميعا حتى ولى الخليفة مروان بن محمد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري على العراق وعين الأخير ابنه المثنى واليا على اليمامة فوردها وقد أخلدوا جميعا إلى السلم، على أن الوالي القيسي الجديد يزيد بن عمر تعصب ضد بني حنيفة، فقد تشاهد بنوعامر ضد بني حنيفة فانحاز إليهم وضرب عدة من بني حنيفة. أما قاضيه طلحة بن إياس العدوي فكان أعقل منه وأكثر عدلا فكان الوالي يحيل إليه الشكاوى من العامريين ضد بني حنيفة فلم يقبل شهادة عامري فهدأت البلاد وسكنت (١٣٤)، ومع هذا السكون سكن الحكم الأموي سكونا أبديا. أما والي اليمامة المثنى بن يزيد فقاوم مثل والده في العراق الحكم الجديد فوجه إليه عبيدالله بن عبدالله بن المدان الحارثي والي المدينة من قبل أبي العباس إبراهيم بن حسان السلمي الذي يدعى أبا حماد الأبرص، وهو باليمامة سنة ١٣٣هـ فقتله وقتل أصحابه. (١٣٥)

أما **بلاد الجبلين** (منطقة حائل) فكانت تتبع إداريا لوالي المدينة، ويظهر أن هذه التبعية لا تتجاوز كثيرا دفع الصدقات أما باقي شؤونها فقد تركت تديرها بنفسها، وظل النظام القبلي هو السائد. وإن سلمت بلاد الجبلين من الولاة الجائرين فإنها لم تسلم من السعاة الذين يأخذون منهم الصدقات ويضعونها في غير مواضعها التي شرعها الله. ومن كان هذا فعله لا يتوقع منه إنصافا للناس في توفير كرائم أموالهم إن أمن العقوبة. ومثلما أن خلفاء بني أمية كانوا يختارون ولاة الحجاز في معظم الأحوال على أساس القرابة فمن الطبيعي إذا أن يختارهؤلاء الولاة السعاة على الصدقات على أساس القرابة والمحاباة لا على أساس الكفاءة والتقوى. فالخليفة هشام بن عبدالملك ولى خاله إبراهيم ابن هشام بن إسماعيل المخزومي على الحجاز(١٣٦)، ووالي الحجاز إبراهيم بن هشام ولى قريبه الحكم بن المطلب المخزومي على صدقات قبيلة طيء وكان يتخذ من بلدة فيد مقرا له، وعندما مر به بفيد أحد وجوه قريش من أهل المدينة، وعلم الحكم أن هذا الرجل في طريقه إلى العراق ليستعين بوالي العراق خالد بن عبدالله القسري لقضاء بعض ديونه فما كان منه إلا أن ذهب إليه واستضافه وأكرمه، ثم قال: ها هنا مال من مال الصدقات وأنت غارم، فأنت أحق به، فأعطاه ذلك المال وهو ثلاثة آلاف دينار (٣٠٠٠×١٢= ٣٦٠٠٠ درهم)، وإنما كان دينه قريبا من ثلاثة آلاف دينار ... وهذه خمسمائة دينار أخرى ...(١٣٧)

وكانوا يتصرفون بأموال الصدقات كأنهم كسبوه بعرق جبينهم، ولن نتوسع في ذكر الأمثلة حتى لا نستطرد كثيرا فالحكم بن المطلب نفسه لم يرفع شيئا من أموال الصدقات للوالي في إحدى السنوات فقال له الوالي: أين الإبل والغنم؟ قال بتعالٍ: أكلنا لحومها بالخبز، وأطعمناها. قال: فأين الدنانير والدراهم ؟ فقال: اعتقدنا بها الصنائع في رقاب

الرجال، وقضينا الحقوق. فحبسه..."(١٣٨)

ومما يلاحظ على مقدار تحصيل الصدقة النقدية التي جمعها الحكم بن المطلب أنه إذا كان مال الغارمين ٣٠٠٠ دينار، وهو الثمن، فيكون مقدار جميع ما تم تحصيله من النقد ٣٠٠٠×٨= ٢٤٠٠٠ دينار (= ٢٤٠٠٠×١٢= ٢٨٨٠٠٠ درهم). وهذا كان في وقت ما بين سنتي ١٠٦-١١٣هـ، وأن رياح بن عثمان بن حيان المري والي المدينة لأبي جعفر المنصور كلف أبا بكر بن عبدالله بن محمد بن أبي سبرة بجمع صدقات أسد وطيء في سنة ١٤٤هـ فأحضر أبو بكر إلى المدينة ٢٤٠٠٠ دينار.(١٣٩) والفاصل الزمني بين ما جمعه الحكم من أموال الصدقة وبين ما جمعه أبو بكر في حدود ٣٠ سنة، فهل كان تساوي الرقم المحصل مجرد صدفة أم أنه جرى تثبيت مقدار الصدقة سواء أخصبوا أم أجدبوا، وهي سياسة جرى عليها والي اليمن محمد بن يوسف الثقفي فكان يثبت الحد الأدنى في كل الأحوال ويرفعه في أحوال الخصب. على أية حال يفترض أن الرقم ٢٤٠٠٠ دينار يشكل ٢,٥٪ من إجمالي ثروة المنطقة، ومن ثم فيكون الإجمالي =٩٦٠٠٠٠ دينار ×١٢ درهم= ١١٥٢٠٠٠٠درهم.

و لم تشر المصادر إلى الصدقات من الإبل والغنم وهل أنه تم بيعها ووضعت أثمانها من ضمن هذا المبلغ، أم تم بيع الغنم وحدها لصعوبة نقلها، هذا ما لا نستطيع الحسم فيه بالقول في الوقت الراهن.

ومن صور الممارسات الظالمة في الصدقات ما وقع لقبيلة كلب التي تسكن شمال منطقة الجبلين ويساكنها بعض بطون طيء وبطون فزارة وتسكن في الشمال الشرقي لجزيرة العرب (عرعر وسكاكا ودومة الجندل وما حواليها)، فعندما مدح الشاعر رماح بن ميادة الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالملك (سنة ١٢٥هـ) فأمر له بمائة ناقة من صدقات كلب، فأرادوا أن يعطوها إياها من رذال المال أو يبتاعوا له من غير إبلهم فعاد إلى الوليد شاكيا:

أَلَمْ يَبلغْكَ أنّ رعــاةَ كلــبٍ	أرادوا في عطيتــك ارتــدادا
وقالــوا: أنهــا صهــبٌ وزرقٌ	وقد أعطيتَهــا صُفــرا جِعــادا

قال: انطلق فخذه صفرا جعادا.(١٤٠)

والقاعدة الشرعية تقضي أن تصرف الصدقة على مستحقيها في المنطقة التي تجبى منها، فإن فاض منها فائض أرسل إلى بيت المركزي أو حولها ولي الأمر لمستحقيها في منطقة أو مناطق أخرى، وأن تؤخذ من أواسط الأموال لا من كرائمها، لكن سعاة الصدقات لم يعملوا بشيء من هذا مما أدى إلى سخط الناس وتطلعهم إلى التغيير. ومن هذا التطلع إلى التغيير أن قبيلة طيء مثل قبيلة بني حنيفة عند ما قتل الخليفة الوليد بن يزيد ووقعت الفتنة منعوا أداء الصدقة لولاة الحجاز و لم يؤدها من قبيلة طيء إلا بنو جرم وبنو نبهان أو أكثرهم، وكان أحد الطائيين قتل رجلا من بني بدر ابن فزارة فطلبت قبيلة فزارة القَوَد من القاتل فرفض زعيم بني معن الطائيين مَعْدان بن عبيد أن يقيدهم من القاتل ولكن يدفع لهم الدية فنشب النزاع بين القبيلتين. تقدم شيوخ قبيلة بني فزارة بالشكوى إلى أمية بن عبدالله بن عمرو

ابن عثمان بن عفان وكان عامل الأعشار والصدقات بالمدينة، وإليه صدقات الجبلين، ولاه إياها والي الحجاز عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك ، فكتب أمية إلى الخليفة مروان بن محمد يخبره بمنع طيء الصدقة، وبمنعهم من دفع قاتل الرجل الفزاري إلى موالي القتيل، وأنهم على خلاف ومعصية. فكتب مروان إلى الزعيم الطائي معدان بن عبيد: "أن مَكِنِ البدريين [= بني بدر بن فزارة] من صاحبهم، وأدوا الصدقة إلى أمية وسعاته، وإلا وجهت إليك من حملك إليّ ' فإن امتنعت عليه أتاني برأسك، ثم والله لأبيلنَ الخيل في عرصاتكم.

وصل الرسول الذي يحمل الرسالة ولما قرأها معدان قال له: أديتَ إليّ فأدّ عني. قل لابن زربى: أنت تبيل الخيل في عرصاتنا وبينا وبينك رمل عالج، وخلف ظهري الجبلين، وحولي عديد طيء، اجهد جهدك، واحشد حشدك، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت. وكتب إليه:

ألا مَــنْ مبلــغٍ مــروانَ عـــني	على مـــا كـــان من بُعْـــدِ المزارِ
ألمْ ترَ للخلافةِ كيــف ضاعــتْ	لأنْ صــارتْ لأبنـــاءِ الســـــراري

فأدى رسوله الرسالة، فكتب الخليفة مروان بن محمد إلى عبدالواحد بن سليمان عامله على المدينة وإلى أمية بن عبدالله عامله على الأعراض والأعشار والصدقات بها، وعلى صدقات طيء بالجبلين: أن يسيرا بأهل المدينة وأهل البوادي من قيس وغيرها إلى معدان بن عبيد حتى يأخذا صدقات قومه، ويدفعا إلى البدريين قاتل صاحبهم، ويوطئا الخيل بلاده حتى يحملاه إليه أو يقاتل فيقتل في المعركة.

فسارا ونزلا بالناس فيدا، وبعث أمية إلى معدان بن عبيد بن عدي يطالبه بأداء الصدقة، ويعد هذا بمثابة إنذار نهائي قبل إنشاب القتال. فكان جوابه إليه وإلى عبدالواحد: إني غير دافع إليكما شيئا مما تطلبان، فأما الصدقة فإني أحبسها حتى يستقيم أمر الناس، وأما وضع يدي في أيديكما فذلك ما لا يكون أو أؤسر أو أقتل.

فشلت كل الحلول السلمية واستعد الطرفان للقتال، أما جيش الأمويين فمكون من جند أهل المدينة، وألف جندي من أهل الشام أرسلهم مروان مددا لهم، وقبيلة فزراة ومن ناصرها من قبائل قيس الأخرى، وأما معدان فمعه ستة آلاف مقاتل من قومه بني معن الطائيين، وانسحب يحي بن الكروس بن زيد المعقلي الطائي بستة آلاف أخرى من بني جديلة وغيرهم من طيء لأنه كره القتال. وأخذ الصراع وجها قبليا قيس ضد طيء:

دَعَــوْا بتزارٍ فاعْـــتَزَيْنا بِطَــيِّءٍ	هنالك زَلَـــتْ في نـــزارٍ نِعَالُهـــــا

نشبت الحرب فدارت الدائرة على جيش الأمويين وحلفائهم من فزارة والقيسيين ووقع قائد الجيش أمية بن عبدالله في الأسر لكن معدان خلى سبيله. وكانت القبائل تسمي هذا الحرب "يوم المُنتهَب" على غرار الحروب القبلية قبل الإسلام (أيام العرب).

تفاقم الوضع في كل مكان من أنحاء الدولة الأموية خاصة في العراق بسبب تزايد حروب الخوارج وبدأت

طلائع جيش العباسيين تظهرفي العراق فقال الخليفة مروان بن محمد: ما شغلنا بأعراب طيء ؟ ووَجَه كل القوات المتوفرة لديه نحو العراق. أما طيء فلم تدفع الصدقة حتى استخلف أبو العباس.[١٤١]

رابعًا: البحرين

يشكل هذا الإقليم مع عمان شرقي جزيرة العرب، وتمتد حدوده من الدهناء غربا حتى جزائر البحرين (أوال قديما/ مملكة البحرين في الوقت الحاضر) شرقا، ومن عمان جنوبا إلى مشارف البصرة شمالا.[١٤٢]

ويتميز إقليم البحرين بتنوع سكاني، فسكانه من القبائل الرئيسية عبدالقيس وهذه القبيلة تشتغل بالزراعة بشكل رئيس وبالرعي والنشاط البحري والتجاري بدرجة ثانية، وبطون من قبيلة بكر بن وائل وبعض بطون قبيلة ربيعة، وهذه في المجمل قبائل أعرابية تشتغل بالرعي وتتحد مع قبيلة عبدالقيس في الانتماء إلى قبيلة ربيعة. وبطون من قبيلة تميم وهم في المجمل أيضا قبائل أعرابية وإن كان لبعضهم قرى، وساهم رجال منهم في حكم وإدارة البحرين مثل المنذر بن ساوى من بني دارم حيث كان واليا للفرس على هجر عند ظهور الإسلام.[١٤٣] وهناك وجود لقبيلة الأزد وهم امتداد لقبيلة الأزد التي تشكل أكبر القبائل في عمان. أما فروع القبائل الأخرى فهي من الصغر بحيث لا تشكل أهمية كبيرة في الميزان السكاني. وبسبب وجود موانئ تجارية مهمة ولمجاورتها لبلاد فارس وخضوعها لحكمها في فترات زمنية ولغناها الاقتصادي النسبي فقد كانت تلك عوامل جذب لوجود عدد كبير من الأقليات معظمها تعود في أصولها إلى بلاد فارس وإلى الهند كما كان هناك وجود لبعض اليهود.

أما موقفها من الإسلام فكان متفاوتا عبدالقيس قبلته، وبكر بن وائل قبلته مكرهة، وتميم موقفها غير واضح، لعل مواقفها من خلافة أبي بكر تسلط بعض الضوء على طبيعة اعتناقها للإسلام، فعبدالقيس ثبتت على إسلامها، وبكر بن وائل ارتدوا عن الإسلام وحاربوا المسلمين . أما تميم فلم ترتد لكنها لم تكن متحمسة في أول الدعوة ولعل ذلك يدخل فيه حسابات وتوازنات قبلية أكثر من موضوع الإيمان.

شاركت قبائل البحرين في الفتوحات الإسلامية واستقرت في البصرة وهي الامتداد الطبيعي للبحرين. وكان نصيبها من الدولة الأموية، مثلها مثل اليمن ومعظم أنحاء الجزيرة، الإهمال، ومن ثم فلا عجب أن أصبحت منطقة حاضنة لحركات الخوارج، وشكل أهلها من عبدالقيس وبكر بن وائل في العراق معظم أفراد هذه الحركات. ولأنها لم تكن منطقة فعاليات حكومية فقد أهملها المؤرخون مثلما أهملتها الدولة، ولا يلتفتون إليها إلا عندما يرسل والي البصرة أو والي العراق جيشا لمطارد الثائرين في البحرين من الخوارج.

إن مما يستدعي التأمل انخراط وتزعم أعداد كبيرة من عبدالقيس في حركات الخوارج، وكذلك التعاطف الذي أبداه السكان مع هذه الحركات خاصة إذا أخذ في الاعتبار انقياد عبدالقيس للإسلام وثباتهم على إسلامهم وكونهم مجتمعا حضريا زراعيا، وهم في هذا يتشابهون مع حاضرة بني حنيفة في قراها الزراعية في اليمامة. ليس هناك من

تفسير لهذا في الذهن سوى إهمال الدولة لهذه المناطق وتهميش أهلها تهميشا كليا يضاف إلى ذلك ظلم الولاة والسعاة في أخذ الصدقات وفرض الغرامات.

تتبع البحرين إداريا والي البصرة، وهناك بعض الإشارات لتبعيتها لليمامة في بعض الأحيان منها ما قال خليفة بن خياط (١٤٤) في ذكره لولاة يزيد بن عبدالملك "البحران واليمامة: رد عليها إبراهيم بن عربي." وفي شرح النقائض(١٤٥): أن المهاجر بن عبدالله الكلابي كان يتولى اليمامة والبحرين لهشام. وارتباط البحرين باليمامة أو اليمامة بالبحرين أمر غير عملي لسعتهما وتباعدهما عن بعض وصعوبة إدارتهما خصوصا أن كليهما يتبعان لوالي البصرة وقد تتبع اليمامة والي العراق. فإن تبعت البحرين اليمامة إداريا فلعل ذلك كان لفترة قصيرة ولظروف مؤقتة.

أما ولاة البحرين بعد القضاء على حركة ابن الزبير فيظهر أن ممثلي نجدة بن عامر الحنفي من الخوارج كانوا يسيطرون عليها وليس فيها ولاة للأمويين ثم انشق أبو فديك عبدالله بن ثور أحد بني قيس بن ثعلبة بن عكابة عن نجدة فبعث والي الخليفة عبدالملك على البصرة خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد جيشا بقيادة أخيه أمية بن عبدالله لقتال أبي فديك سنة ٧٣هـ فألحق به أبو فديك هزيمة ونجا أمية بنفسه.(١٤٦)

أصبح أبو فديك "وتدا بين عيني أمير المؤمنين" كما قال عبدالملك نفس(١٤٧)، و لذا فقد اختار قائدا كفؤا لقتاله، بعد ما تأكد له فشل والي البصرة في إنجاز المهمة، هو عمر بن عبيدالله بن معمر وأعطاه سلطات مطلقة تتجاوز واليي الكوفة والبصرة من حيث المسؤولية، ومن حيث اختيار الجند من الكوفة والبصرة، ومن حيث أخذ احتياجاته من المال من دواوينهما، فجهز عمر جيشا كبيرا تعداده ٢١ ألفا سار بهم إلى البحرين وعسكر بجواثا. أما أبو فديك فقد نزل بالمشقر في جمع كثير من الأعراب كانوا ضووا إليه بعد هزيمة أمية بن عبدالله، ولما رأوا ضخامة جيش الأمويين بقيادة عمر بن عبيدالله رهبوه، فأذن أبو فديك لمن يريد من أتباعه الانسحاب من ميدان القتال، فانسحب معظمهم و لم يبق معه إلا ألف رجل منهم، وتقاتلا عدة أيام وقتل أبو فديك وحصر من بقي من أصحابه بحصن المشقر، ثم نزلوا على حكم القائد عمر، لكن عمر تصرف تصرفا بغيضا يدل على أن العقلية القبلية وقيمها مترسخة أكثر من ترسخ مفاهيم الإسلام وقيمه، حيث قام بقتل من استسلم من الخوارج من الموالي واستحيا العرب.

وقال بعض الشعراء:

كانت لنا هجرٌ أراضًا نعيشُ بهـا   فأرسل النارَ في حافاتِهـا عمـرُ(١٤٨)

ولى الخليفة عبدالملك على البحرين عبدالملك بن أسيد بن الأخنس بن شريق الثقفي(١٤٩) و لم تشر المصادر إلى اشتراك عبدالملك بن أسيد في حملة عمر بن عبيدالله، وقد يكون وقت تعيينه عندما عزل الخليفة عبدالملك بن مروان خالد بن عبدالله عن ولاية البصرة وضمها لأخيه بشر بن مروان والي الكوفة في سنة٧٤هـ.(١٥٠)

نقل الخليفة عبدُالملك الحجاجَ بن يوسف الثقفي من ولاية الحجاز إلى ولاية العراق سنة ٧٥هـ، ورغم أن والي

البحرين ثقفي إلا أنه عزله في وقت لا نعرفه على وجه التحديد ثم عين بدلا منه سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي فمات فاستخلف ابنه موسى بن سنان بن سلمة.[١٥١] وقد وصف سنان هذا بأنه بصري، ومن رواة الحديث، وولاه والي العراق لمعاوية زياد بن أبيه غزو الهند سنة ٥٠هـ. ومما يثير التساؤل رواية عمر بن شبة بأن مصعب بن الزبير استخلفه على البصرة لما خرج لقتال عبدالملك بن مروان سنة ٧٢هـ[١٥٢]، ثم يستعين به الحجاج ويوليه على البحرين. أما وفاته فكانت في آخر أيام الحجاج.[١٥٣] وإذا هذه المعلومات دقيقة فلا بد أن سنانا كان ذا شخصية استثنائية حيث استعان به كل من زياد ومصعب بن الزبير والحجاج، يضاف إلى ذلك أنه ظل واليا للحجاج على البحرين حتى وفاته في وقت متأخر من ولاية الحجاج، والحجاج توفي في سنة ٩٦هـ، لكن المصادر ذكرت عددا من الولاة الذين ولاهم الحجاج على البحرين، ولا يمكن تفسير ذلك إلا بأحد أمرين إما أن هناك خطأ في المعلومات وهو الأرجح، أو أن تكون ولايته على ناحية من البحرين مثل الخط أو هجر أو بادية البحرين وليس كلها. وولى الحجاج بعد موسى بن سلمة بن المحبق سعيد بن حسان الأسّدي (التميمي)، ثم ولاها زياد بن الربيع الحارثي ثم عزله سنة ٧٩هـ، وولى محمد بن صعصعة الكلابي.[١٥٤] خرج على الوالي محمد رجل من بني محارب بن عبدالقيس. ويبدو أن محمدا عجز عن مقاومته فكلف الخليفة عبدالملك، بناء على توصية الحجاج، والي اليمامة إبراهيم بن عربي، فسار الأخير ومعه ألفا رجل وهزم الخوارج. ثم قام خارجي آخر من نُكْرة بن لُكَيز بن عبدالقيس اسمه الريان النكري سنة ٧٩هـ[١٥٥] وثورته كانت في الخَطّ، والظاهر أنها موطن نُكرة بن عبدالقيس، في قرية يقال لها "طاب" على فراسخ من سوق الخط. وقدم ميمون الخارجي من عُمان في أصحابه فنزلوا دارين، ثم انتقل ميمون إلى الزارة واتحد مع قوات الريان. فندب الوالي محمد الناس فأبطأت عنه عبدالقيس، ربما تعاطفا مع الريان أو كرها بالحكم الأموي أو الأثنين معا، وأتاه قوم من أهل الخط. ونلاحظ هنا أن النسبة هذه المرة إلى المكان(أهل الخط) لا إلى القبيلة، ولا يستبعد في هذه الحال أنهم كانوا من مواطني المنطقة من تجارها وحرفييها ممن لا ينتسب إلى قبيلة. عهد الوالي بقيادة القوات التي تجمعت لمحاربة الخوارج إلى عبدالملك بن عبدالله بن أبي رجاء العوذي الأزدي من أهل البصرة، فهزمهم الخوارج وقتلوا قائدهم عبدالملك ورجعت فلول المنهزمين، ولم يكن مع الوالي جند غيرهم، وخذله العبديون أهل البلاد، فطلب النجدة من الحجاج لكن الوالي محمد خاف الخوارج ولم ينتظر قدوم النجدة ففر هاربا إلى الحجاج، في الوقت الذي أرسل فيه الحجاج نجدة من جند أهل الشام والكوفة بقيادة يزيد بن أبي كبشة السّكسَكي. وصل يزيد البحرين سنة ٨٠ هـ ومعه اثنا عشر ألف رجل، وتقابل بميدان الزارة بالريان النكري ومعه ألف وخمسمائة مقاتل، وألحق يزيد بالريان وأصحابه هزيمة ساحقة. أما محمد بن صعصعة فقدم على الحجاج فهم بقتله لكنه حبسه ومات في حبسه.[١٥٦]

وولى الحجاج قطن بن زياد بن الربيع الحارثي سنة ٨٠هـ على البحرين، وكان والده واليا على البحرين قبل محمد بن صعصعة الكلابي، فثار عليه خارجي جديد هو داود بن عامر بن الحارث فقضى عليه وعلى حركته.[١٥٧]

وخرج داود بن محرز أحد بني عبدالقيس ومعه جماعة فأنزلوا الريان وأصحابه ودفنوهم وأعانهم أهل البحرين

على إنزالهم ودفنهم. وأقام داود بالقطيف فلقيه أبو الفضل، خليفة أبي البهاء صاحب الشرطة، فهزم داود أبا الفضل، فخرج إليهم عبدالرحمن بن النعمان العوذي من الأزد فقاتلهم في سوق القطيف في موقف الإبل فعُقِر بعبدالرحمن فحماه ابن عمه عنبسة بن عبدالرحمن، وتحاجزوا فلما أصبحوا اجتمع الناس وكثروا فقُتل الخوارج.

وغضب الحجاج على أهل البحرين وأخذ عم عبدالله بن سوار العبدي ويقال له عميرة بن حصين وقال: لعن الله عبدالقيس قبيلتك، فإنما أنتم لص أو خارجي أو نصراني. وأخذ يزيد بن الفضل فحبسه في قصر المسيرين.[١٥٨]

وولى الحجاج في وقت ما من ولايته ثولاء بن نعيم بن مسعود النهشلي التميمي جزيرة ابن كاوان بالبحرين. ويبدو أنه ارتكب من العمل ما أغضب عليه الحجاج فعزله وحبسه في الديماس حتى مات. ويقال بل بعث إليه فقتله.[١٥٩]

ومما يلاحظ أن معظم الخوارج من عبدالقيس وكذلك التعاطف من عامة عبدالقيس أما تميم وبكر بن وائل وخاصة تميم فحضورهم في هذه الأحداث قليل سواء في معارضة الدولة أو في مناصرتها. كما يلاحظ تركز حركات الخوارج في منطقة الخَطّ ، أي في منطقة الساحل في دارين والقطيف والزارة ثم تمتد جنوبا على الساحل. أما بلدة عينين (الجُبَيل) وهي شمالية وعمقها في البادية وادي الستار حيث تردها القبائل للامتيار والمتاجرة فلم نلحظ فيها نشاطا معاديا للدولة.

استمر قطن بن زياد الحارثي واليا على البحرين حتى مات الوليد بن عبدالملك والحجاج سنة ٩٦هـ[١٦٠]، وبذا تكون ولاية قطن على لبحرين حوالي ١٦ سنة ويسودها غموض تام فهل السبب في ذلك أنها عاشت فترة هدوء واستقرار و لم يحدث فيها ما ينغص السلطات في العراق (الحجاج) والشام (عبدالملك ثم الوليد) حتى يسجل لنا المؤرخون هذه المنغصات أو الأحداث. ولا نتوقع من وال يرضى عنه الحجاج ويبقيه لهذه الفترة الطويلة إلا أن يكون من نفس مدرسته ويمارس أساليبه في الحكم ذاتها.

أما في عهد سليمان بن عبدالملك فلا نعرف من تولى البحرين رغم أن خليفة بن خياط[١٦١] ذكر أن يزيد بن المهلب ولاها الأشعث بن عبدالله بن الجارود، فأخرجه منها مسعود بن أبي زينب العبدي من بني محارب وغلب عليها، وذلك سنة ٩٦هـ. ولعل الأمر التبس على خليفة لأن الخليفة سليمان بن عبدالملك ولى في بداية خلافته سنة ٩٦هـ يزيد بن المهلب على العراق، ومن سلطات والي العراق تعيين والي البحرين بحكم تبعيتها لوالي العراق، لكن يزيد لم يلبث أن نقله الخليفة سليمان، بناء على رغبته، واليا على خرسان ومسئولا عن فعاليات الفتوح في الجبهة الشرقية. وخليفة نفسه في ذكره لعمال يزيد بن عبدالملك (١٠١-١٠٥هـ)، الذي ولى عمر بن هبيرة واليا على العراق بعد أخيه مسلمة بن عبدالملك، قال[١٦٢]: "وفي ولاية ابن هبيرة خرج مسعود بن أبي زينب فغلب على البحرين واليمامة فقتله سفيان بن عمرو العقيلي." وحل هذا الإشكال يكون على النحو التالي: أن يزيد بن المهلب لم يول

الأشعث بن عبدالله بن الجارود عند ما كان واليا لسليمان بن عبدالملك على العراق في أول سنة من خلافته سنة ٩٦هـ، لكنه ولاه عندما ثار على الخليفة يزيد بن عبدالملك سنة ١٠١هـ واتخذ من البصرة مقرا له، وأراد يزيد بن المهلب من توليته للأشعث، وهو من عبدالقيس، كسب جانب عبدالقيس في البحرين والبصرة معا. والبلاذري[١٦٣] يتفق مع خليفة في نصه الثاني وهو أن هذه الأحداث تمت في أيام يزيد بن عبدالملك، وكذلك ابن الأثير[١٦٤] إلا أنه يذكرها في أحداث سنة ١٠٥هـ وهي آخر سنة من عهد يزيد بن عبدالملك، وهذا تاريخ متأخر لأنه تم القضاء على ثورة يزيد بن المهلب وقتل في سنة ١٠٢هـ، مما يدل على أن ثورة مسعود بن أبي زينب حدثت قبل سنة ١٠٥هـ.

وذكرت بعض المصادر [١٦٥] أن مسعود بن أبي زينب غلب على البحرين وناحية اليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سفيان بن عمرو العقيلي. وهذا أمر مستبعد إلا أن يكون غلب على ناحية من البحرين وليس البحرين كلها.

ولا نعرف عن إقامة الأشعث بالبحرين شيئا وموقف أهل البحرين من ولايته، أما توقيت إخراج الزعيم الخارجي مسعود له من البحرين فصحيح، وقد أشرنا إلى ذلك آنفا عند الحديث عن ولاة اليمامة.

أما في عهد عمر بن عبدالعزيز (٩٩-١٠١هـ) وفي ولاية عدي بن أرطأة الفزاري على البصرة فكان العامل على البحرين الصلت بن حريث بن جابر الحنفي. [١٦٦] ويظهر أن الصلت دخل في معركة مع بعض الخوارج في البحرين وقبض على بعض زعمائهم وأرسلهم إلى عدي في البصرة. ويستنتج أن حكمه للبحرين لم يكن منسجما مع سياسة عمر بن عبدالعزيز في إدارة الولايات والبلدان فعزله عدي. ووالده حريث بن جابر الحنفي كان واليا على البحرين عندما كان عبيدالله بن زياد واليا على البصرة [١٦٧] إما في آخر عهد معاوية أو في عهد ابنه يزيد. وبحكم أننا لا نعرف من كان الوالي على البحرين في عهد سليمان بن عبدالملك فلا أستبعد أن تولية الصلت بن حريث بن جابر على البحرين كانت في عهد سليمان بدليل أن خليفة بن خياط هو المصدر الوحيد الذي اطلعنا عليه وذكر حريثا، لكنه لم يذكر تاريخ ومناسبة توليته وذكر عزله بهذه الصيغة: "البحران: صلت بن حريث بعث إلى عدي منها بخوارج ثم عزله عدي ...".

وقد ولى عديٌّ واليا جديدا على البحرين اسمه عبدالكريم بن المغيرة وقال خليفة [١٦٨]: "أظنه باهليا". وليس لدينا أية معلومات عن عبدالكريم هذا في الوقت الراهن.

أما في عهد هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ) فقد ولى على العراق خالد بن عبدالله القسري من سنة ١٠٥-١٢٠هـ وولى خالدُ على البحرين على التوالي: زيادَ بن جرير بن عبدالله البجلي، وهزانَ بن سعيد، ويحي بن إسماعيل، ويحي بن زياد بن الحارث الحارثي. وعندما عزل الخليفة هشام بن عبدالملك خالد بن عبدالله القسري عن ولاية العراق سنة ١٢٠هـ وولاها يوسف بن عمر الثقفي من سنة ١٢٠- ١٢٥هـ فقد ولى يوسف على البحرين على التوالي: عبدالله بن شريك النميري، ومحمد بن حسان بن سعد الأسيّدي (التميمي). وغلب عليها المسيب بن

فضالة نحوا من ثلاث سنوات.[١٦٩] و لم يذكر إن كان المسيب ينتمي إلى الخوارج أم أنه مجرد متغلب من أجل السلطة فقط، ولا نظن أن البحرين كلها خضعت لسلطته وإنما قسم منها فقط بدليل أن محمد بن حسان الأسيّدي كان عاملا على البحرين حتى قتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ[١٧٠] مما يدل أنه استمر عاملا عليها منذ أن ولاه عليها يوسف بن عمر الثقفي في عهد الخليفة هشام بن عبدالملك.

وقام زعيم جديد هو بشر بن سلام العبدي وقَتل المسيب بن فضالة، وظل يسيطر على البحرين إلى أن أسند مروان بن محمد ولاية العراق إلى يزيد بن عمر بن هبيرة في آواخر سنة ١٢٨هـ فأقر يزيدُ بشرَ بن سلام عاملا على البحرين حتى مات بشر، ثم ولى ابنه سيار بن بشر مكانه، فمات سيار فخلفه على ولاية البحرين أخوه سلم بن بشر لم يزل عاملا عليها حتى قتل مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ.[١٧١] ويمكن الاستنتاج أن بشر بن سلام لم يكن خارجيا لأن الخوارج في العراق والجزيرة الفراتية كانوا أشد خصوم مروان، وتحالف معهم بعض أفراد الأسرة الأموية الذين انشقوا على مروان ووحدوا صفوفهم في الحرب ضده قبل ظهور طلائع الأمويين في العراق، ولو كان بشر خارجيا لما أقره يزيد بن عمر بن هبيرة عاملا على البحرين.

خامسًا: عُمان

المقصود هنا عُمان التاريخية التي تشمل عمان الحديثة ودولة الإمارات العربية المتحدة. وسكانها في القديم بصفة رئيسة قبيلة الأزد، ويشاركها في السكنى عدد من القبائل الأخرى الصغيرة التي تشكل فروعا لقبائل كبيرة خارج عمان. يضاف إلى هؤلاء وأولئك أقليات من العناصر الفارسية التي تعتنق المجوسية وربما بعض اليهود.[١٧٢] ويظهر أن جميع العناصر السكانية تعايشت بانسجام نسبي بدليل أن مصادرنا الأدبية والتاريخية لا تسجل حروبا قبلية في عمان مثيلة لأيام العرب التي حدثت في مناطق الجزيرة العربية الأخرى. على أن تاريخ عمان يلفه قدر كبير من الغموض ولعل أحد أسباب ذلك أنها لم تنجب شعراء فحولا قبل الإسلام مثل أصحاب المعلقات وغيرهم ولا في صدر الإسلام مثل جرير والفرزدق والراعي النميري والصلتان العبدي بحيث تعين أشعارهم وشروحها وسيرهم على تدوين بعض أخبار عمان. ومع أن عددا من صفوة علماء الأمة المبكرين يعودون في أصولهم إلى عمان مثل جابر بن زيد الأزدي ت ١٠٣هـ[١٧٣]، والخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي ت ١٧٠هـ[١٧٤]، وأبو سعيد السكري الحسن بن الحسين بن عبدالرحمن بن العلاء بن أبي صفرة الأزدي ت ٢٩٠هـ[١٧٥]، وأبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ت ٣٢١هـ[١٧٦] وغيرهم، لكنهم للأسف لم يسهموا، فيما ألفوا من كتب ورووا من روايات، بشيء يستحق الذكر إلى تاريخ عمان. وإذا كانت الجزيرة العربية بصفة عامة عانت من إهمال الدولة في العهد الأموي وعدم اهتمام المؤرخين بتدوين أخبارها فإن نصيب عمان من هذا الإهمال وعدم الاهتمام أكبر من الأقاليم الأخرى.

قبل الإسلام، وعند ظهور الإسلام كانت صُحار ودَبا أهم مدينتين وميناءين في عمان، وصُحار كانت أهم من

دبا ومقرا لحكام عمان من آل الجَلَنْدَى. ويمكن الاستنتاج أنه عند ظهور الإسلام كان هناك كيانان سياسيان الأول حكامه أسرة آل الجلندى الأزديين ومقر حكمهم في صحار في الجنوب، والآخر في دبا في الشمال وتحكمه أسرة حاكمة من الأزد كذلك، بدليل أن الواقدي ذكر من ضمن الوفود التي وفدت على الرسول ﷺ: "قدم وفد دبا من الأزد مقرين بإسلامهم".[١٧٧] ويبدو أن نفس الرواية تقريبا وردت عند ابن سعد[١٧٨] "وكان أبو صُفْرة من أزد دبا، ودبا بين عمان والبحرين، وكانوا أسلموا وقدم وفدهم على رسول ﷺ". ووُصِف لقيطُ بن مالك الأزدي بذي التاج[١٧٩]، ووصفه بذي التاج يفهم منه أنه كان ملكا على الأزد في دبا، فهو زعيمهم وقائدهم، وقتل عندما قاد حركة الردة في دبا.[١٨٠] وهذه الإشارات يفهم منها أن أزد دبا مستقلون عن سلطة آل الجلندى بصحار وغيرها، رغم أن ابن حبيب[١٨١] يذكر أن ملوك الفرس قبل الإسلام كانت تستعمل الجلندى بن المستكبر على عمان وكان يعشر التجار الواردين إلى سوقي صحار ودبا الموسميين أيام قيامهما.

أقر أهل عمان بالإسلام وترسخ فيها، وشاركوا غيرهم من المسلمين في نشره عبر الفتوحات، كما شاركوا في بناء الأمة. وكان مجالهم في الفتوحات، مع أهل البحرين، بلاد فارس، ثم استقروا في مهاجرهم الجديدة وأهمها البصرة، ومن أهم الأسر العمانية التي شاركت في القيادة والفتح في صدر الإسلام آل المهلب بن أبي صفرة العتكي الأزدي.

أما بالنسبة لحكم عمان في العهد الراشدي فكان الخلفاء يعينون عليه ولاة يرتبطون بهم مباشرة، وفي فترة قصيرة جمع مع البحرين في ولاية واحدة.[١٨٢] أما في العهد الأموي فربط ولاتها، مثل البحرين، تعيينا وعزلا ومراجعة وإرسال الأموال بوالي البصرة .

وقد ظلت أسرة آل الجلندى في عمان تمارس نوعا من السلطة ليس واضحا تماما حجمها وطبيعتها، لكن عندما تضعف السلطة المركزية أو تنهار تقوى سلطتهم، واستمر هذا الوضع في العصر العباسي المبكر.

وسوف نتجاوز العهد السفياني إلى العهد المرواني، فبعد تولية الخليفة عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف على العراق أخذ يولي على عمان ولاة من قبله لكن آل الجلندى لم يستكينوا، وأخذوا يصارعون ولاة الحجاج وجيوشه على السلطة على عمان، فمن أول ولاته على عمان موسى بن سنان بن سلمة بن المحبق الهذلي بعد سنة ٧٥هـ وكان أبوه على ولاية البحرين من قبل الحجاج ولا نعرف إن كان الحجاج جمع البحرين وعمان لسنان فولى ابنه البحرين أم أن الحجاج ولى الأب البحرين والابن وعمان، وقد أشرنا سابقا أن سنان بن سلمة استخلف ابنه موسى على البحرين. وأيا كانت طبيعة تولية موسى بن سنان على عمان فإن سعيدا وسليمان بن عباد آل الجلندى رفضوا قبوله واليا عليها وحاربوه وغلبوه وأخرجوه من عمان، فبعث الحجاج طفيل بن حصين البهراني فتغلب عليهما.[١٨٣] ولا يمكن أن يتم له ذلك دون أن يكون اصطحب معه جيشا قويا استطاع به تثبيت مركزه. وبعد نجاحه في أداء مهمته كتب إليه الحجاج أن يستخلف على عمان ويعود إلى العراق فاستخلف حاجب بن شيبة فمات بعمان،

فواتت الفرصة سليمان بن عباد فاستعاد السلطة. ثم وجه الحجاج مجاعة بن سعر بن يزيد من بني تميم، وولاه مكران كذلك.(١٨٤) والظاهر أنه نقله إلى ولاية مكران وولى ابنه القاسم بن مجاعة بن سعر على عمان أو تولاها نيابة عن والده. ومن الواضح أن القاسم كان مستبدا سيء السيرة في أهل عمان بدليل أنهم عندما ثاروا عليه لم يكتفوا بقتله بل صلبوه، لكن الحجاج كان أشد منهم قسوة وعنفا إذ عهد إلى والده مجاعة باستعادة الحكم في عمان وتأديب أهلها وهذا لا يتم إلا بجيش قوي، و لم يكتف مجاعة باستعادة السيطرة على عمان بل إنه انتقم من أهلها لمقتل ابنه وغيره من أفراد أسرته وقبيلته بمذبحة عظيمة، ويصف مشاعره بعدها:

حمدتُ اللهَ حينَ شفيتُ نفـــسِي فهذا حـــين ساغ لهـــا الشـــرابُ

ثم صرفه الحجاج عنها إلى مكران.(١٨٥)

ويعطي مصدر عماني متأخر(١٨٦) رواية مفصلة ومختلفة لقصة مجيء ومقتل الوالي القاسم، والحماس الوطني فيها واضح، والمقام لا يسمح باقتباسها كاملة ولكن ملخصها: كان سليمان وسعيد ابنا عباد بن عبد بن الجلندا هما القيمان في عمان، وكان الحجاج يغزوهما بجيوش عظيمة وهما يفضان جموعه ويبددان عسكره في مواطن كثيرة إلى أن أخرج إليهما القاسم بن شعوة المزني في جيش كبير فخرج القاسم حتى انتهى إلى عمان في سفن كثيرة فأرسى سفنه في مرفأ من مرافيء عمان يقال لها "حطاط". فسار إليه سليمان بن عباد بالأزد فاقتتلوا قتالا شديدا فكانت الهزيمة على أصحاب الحجاج، وقتل القاسم وكثير من أصحابه، واستولى سليمان على سوادهم، ولما بلغ الحجاج هزيمتهم استدعى أخا القاسم مجاعة بن شعوة وجمع جيشا قوامه أربعين ألف رجل، سير عشرين ألف منهم عن طريق البحر، ولما بلغوا عمان التقى بهم سليمان بجيش عدده سبعة آلاف وخمسمائة رجل وبعد قتال شديد ألحق بهم الهزيمة، وهو لا يعلم بجيش البحر الذي مع مجاعة واستطاع مجاعة إلحاق الهزيمة بسليمان وجيشه فلجأ سليمان وأفراد أسرته إلى الجبل الأكبر وهو جبل ريام، لكنه استطاع أن يعيد تجميع قواته من جديد وأن يحرق سفن الجيش الأموي بقيادة مجاعة، فانهزم مجاعة بسفنه إلى جلفار وكتب إلى الحجاج يطلب المدد، فأرسل له مددا عن طريق البر بقيادة عبدالرحمن بن سليمان في خمسة آلاف من جند الشام، ولما علم سليمان وسعيد باجتماع الجيشين جمعا ذراريهما وأموالهما ومن خرج معهما من قومهما ولحقا ببلد من بلدان الزنج حتى ماتا هناك، ودخل مجاعة وعبدالرحمن إلى عمان ففعلا فيها غير الجميل ونهباها.

وولى الحجاج بعد مجاعة على عمان محمد بن صعصعة، والظاهر أنه الكلابي الذي سبق وتولى البحرين للحجاج سنة ٧٩هـــ، ولا نعرف إن كان الحجاج جعله عاملا على البحرين وعمان معا أم أن الحجاج نقل عمله من ولاية البحرين إلى ولاية عمان، المهم أن سليمان بن عباد آل الجلندى تغلب عليه وقتله. فبعث الحجاج واحدا من أكفأ القواد وهو سورة بن الحر الدارمي التميمي، وكان له باع في قتال الخوارج فهزم ابن عباد وقتله. ويظهر أنه وجهه بعد

نجاحه في هذا المهمة إلى خراسان فشارك في فتوحها ثم أصبح واليا عليها وقتل سنة ١١٢هـ[١٨٧]، ثم ولاها الحجاج سعيد بن حسان الأسيّدي التميمي.[١٨٨] ويظهر أن كل هؤلاء الولاة كانوا في ولاية الحجاج إبان خلافة عبدالملك بن مروان في السنوات ٧٥-٨٦هـ. وأشارت بعض المصادر[١٨٩] إلى أن الحجاج كتب إلى بديل بن طهفة البجلي وهو بعمان يأمره أن يسير إلى الديبل للمشاركة في فتوح المنطقة، ولا نعرف إن كان بديل بن طهفة واليا على عمان أو على أحد نواحيها أم قائد الجيش لإخضاع آل الجلندى وأهل عمان.

ثم ولى الحجاج الخيار بن أبي سبرة المجاشعي التميمي[١٩٠]، وكان من فرسان المهلب ثم مع ابنه يزيد بن المهلب ثم ساءت علاقته بآل المهلب في الوقت الذي عمل فيه الحجاج على نكبتهم في عهد الوليد بن عبدالملك (سنة ٨٦هـ)[١٩١]، فلعل هذا أحد الأسباب التي جعلت الحجاج يوليه على عمان، ومات الحجاج سنة ٩٥هـ والخيار على عمان.

وعندما تولى الخلافة سليمان بن عبدالملك ولى على العراق يزيد بن المهلب فاستعمل الأخير أخاه زياد بن المهلب سنة ٩٦هـ على عمان ن فلما وصل الوالي الجديد صفى حسابات أسرته مع الوالي الخيار بن أبي سبرة المجاشعي، إضافة إلى أنه كان سيء السيرة مع أهل عمان من الأزد متعصبا عليهم.[١٩٢]

ويذكر ابن خياط[١٩٣] (ص٣١٩) عن ولاة عمان في خلافة سليمان بن عبدالملك: ولاها صالحُ بن عبدالرحمن عبدَالرحمن بن قيس الليثي، ثم ولاها يزيد بن المهلب أخاه زياد بن المهلب. بينما يرد عند البلاذري[١٩٤] ٢٣٢/٨ أن والي البصرة لعمر بن عبدالعزيز عدي بن أرطأة الفزاري ولى عبدالرحمن بن قيس هذا بعد عزل سعيد بن مسعود الآتي ذكره الآن. وقد أعاد الخليفة سليمان بن عبدالملك تولية صالح بن عبدالرحمن مولى بني تميم على الخراج ويرتبط بالخليفة سليمان مباشرة، ويزيد بن المهلب واليا على العراق دون خراجها.[١٩٥] (الطبري ٥٠٦/٦، ٥٢٤) ومن العسير الحسم إن كان عبدالرحمن بن قيس الليثي ولي على عمان مرتين، واحدة في عهد سليمان بن عبدالملك، وأخرى في عهد عمر بن عبدالعزيز. ولعل تفسير ذلك أن عبدالرحمن بن قيس كان يقيم في عمان بصفته قاضيا أو نائبا للوالي أو واليا على أحدى نواحي عمان وعندما شغر منصب الوالي في الحالتين كلف ليقوم بمهام الوالي بصفة مؤقتة حتى يعين وال جديد.

وعَهْدُ عمر بن عبدالعزيز وسياساته الإصلاحية تكشف لنا قليلا عن بعض الأمور السيئة التي كانت متبعة، منها ظلم ولاة الأمصار للناس فعدي بن أرطأة الفزاري والي عمر بن عبدالعزيز على البصرة ولى على عمان سعيد بن مسعود بن الحكم من بني عمرو بن تميم، وسعيد نهج على نهج من قبله من الولاة من بني تميم وغيرهم فقد أراد ناقة عند رجل من أهل عمان فأبى عليه، فضربه الوالي مائة سوط فجاء العماني إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز بالشام شاكيا، فكتب الخليفة عمر إلى والي البصرة: "... فإذا أتاك كتابي فابعث إليه من يعزله، وابعث به إليّ مشدودا

موثقا"، ولما أُحضِر سعيد بن مسعود إليه أُعطى العماني سوطا وقال له: قم فاجلده كما جلدك، ففعل.[١٩٦]

ثم اختار عمر بنفسه والي عمان وهو عمرو بن عبدالله بن أبي طلحة الأنصاري فأحسن السيرة في الناس.[١٩٧] وكتب عمرو بن عبدالله إلى الخليفة عمر يعلمه أن من كان قبله من ولاة عمان كانوا يستعينون بالجند، وأنه اختار أن يستعين بأهل عمان وولى ثلاثين منهم على الصدقات، ويسأله أن يقفل من قبله من الجند، فكتب إليه عمر يأمره بإعادة الجند.[١٩٨] والمرجح أن الولاة كانوا ينتخبون الجند الذين يستعينون بهم لحكم عمان من قبائلهم وممن يدينون لهم بالولاء الشديد حتى ينفذوا تعليماتهم بدقة إن لم يتجاوزوها.

ومنها أنهم كانوا يحملون صدقات أموال أهل عمان إلى والي البصرة فصحح هذا الوضع عمر ابن عبدالعزيز فكتب إلى واليه عدي بن أرطأة: "أما بعد فإني قد كتبت إلى عمرو بن عبدالله: أن يقسم ما وجد بعمان من عشور التمر والحب في فقراء أهلها، ومن سقط إليهم من أهل البادية، ومن أضافته إليهم الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل. فكتب إلي: أنه سال عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر أنه قد باعه وحمل إليك ثمنه. فاردد إلى عمرو ما كان حمل إليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه في المواضع التي أمرته بها ويصرفه فيها إن شاء الله. والسلام."[١٩٩]

أما في عهد يزيد بن عبدالملك فقد استمر عدي بن أرطأة الفزاري واليا على البصرة حتى قتله يزيد بن المهلب (سنة ١٠١هـ). ومن المحتمل أن عبدالله بن عمرو بن أبي طلحة الأنصاري استمر واليا على عمان لأنه كان حسن السيرة، مع أن هناك من المصادر ما يجعل تولية يزيد بن المهلب لأخيه زياد على عمان سنة ١٠١هـ عندما ثار في البصرة على يزيد بن عبدالملك وليس سنة ٩٦هـ عندما ولاه سليمان بن عبدالملك على العراق.[٢٠٠] على أية حال فإن صحت الرواية الأخيرة فإن ثورة يزيد بن المهلب تم القضاء عليها سنة ١٠٢هـ بقيادة مسلمة بن عبدالملك وأخذوا يطاردون آل المهلب حيثما وجدوهم. أما مسلمة فولى على عمان أحد القادة الشاميين الذين كان له دور بارز في القضاء على حركة ابن المهلب وهو عبدالرحمن بن سليم الكلبي.[٢٠١]

ولا نعرف من كان واليا على عمان إبان ولاية خالد بن عبدالله القسري (١٠٥-١٢٠هـ) في عهد هشام بن عبدالملك، ولكن تذكر المصادر أن يوسف بن عمر الثقفي الذي تولى العراق بعد خالد بن عبدالله القسري لهشام أعاد تولية التميميين عليها فولى غُضَيّا بن القاسم بن مجاعة على عمان[٢٠٢]، والذي سبق أن صلب أهل عمان أباه. ويظهر أن مثل هذه التولية كانت نكاية بأهل عمان وقصد الإضرار بهم. ثم ولاها يوسف في عهد الوليد بن يزيد الفيضَ بن محمد بن كردم بن بيهس.[٢٠٣] وقتل يوسف بعد قتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ. ولا نعرف من كان الولاة على عمان في فترة الاضطراب بما فيها عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، ولعل آل الجلندى الذي كانوا دائما يتحينون الفرصة المواتية للإمساك بالسلطة في عمان استعادوا سلطتهم على عمان. وهناك إشارة واحدة يفهم منها عدم وجود ممثلين للسلطة في عمان وهي أن يزيد بن عمر بن هبيرة والي مروان بن محمد على العراق عهد إلى القائد

عامر بن ضبارة في سنة ١٢٩هـ بمطاردة خصوم مروان ومنهم شيبان بن عبدالعزيز أبو الدلف اليشكري أحد زعماء الخوارج وعبر شيبان إلى جزيرة بني كاوان بين البحرين وعمان، فأقام بها حتى قدم عليه المُسَبِح بن الحواري من قبل أبي العباس فتقاتلا فانهزم المسبح وجيشه، فانتقل شيبان إلى عمان فكره الجلندى بن مسعود بن جيفر بن جلندى الأزدي وأهل عمان قدومه عليهم وحاربوه وقتلوه هو وأصحابه سنة ١٣٤هـ.(٢٠٤)

رغم أن عمان أصبحت لاحقا معقلا رئيسا للفكر الإباضي المنسوب إلى عبدالله بن إباض التميمي، من رجال القرن الأول الهجري، أحد قعدة الخوارج في البصرة أي أحد الفقهاء المنظرين، وهم ينتمون إلى أصل الفكر الخارجي لكنهم يتميزون عن الفرق الخارجية الأخرى بأنهم لا يرون الخروج على باقي الأمة وقتالهم، وإذا فهم أصحاب مبدأ مسالم معتدل في معتقدهم وفقههم ويرون التعايش مع باقي المسلمين.(٢٠٥) أما تاريخ وكيفية دخول المذهب إلى عمان فغير معروف على وجه التحقيق وإن كان المعتقد أن ذلك تم في الثلث الأخير من القرن الأول الهجري.

ورغم قلة المعلومات عن تاريخ عمان في القرن الأول الهجري إلا أن ما استعرضناه آنفا من مقاومة أهل عمان بقيادة آل الجلندى للحكم المركزي للسلطة الأموية وتبعيتها للعراق لا ينعكس فيه أي توظيف لمسألة اختلاف المذهب من الطرفين مما يقود إلى الاستنتاج أن المذهب لم يترسخ بعد في عمان وأن الدوافع -كما تبدو- كانت المحافظة على الهوية والاستقلال من جانب أهل عمان والمحافظة على السلطة من قبل آل الجلندى. وكون علاقة السلطة المركزية الأموية بعمان وأهلها علاقة خصومة وصراع وليست علاقة وئام وانسجام، إذ أن السلطة ممثلة بالحجاج بن يوسف ومن تلاه من ولاة، باستثناء عهد عمر بن عبدالعزيز، يعمدون إلى اختيار ولاة قساة مستبدين معظمهم من قبيلة بني تميم و لم يولوا أزديا واحدا ممن ينتمي نسبا لأهل البلاد باستثناء زياد بن المهلب، الذي ولاه أخوه يزيد بن المهلب على عمان، وكانت سياستهم تقوم على التنكيل بالناس وإثقالهم بالضرائب والمغارم التي تتجاوز المقرر شرعا. كل هذا مهد وساعد على انتشار المذهب الإباضي في أجزاء من عمان لاعتداله وتسامحه من جهة، ولكونه يلبي رغبة العمانيين في المحافظة على هويتهم واستقلالهم من جهة أخرى. ووفقا للأزكوي(٢٠٦) فإنه تم الجمع بين السلطة السياسية وإمامة المذهب الدينية لأول مرة بعد تولي العباسيين السلطة مباشرة: "... فداهن جناح بن عبادة الإباضية حتى صارت ولاية عمان لهم، فعند ذلك عقدوا الإمامة للجلندا بن مسعود، فكان سببا لقوة المذهب وكان عادلا."

لقد قام هذا البحث في مجمله على السرد والوصف أكثر من التحليل، بل إن هذا السرد قام على تصيد نتف من المعلومات مشتتة في المصادر، ومن ثم فلا يمكن الادعاء بأننا قدمنا رواية متماسكة للأحداث التاريخية لأقاليم الجزيرة العربية في فترة الدراسة، بل هناك فجوات كثيرة لم نستطع ملأها، وإن كنا حاولنا في حالات ليست كثيرة ملء مثل هذه الفجوات عن طريق الفروضات التي قد تصيب وقد تخطيء.

وفي **الختام** يمكن الخروج ببعض الاستخلاصات، منها:

أن الجزيرة العربية في العهد الأموي كانت مقسمة سياسيا وإداريا إلى أقاليم و لم تعرف الوحدة السياسية، وأن إقليم الحجاز كان مرتبطا بالحكومة المركزية في دمشق. أما اليمن فأحيانا قليلة يربط بوالي الحجاز لكنه في الغالب كان يرتبط بالحكومة المركزية بدمشق. أما اليمامة فكانت ترتبط إما بوالي المدينة أو بوالي البصرة وفي حالة نادرة ولفترة قصيرة ارتبطت بالحكومة المركزية بدمشق. أما البحرين وعمان فكانتا مرتبطتين دائما بوالي البصرة.

أما من حيث اهتمام الدولة بهذه الأقاليم فكان متفاوتا، فمن الطبيعي أن الأمويين أولوا الحجاز اهتماما خاصا لمكانتها الدينية ومكانة أهلها من أبناء المهاجرين والأنصار ولكون الأمويين في الأصل من أهلها. وكانت سياسة الأمويين في تعيين ولاة الحجاز تقضي، في الغالب وفي الظروف الطبيعية، بتولية أقاربهم، وكان الولاة كثيرا ما يسيئون استغلال هذه القرابة، فهم أيضا يحابون أقاربهم في توليتهم الأعمال التي تعود بالنفع مثل السعاية على الصدقات، لكن نظرا لتقدير الخلفاء الأمويين لرجالات الحجاز بصفة عامة عندما يفدون إليهم في الشام أو عندما يأتون هم لأداء فريضة الحج ومنحهم إياهم العطايا الجزيلة فقد حفظوا نوعا من علاقة الود والاحترام معهم، إضافة إلى أن أهل الحجاز تعلموا درسا قاسيا من نتائج تمرد أهل المدينة ومعركة الحرة وحركة ابن الزبير، ومن ثم فقد ظل الحجاز سامعا مطيعا للسلطة بل أكثر من ذلك فقد رفضوا عرض أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي زعيم الخوارج الإباضية في أن يخلي أهل المدينة بينه وبين الأمويين في الشام فحاربوه وألحق بهم هزيمة قاسية بقديد سنة ١٣٠هـ.

أما باقي الأقاليم فيجمعها إهمال الدولة وتولية ولاة قساة مستبدين أثقلوا هذه البلاد بالضرائب غير الشرعية، فاليمن تعاقب عليها بعد القضاء على حركة ابن الزبير ولاة من أسرة الحجاج وساروا فيهم بسيرته، وتولى أفراد من أسرة السعديين واحد منهم كان محمود السيرة، أما بقيتهم فكان توليتهم في ظل حرب أهلية تولوا فيها قيادة جيوش الأمويين ضد المتمردين من أهل اليمن. وقد تجلبب هؤلاء المتمردون من أهل اليمن بجلباب المذهب الإباضي الخارجي وقد يكون ذلك عن اعتقاد واقتناع، أو استخدموه لأنه يشرع لهم الثورة والاستقلال بحيث لا يكون استقلالهم عصيانا وشقا لعصا الطاعة لإمام المسلمين.

أما وسط الجزيرة العربية (اليمامة) والبحرين وعمان فظروفها متشابهة تماما مع اليمن، ولذلك كانت هذه الأقاليم قبل اليمن أرضا حاضنة لحركات الخوارج بكل طُيوفها، وكانت سياسة الأمويين أو سياسة ولاة العراق تقوم على تعيين ولاة من غير أهل البلاد فمثلا اليمامة لم يكن من بين ولاتها واحد ينتمي إلى بني حنيفة أو حي من بطون قبيلة ربيعة الأخرى من سكان اليمامة، وكذلك يقال عن البحرين فلم يعين ولاة من عبدالقيس ولا بكر بن وائل ولا من تميم أهل البلاد، وعمان لم يول عليها وال واحد من الأزد سوى ما أشرنا إلى تعيين زياد بن المهلب، وكان معظم ولاتها من التميميين أهل البصرة، ومعروف أن أكبر تجمعين سكانيين في البصرة هما قبيلتا الأزد، أزد عمان، وتميم، تميم البحرين، وكان بينهما من التنافس ما يكون عادة بين التكتلات السكانية خاصة تلك التي تعيش في المدينة بعقلية القبيلة. وكان أهل هذه الأقاليم يتحينون ضعف ممثلي السلطة المركزية حتى يثوروا عليهم ليتخلصوا منهم تحت أي شعار وبأية ذريعة.

التعليقات

(١) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤ (القاهرة، دار المعارف)، ٧: ٢٩.

(٢) ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م)، *جمهرة نسب قريش وأخبارها*، ج١ تحقيق: محمود شاكر، ج٢ تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٨هـ)، ٢: ٦١٣ ؛ الطبري ٧: ١١١.

(٣) الطبري ٧: ١١١.

(٤) ابن خياط، خليفة (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)، *تاريخ خليفة بن خياط*، تحقيق: أكرم ضياء العمري. بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢ (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ٣٦٦؛ البلاذري، أحمد بن يحي (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)، *كتاب جمل من أنساب الأشراف*، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، ط١ (دمشق، دار الفكر، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ٩: ١٥٣؛ الطبري ٧: ٢٢٦.

(٥) ابن خياط، ٣٧٠، ٣٦٢؛ الطبري، ٧: ٢٩٩ ؛ البلاذري، *أنساب*، ٩: ١٩٦.

(٦) ابن خياط، ٣٦٩، ٣٧٤؛ الطبري، ٧: ٣١٢.

(٧) الطبري ٧: ٣٢٩؛ ابن الأثير، عزالدين علي بن أبي الحسن (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، *الكامل في التاريخ*، (بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، د. ت.)، ٥: ٣٤٠.

(٨) ابن خياط، ٣٨٢، ٣٨٤.

(٩) ابن خياط، ٣٨٥؛ الطبري ٧: ٣٧٥.

(١٠) ابن خياط، ٣٩١؛ واسمه عند البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٩٩ إبرهة بن شرحبيل بن الصباح.

(١١) ابن خياط، ٣٩١.

(١٢) الطبري ٧: ٣٧٦، ٣٩٣.

(١٣) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٨٤.

(١٤) الطبري، ٧: ٣٩٧.

(١٥) الطبري، ٧: ٣٩٥، ٣٩٨؛ ابن بكار، ٢: ٨٣٧.

(١٦) الطبري، ٧: ٣٤٩.

(١٧) الأصبهاني، علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م)، *كتاب الأغاني*، ط٥ (بيروت، دار الثقافة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ١٣٩/٢٣؛ ابن الأثير، ٣٩١.

(١٨) الزبيدي، محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م)، *طبقات النحويين واللغويين*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ٢٦.

(١٩) الأصبهاني، ٢٣: ١٤٦.

(٢٠) الطبري، ٧: ٣٩٨.

(٢١) الطبري، ٧: ٣٩٩.

(٢٢) الطبري، ٧: ٣٩٨.

(٢٣) ابن خياط، ٣٩٣؛ الطبري، ٧: ٣٩٩.

(٢٤) الطبري، ٧: ٣٩٨.

(٢٥) ابن خياط، ٣٩٤.

(٢٦) ابن خياط، ٤٠٧ ؛ الطبري، ٧: ٣٩٩.

(٢٧) ابن خياط، ٣٩٥ ؛ الطبري، ٧: ٤٠٢.

(٢٨) ابن خياط، ٣٩٤.

(٢٩) ابن خياط، ٣٩٥، ٣٩٨ ؛ الطبري، ٧: ٤١١، ٤١١.

(٣٠) ابن خياط، ٤٠٧؛ الطبري، ٧: ٤٥٨.

(٣١) ابن بكار، ١: ٣٠١؛ البلاذري، *أنساب*، ٩: ٤٤٤.

(٣٢) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٤١٥.

(٣٣) ابن بكار ٢: ٩٤٩، ٩٥٠، ٧٥٦؛ الطبري ٧: ٦٠٩؛ ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٢م)، *تهذيب التهذيب*، تحقيق: إبراهيم الزيبق وعادل مرشد ط١ (بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ٤: ٤٨٩.

(٣٤) البلاذري، *أنساب*، ١١: ١٧.

(٣٥) ابن سعد، محمد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، *الطبقات الكبرى* (بيروت، دار صادر، د. ت.)، ٥: ١٥٨؛ ابن بكار ٢: ٦٢٨ ؛ البلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٤٩. وأظنها "الهيبة" وليست "الهيئة" كما رسمت في بعض المصادر، ومما يقوي ظني قول الخليفة أبي جعفر المنصور لقاضيه على البصرة أولا ثم على المدينة بعد ذلك عمر بن عثمان ... بن معمر: "إنك متواضع، وينبغي للقاضي أن يكون مهيبا." أنظر البلاذري، *أنساب*، ١٠: ١٥٣.

(٣٦) الطبري، ٧: ٢٩.

(٣٧) ابن بكار، ٢: ٨٨٢.

(٣٨) ابن سعد، *القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم*، تحقيق: زياد منصور، ط٢ (المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م)، ٣٣٦؛ الطبري، ٧: ٢٢٦.

(٣٩) البلاذري، أنساب، ٩: ٧٧.

(٤٠) الطبري، ٧: ١١١.

(٤١) البلاذري، أنساب، ٨: ٤٢٤.

(٤٢) البلاذري، أنساب، ١٣: ٣٥٣.

(٤٣) البلاذري، *أنساب*، ١١: ٢٠٣.

(٤٤) الطبري، ٧: ١٢٨.

(٤٥) البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٢٧.

(٤٦) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٤٣،٢٤٥. وانظر ياقوت بن عبدالله الحموي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، *معجم البلدان* (بيروت، دار صادر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ١: ٢٢٠ أعراض المدينة هي قراها التي في أوديتها. وأعراضها بطون سوادها حيث الزرع والنخل.

(٤٧) الطبري، ٧: ٥٩٧.

(٤٨) الطبري، ٧: ٣٩٣.

(٤٩) الطبري، ٧: ٣٩٨. وذكر ياقوت ٤: ١٤٤ أن النبي ﷺ مر بها في طريقه إلى تبوك وصلى بها وبُني فيما بعد مكان مصلاه مسجدا.

(٥٠) البلاذري، أنساب، ٨: ٤١٥.

(٥١) ابن بكار، ٢: ٥١٥.

(٥٢) البلاذري، أنساب، ٩: ١٥٣؛ الطبري، ٧: ٢٢٦.

(٥٣) البلاذري، أنساب، ١٢: ٣٦٠.

(٥٤) الجعدي، عمر بن علي (ت بعد ٥٨٦هـ/١١٩٠م)، *طبقات فقهاء اليمن*، تحقيق: فؤاد سيد، (بيروت: دار القلم، د. ت.)، ٥٠؛ الرازي، أحمد بن عبدالله (ت ٤٦٠هـ/١٠٦٨م)، *تاريخ مدينة صنعاء*، تحقيق: حسين عبدالله العمري، ط٣ (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ١٨٩، ٦١٩.

(٥٥) ابن عبدالمجيد، عبدالباقي بن عبدالمجيد اليماني، (ت ٧٤٣هـ/١٣٤٢م)، *بهجة الزمن في تاريخ اليمن*، تحقيق: عبدالله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني، ط١ (صنعاء: دار الحكمة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ٢٤؛ الديار بكري، حسين بن محمد، (ت ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م)، *تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس* (بيروت: مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، د. ت)، ٢: ٣١٣.

(٥٦) الطبري ٦: ٢٧٩ "الحكم بن أيوب بن أبي عقيل الثقفي وهو زوج ابنة الحجاج وعامله على البصرة". ولا نعرف إن كان أيوب سبطا للحجاج أو ابنا للحكم من امرأة أخرى غير ابنة الحجاج. قارن: تاريخ اليمن من كتر الأخبار ص٢٦ "فولى الحجاج [سنة ٩٦هـ] على اليمن ابن عمه أيوب بن يحي الثقفي، وذلك أيام الوليد بن عبدالملك، فلم يزل عليها ولاية الوليد."

(٥٧) ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ٩٥.

(٥٨) الفسوي، يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م)، *كتاب المعرفة والتاريخ*، تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٢: ٣٠ ؛ ابن حجر، تهذيب، ٣: ٩٦.

(٥٩) ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ٩٥.

(٦٠) الفسوي، ١: ٥٩٣.

(٦١) الفسوي، ٢: ٣٧٠.

(٦٢) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ٣٧٠.

(٦٣) ابن عبدالحكم، عبدالله (ت ٢١٤هـ/٨٢٩م)، *سيرة عمر بن عبدالعزيز*، (بيروت: دار الفكر الحديث، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ٦١.

(٦٤) ابن عبدالحكم، ١٠٨؛ وقارن اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م)، *تاريخ اليعقوبي*، (بيروت: دار بيروت للنشر ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٢: ٣٠٦ ؛ والبلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٤٤.

(٦٥) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٢٣٥.

(٦٦) ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ٩٦؛ الحمزي، إدريس بن علي، *تاريخ اليمن من كتر الأخيار في معرفة السير والأخبار*، تحقيق: عبدالمحسن المدعج ط١ (الكويت: مؤسسة الشراع، ١٩٩٢م)، ٣٢.

(٦٧) البلاذري، أنساب، ٩: ١١.

(٦٨) البعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٢٩٤؛ الطبري، ٦: ٥٠٦؛ الجعدي، *طبقات*، ٢: ٣٦٠.

(٦٩) الطبري، ٧: ٤٠.

(٧٠) البلاذري، *أنساب*، ٩: ١١.

(٧١) الطبري، ٧: ١٤٧؛ ابن عبدالمجيد، ١٧.

(٧٢) البلاذري، *أنساب*، ٩: ١١.

(٧٣) الطبري، ٧: ١٥٠.

(٧٤) ابن عبدالمجيد، ١٧؛ الحمزي، ٣٣.

(٧٥) ابن خياط، ٣٦٦؛ وقارن الحمزي، ٣٣؛ وابن عبدالمجيد، ٢٧ الضحاك بن واصل السكسكي.

(٧٦) ابن الأثير، ٥: ٢٨٥، ٢٨٧.

(٧٧) ابن خياط، ٤٠.

(٧٨) البلاذري، أنساب، ٩: ٢٨٥- ٢٨٩.

(٧٩) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٥.

(٨٠) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٦.

(٨١) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٧.

(٨٢) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٦.

(٨٣) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٦.

(٨٤) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٣٠٧.

(٨٥) الأصبهاني، الحسن بن عبدالله (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)، *بلاد العرب*، تحقيق: حمد الجاسر وصالح العلي، ط١ (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م)، ٣٢٦.

(٨٦) الجاسر، حمد، *ابن عربي موطد الحكم الأموي في نجد*، ط١ (الرياض: د. ن، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م)، ٣؛ الوشمي، صالح بن سليمان، *ولاية اليمامة*، (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤١٦هـ)، ١٢٩؛ الدباسي، عبدالرحمن بن إبراهيم، *الشعر في حاضرة اليمامة حتى نهاية العصر الأموي* (الرياض، د. ن، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ٥- ٩.

(٨٧) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٢٦؛ وانظر الوشمي، ١٢٩.

(٨٨) انظر مقدمة الجاسر لكتاب بلاد العرب، ٤٨.

(٨٩) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٤٠.

(٩٠) البلاذري، *أنساب*، ١٠: ٢٢٧.

(٩١) الجاسر، *ابن عربي*، ٢٣.

(٩٢) أنظر بعض الأمثلة التي أوردها الجاسر، *ابن عربي*، ٢٢-٢٥.

(٩٣) الجاسر، *ابن عربي*، ٩٢.

(٩٤) ابن خياط، ٢٨٨؛ ونسبه البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٢٩٠ على هذا النحو: ومن محارب بن خصفة: يزيد بن هبيرة بن أُقيش بن

جذيمة بن كلتـــة بن خفاف بن معاوية بن مر بن بكر. وكان شريفا قد ولي الولايات. وهو أبو داود.

(٩٥) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٢٦،٢٩.

(٩٦) البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٢٩١.

(٩٧) البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٢٩١.

(٩٨) البلاذري، أنساب، ٨: ٤٧.

(٩٩) البلاذري، أنساب، ٢: ١١٥.

(١٠٠) البلاذري، أنساب، ١١: ٢٣٣؛ الجاسر، *ابن عربي*، ص٢٣.

(١٠١) ابن خياط، ٣١١ ؛ الجاسر، *ابن عربي*، ١١١.

(١٠٢) ابن خياط، ٣٣٣ ؛ الجاسر، *ابن عربي*، ١١١.

(١٠٣) ابن خياط، ٣١٩،

(١٠٤) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٠٠ ،٣٥٤.

(١٠٥) ابن الأثير، ٥: ١١٩.

(١٠٦) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٢٦٥.

(١٠٧) ابن خياط، ٣٣٦.

(١٠٨) البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٢٩١.

(١٠٩) ابن خياط، ٣٢٣.

(١١٠) الفسوي ١: ٣٦٨؛ ابن حجر، *تهذيب*، ١: ٦٢٨؛ وقارن الجاسر، ابن عربي، ١١٢، لعله زرارة بن مصعب بن عبدالرحمن فهو من رواة الحديث الثقاة.

(١١١) ابن سعد، ٥: ١٧٥-١٦٠.

(١١٢) الجاسر، *ابن عربي*، ص١١٢ ونقل المعلومة عن تاريخ أبي زرعة ١: ٦٥٢.

(١١٣) ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ٢٨٤.

(١١٤) *شـــرح نقـــائض جريـــر والفـــرزدق*، غـــير منسوب لمؤلف، تحقيق: محمد حمور ووليد خالص، ط١ (أبوظبي، المجمع الثقافي، ١٩٩٨م)، ٢: ٦٩٩ ؛ ابن خياط، ٣٥٩، ٣٦٧؛ الجاسر، *ابن عربي*، ١١٣.

(١١٥) ابن خياط، ٣٥٩ ؛ ابن الأثير، ٥: ٢٩٨.

(١١٦) ابن خياط، ٣٨٢ ؛ ابن الأثير، ٥: ٣٠١.

(١١٧) ابن الأثير، ٥: ٣٠١.

(١١٨) الجاسر، *ابن عربي*، ١٤٨.

(١١٩) الراعي النميري، عبيد بن حصين (توفي تقريبا سنة ٩٠هـ/٧٠٩م)، *ديوان الراعي النميري*، تحقيق: راينهرت فايبرت، فايسبادن، فرانـــتس شتاينر (١٤٠١هـ/١٩٨٠م)، ٢٢٨؛ القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب توفي في أوائل القرن الرابع الهجري/ ق ١٠م، *جمهـــرة أشـــعار العـــرب*، تحقـــيق: محمـــد عـــلي الهـــاشمي (الـــرياض، جامعـــة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)، ٣: ٩٣٨-٩٤٤ ؛ الجاسر، *ابن عربي*، ٢٧.

(١٢٠) *ديوان الراعي النميري*، ٦٤؛ الجاسر، *ابن عربي*، ٢٨.

(١٢١) الأصفهاني، *الأغاني*، ٢٣: ٣٦١.

(١٢٢) ابن جنيدل، سعد، *المعجم الجغرافي – عالية نجد* (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، د. ت)، ٣: ٧٤٨.

(١٢٣) القرشي، *جمهرة أشعار العرب*، ٢: ٨٤٨؛ الجاسر، *ابن عربي*، ص٢٩.

(١٢٤) ابن جنيدل، *عالية نجد*، ٣: ٩٣١.

(١٢٥) البلاذري، *أنساب*، ١٢: ١١٨.

(١٢٦) ابن سعد ٧: ٤٨٨.

(١٢٧) ابن سعد ٥: ٥٥٤، ٥٥٦.

(١٢٨) ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، *البداية والنهاية* (بيروت، دار المعارف، ١٩٨١م/١٤٠١م)، ٩: ٣٠٨.

(١٢٩) القالي، إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م)، *كتاب ذيل الأمالي والنوادر* (بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ص٥٦.

(١٣٠) الأصبهاني، *الأغاني*، ٢٣: ٢٤٧.

(١٣١) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٠٧ ؛ الأصبهاني، *الأغاني*، ٢٣: ٢٢٦؛ ابن الأثير، ٥: ٢٩٨.

(١٣٢) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٠٨ ؛ الأصبهاني، *الأغاني*، ٢٣: ٢٤٩؛ ابن الأثير، ٥: ٢٩٩.

(١٣٣) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٠٩؛ ابن الأثير، ٥: ٢٩٩.

(١٣٤) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢١٤؛ ابن الأثير، ٥: ٣٠١.

(١٣٥) الطبري، ٧: ٤٥٩؛ وقارن البلاذري، *أنساب*، ١٣: ١٥٤ ... وقتله حماد المروزي بالبادية.

(١٣٦) البلاذري، *أنساب*، ٦: ٢٤١.

(١٣٧) ابن بكار، ٢: ٧٥٧؛ وقارن رواية البلاذري، *أنساب*، ١٠: ٢٧٧، "قال: ههنا مال من مال الصدقة وأنت غارم فأنت أحق به، وأعطاه أربعة آلاف، وكان دينه قريبا من ثلاثة آلاف".

(١٣٨) ابن بكار، ٢: ٧٦٠؛ البلاذري، *أنساب*، ١٠: ٢٢٧؛ وانظر أيضًا ابن بكار، ٢: ٦٧٧، كان عكرمة بن عبدالرحمن المخزومي ساعيا على صدقات سعد والرباب فوفد عليه الشاعر كثير بن عبدالرحمن [كثير عزة] فأعطاه عكرمة عشرة آلاف درهم.

(١٣٩) ابن بكار ٢: ٩٤٩؛ وقارن ابن حجر، *تهذيب*، ٤: ٤٨٩، فجباهم عشرين ألفا.

(١٤٠) البلاذري، *أنساب*، ١٣: ١٢٤.

(١٤١) البلاذري، *أنساب*، ٦: ٢٥٤، ٩: ٣٤٣-٣٤٩؛ وانظر قصيدة أدهم بن أبي الزعراء الطائي التي قالها بهذه المناسبة وقصة هذه الحرب (يوم المنتهب) عند التبريزي، يحي بن علي (ت ٥٠٢هـ/١١٠٨م)، *شرح ديوان الحماسة لأبي تمام* (بيروت، دار القلم، د. ت)، ١: ٢٤٢. وفي ياقوت ٥: ٢٠٧ المنتهب: قرية في طرف سلمىَ أحد جبلي طيء، وهي لسنبس.

(١٤٢) الجاسر، *المعجم الجغرافي – المنطقة الشرقية (البحرين قديما)* ط١ (الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، ١: ٧.

(١٤٣) البلاذري، *أنساب*، ١٢: ٥٥.

(١٤٤) ابن خياط، ٣٣٣.

(١٤٥) شرح نقائض جرير والفرزدق، ٢: ٦٩٩.

(١٤٦) البلاذري، *أنساب*، ٧: ٤٥٠ ؛ الطبري، ٦: ١٧٤.

(١٤٧) البلاذري، *أنساب*، ٧: ٤٥٢.

(١٤٨) البلاذري، *أنساب*، ٧: ٤٥٠–٤٦٠؛ ورواية الطبري، ٦: ١٩٣ تختلف في بعض تفاصيلها عن رواية البلاذري، من ذلك: "... حصروهم في المشقر فنزلوا على الحكم، فقتل عمر بن عبيدالله منهم –فيما ذكر– نحوا من ستة آلاف وأسر ثمانمائة". ويظهر أن في هذه الرواية مبالغة، ورواية البلاذري أولى بالقبول.

(١٤٩) ابن خياط، ٢٩٧؛ وعند البلاذري، *أنساب*، ١٣: ٤٣٧ نص غير مستقيم هو: "وكان المغيرة بن الأخنس عامل مروان بن الحكم على البحرين".

(١٥٠) ابن خياط، ٢٩٣.

(١٥١) ابن خياط، ص٢٩٧؛ وذكر ابن سعد، ٧: ٢١٢ أن له أخا اسمه موسى بن سلمة. فهل هو الذي خلف سنانا، أم أن سنانا له ابن اسمه موسى فخلفه ؟.

(١٥٢) البلاذري، *أنساب*، ٧: ٨٦.

(١٥٣) ابن حجر، *تهذيب*، ٢: ١١٨.

(١٥٤) ابن خياط، ٢٩٧، ٣١٠.

(١٥٥) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٤٩ وعنده: سنة سبع [؟] وسبعين.

(١٥٦) ابن خياط، ٢٧٨–٢٧٩؛ البلاذري، *أنساب*، ٨: ٤٨–٥٠.

(١٥٧) ابن خياط، ٢٧٩، ٢٩٧، ٣١٠؛ البلاذري، *أنساب*، ٨: ٥١.

(١٥٨) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٥١–٥٢.

(١٥٩) البلاذري، *أنساب*، ١٢: ١٢٥ ونصه: "فولاه الحجاج جزيرة ابن كاوان والبحرين". ونعتقد أنه حصل تحريف بالنص لأنه ليس من المنطق أن يبدأ بجزيرة ابن كاوان وتضاف إليها البحرين. ومن ناحية ثانية لم يذكر أحد غيره من المؤرخين فيما اطلعنا عليه أنه تولى البحرين. ولعل الصواب ما أثبتناه. وانظر ياقوت ٢: ١٣٩ "جزيرة بني كاوان، وهي جزيرة لافت، جزيرة عظيمة بين عمان والبحرين، كانت عامرة آهلة بالسكان سنة ٣٣٣هـ وأصابها الخراب." وقد استعلمت عنها في الوقت الحاضر فأُخبرتُ أن جزءا منها يسمى الآن القَشَم، والجزء الآخر لا يزال يحمل اسم لافت.

(١٦٠) ابن خياط، ٣١٠.

(١٦١) ابن خياط، ٣١٨.

(١٦٢) ابن خياط، ٣٣٦.

(١٦٣) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٥٤.

(١٦٤) ابن الأثير، ٥: ١١٨–١١٩.

(١٦٥) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٥٥ ؛ ابن الأثير، ٥: ١١٩.

(١٦٦) ابن خياط، ص٣٢٢.

(١٦٧) البلاذري، *أنساب*، ١٢: ٣٨٦.

(١٦٨) ابن خياط، ٣٢٢.

(١٦٩) ابن خياط، ٣٥٩.

(١٧٠) ابن خياط، ٣٦٦.

(١٧١) ابن خياط، ٣٦٦.

(١٧٢) البلاذري، *فتوح البلدان*، تحقيق: عبدالله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع (بيروت: مؤسسة المعارف، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ١٠٤/١، أهل الذمة، و ١٠٥ المجوس.

(١٧٣) ابن سعد، ٧: ١٧٩.

(١٧٤) الزبيدي، ٤٧.

(١٧٥) لزبيدي، ص١٨٣؛ ابن حزم، أحمد بن علي ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤م، *مهرة أنساب العرب* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٣٦٨.

(١٧٦) الزبيدي، ١٨٣.

(١٧٧) ياقوت، ٢: ٤٣٥.

(١٧٨) بن سعد، ٧: ١٠١.

(١٧٩) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ١٣١؛ البلاذري، *فتوح*، ١: ١٠٤؛ ياقوت، ٢: ٤٣٦.

(١٨٠) المصادر السابقة. وبعض مؤرخي عمان المحدثين ينفون حدوث ردة في عمان، وإنما حدث التباس من قبل حذيفة بن محصن الغلفاني المسئول عن جمع الصدقات في دَبا بأن أهلها منعوا دفع الصدقة فحاربهم. انظر السيابي، حمود بن سالم، *عمان عبر التاريخ*، ط٥ (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م)، ١: ١٣٦.

(١٨١) ابن حبيب، محمد (ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م)، *المحبر*، تحقيق: إيلزه ليختن شتيتتر (بيروت: دار الآفاق)، ٢٦٥.

(١٨٢) ابن خياط، ٣٤؛ وعند البلاذري، *فتوح*، ١: ١١٢، فقد ولى عمر بن الخطاب سنة ١٥هـ عثمان بن أبي العاص الثقفي البحرين وعمان. وكان عثمان يستعين بأخويه الحكم والمغيرة في تسيير شئون البلاد.

(١٨٣) ابن خياط، ٢٩٧.

(١٨٤) ابن خياط، ٢٩٧؛ البلاذري، *أنساب*، ١٢: ٣٠٩.

(١٨٥) ابن خياط، ٢٩٧؛ البلاذري، *أنساب*، ١٢: ٣٠٩.

(١٨٦) الأزكوي، سرحان بن سعيد، *أخبار أهل عمان من أول إسلامهم إلى اختلاف كلمتهم*، وهو الباب الثالث والثلاثون من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق: هـ. كلاين، ط١ (دار الفضيلة، ٢٠٠٣م)، ١١٠-١١١. ولم يصل المحقق إلى معرفة مؤلف الكتاب فنسبه لمصنف مجهول.

(١٨٧) ابن خياط، ٢٩٧؛ الطبري، ٦: ٢٢٦، ٧: ١١،٨٠.

(١٨٨) ابن خياط، ٢٩٧.

(١٨٩) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٤٨، ١٢: ١٠٦، فتوح، ٢: ٦١٢.

(١٩٠) ابن خياط، ٣١٠، والاسم عنده: عبدالجبار بن سبرة؛ وقارن ابن حبيب، *المحبر*، ص٤٨٤، "وصلب أهل عمان القاسم بن سعر السعدي فوجه إليهم الحجاج أخاه مجاعة بن سعر، فجاء فوجد أخاه مصلوبا، فأراد أصحابه إنزاله فأبى، وعاث فيهم ثم أنزله."

(١٩١) الطبري، ٦: ٢٩٤.

(١٩٢) ابـــن خـــياط، ٣١٩؛ الطبري، ٦: ٥٠٦؛ وينقل البلاذري، *أنساب*، ١٢: ١٠٦ رواية أبي عبيدة ومضمونها: أن تولية يزيد بن المهلب لأخيه زياد وقتل زياد والي عمان الخيار بأنها كانت لما ثار يزيد بن المهلب في البصرة سنة ١٠١هـــ. ويقول ابن حبيب، *المحـــبر*، ص ٤٨٢، وصلب زياد بن المهلب الخيار بن سبرة المجاشعي بعمان، وكان الحجاج ولاه فأضَرّ بالأزد، فلما خالف يزيد ولى أخاه زيادا عمان فصلب بها الخيار.

(١٩٣) ابن خياط، ص٣١٩.

(١٩٤) البلاذري، *أنساب*، ٨: ٢٣٢.

(١٩٥) الطبري، ٦: ٥٢٤، ٥٠٦.

(١٩٦) الـــبلاذري، *أنساب*، ٨: ١٣٢، ١٣: ٤٣؛ وانظر ابن الكلبي، هشام بن محمد (ت ٢٠٤هـــ/٨١٩م)، *جمهرة النسب*، تحقيق: ناجي حسن، ط١ (بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٧هـــ/ ١٩٨٦م)، ٢٦٣؛ ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ٢١٢.

(١٩٧) البلاذري، *أنساب*، ٨: ١٣٢؛ ابن حجر، *تهذيب*، ٣: ٢٨٤.

(١٩٨) البلاذري، *أنساب*، ٨: ١٣١.

(١٩٩) البلاذري، *أنساب*، ٨: ١٤٩، فتوح، ١: ١٠٦.

(٢٠٠) ابن حبيب، ٤٨٢.

(٢٠١) الـــبلاذري، *أنساب*، ٨: ٣٤٨ عبدالرحمن بن سليم الكندي ؛ أما ابن خياط، ٣١٠ فيجعله من ولاة الوليد بن عبدالملك على عمان.

(٢٠٢) البلاذري، *أنساب*، ١٢: ٣٠٩.

(٢٠٣) ابن خياط، ٣٦٧.

(٢٠٤) البلاذري، *أنساب*، ٩: ٢٧٥؛ ابن خياط، ٣٧٨؛ اليعقوبي، ٢: ٢٣٩؛ الطبري، ٧: ٣٥١،٣٤٩؛ ابن الأثير، ٥: ٣٥٣.

(٢٠٥) أنظر خليفات، عوض، *نشأة الحركة الإباضية*، عَمّان (الأردن: مطابع الشعب، ١٩٨٢م)، ٧٨.

(٢٠٦) الأزكوي، ١٥.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

ثورة السودان في المدينة المنورة
١٤٥هـ / ٧٦٢م

ابتسام بنت عبدالمحسن السويلم

قبل البحث في تفاصيل ثورة السودان لابد من التعرف على ما ذكرته المصادر حول السودان والعبيد. ويبدو مما ذكرته هذه المصادر أن هناك فرقاً بين هاتين التسميتين، تعود إلى طبيعة الاختلاف بينهما. فالعبيد هم من كانوا تحت العبودية لأسيادهم، وقد يكون منهم الأسود والأبيض، فهناك العبيد البربر، والصقالبة، والأتراك، والفرس[١]، وقد اشتغل بعضهم بالزراعة وسموا عبيد الحوائط[٢].

أما السودان فلعل تسميتهم تعود إلى لونهم الأسود، وهم على ثلاثة أصناف،فهناك الحبش والنوبة، والزنج[٣]. أما وضعهم الاجتماعي، فهم إما أن يكونوا من الأحرار أو من العبيد. ويغلب أن من قاموا بالثورة التي سميت باسمهم في المدينة المنورة من السودان الأحرار، ذلك لأنهم كانوا يشكلون جماعة لها رؤساؤها وتنظيمها، ولهم طريقتهم الخاصة في التجمع، تعارفوا عليها. ولو كانوا تحت الرق لما استطاعوا أن ينضوا تحت تنظيم معين، وأن يكون لهم رؤساء، ويستدعون من قبل رؤسائهم حين الحاجة، فيأتمرون بأمرهم، وَيُقْدِمون إليهم بالسرعة اللازمة. وهم على الرغم من وضعهم المتحرر، فإنهم كانوا يدينون بالولاء لأهالي المدينة المنورة من قرشيين وأنصار، ممن أطلق عليهم اسم رؤساء المدينة[٤].

هذا وقد عمل بعض السودان في المدينة بالسقاية، فأطلق على الذين كانوا يقومون بهذا العمل لقب سودان أهل المياه[٥].

وقد يكون هؤلاء أحراراً، ويعملون لحسابهم في الساقية. أو أن أسيادهم أذنوا لهم بالعمل بالساقية أو بغيرها من الأعمال مقابل أن يدفعوا لأسيادهم جزءاً من الدخل يسمى ضريبة. وقد يعمل بعضهم ليحصل على التحرر، فيدفع من أجل التحرير لسيده مبلغاً إما جزئياً، أو كلياً، حسب الاتفاق بينهما[٦].

هذا ويجب القول بأن السودان والعبيد بقوا بعد هذه الثورة في المدينة ومكة، وفي المناطق المحيطة بهما، وكان الخارجون على السلطة العباسية يستعينون بهم، فقد استعان الحسين بن علي[٧] صاحب فخ بعبيد الحوائط في مكة، ونادى بتحريرهم[٨].

كمـــا اجـــتمع سودان البادية والأعراب إلى داود بن عيسى أمير مكة (عام ١٩٩ هـــ/ ٨١٥م) أثناء ثورة أبي السـرايا ضد سيادة العباسيين[٩]، كما نهض سودان المدينة بقتل عدد من الأعراب الذين حاولوا الفرار من سجن بغا الكبير[١٠] في المدينة المنورة بعد أن تتبعوهم[١١]. وذلك حين ثاروا على الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧- ٢٣٢هـــ/ ٨٤٢- ٨٤٦م).

وأخـــيراً يجب القول بأن السودان كانوا كثرة في المدينة وفي المناطق حولها، وكذلك في مكة. ومن المرجح أن هؤلاء السودان كانوا ممن أحضرهم أهالي الحجاز للعمل في الزراعة أو في الساقية، أو في الخدمة عموماً. أو أنهم قدموا إليها من المناطق الإفريقية التي خضعت لحكم المسلمين، وأسلم أهاليها، فقدموا للحج وبقوا في الحجاز.

تعد ثورة السودان التي نشبت في المدينة المنورة سنة (١٤٥هـــ/ ٧٦٢م) إحدى الثورات الاجتماعية التي نشبت في العالم الإسلامي، لا بل هي من أوائل هذه الثورات، ولهذه الثورة أسباب متعددة على رأسها :

١ - قضـــاء الخلـــيفة أبي جعفـــر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـــ/ ٧٥٣- ٧٧٥م) على ثورة محمد بن عبدالله الحسني المعـــروف بالنفس الزكية[١٢]. ويمكن أن نعد هذا السبب من الأسباب غير المباشرة[١٣]، ذلك لأن القضاء على هذه الثورة وما تبعه من تنكيل وعقوبات ومصادرات لأموال وأملاك كل من شارك في هذه الثورة ن أدى إلى تكتل السودان وقيامهم بالثورة.

إضـــافة إلى أن المنصـــور أقفل على أهل المدينة، ومنع وصول الإمدادات والمؤونات إليهم، فلم يدع شيئاً يحمل إليهم من ناحية البحر، ومنع ميرة الشام من الوصول إليهم، حتى كان عهد المهدي فأمر بالبحر، ففتح لهم وأذن بقدوم المؤن إليهم[١٤]، وكان لذلك تأثير اجتماعي واقتصادي. إضافة إلى الأثر النفسي، وخاصة وأن المنصور أصبح ينظر إلى أهالي المدينة على أنهم أعداء له[١٥].

٢ - سوء معاملة والي المدينة من قبل أبي جعفر المنصور-عبدالله بن الربيع الحارثي[١٦] لأهاليها، الذي ترك لجنـــده العنان في النهـــب والســـلب والقتل[١٧] مما أدى إلى انتشار الفوضى[١٨]، وكان عبدالله قد تسلم ولاية المدينة في (٢٥ شوال سنة ١٤٥هـــ/ ١٧ يناير ٧٦٣م) إثر القضاء على ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم[١٩].

٣ - وجود فئة من السكان وهم فئة السودان والعبيد، تلك الفئة التي لم تنل حقوقها كاملة، وكانوا مستعدين للثورة ضد الخليفة وولاته، والانضمام إلى كل ثائر ضد الخلافة أو ناقم عليه.

وقـــد بدأ تذمر هؤلاء السودان يظهر على الساحة منذ أن أخذ جند الوالي يعاملون تجار المدينة معاملة سيئة، ويرفضـــون دفـــع أثمـــان ما يشترونه منهم[٢٠]. وقد يكون سبب موقفهم من التجار أن هؤلاء الجند كانوا يتاجرون لأنفسهم وينازعون التجار في أعمالهم، وقد كان لهذا التصرف أثره في نفوس التجار الذين لم يتمكنوا من الوقوف في وجـــه جند الوالي أصحاب القوة العسكرية، ولذلك فإنهم لجأوا للشكوى منهم إلى الوالي عبدالله بن الربيع، فاجتمع

الرؤســاء إلــيه فكلموه، ووضحوا ما يحصل لهم من جنده فلم ينكر، و لم يغير شيئاً[٢١]. ولا تفسير لموقف الوالي هذا مــنهم، إلا أن يكــون جند الوالي يتاجرون لحسابه، أو أنهم يشاركونه في متاجراتهم، أو لأنه أراد كسر أنفة أهالي المديــنة بترك جنده يزعجونهم معاقبة لهم، لأنهم كانوا قد انضموا وأيدوا محمد النفس الزكية في الثــورة على الخلافة العباســية، أو أنه أراد نصرة جنده لأنهم حماته وحماة الخلافة، وأنه لا قوة له بدونهم، خاصة والخلافة كانت قد قضت حديثاً على ثورة محمد النفس الزكية.

والمهم في الأمر أن مناصرة الوالي لجنده أدت إلى شعورهم بقوتهم، وتأييد الوالي لهم، وأن أهالي المدينة لا ناصر لهــم من هؤلاء الجند، مما دفع بهم إلى التمادي في غيهم[٢٢]، فتجاوزا ما كانوا قد فعلوه، وأخذوا بنهب أموال الناس، فهاجموا أحد الصيارفة في المدينة، وحاولوا أخذ كيس نقوده، فتكتل الأهالي، وهبوا لنجدة الصيرفي وعملوا على نصرته لأنه كان مظلوماً، واستعادوا كيس النقود منهم[٢٣]، و لم يكتف الأهالي بأخذ حقهم من المعتدي، بل اجتمع رؤساء أهــل المديــنة لرفع الأمر إلى الوالي وتقديم اعتراضهم له على سوء تصرف جنده، ولكن جوابه لم يكن في هذه المرة أفضل مما سبق، فلم ينكر عمل جنده، و لم يغيره، و لم يناصر أهالي المدينة[٢٤].

وحدث حادث ثالث لا يختلف في كثير أو قليل عن الحادثين السابقين، الذي يؤكد فساد السلطة، أو رغبتها في انــتقام جندها من أهالي المدينة، ويتلخص هذا الحادث الذي أدى إلى ثورة عارمة –وإن كانت قد حدثت في يوم واحــد– في أن جــندياً من جنود الوالي قدم إلى أحد الجزارين لشراء اللحم منه في (يوم الجمعة ٢٣ ذي الحجة سنة ١٤٥ هـــ/ ١٥ مارس ٧٦٣م)[٢٥] فأعطاه الجزار كل ما طلبه من اللحم، فأخذه دون أن يدفع ثمنه، ولما طالبه الجزار بدفع ثمن اللحم، أبى أن يسدد ما عليه ويدفع الثمن، لا بل استخدم القوة، وأشهر سيفه في وجه الجزار، فلم يكن من الجــزار إلا أن أخرج شفرته، وضرب الجندي بها في خاصرته، فأصابه وأجهز زملاؤه من الجزارين على الجندي حتى قــتل[٢٦]. كان هذا العمل الشرارة التي أدت إلى نشوب ثورة ذهب ضحيتها عدد من أهالي المدينة وسودانهم، إضافة إلى عدد من جند الوالي[٢٧].

أدرك الجزار بأن الوالي سوف ينتقم منه، وأحسَّ الجزارون والباعة وغيرهم بضعفهم أمام الوالي وجنده، ولذلك فــإنهم قرروا استباق انتقام الوالي بالثورة على الجند وحاميهم. كما أن السودان الذين كانوا يقطنون المدينة المنورة بقسميها العالية والسافلة[٢٨] رأوا المشاركة في هذه الثورة، وكانت مشاركتهم بدافع ذاتي دون أن يطلب منهم ذلك، فقــد كان السودان في العالية، وبعض من كان بالسافلة في أعمالهم، فلما سمعوا نفخ بوق لهم، أصغوا للصوت، فلما تيقــنوا مــن الصوت تركوا ما في أيديهم، واتجهوا باتجاهه، حتى وصلوا إلى المكان الذي ينفخ فيه البوق[٢٩]. وكان خــروجهم لحمايــة المظلومين أمثالهم من ظلم الوالي وجنده، ولعلهم فكروا أنهم في مشاركتهم في هذه الثورة سوف يــنالون جــزءاً من حقوقهم، أو حقوقهم كاملة. وكان لهؤلاء السودان رؤساء عرفوا بأسمائهم وهم وثيق، ويعقل، وزمعة[٣٠]. و لم تذكر المصادر التاريخية أسماءهم كاملة.

وممـــا لا شك فيه أن هؤلاء السودان كانوا منظمين، ولهم رؤساء، وكانوا يتنادون بصــوت البـــوق، ولم تذكر المصادر من السلاح الذي استخدمه هؤلاء إلا استخدامهم لعمد السوق، يهاجمون بها الجند فيقتلونهم(٣١)، وقد تمكنوا بأسلحتهم البسيطة، وبمساعدة الجزارين من قتال جند الوالي، وهم جند الخلافة المسلحين بكل أنواع الأسلحة، لأنــه يتوجب عليهم حماية المدينة المنورة من كل من يعتدي عليها، وظل الفريقان يقتتلون حتى أمسى النهار، وتمكنوا من هزيمة جند الوالي وقتلوا عدداً كبيراً منهم(٣٢).

لم يتوقف السودان عند هذا الحد بل أرادوا قتال الوالي وإخراجه من المدينة، فتقدموا إلى دار الإمارة للقبض على الوالي ففر منهم، ولخوفه وللانتقام من الثائرين، بدأ يقتل كل من يجده في طريقه ممن ليس له علاقة بالثورة ظناً منه أنه منهم(٣٣)، أو لإرهاب أهل المدينة، وتبعه السودان حتى صار إلى البقيع، فلحقوا به، فنثر لهم دراهم شغلهم بها(٣٤)، ومضـــى على وجهه حتى أتى بطن نخل(٣٥)، فترل به(٣٦). وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على قوة هؤلاء السودان ومقدرتهـــم العســكرية، وكــثرة عددهم. فقد هابهم الجند، وأخذوا يقولون عنهم "ما هؤلاء السودان إلا سحرة أو شياطين"(٣٧).

أصــبحت المدينة المنورة دون والٍ يدير أمورها، مما أفسح المجال للسودان إلى كسر باب السجن وإخراج أبي بكـــر بـــن أبي ســـبرة منه، ومن معه من المساجين(٣٨)، كما استغلوا ذلك للقيام بنهب مستودعات الطعام(٣٩) التابعة لـــلخلافة وفيها السويق والدقيق والزيت والقسب(٤٠) فانتهبوه وأخذوا ببيع هذه المواد، فباعوا حمل الدقيق بدرهمين، وراويـــة الزيـــت بأربعـــة دراهم(٤١)، وبذلك أصبح السودان يملكون الأموال، بعد أن كانوا يعيشون في فقر مدقع، ويصـــورهم الطـــبري بقوله: "كان الفارس –يقصد الفرد من جند الخلافة– ليلقى الأسود وما عليه إلا خرقتان على عورته، ودراعة"(٤٢).

لم تنـــته الـــثورة إلا بعد أن عمل زعماء المدينة ورؤساؤها على احتوائها فقد خرج أبو بكر من أبي سيرة من السجن، وقد ذاق مراراته، وأدرك قسوة الولاة ومعاقبتهم، وكان الحديد ما زال في يديه فأتي المسجد وأرسل إلى محمد ابـــن عمران(٤٣)، ومحمد بن عبدالعزيز(٤٤)وغيرهما فاجتمعوا عنده، فقال لهم: "أنشدكم الله وهذه البلية التي وقعت!! فـــوالله لـــئن ثبتت علينا عند أمير المؤمنين بعد الفَعْلَة الأولى يقصد مناصرة ثورة محمد النفس الزكية –أنه لهلاك البلد وأهلـــه، والعبـــيد في السوق بأجمعهم، فاذهبوا فكلموهم في الرجعة والفيئة إلى رأيكم فإنهم لا نظام لهم، ولم يقوموا بدعوة، وإنما هم قوم أخرجتهم الحمية"(٤٥).

ويتضح من هذا النص الذي قاله أبو بكر بن أبي سيرة عدة نقاط:

أولها: أنه عَدَّ خروج السودان على الخلافة بلية على أهل المدينة، وذلك لأن الخليفة أبا جعفر لن يغفر لهم وقوفهم على الحـــياد مـــن ثورة مواليهم السودان، وسيرى في خروجهم على الخلافة امتداداً لثورة محمد النفس الزكية، وأن أهاليها مؤيدون لهذه الثورة.

ثانيها: أن هؤلاء السودان خرجوا وليس لهم من هذه الثورة أي هدف معلن، ولا نظام فهم لم يدعوا إلى فئة معينة أو إلى شـــخص معين، وبالتالي فإن مآل الثورة إلى الفشل، كما سيحدث حيث ستقوم ثورة الزنج في البصرة في خلافة الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٦- ٢٧٩هـــ/ ٨٧٠- ٨٩٢م) تلك الثورة التي أعلن قائدها نفسه خليفة، وإن كان آراؤه متضاربة[٤٦].

ثالـــثها: إن هـــؤلاء السودان خرجوا حمية ودفاعاً عن مواليهم في تجارتهم وأعمالهم، وأنهم أرادوا أن ينتقموا لأنفسهم وسادتهم لا لشيء آخر فخروجهم كان حمية، ويتضح ذلك مما أجاب به وثيق قائد السودان الحسين بن مصعب حين جاء إليه مع جماعة وكانوا قد عسكروا في السوق، سائلاً إياهم أن يتفرقوا لأنهم جميعاً مع أهالي المدينة لا يتمكـــنون من تحقيق ما يصبون إليه، فقال له وثيق :"إن الأمر قد وقع بما ترون، وهو غير مبقٍ لنـــا ولا لكم، فدعونا نَشْفِكم ونشتفِ أنفسنا"[٤٧].

وهكذا تحرك هؤلاء الزعماء للوقوف في وجه هذه الثورة، فقام محمد بن عمران، ومحمد بن عبد العزيز وغيرهما بالذهاب إلى السودان ومناشدتهم بالتوقف عن الثورة[٤٨] وإعادة ما كانوا قد نهبوه من مخازن الخلافة دون أن يبقوا منه شـيئاً، وقـــد فعلوا ذلك، وسلموا ما استطاعوا إعادته إلى الحكم بن عبد الله بن المغيرة بن موهب، فكان ما أعادوه يساوي ألف دينار[٤٩].

وكـــان لســـادة المدينة تأثير كبير على السودان الذين أعلنوا أنهم في طاعتهم ورضخوا لندائهم، فوافقوا على التوقف عن القتال، وأوضحوا سبب قيامهم بالثورة قائلين: "والله ما قمنا إلاَّ أنفة بما عمل بكم، فأمرنا إليكم"[٥٠].

وهكذا رضخ السودان لمطالب أسيادهم، وقدموا إلى المسجد، فتوقفت الثورة التي كانت احتجاجاً على سوء أعمال الولاة، وعدم نصرتهم للمظلوم، وكان من نتائجها :

١ - عدم تمكن أهالي المدينة من القيام بأداء صلاة الجمعة، في اليوم الذي قامت به، وذلك سبب الفوضى التي سادت المديـــنة المنورة، ولفرار والي المدينة منها إلى بطن نخلة، كما أنهم لم يجدوا إماماً يؤمهم في أوقات الصلوات في ذلك اليوم، حتى كانت صلاة العشاء، فلم يجب أحد إلى الصلاة بالناس، خوفاً من أن يظن به، أنه يترأس ثورة السودان، وخوفاً من الخليفة المنصور وشدته، حتى قام الأصبغ بن عاصم بن عبد العزيز بن مروان لإمامة الناس في الصـــلاة، فـــلما وقـــف واستوت الصفوف أقبل عليهم بوجهه ونادى بأعلى صوته موضحاً انه ليس من الخارجين على الخليفة، فقال ذاكراً اسمه ثم تابع قوله :"أصلي بالناس على طاعة أمير المؤمنين" وكرر ذلك مرتين أو ثلاثـــاً لئلا يظن به سوء، وذلك خشية من انتقام المنصور، ثم تقدم فصلى بالناس[٥١]، وقد قام بإمامة الناس بالصلاة بعد أن أذن المؤذن محمد بن عمار للصلاة، وأخذ ينادي كبار القرشيين لإمامة الناس في الصلاة واحداً واحداً فلم يجبه أحد حتى قام الأصبغ بإمامتهم[٥٢].

٢ - استسلام السودان الثائرين لرؤسائهم، وإذعانهم لهم، وتسليمهم إلى والي المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي، الذي تمكن من العودة إليها بعد أن ركب إليه نفر من قريش، وناشدوه العودة من بطن نخلة، ولم يزالوا به حتى عاد إليها[٥٣]. ولما عاد قام بمعاقبة الثوار السودان، ونفذ برؤسائهم عقوبة السرقة، فقطع يد "وثيق" و"يعقل" وغيرهما، ولم تذكر المصادر قطع يد قائدهم الثالث "زمعة" صراحة[٥٤]، وهذا الوالي الذي طبق الشرع على قادة السودان لم يطبقه على جنده الذين سرقوا ونهبوا.

٣ - عودة الهدوء ثانية إلى المدينة المنورة.

٤ - كثرة السودان وقوتهم في المدينة.

٥ - التلاحم بينهم وبين أسيادهم إن كانوا ما زالوا تحت الرق، أو بينهم وبين أهالي المدينة بصفة عامة من قرشيين وأنصار من ناحية ثانية، وكانوا يعدونهم مواليهم[٥٥].

ويمكن أن نستنتج الكثير من أحداث ومجريات هذه الثورة ومن ذلك:

١ - ضعف القوة العسكرية الموجودة في المدينة، علماً بأن الخلافة العباسية كانت مهددة من قبل العلويين الطامعين في الوصول إلى كرسي الخلافة[٥٦]، فلم يكن مع الوالي إلا قوة لا تكفي لحمايته يتضح ذلك من أن فئة مستضعفة بدون سلاح قوي، تمكنت من السيطرة على المدينة وأخرجت الوالي منها.

٢ - كثرة السودان في المدينة المنورة وقد يكون هؤلاء موالي لزعماء المدينة -كما اتضح مما ذكرته المصادر- كما أن أكثرهم من القادمين من أفريقيا للحج، ومن ثم استقروا في المدينة أو أنهم من أسرى الحروب أو غير ذلك.

٣ - كان هؤلاء السودان متكاتفين متضامنين يكفي نفخ بوق لجمعهم والقيام بالثورة ضد الخلافة دون أن يسألوا عن سبب الثورة، كما أنهم كانوا مستعدين لتقديم المساعدة لكل ثائر، ولكل من يطلب منهم ذلك.

٤ - سوء سياسة بعض الولاة وعدم اهتمامهم بسكان المدينة وخاصة الطبقات الدنيا، مثل السودان[٥٧].

٥ - ترك الجند يعيثون في الأرض فساداً وقيامهم بظلم الأهالي[٥٨]، على حين كان يتوجب عليهم أن يعملوا على إقامة الحق ونشر العدل.

٦ - قيام جند الخلافة بأعمال تجارية منافسين فيها أهالي البلاد[٥٩].

٧ - تطبيق الشريعة الإسلامية على الضعفاء من السكان على حين لم تطبق على جند الخلافة.

٨ - انصياع الموالي السودان لرؤسائهم، ولكن هؤلاء الرؤساء لم يتمكنوا من حمايتهم، فعلى الرغم من أن ثورتهم نشبت انتقاماً من والي المدينة عبد الله بن الربيع الحارثي وجنده الذين عاثوا فساداً ومناصرة لأهالي المدينة، فقد

توقفـــوا عـــن القتال بناء على أوامر من أسيادهم، ولكن أسيادهم سلموهم للوالي ليرى رأيه فيهم، لئلا يشك المنصور في إخلاصهم للخلافة العباسية، و لم يقوموا بحمايتهم ونزلت بهم عقوبة الوالي.

٩ - كان السودان من الشعب وانتقموا للشعب من الوالي، وناصروا أصحاب الحق الذين وقع عليهم الظلم، وكانت آراؤهـــم ديموقراطية ومما يدل على ذلك المحاورة التي حدثت بين محمد بن عمران ورئيسهم وثيق وخليفته يعقل الجـــزار، فقـــد قـــال محمد بن عمران لوثيق: "إلى من تعهد يا وثيق؟ -يقصد بالخلافة- قال إلى أربعة من بني هاشم، وأربعة من قريش، وأربعة من الأنصار،وأربعة من الموالي، ثم الأمر شورى بينهم"[٦٠]، وهذا يدل على أن وثيقاً كان لا يرى بأساً في توليه الموالي أمور الخلافة.

١٠ - وقـــد يكـــون ما فعله الوالي من إطلاق يد جنده على أهل المدينة انتقاماً منهم لمناصرتهم لثورة محمد النفس الزكـــية عـــلى الخليفة المنصور، فقد انتقم الخليفة بنفسه منهم، فقبض على أموال بني الحسن كلها وأموال بني جعفـــر[٦١]، وبقيـــت أموالهم بيد الخلافة حتى عصر المهدي (١٨٥-١٦٩هـ/ ٧٧٥- ٧٨٥هـ) الذي ردها إليهم بعد أن طالبو بها[٦٢].

١١ - وجـــود فئات فقيرة في المدينة ناقمة على الولاة والخلفاء واكبر دليل على فقر هؤلاء أنهم حيث خرجوا لم يكن أحدهم يرتدي إلا خرقتين تستران عورته، ودراعة[٦٣].

١٢ - خوف رجالات المدينة من قوة المنصور وشدته وانتقامه منهم، وخاصة وأن هذه الثورة تبعت ثورة محمد النفس الزكـــية وغضب المنصور من أهل المدينة والخوف من المنصور هو الذي دفع بأبي بكر بن أبي سبرة إلى الخروج من الحبس مقيداً بحديده[٦٤].

وأخـــيراً يمكـــن القـــول، بأن هذه الثورة تعد باكورة للثورات الشعبية والاجتماعية التي ستتعرض لها الخلافة العباسية، وهي مقدمة لثورة الزنج الذين ثاروا على العباسيين بسبب تدني أوضاعهم الاقتصادية، وكان على الخلافة العباســـية أن تتنـــبه إلى ضرورة الاهتمام بالفئات الفقيرة، وألا تبقى إمداداتها المالية ومساعداتها التي ترسل إلى المدينة حكراً على بني هاشم، وقريش عامة والأنصار وغيرهم من أشراف المدينة، وكان الثائرون على الخلافة العباسية يجدون عوناً لهم في العبيد والسودان، فلما فارق الحسين بن علي صاحب فخ المدينة إلى مكة نادى أيما عبد أتانا هو حر وذلك ليستعين بهم في قتاله للعباسيين[٦٥].

التعليقات

(١) مـــالك، أبـــو عبدالله مالك بن أنس (١٧٩هـ)، *المدونة* (مصر: مطبعة السعادة، ١٣٢٣هـ)، ٣: ١٥٤؛ أبو نعيم، أحمد بن عبدالله الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ)، *حليـــة الأوليـــاء وطبقات الأصفياء* (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)

٧: ٢٣؛ الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسين المكي (ت ٨٣٢هـ)، *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق: محمد الطيب، ط٢ (القاهرة: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)، ٣: ٢١٤.

(٢) الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله (ت ٥٦٠هـ)، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، تحرير ونشر أ. كوريللي وآخرين (نابلس: معهد الدراسات الشرقية، ١٩٧٠/ ١٩٧١م)، ٢: ١٤٣.

(٣) أبو نعيم، المصدر السابق، ٧: ٢٣؛ الفاسي، *العقد الثمين*، ٣: ٢١٤.

(٤) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ (القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٥م)، ٧: ٦١٠ – ٦١٢.

(٥) الإدريسي، المصدر السابق، ٢: ١٤٣.

(٦) مالك، *المدونة*، ٧: ٩٧، ٢٠٠.

(٧) هو الحسين بن علي بن الحسن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أبو طالب رأى من الخليفة العباسي الهادي ما أغضبه فخرج عليه، وبايعه الناس على الكتاب والسنة، وجرت بين الطرفين سنة ١٦٩هـ معركة فخ قرب مكة، فانهزم وقتل. أنظر عنه الأصفهاني، أبو الفرج (ت ٣٥٦هـ)، مقاتل الطالبيين (القاهرة: ١٩٤٩م)، ٢٨٨- ٣٠٨.

(٨) الطبري، المصدر السابق، ٨: ١٥٩؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام*، حوادث ووفيات (١٦١-١٧٠هـ) تحقيق: عمر عبدالسلام التدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٨هـ)، ٣٦.

(٩) الفاسي، *شفاء الغرام*، ٢: ٢٨٧؛ الطبري، *تاريخ الرسل*، ٨: ٥٣٢؛ الطبري، محمد بن علي بن فضل المكي (ت ١١٧٣هـ)، *تاريخ مكة، إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن*، تحقيق: محسن محمد حسن سليم، ط١ (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، (د.ت)، ١: ٧٧. وثورة أبي السرايا قام بها السري بن منصور من ولد هاني بن قبيصة بن هاني بن مسعود بن عامر ابن عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان قائد جيوش محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم، الذي يقال له ابن طباطبا. تولى السلطة بعد وفاة "محمد بن إبراهيم" واستولى على الكوفة والمدائن. وجه أبو السرايا حسين بن حسن الأفطس إلى مكة عام ١٩٩هـ وكان عليها داود بن عيسى ففر إلى العراق، ودخل حسين بن حسن مكة وضم له المدينة المنورة، الطبري، ٨: ٥٣٢.

(١٠) بغا الكبير وهو غير بغا الشرابي قائد من قادة العباسيين تركي الأصل كان له دور كبير في الخلافة العباسية في عصر سيطرة قاده الأتراك. توفى سنة ٢٤٨هـ وصلى عليه المستعين وبنو هاشم والقاده في سامراء. أنظر عنه الطبري: المصدر السابق، ٩: ٢٨٣؛ ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد ومصطفى عبدالقادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م) ١٢: ٨، ١١، ٧٣.

(١١) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٢.

(١٢) محمد بن عبدالله النفس الزكية، هو محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب. انظر عنه الطبري، المصدر السابق، ٧: ٥٥٢- ٦٠٩.

(١٣) اجتمع مع محمد بن عبدالله خلق عظيم، ومما لا شك فيه أن من بين أنصاره السودان في المدينة. انظر اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٢هـ)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠م)، ٢: ٣٧٦.

(١٤) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٥٧٨، ٦٠٣. وهذه رواية عيسى بن عبدالله العلوي على حين أن رواية محمد بن جعفر التي أوردها

الطـــبري، المصدر السابق، ٧: ٦٠٣ -٦٠٤. أن أبا جعفر بعد أن استولى على أموالهم واحتج بعضهم، طلب من واليه أن يرد عليهم أموالهم صلة لأرحامهم، وحفظاً لقرابتهم.

(١٥) استمر أمر ملاحقة المنصور للمشاركين في ثورة محمد النفس الزكية حتى ولاية جعفر بن سليمان الذي تولى بعد ما يزيد عن سنة ونصف من القضاء على ثورة محمد. انظر الطبري، المصدر السابق، ٧: ٥٩٤-٦٠٩.

(١٦) الذهبي، المصدر السابق، حوادث ووفيات (١٤١- ١٦٠هـ)، ٣٢ - ٣٣

(١٧) انظر فيما بعد.

(١٨) عـــبدالله بـــن الربيع الحارثي والي الخليفة المنصور سنة (١٤٥هـ) ولاه على الحجاز بعد القضاء على ثورة محمد النفس الزكية، نـــازع بعض جنده التجار فيما يشترون فشكوا إليه جنده فلم يكترث بالشكوى فنشبت ثورة السودان. ابن الجوزي، المصدر السابق، ٨٤، ٦٨.

(١٩) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠؛ ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ): *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٥م)، ٥: ٥٥٦؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٧٣هـ)، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، تحقيق: محمد جابر عبدالعادل الحيني (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م)، ٢٢ : ٨٨.

(٢٠) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠.

(٢١) الطبري، المصدر نفسه، ٧: ٦١٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٨؛ الذهبي، المصدر السابق، حوادث ووفيات (١٤١-١٦٠هـ)، ٣٢- ٣٣.

(٢٢) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠.

(٢٣) الطبري، المصدر نفسه، ٧: ٦١٠؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٨ -٨٩.

(٢٤) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٢٥) الطبري، المصدر السابق، ٦١٠.

(٢٦) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩ ؛ الذهبي، المصدر السابق، حوادث ووفيات (١٤١-١٦٠هـ) ٣٢- ٣٣.

(٢٧) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦.

(٢٨) العالية والسافلة: العالية تأنيث العالي اسم لكل ما كان من جهة نجد من المدينة المنورة من قراها وعمائرها إلى تهامة. وأما ما كان دون ذلـــك مـــن جهة تهامة فهي السافلة، وعالية الحجاز أعلاها بلداً، وأشرفها موضعاً وهي بلاد واسعة. انظر الفيروزأبادي، مجدالدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، *المغانم المطابة في معالم طابة*، قسم المواضع، تحقيق: حمد الجاسر، الرياض، ط١ (دار اليمامة، ١٣٨٩هـ)، ٢٤٢- ٢٤٥.

(٢٩) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠.

(٣٠) الطـــبري، المصدر نفسه، ٧: ٦١٠. وقد ذكر اسم رئيسهم الثالث باسم "رمقة" وذلك نقلاً عن الحارث بن إسحاق، كما ذكر أسماءهم في ٧: ٦١١ نقلاً عن عيسى "وثيق وحديا وعقود وأبو قيس". وانظر ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦ ؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٣١) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١؛ الذهبي، المصدر السابق، حوادث ووفيات (١٤١- ١٦٠ هـ)، ٣٢ -٣٣.

(٣٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦.

(٣٣) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠.

(٣٤) الطبري، المصدر نفسه، ٧: ٦١٠- ٦١١.

(٣٥) بطن نخل، جمع نخلة، قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة، بينهما الطرف على الطريق، وهي بعد أبرق العزّاف للقاصد إلى المدينة، على ليلتين عنها. انظر الفيروز آبادي، المصدر السابق، ٥٧.

(٣٦) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦.

(٣٧) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١.

(٣٨) البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)، *جمل من أنساب الأشراف*، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦م)، ٤: ١٣٠- ١٣١؛ الطبري، نفسه، ٧: ٦١١، وأبوبكر بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أبي سبرة بن رهم أحد بني عامر بن لؤي، أحد الفقهاء بالمدينة المنورة، كان من جباة أموال الخلافة وكان قد جبا أموال طيئ وأسد، ولما أحضرها كان محمد النفس الزكية قد استولى على المدينة المنورة، فدفع الأموال إليه، فحبسه كثير بن حصين الذي كان قد استخلف فيها من قبل عيسى بن موسى فبقى والياً عليها شهراً، ثم قدم عبدالله بن الربيع الحارثي، والياً عليها من قبل المنصور. انظر البلاذري، المصدر السابق، ٤: ١٣٠- ١٣١؛ الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦٠٩- ٦١١.

(٣٩) وجد السودان أحمالاً من الطعام في دار مروان ودار يزيد، كانت قد حملت في البحر للجند، فنهبوها ولم يدعوا منها شيئاً. انظر الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١.

(٤٠) كذا جاءت عند الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١؛ وهي عند كل من ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ والنويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩ "القصب".

(٤١) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٤٢) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١.

(٤٣) محمد بن عمران بن إبراهيم بن طلحه بن عبد الله أبو سليمان القرشي التيمي المدني، أحد الأشراف، ولي قضاء المدينة وكان مهيباً، جليلاً، قوياً، قليل الرواية، يروي عن جماعة من التابعين توفي ستة (١٥٤هـ) وهو على قضاء المدينة، ولما بلغ موته المنصور قال، اليوم استوت قريش، انظر عنه السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت٩٠٢)، *التحفه اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة*، عني بنشره أسعد طرابزوني الحسيني (١٩٨٠م)، ٣: ٦٨٧- ٦٨٨.

(٤٤) محمد بن عبدالعزيز بن عمر بن عبدالرحمن بن عوف الزهري القرشي، ولي قضاء المدينة، وكان محدثاً وفقيهاً، وقد ضعفه بعضهم ومدحه بعضهم الأخر، السخاوي، المصدر السابق، ٣: ٦٤٧- ٦٤٨.

(٤٥) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٢؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦- ٥٥٧.

(٤٦) ثورة الزنج هي الثورة التي قام بها علي بن محمد بن أحمد الذي أدعى النسب العلوي، وجمع إليه الزنج الذين كانوا يكتسحون السباخ في جنوب العراق، وقد نشبت هذه الثورة سنة (٢٥٥هـ) واستمرت ما يزيد عن أربعة عشر عاماً، وذهب ضحيتها ما يزيد عن مليوني شخص من الطرفين و لم تنته هذه الثورة إلا سنة (٢٦٩هـ) انظر عن ذلك الطبري، المصدر السابق، ٩: ٣٨٢- ٣٥٦.

(٤٧) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٣١٢.

(٤٨) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦- ٥٥٧؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٤٩) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٣.

(٥٠) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٧؛ النويري، المصر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٥١) الطبري، المصدر السابق، ٧: ؛ ابن الأثير، المنصور المصدر السابق، ٥: ٥٥٧.

(٥٢) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٣.

(٥٣) الطبري، المصدر نفسه، ٧: ٦١٤.

(٥٤) النويري، المصدر السابق، ٢٢: ٨٩.

(٥٥) السويلم، ابتسام عبدالمحسن، الحياة *الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز من قيام الدولة العباسية حتى منتصف القرن الرابع الهجري*، رسالة ماجستير قدمت لجامعة الملك سعود، ونوقشت سنة ١٩٨٤م، ١٢٤.

(٥٦) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٥٧٣، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٩٠، ٥٩٥؛ المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد (القاهرة: طبعة مطبعة السعادة، ١٩٦٤م)، ٣: ٣٠٦- ٣٠٧؛ ابن طباطبا، محمد بن علي (ت ٧٠٩هـ)، *الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية*(بيروت: دار بيروت، ١٩٦٦م)، ١٤٧- ١٤٨؛ المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) *المقفي في تاريخ مصر والواردين إليها*، نسخة مصورة عن مجلدة باريس، ق ٩١ ظهر، وجه، ٩٨ ظهر.

(٥٧) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٠، ٦١١.

(٥٨) انظر فيما سبق أعلاه.

(٥٩) انظر فيما سبق أعلاه.

(٦٠) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١٢.

(٦١) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٣- ٥٥٤، ومن مشهوري بني هاشم الذين انضموا لثورة محمد النفس الزكية، موسى بن عبدالله، وحسين وعلي أبناء زيد بن علي بن الحسن، وحمزة بن عبدالله بن محمد بن الحسين، وعلي وزيد أبناء الحسن بن زيد ابن علي، والحسن ويزيد وصالح بنو معاوية بن عبدالله بن جعفر، والقاسم بن إسحاق وغيرهم كثير وانظر أسماء من انضم إليه من القرشيين وغيرهم، الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦٠٥.

(٦٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٣- ٥٥٤.

(٦٣) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٦١١.

(٦٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ٥: ٥٥٦- ٥٥٧.

(٦٥) السخاوي، التحفة، ١: ٥١١، وانظر ترجمة الحسين بن علي في السخاوي، ١: ٥٠٩- ٥١٢ ترجمة رقم ٩٩٢.

أضواء على حركة الطالبي محمد بن جعفر وخلفياتها عند نهاية القرن الثاني الهجري

أحمد بن علي حيدر السري
رئيس قسم التاريخ والآثار – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الإمارات العربية المتحدة

تمهيد

ترتبط حركة محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[١] في الحجاز عند نهاية القرن الثاني الهجري بالأحداث الدامية التي جرت بين الأمين والمأمون، والتي أفسحت المجال لكثير من الطامحين في أنحاء الخلافة. كما ترتبط بطموحات الطالبيين أو العلويين التي انتعشت بتبني حركة أبي السرايا لها.

ولفهم طبيعة التطورات التي جرت في الحجاز عند نهاية القرن الثاني الهجري نرى من الضروري التذكير بطبيعة الخطر الذي كانت حركات الطالبيين أو الحركات العلوية تمثله على الخلافة العباسية. وقد كان الخطر عظيماً على الدوام بغض النظر عن الوزن العسكري ومكان الظهور، وآية ذلك أن كل حركة من الحركات المتوالية كانت تشير بأصابع الاتهام إلى العباسيين كمغتصبين لـ "حق الطالبيين"، وهو الحق الذي يرى الطالبيون أن بني العباس أدعوه لأنفسهم ووصلوا باسمه إلى الخلافة[٢]. وقد أخذ الطالبيون كما كان شأنهم في العهد الأموي يشكلون محاور استقطاب لقبائل وجماعات يجمعها هدف الخروج أو الإطاحة بالخلافة العباسية، حيث أخذ بعض المسلمين يرون في آل أبي طالب واجهات دينية وسياسية يمكن تحت ظلالها تحقيق هذا الطموح أو ذاك فترسخت لذلك ومنذ العهد الأموي "ثقافة الحق في الخلافة" عند الأمويين والطالبيين والعباسيين على السواء. و لم تسلم "ثقافة الحق في الخلافة" هذه مع ذلك من الاستغلال من طامحين سياسيين لا يقرون بالحق في السلطة لا لهؤلاء ولا لهؤلاء، ولكنهم يترلون عند مزاج عام ترسخ عبر الصراعات المختلفة، ودفع إلى تعلق فئات من المسلمين بآمال يرونها ستتحقق لو أن العلوي فلان أو فلان قام بالأمر. ومن يتأمل في كتاب مقاتل الطالبيين يقف على الكثير من تداخل الدوافع بين الطالبيين وطالبيهم والموقف من الخلافة العباسية.

ولسنا بحاجة للتشديد على أن دراسة حركة واحدة من حركات الطالبيين لا ينبغي أن تنفصل ذهنيا ولا تاريخيا

عـــن الحركات التي سبقتها منذ مبايعة الحسن للخليفة معاوية عام٤٠ هجرية، العام الذي عرف بعام الجماعة، مروراً بمقتلة الحسين في كربلاء وبحركة زيد بن علي وابنه يحيى إلى حركة عبد الله بن معاوية وهي آخر محاولات الطالبيين في العهد الأموي.

حرب الأمين والمأمون والحركات العلوية

بـــإعلان الخلافة العباسية انكسرت العلاقة بين البيتين الهاشميين، العلوي والعباسي، وانتقلت من المحاجاة حول الأحقية في السلطة كما وردت في الرسائل المتبادلة بين محمد النفس الزكية وأبي جعفر المنصور إلى مواجهات مسلحة. وقـــد تتابعـــت المحاولات العلوية للثورة على الخلافة العباسية، بدءاً بمحمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم مروراً بحركة أخويـــه إدريس ويحيى ثم حركة الحسين بن علي صاحب فخ، ثم حركة يحيى بن عبد الله زمن الرشيد. أما الحركات العلويـــة الـــتي ظهرت عند نهاية القرن الثاني الهجري ومنها حركة محمد بن جعفر الصادق فقد ظهرت في ظروف لا تشبه الظروف التي حدثت فيها الحركات الأولى، فالحركات الأولى قامت في ظل رسوخ الخلافة العباسية وتنامي قوتها العســـكرية والاقتصادية وهو ما مكنها من القضاء على مختلف المعارضات، لكن حركة محمد بن جعفر تأتي بعد أن أضـــعف العباســـيون أنفسهم ركائز سلطتهم فكريا وعسكريا، عبر الاستهتار بوصايا الرشيد في مسألة التتابع على الخلافـــة بين الأخوين الأمين والمأمون وعبر الحرب الضروس بينهما فيما بعد، كما أن الكعبة المشرفة وما شهدت من أيمـــان مغلظة لم تستطع بهيبتها وقدسيتها وقف طموحات الأخوين في الطغيان على بعضهما. وقد تميزت حركة محمد بـــن جعفر عن سابقاتها العلوية بإعلانها الخلافة مباشرة حيث بويع محمد بن جعفر خليفة ولقب بأمير المؤمنين، وذكر أن الحجاز وتهامة بايعته، وهو أول طالبي يبايع له بالخلافة بعد الحسن بن علي[٣] مع ما يعني ذلك من إسقاط الشرعية كلية عن الخلافة العباسية.

لقـــد كانت حرب الأمين والمأمون صراعاً مكشوفاً من أجل السلطة بين أخوين في الظاهر، وكانت بين تيارين وجماعـــتين في الواقع، هما حزب المأمون الفارسي، وحزب الأمين العربي. وأيا كانت مبررات هذا الفريق أو ذاك، فلا بد من القول أن الحرص على السلطة المطلقة واستخدام القوة للحصول عليها قد طغيا على المبررات الأخرى. وكانت هـــذه الحرب بمبرراتها العملية منعطفا خطيرا في تاريخ الخلافة العباسية التي كانت قد رسخت شرعيتها منذ ظهورها وحتى عصر الرشيد على أساس النسب، والاصطفاء الإلهي (إنما أنا ظل الله في أرضه) والنجاح في الإطاحة بالأمويين، لكـــن هـــذه الشرعية تنهار الآن في الحرب بين الأمين والمأمون، وتفتح الباب واسعاً أمام الطامحين وأهل القوة لمحاولة الإطاحة بالخلافة العباسية أو اقتطاع جزء من أجزائها المترامية للسيادة فيه، خاصة وقد حدث ما يمكن تسميته "بفراغ في الســـلطة" بعد مقتل الأمين عام ١٩٨هـــ، وبقاء الخليفة المأمون في مرو بعيدا عن بغداد مركز الخلافة وحاضرتها، لاسيما وأن المأمون بمقتل أخيه الأمين لم يصر تلقائيا خليفة شرعيا لكل المسلمين، بل خلع في بغداد عام ٢٠٢هـــ، إثر مبايعـــته لعلـــوي هو على الرضا بن موسى الكاظم عام ٢٠١هـــ، ليكون ولي عهده، ولم تحصل للمأمون بيعة عامة

بخلافــته إلا عام ٢٠٤هــ[٤]، وهو العام الذي وصل فيه من مرو إلى بغداد. وعليه يمكن اعتبار السنوات الست بين (١٩٨-٢٠٤) هــي ســنوات خلو من سلطة مركزية مجمع عليها. ولا عجب أن يــرى كل طامح أو خارج على السلطة العباسية نفسه في تلك الظروف أو بعدها مقلداً للسادة الكبار في تقاتلهم الدموي على السلطة.

كــان الطامحون في المرصاد لانتهاز أوضاع ما بعد الحرب بين الأمين والمأمون، فالجيوش منهكة والمأمون استقر بعــيدا في مرو وترك بغداد وكل العراق للحسن بن سهل حديث العهد بالمجوسية وغير المقبول من عامة المسلمين في العــراق والجزيــرة بسبب ما روي من حجب أخيه الفضل بن سهل المأمون عن الناس في مرو واستبد بالخلافة دونه بصــفته الوزيــر. لذلك "هاجت الفتن في الأمصار"[٥]، أو بتعبير المقدسي "تشوشت الدنيا"[٦]، وكان الطالبيون هم الذيــن أفــادوا من هذه الأوضاع أو كما وصف ابن الأثير "وانتشر الطالبيون في البلاد"[٧] وظهرت حركات علوية كثيرة في السنتين الأخيرتين من القرن الثاني الهجري منها حركة محمد بن جعفر الصادق، ولابد من الإشارة هنا إلى أن كل تلك الحركات انبثقت أو انتعشت في ظل الحركة الأم غير العلوية وهي التي قادها السَرِيُّ بن منصور المعروف بأبي السرايا .

حركة أبي السرايا وصلتها بحركة محمد بن جعفر

لابــد أن تمنح حركة أبي السرايا قدراً غير يسير من التركيز والاهتمام ليس لأنها الحركة الأم التي تولدت عنها حــركة محمــد بــن جعفر ، بل لأن زعيم هذه الحركة الواسعة والخطيرة على الخلافة العباسية قد قادها واحد من المغمورين لا صلة له ببيوتات الحكم عباسية كانت أم طالبية. فقد بدأ أبو السرايا حياته مؤجرا للحمير ثم قاتلا لأحد الــناس في الجزيرة الفراتية، ثم فارا من وجه القصاص إلى الشام ثم قاطع طريق ثم كبرت حركته وتنامت دون هدف ســوى قطــع الطريق ونهب أموال البلدات والمدن المهاجمة[٨]، ولم يتمكن أحد من القضاء عليه لما أبداه من شجاعة وحنكة عسكرية، ثم يقرر أحد قواد العباسيين العسكريين، يزيد بن مزيد الشيباني، ضمه إلى قواته لمقاتلة بابك الخرمي في أرمينية، ويصبح مقربا عند آل مزيد، وقد تزامن سطوع نجم أبي السرايا مع الخلافات السياسية بين الأمين والمأمون وهــي الــتي تحولت بعدئذ إلى حرب ضروس بين الأخوين دامت خمس سنوات. وسط هذه الأجواء يجد أبو السرايا لجيشــه موضعا في جيش المأمون، فقد راسله هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون فانتقل إلى معسكره بألفي فارس وصار يخاطب "بالأمير".

وقد أبلى أبو السرايا في حرب الأخوين وانتصرت قوات المأمون، لكن هرثمة لم يواصل التعامل معه بما يستحق مــن تقديــر فنقصه عطاءه الذي وعد مما دفع أبا السرايا إلى الانسلاخ ثانية باتباعه عن جيش المأمون وعاد إلى قطع الطــريق ونهــب الأموال في عين التمر ودقوقا، ثم دخل الكوفة وهناك وجد الطالبي محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بابن طباطبا، فبايعه بالإمامة. وكان ابن طباطبا أول من

خرج بالكوفة داعيا لنفسه كما يذكر الطبري وصاحب العيون والحدائق[٩]، وأعانه أول الأمر واحد من رجال القبائل الطامحين هو نصر بن شبث العقيلي كما يذكر الأصفهاني[١٠].

والأمر لا يحتاج إلى فطنة استثنائية لمعرفة الدوافع التي حركت أبا السرايا لمبايعة الطالبي ابن طباطبا على الرضى من آل محمد في هذه اللحظة التاريخية، فأبو السرايا يعرف الجدل السياسي القائم بين البيتين، ويعرف ما أحدثته حرب الأخوين من شروخ في المزاج العام للمسلمين، ودوافعهم في الوقوف مع المعارضة العلوية، لكنه يدرك أيضا وهو الأهم أنه لا يستطيع الثبات في وجه القوات العباسية كقاطع طريق وناهب أموال، فرأى أن يرفع واجهة دينية علوية يقاتل تحت لوائها، لها الإسم وله كل الأمر، وهكذا تمكن أبو السرايا من تحويل حركته من حركة نهب وقطع طريق إلى حركة تطمح إلى الإطاحة بخلافة بني العباس وإقامة خلافة علوية وسمى نفسه "داعية آل محمد"[١١]. أما ابن طباطبا فهو كغيره من الطالبيين لا يستطيع تشكيل أي خطر حقيقي على بني العباس ما لم تدعمه قوات تؤمن بطموحاته في الخلافة، ولذلك نستطيع القول أن أبا السرايا وابن طباطبا قد وجدا في بعضهما الضالة المنشودة للآخر، فلا أبو السرايا يؤمن يقينا بحق العلويين، وإلا لكان فعل ذلك في بدء أمره، ولا ابن طباطبا يؤمن بصفاء نية أبي السرايا في رفع راية العلويين في وجه العباسيين، وإلا لما انتظر حتى يعرض أبو السرايا الأمر عليه. أي أن الانتفاع المتبادل كل من صاحبه كان واضحاً منذ البداية سواء أعلن عن ذلك أم لا. ولا نعتقد أن رأي الأصفهاني في مقاتل الطالبيين له سند من الواقع حين يقرر عن أبي السرايا -رغم اعترافه بسوء سيرته وأنه "عاث في نواحي السواد"- أنه "كان علوي الرأي ذا مذهب في التشيع"[١٢]. وقد برزت المواجهة بين الاثنين، حسب رواية الطبري، بعد تمكن أبو السرايا من هزيمة جيش للعباسيين قوامه عشرة آلاف مقاتل فأحب ابن طباطبا بصفته الأصل الديني للحركة أن يمارس صلاحياته بشأن توزيع الغنائم وهو ما لم يكن موافقا لرأي أبي السرايا، وقد أتاح الموت المفاجئ لابن طباطبا في اليوم التالي مجالا للشائعات التي ذهبت إلى أن أبا السرايا سم ابن طباطبا وجاء بغلام صغير كواجهة جديدة طيعة له[١٣]. لقد كان واضحا منذ البداية أن أبا السرايا إنما اتخذ واجهة دينية لإنقاذ سمعة حركته و لم يكن راغبا في أن يشاركه أحد فيما حقق من سلطان، ولذلك تبدو رواية التخلص من ابن طباطبا بالسم واستخدام غلام من الطالبيين كواجهة جديدة لحركته أكثر انسجاما مع الأحداث من رواية الأصفهاني التي، رغم الإقرار بالخلاف حول الخطط الحربية، تجعل موت ابن طباطبا وانتقال البيعة إلى الغلام الحدث محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قضاء وقدرا، كما تصور أبا السرايا معتذرا عما لامه عليه ابن طباطبا ملتزما بعدم العودة لمثل ما فعل. وتختم الرواية بجعل البيعة للغلام الطالبي يتم في سياق طبيعي حيث جرت الخيرة بين آل أبي طالب حول الرضا منهم وأبو السرايا سامع مطيع لما يقررون[١٤].

وقد تمكن أبو السرايا من هزيمة الجيوش العباسية التي أرسلت إليه مما شجع طالبيين آخرين للخروج في البصرة والحجاز واليمن، مع وجود خلاف في المصادر حول علاقة هذه الحركات بحركة أبي السرايا، وهل هي امتداد لحركته

ومرتبطة بها أم أنها حركات مستقلة. ومع ذلك فالنتيجة في الحالين واحدة وهي اتساع حركات الطالبيين جغرافيا تحت مظلة حركة أبي السرايا التي لنا الآن أن نتصور خطرها على الخلافة العباسية، إذ امتدت إلى البصرة والأحواز وفارس والحجاز واليمن وأرسل من قبله ولاة إلى تلك الجهات كما ضرب الدراهم بالكوفة.

وفيما يخص حركة الطالبيين في الحجاز (مكة والمدينة) وهي الحركة التي ستظهر محمد بن جعفر الصادق أميرا للمؤمنين فقد أرسل أبو السرايا إلى مكة الطالبي حسين بن حسين الأفطس، وإلى المدينة محمد بن سليمان نائبان له، وكان والي مكة والمدينة للعباسيين في هذا الوقت العباسي داود بن موسى، وهو الذي ثبته المأمون في الولاية بعد سماع اعتراضه على نزع الأمين للعهود المعلقة في الكعبة استعدادا لحرب أخيه المأمون.

وتظهر روايات الطبري رد الفعل الحاصل في مكة والمدينة من تطور حركة أبي السرايا. أما محمد بن سليمان فقد دخل المدينة دون قتال، أما حسين الأفطس والذي وجهه أبو السرايا إلى مكة وأمره بإقامة الحج للناس لذلك العام، مع ما تحمل إمرة الحج من دلالات على السطوة والنفوذ الروحي وتغييب السلطة العباسية في أكثر المواقع أهمية من الناحية الدينية عند المسلمين، فقد وجد هناك والي مكة والمدينة العباسي داود بن موسى وقد كان بإمكانه قتال حسين الأفطس خاصة مع وجود مسرور الخادم الحاجب المشهور للخليفة هارون الرشيد وبرفقته مائتي فارس، وهو الذي عرض قتال حسين الأفطس ومنعه من دخول مكة، لكن الوالي العباسي رفض فكرة القتال واعتذر عن ذلك كما تفيد رواية الطبري بأنه لا يستحل القتال في الحرم "والله لو دخلوا من هذا الفج لأخرجن من هذا الفج الآخر"[١٥]. ويعرب مسرور الخادم من استيائه ويقول لداود " تسلم ملكك وسلطانك إلى عدوك ومن لا يأخذه فيك لومة لائم في دينك ولا حرمك ولا مالك، قال له داود: أي ملك لي! والله لقد أقمت معهم حتى شيخت فما ولوني ولاية حتى كبرت سني، وفني عمري، فولوني الحجاز وما فيه القوت؛ إنما هذا الملك لك وأشباهك؛ فقاتل إن شئت أو دع"[١٦] وما كان بإمكان مسرور الخادم أن يقاتل بلا واجهة دينية بعد أن رفض الوالي الثبات في مكة أو ترك بعض ولده ليقاتل مسرور باسمه كما طلب، فخرج هو الآخر بقواته. وترك الحرم بلا إمام للصلاة ولا خطبة، حتى تبرع لإقامة الصلاة رجل مغمور لن يؤاخذ على موقفه من القادمين. لقد فضل والي العباسيين الانسحاب من مكة هو وولده بعد أن حمل أمتعته وأثقاله ودبر خطة للخروج إلى المشاش[١٧] يأمن فيها هو ومتاعه. وأعتقد أن هذه المحاورة لا تحتاج إلى تعليق إضافي ففيها ما يكفي من الإشارة إلى خور العزم بل وفقدان الفائدة من الدفاع عن ملك ليس له من نعيمه شيئ فقد كبرت سنه، وولي على بلد لا قوت فيه، وهو قول يدل أيضا ليس فقط على تهشم الجبهة العباسية خاصة مع بقاء المأمون في مرو بخراسان، ووقوعه تحت تأثير الفضل بن سهل، بل على القناعة بحصول فراغ في السلطة في كل العراق والجزيرة مما يجعل القتال باسم سلطان غير موجود غير ذي قيمة، خاصة وأننا أمام وال من العباسيين له موقف مبدئي من ترتيبات الخليفة هارون الرشيد بين أولاده في التتابع على الخلافة، فقد كان شاهدا على العهد الذي الزم به الرشيد ولديه الأمين والمأمون تجاه بعضهما وعلق في الكعبة ضمانا لاحترامه. ولما علم داود بن موسى بأن

الأمين يريد نزع العهد من الكعبة وخلع أخيه المأمون اعترض على ذلك بدوافع دينية وهي احترام العهود والأيمان المغلظة التي أخذت على الأخوين في الكعبة، ثم بايع للمأمون بعد خلع الأمين سنة ١٩٦هـ(١٨). وقد كافأ المأمون فيما بعد داود بن موسى بتثبيته واليا على مكة والمدينة. ولا نشك أن هذا الوالي العباسي قد نظر ثانية إلى الأمور بواقعية شديدة، ورأى أن حركة أبي السرايا وما أحدثته من سلب ونهب هو ومن شايعه أو شايعهم من العلويين دليل على الفوضى الحاصلة في الخلافة العباسية وعلى غياب سلطة الخلافة وهيبتها فآثر أن ينسحب على أن يقاتل باسم خلافة لا سلطة لها إلا في مرو بخراسان حيث الخليفة. وكل هذا يدل أيضا على أن حركات الطالبيين وسواهم والتي حصلت إثر الحرب بين الأمين والمأمون، أي في العامين الأخيرين من القرن الثاني الهجري قد قامت مستغلة فراغ السلطة الحاصل، بقصد الحصول على أي نصيب من تركة سلطة رُئيت متهاوية في تلك الظروف. وقد سهل هرب العباسي داود بن موسى الطريق على حسين الأفطس –خاصة بعد أن أخبره بعض الطالبيين وأعوانهم- أن مكة لم يعد بها سلطان فدخلها في أول أيام المحرم. وقد بدأ حسين الأفطس أعماله بتغيير "كسوة الظلمة من بني العباس"(١٩)، "ليطهر من كسوتهم"(٢٠) وألبسها كسوة من قز رقيق (حرير رقيق) أرسلها أبو السرايا، "مكتوب عليها: أمر بها الأصفر بن الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد"(٢١) وفي هذا دليل على تغير صاحب الأمر والنهي في بلاد الحرمين الشريفين، فهذا تصرف من يرى نفسه صاحب الأمر وإن لم تعلن خلافة بعد. وقد كانت كسوة الكعبة بما فيها من رمزية عملا سياسيا مقبولا، أما باقي ما نسب إلى حسين الأفطس من أعمال فهي من المنكرات الواضحة، إذ تروي المصادر أنه تتبع ودائع بني العباس وأتباعهم، كما انه وتحت حجة البحث عن أموال بني العباس سطا على أموال ناس لا صلة لهم ببني العباس، وقام بتعذيبهم لدرجة أن الدار التي كانوا يعذبون فيها سميت "دار العذاب"(٢٢) كما روي أنه سطا على جميع ما في خزانة الكعبة من أموال وقلع أصحابه شبابيك الحرم وحكوا الذهب القليل من معظم أساطين المسجد الحرام(٢٣) وقسم كل ذلك بينهم مع كسوة الكعبة المتروعة على قدر المترلة لكل شخص(٢٤). وقد أدى كل ذلك إلى هرب أكثر الناس فهدمت دورهم.(٢٥) كما نسبت إليهم وقائع مخلة بالشرف كاغتصاب امرأة وصفت بالجمال البارع، وأخذها من بيت زوجها قهرا لابن الأفطس واستبقائها عنده إلى أن تمكنت من الهرب، وكاختطاف غلام أمرد وصف أيضا بالجمال وهو ابن لقاضي مكة من قبل علي بن محمد بن جعفر، وسنعود لمناقشة هذا الأمر.

وقائع حركة محمد بن جعفر

ترتبط وقائع حركة محمد بن جعفر بالمصير الذي لقيه أبو السرايا وحركته، فقد هزم أبو السرايا وقتل، وعلى إثر ذلك بويع ابن جعفر في مكة بالخلافة وإمرة المؤمنين، ولذلك فإن وقائع حركته ترتبط بتصفية جيوب العلويين في الحجاز واليمن. إذ بعد القضاء على هذه الحركة توجه قادة الجيوش العباسية وهم عيسى بن يزيد الجلودي، وورقاء ابن جميل وحمدوية بن علي بن عيسى بن ماهان وهارون بن المسيب إلى مكة والمدينة لحرب الطالبيين هناك. لكن أول المواجهات العسكرية بين أمير المؤمنين في الحجاز والقوات العباسية وقعت عندما قدمت قوات إسحاق بن موسى من

اليمن، وهو الوالي المطرود بقواته من قبل الطالبي الخارج هناك إبراهيم بن موسى الكاظم. وقد استعد محمد بن جعفر مــع أتباعه من العلويين وجيشهم من الأعراب بالمال، وبحفر خندق في أعالي مكة، لكن الحرب ما لبثت أن توقفت بعد أيام من بدئها وفضل إسحاق بن موسى الانسحاب باتجاه العراق، ومن الواضح أنه انسحب من المعركة لأنه رأى أن الكفة ليست لصالحه. لكن إسحاق بن موسى المنسحب هذا يقنع بعد قليل بالعودة مع القوات القادمة من العراق بقــيادة ورقاء بن جميل وعيسى الجلودي، ولا يخفي الطبري نفوره من حركة محمد بن جعفر بالجملة فيورد روايات عــنها تحط من شأنها ويذكر أن أعوان محمد بن جعفر كانوا من غوغاء الناس ومن السود العاملين على جلب المياه ثم الأعراب المرتزقة، وأن هذه القوات قد تعبأت ببئر ميمون بأعلى مكة حيث وقعت المواجهات الأولى غير الحاسمة، لكن الهزيمة حاقت في اليوم التالي بمحمد بن جعفر وأصحابه، ثم طلب من بعض الأعيان في مكة وفيهم قاضيها التوسط عند قواد بني العباس العسكريين كي يمنحوه أمانا للخروج من مكة، فوافق إسحاق بن عيسى وورقاء بن جميل على ذلك في جمــادى الآخــرة من عام ٢٠٠ للهجرة. وقد تفرق الطالبيون وأعوانهم بعدئذ، لدرجة أن محمد بن جعفر وهو في طــريق الهرب إلى الجُحْفَة[٢٦] لم يستطع مقاومة رجل من موالي بني العباس جمع موالي العباسيين وعبيدهم وطارده في الطــريق للانتقام من نهب داره بمكة فأدركه بين جدة وعسفان فانتهب جميع ما معه.. وجرده حتى تركه في سراويل، وهم بقتله لكن أخذته به شفقة فترك له قميصا وعمامة ورداء ودريهمات يتسبب بها[٢٧].

ومــع ذلــك فقد حاول ابن جعفر ثانية جمع الأنصار استعداداً لجولة ثانية بينه وبين العباسيين فذهب إلى بلاد جهينة لحشد من يقدر عليه ومؤملا أن يجد في القادمين إلى موسم الحج أعوانا لأمره، لكن والي المدينة العباسي هارون ابــن المسيب الذي تمكن من استعادة المدينة من الطالبي محمد بن سليمان، تصدى له وأخرج له جيشاً تمكن من هزيمة محمد بن جعفر، كما فقئت عينه في هذه المعركة بنشابة أصابته، ولما يأس من نصرة أهل الموسم طلب الأمان ثانية من الجلودي ومن رجاء ابن عم الفضل بن سهل وزير المأمون، فأعطي الأمان الذي طلب وضمن ابن عم الفضل بن سهل عــلى المأمون بالوفاء. ومن الواضح أن الأمان الجديد قد أعطي له شرط أن يقوم بخلع نفسه، وقد جرى هذا الاتفاق في العشرين من ذي الحجة من عام ٢٠٠هــ.

ويــبدو أنه كان مهما جداً إخراج لحظة الخلع على نحو يتفق وأهمية ما سيقوله محمد بن جعفر، كما لا يستبعد أن يكون قد تم الاتفاق على الأفكار التي ستدخل في خطبة الخلع لإقناع الناس بها. ومن بين الإجراءات الشكلية التي تقدمــت خطبة الخلع، إلباس محمد بن جعفر "قباء أسود" لما في ذلك من إشارة إلى طرح البياض (لون المعارضة ضد العباسيين) والظهور باللون الأسود وهو لون العباسيين الرمزي، كما أن القائد الحربي عيسى الجلودي صعد إلى رأس المنــبر، بينما أجلس ابن جعفر دونه بدرجه و لم يعط سيفا ليتقلده. وهذه الشكليات ذات أبعاد رمزية في غاية الأهمية، فهو قبل أن يقول شيئا وافق على أن يعلوه قائد العباسيين، وهو ما يعنى أن النسب العلوي في خضم الصراع السياسي لا وزن له عــند الخلافــة العباسية وأتباعها، بل هكذا يجب أن يستقر في أذهان العامة وعليهم أن يدركوا لمن المقام الأعلى والكلمة الفصل.

أما خطبة الخلع فلا بد من إيرادها لأهمية ما ورد فيها :

"أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب، فإنه كان لعبد الله عبد الله أمير المؤمنين في رقبتي بيعة بالسمع والطاعة، طائعاً غير مكره، وكنت أحد الشهود الذين شهدوا في الكعبة في الشرطين لهارون الرشيد على ابنيه: محمد المخلوع وعبد الله أمير المؤمنين. ألا وقد كانت فتنة غشيت عامة الأرض منا ومن غيرنا. وكان نمي إلي خبر؛ أن عبد الله عبد الله أمير المؤمنين كان توفي؛ فدعاني ذلك إلى أن بايعوا لي بإمرة المؤمنين، واستحللت قبول ذلك لما كان على من العهود والمواثيق في بيعتي لعبد الله عبد الله الإمام المأمون، فبايعتموني -أو من فعل منكم- ألا وقد بلغني وصح عندي انه حي سوي. ألا وإني استغفر الله مما دعوتكم إليه من البيعة، وقد خلعت نفسي من بيعتي التي بايعتموني عليها؛ كما خلعت خاتمي هذا من أصبعي، وقد صرت كرجل من المسلمين فلا بيعة لي في رقابهم، وقد أخرجت نفسي من ذلك، وقد رد الله الحق إلى الخليفة المأمون عبد الله عبد الله المأمون أمير المؤمنين، والحمد لله رب العالمين؛ والصلاة على محمد خاتم النبيين والسلام عليكم أيها المسلمون." [٢٨].

ويظهر جليا في هذه الخطبة أنه قد أعد لها بإحكام ففيها أولا إقرار من محمد بن جعفر بأن للمأمون في عنقه بيعة وانه كان شاهدًا على ما أقره الرشيد بين ولديه، ثم إنه استحل أن يبايع له لسببين الأول إنها كانت فتنة غشيت عامة الأرض منه ومن غيره ثم لأنه كما قال سمع بأن المأمون قد مات، أما وقد صح عنده أن المأمون حي يرزق فإنه يحل من بايعه من بيعته ويخلع نفسه ويقبل بالعودة إلى صفوف المسلمين ليكون كأحدهم، كما أن جعل شائعة وفاة المأمون عذرا لقبول ابن جعفر بالخلافة، واستخدام مصطلح "المخلوع" الذي شاع ضمن الدعاية المأمونية ضد أخيه الأمين فيه تأكيد على شرعية خلافة المأمون. وبهذه الخطبة تنتهي خلافة قصيرة لعلوي في الحجاز، دامت ثمانية أشهر، من ربيع الآخر حتى ذي الحجة من عام ٢٠٠ للهجرة.

ومع ذلك فهناك تباين في المصادر حول أمور كثيرة ارتبطت بهذه الحركة تكشف المواقف المختلفة للفرقاء على هيئة روايات غير متجانسة حول هذا الأمر أو ذاك، وقد وجدنا من المفيد أن نفرد كل مسألة على حدة لمناقشتها وهذه القضايا هي:

- نهاية محمد بن جعفر
- البيعة لمحمد بن جعفر، أعن رضا منه وقعت أم بالإكراه
- المنكرات المنسوبة لأركان حركته، ابنه علي وحسين الأفطس

نهاية محمد بن جعفر

تختلف المصادر في تسجيل المصير الذي آل إليه أمر ابن جعفر بعد هذه الخطبة، فاليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) يذكر أن القائد العسكري عيسى الجلودي خرج به بنفسه إلى المأمون وهو بمرو، فلما صار بجرجان توفي محمد بن جعفر، ثم

تسلم كتاب المأمون يأمره بالرجوع إلى الحجاز[٢٩]. وهذه الرواية التي تجعل ابن جعفر يموت قبل وصوله إلى المأمون، علـى خـلاف مع جميع الروايات التي تجعل موت ابن جعفر عام ٢٠٣هـ[٣٠] في جرجان بينما كان ضمن موكب عـودة المأمون إلى بغداد. ويذكر الطبري أن القائد العسكري عيسى بن يزيد الجلودي خرج به إلى العراق وسلمه إلى الحسن ابن سهل الذي بعث به إلى المأمون بمرو[٣١]، ومثله يذكر ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) في المنتظم[٣٢]، وكذلك النجم عمر بن فهد (ت ٨٨٥هـ) صاحب إتحاف الورى[٣٣]. ويذكر المعاصر ابن خياط (ت ٢٤٠هـ) أن المعتصم المكنى أبو إسحاق قد حج في هذه السنة فظهر على محمد بن جعفر وابن الأفطس بمكة وبعث بهما إلى المأمون[٣٤]، أي أن هذه الرواية تلغي القيادات العباسية المشتركة مباشرة في الحرب ضد ابن جعفر وتجعل أبا إسحاق (المعتصم) الذي حج في تلك السنة المتصدر للأحداث، ولا تختلف هذه الرواية عن سابقاتها إلا في كونها تجعل اسم أبي إسحاق يتصدر الأحـداث، ولعل المعتصم قد أرسله مع الجلودي إلى المأمون عبر العراق، وهو ما تشير إليه أيضا رواية اليعقوبي الأقدم زمـنا بعـد روايات المعاصر ابن خياط، فيذكر أن الجلودي قدم إلى مكة ولم يحارب محمد بن جعفر بل استأمن منه فأخذه الجلودي وخرج به بنفسه إلى المأمون[٣٥]، أما المتأخرون جدا أمثال ابن خلدون في العبر (ت ٨٠٨هـ) وابن عـلي الفاسي (ت ٨٣٢هـ) في شفاء الغرام، وكذلك الفاسي (ت ٨٨٥هـ) في الزهور المقتطفة فلا يذكرون شيئا عن الرفقة التي تولت إيصال محمد بن جعفر إلى المأمون بل يذكرون انه لحق بالمأمون فعفى عنه[٣٦]، أو سار إلى العراق حتى بلغ المأمون بمرو[٣٧]، أو خلع نفسه وسار إلى الحسن بن سهل وإلى المأمون بمرو[٣٨]. ويبدو أن السبب في ذلك هو كثرة القواد العسكريين الذين تواجدوا في الحجاز عند نهاية عام ٢٠٠ للهجرة ثم حجُ المعتصم في هذه السنة، وبصفته أخـو الخلـيفة فإن ما يقوم به هذا القائد أو ذاك من أمر يجري عند مؤرخ باسم أخي الخليفة وعند آخر باسم القائم بالمهمـة مباشرة، وأيا كان أمر الإيفاد وإلى أين ومن أرسله ورافقه فالثابت أن محمد بن جعفر قد توجه بعد ذلك إلى المـأمون بخراسان عبر العراق، وأن ورود اسم الجلودي كباعـث أو مرافق إنما يتفق وما ذكره الأصفهاني عن مهمة الجلـودي وأنه كان المتولي لإشخاص آل أبي طالب إلى المأمون[٣٩]. كما أن رواية اليعقوبي السالفة التي يفهم منها أن محمـد بن جعفر توفي في الطريق بجرجان قبل أن يبلغ المأمون لا تستقيم مع باقي الروايات ولا مع تاريخ وفاته المثبت عام ٢٠٣هـ.

واللافـت في هذا كله هو التأكيد على قربه من المأمون بما يحمل ذلك من دلالات فيها الإقرار بشرعية الخلافة وحاجة المأمون الملحة لهذا الإقرار في تلك الظروف التي أعقبت مقتل الأمين. كما أن تقريب محمد بن جعفر من قبل المـأمون بعد الإطاحة بالحركات العلوية التي خرجت من عباءة أبي السرايا يقع في الفترة التي أخذ فيها المأمون يفكر بعلاقـة جديدة مع العلويين انتهت بتعيين علي الرضا بن موسى الكاظم ولي عهد للمأمون. ويبدو أن صفات الفضل والـزهد والعلم التي خلعت على محمد بن جعفر لم تكن، في حال توفرها فعلا، لتقنع الخليفة المأمون ليختاره هو وليا لعهـده مـن بين العلويين بدلا عن علي بن موسى الكاظم الذي يبدو انه كان حقا الأوفر حظا من العلم والتفقه بل

والنفوذ في أوساط العلويين كما أنه كان الإمام التاسع عند الشيعة، وأحد الذين تدخلوا لإقناع محمد بن جعفر بوقف القتال ورفض[٤٠]. ولذلك أصر المأمون عليه كي يقبل بولاية العهد. ويبدو أن معظم الروايات كما تظهر عند الطبري مــثلا قد تأثرت بهذا التقريب لمحمد بن جعفر فصورت علاقة محمد بن جعفر بحركات الطالبيين على نحو يتسق وهذا التقريب كما سنناقش بعد قليل، بل إن الخطيب البغدادي في خبر وفاة ابن جعفر يورد رواية فيها أن المأمون لم يشهد الجنازة فقط بل "دخل بين العمودين فلم يزل بينهما حتى وُضِعَ، وتقدم فصلى عليه، ثم حمله حتى بلغ به القبر، ثم دخل قــبره فــلم يزل فيه حتى بني عليه، ثم خرج فقام على القبر وهو يدق فقال له عبد الله بن الحسن: -ودعا له- يا أمير المؤمــنين إنــك قد تعبت، فلو ركبت فقال له المأمون: إن هذه رحم قطعت من مائتي سنة. قال الحسن قال جدي: وروي في هذا الحديث انه قال: هذا حق ضيع من مائتي سنة"[٤١]. أما الأصفهاني في مقاتل الطالبيين فإنه يذكر القرب الذي ناله محمد بن جعفر عند المأمون وكيف أنه كان شاهدا على بيعة المأمون لعلي الرضا بولاية العهد ثم شاهدا على صحة جثته قبل دفنه كي يدفع المأمون عن نفسه قممة قتله[٤٢]. وتكرر رواية الأصفهاني ما ورد عن الخطيب البغدادي فــتجعل المأمون في لحظة دفن محمد بن جعفر عند وفاته بجرجان عام ٢٠٣هـــ، يدلي بشهادة حول حقوق العلويين "دخــل المأمون بين عمودي السرير فحمله حتى وضعه في لحــده وقال: هذه رحم مجفوة منذ مائتي سنة"[٤٣]. وهذه الشــهادة فيها كما نرى إدانة للخلفاء الراشدين ولبني أمية وبني العباس حتى زمنه، وبدلا من التحديد بمائتي سنه كما يظهــر في رواية الخطيب البغدادي والأصفهاني يذكر الفاسي نزول المأمون إلى لحد محمد بن جعفر لكنه فيما يبدو لم يصــدق التحديد الزمني بمائتي سنة وإن صدق المقولة عامة فأورد عن المأمون أنه قال "هذه رحم قطعت من سنين". والغريب أن يذكر هذا عن المأمون مرتبطاً بموت طالبي مغمور نسبيا ولا يذكر مرتبطا بموت علي الرضا الأشهر والمعين ولــياً للعهد، وارتباط قول كهذا باسم علي الرضا أوفق للأحداث، والظاهر أن المأمون يُقَوَّلُ هنا أشياء لا نعتقد أنه قالها، لأن الرحم المقطوع كان سياسيا في الأصل، وهو ما أشارت إليه الرواية الثانية عند الخطيب البغدادي "هذا حق ضيع من مائتي سنة" وظل سياسيا مقطوعا بعد ذلك أيضا، وعندما تكون علاقة الرحم محكومة بأمور السياسة، يسقط الــرحم جملة، كما علَّمت التجربة الخليفة الأمين الذي نسب إليه قول بليغ بعد أسره وتساءل إن كان أخوه المأمون سيقتله، فأجابه المحاور كلا إن الرحم ستعطفه عليك، فأجاب الأمين بحكمة دهر لا تبلى "الملك عقيم لا رحم له"[٤٤]. وحتى لو صح القول عن المأمون على نحو ما روي، فإنه قول لا يعتد به ويشهد فقط على دهاء المأمون السياسي، لأن أثر هذا القول كان قد محي أصلا بالتخلص من علي الرضا قبل عام من وفاة ابن جعفر.

ونخلص من كل هذا إلى أن ابن جعفر أقام بخراسان مدة عامين إلى جانب المأمون وشهد البيعة لعلي الرضا ثم دفنه في طوس عام ٢٠٢هـــ ووافته منيته بجرجان عام ٢٠٣ للهجرة، بينما ظل مصير ابنه علي وابن الأفطس مجهولا.

البيعة لمحمد بن جعفر

المسالة الخلافية المراد جلاؤها هنا هي هل أجبر محمد بن جعفر على البيعة كي يكون خليفة أم أنه كــان طامحًا

مثله مثل غيره من العلويين الذين خرجوا عند نهاية القرن الثاني الهجري؟

تذكر أغلب المصادر أن بيعة محمد بن جعفر بالخلافة مرتبطة بالمصير الذي لقيته حركة أبي السرايا، إذ لم تستطع الصمود في النهاية أمام الجيوش العباسية التي أعدها الحسن بن سهل والي العراق وقادها الخبير بتفكير أبي السرايا واستراتيجياته العسكرية هرثمة بن أعين.

وتذكر مصادر مثل الطبري[٤٥] وابن الأثير[٤٦] وصاحب العيون والحدائق[٤٧] وابن الجوزي[٤٨] والذهبي[٤٩] وابن خلدون[٥٠]، أنه بعد أن أيقن كل من حسين الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر بموت أبي السرايا وتلاشي قواته، وفقد السند المعنوي والعسكري، نظرا في أمر حركتهما في مكة وما قد أحدثاه من سلب ونهب وأعمال سيئة وأيقنا بالهلاك أمام القوات العباسية التي ستزحف على مكة عاجلا أو آجلا، توصلا إلى فكرة البحث عن واجهة دينية يختبئان خلفها لأن كليهما رغم النسب العلوي لم يعد يصلح للدعوة لسوء سيرتهما[٥١]. وقد وجدا في شخص الطالبي محمد بن جعفر الصادق أفضل واجهة لرفعها والقتال باسمها، خاصة وانه كما تصور تلك المصادر، قد اشتهر بحسن السيرة وبالعلم والفضل "وكان محبباً للناس، مفارقا لما عليه كثير من أهل بيته"[٥٢] أي "تاركا للخروج"[٥٣] كما كان معلما وراوية للحديث عن أبيه والناس تكتب عنه. وبينما تصور معظم المصادر محمد بن جعفر رافضاً للمبايعة ومكرها على قبولها وأن أهالي مكة والمجاورين إنما حشروا لمبايعته حشرا طوعا وكرها. [٥٤] يعطي الأصفهاني في مقاتل الطالبيين سببا آخر لخروج محمد بن جعفر في مكة، وهو إنه إنما خرج غيرة على فاطمة بنت رسول الله ﷺ بعد أن علم بكتاب فيه سب لفاطمة بنت الرسول ﷺ، فلما قدم جماعة بذلك الكتاب وقرءوه عليه لم "يرد عليهم جواباً حتى دخل بيته، فخرج عليهم وقد لبس الدرع، وتقلد السيف، ودعا إلى نفسه"[٥٥]، وليس ثمة ذكر عند الأصفهاني لما ذكر من إكراه حسين الأفطس وعلي بن محمد لمحمد بن جعفر بالبيعة له بعد وفاة أبي السرايا، أي أن رواية الأصفهاني تجعل خروج محمد بن جعفر طواعية وهو ما نريد أن نقرره بغض النظر عن السبب المباشر المشكوك في صحته. كما لابد من ذكر رواية المقدسي (ت ٣٥٥هـ) التي تذكر أن عليا ولد محمد بن جعفر قد خرج في البصرة[٥٦]، بينما تجعله المصادر المذكورة يخرج في مكة مع ابن الأفطس. ويذكر اليعقوبي أن محمد بن جعفر العلوي تغلب بمكة وأخرج واليها الهاشمي[٥٧]ولا يذكر شيئا عن الإكراه المذكور في المصادر الأخرى. أما المصدر المعاصر لمحمد بن جعفر، وهو معاصر له أيضا في الزمان والمكان، مع ما يحظى به من ثقة في رواياته لاتباعه أساليب الإسناد المتبعة في علم الحديث[٥٨] فهو خليفة بن خياط في تاريخه والذي يخالف كافة المصادر التي أتت من بعده ويقرر أن محمد بن جعفر سنة تسع وتسعين ومائة وثب بالبصرة وليس بمكة[٥٩]. صحيح أنه يذكر أيضا بعد ذلك أن ابن جعفر وثب بمكة لكنه يقرر أولا أن مبدأ خروجه كان في البصرة. وبالنظر إلى الثقة الكبيرة في روايات ابن خياط بالإضافة إلى معاصرته لابن جعفر في الزمان والمكان فلا بد من منح روايته مصداقية استثنائية. وباعتماد هذه الرواية، تسقط الرواية الأخرى والمبثوثة في معظم المصادر حول الإكراه المزعوم لمحمد بن جعفر بالبيعة.

ولإعادة بناء تسلسل زمني مقنع للأحداث نرى أن رواية المقدسي التي تقرر خروج علي بن محمد بن جعفر في البصرة تسمح بفهم أن عليا هذا كان قائد أبيه العسكري في البصرة كونه الأوفر شبابا والأكثر حماسا، وقد لاح لهما أن يتركا البصرة لقريبهما زيد بن موسى بن جعفر الملقب بزيد النار لكثرة ما أحرق من بيوت العباسيين كما روي. ولعلهما تركا البصرة خوفا من طغيان أبي السرايا على حركتهما بينما يفضلان الاستقلال، وفي خروجه الأول في البصرة لم يذكر ابن خياط أن محمد بن جعفر ادعى خلافة أو إمرة للمؤمنين والظاهر أنه أراد مثل غيره من العلويين وسواهم الفوز بنصيب من الدنيا مسنودا بنسبه العلوي وهو ما ألمح إليه في خطبة التنازل السالفة وأنها كانت فتنة غشيت عامة الأرض منه ومن غيره. ويبدو أن الأقدار دارت لصالحهما حين قدما مكة وفيها العلوي ابن الأفطس نائبا عن أبي السرايا، ولنا أن نتصور في غمرة الفوضى الحاصلة وغياب السلطة أن تحالفا بين ابن الأفطس وعلي بن جعفر قد قام على أساس أن تكون مكة لهما بما يقتضي ذلك من الاستئثار بأموال العباسيين وغيرهم في مكة، كما نستطيع أن نتصور وبحكم الولاء الرابط بين أبي السرايا وابن الأفطس أن يتراجع اسم محمد بن جعفر كي لا يعد منافساً لصاحب النفوذ الفعلي أبي السرايا أمام نائبه ابن الأفطس. أما بعد هزيمة أبي السرايا ومقتله فالطريق مفتوح ثانية أمام محمد بن جعفر ليكون على رأس حركة انقلابية على الخلافة العباسية ويقبل المبايعة له بالخلافة ويتلقب بإمرة المؤمنين. كما أن خطبة الخلع التي مرت بنا لم تتضمن أية إشارة إلى الإكراه ليكون عذرا له، بل قدمت إشاعة موت المأمون كعذر لقبول البيعة بالخلافة. أما المصادر التي تصوره أكره على ذلك فتذكر أنه ظل شهرا أو شهورا ليس له من الأمر شيء سوى الإسم، ولا يتفق هذا وواقع الحال، فأول المواجهات العسكرية وقعت بعد شهرين من مبايعته بالخلافة في جمادى الآخر بينما بويع في الثالث من ربيع الآخر، ولنا أن نتصور أن هذه الفترة الفاصلة هي فترة استعداد وجمع أعوان وحفر خندق وخلافه. وعليه، وبتذكر أنه خرج أصلا في البصرة نخلص إلى أنه شمر عن ساعد الجد فورا وأعد العدة لمواجهة القوات العباسية كما مر بنا في وقائع الحركة والتي تظهر أنه لم يكن زاهدا في الخلافة بل نشطا جدا وحريصا جدا في الحفاظ عليها[٦٠]، وأنه لم يسلم إلا بعد هزيمته وإدراكه لعجزه أمام القوات العباسية وعزوف الناس عن الانضمام لحركته.

و يصبح من الضروري البحث عن سبب لذلك التصوير الرابط بين علم وزهد ابن جعفر ووصفه بأنه تارك للخروج من جهة ثم ما زعم من إكراهه على قبول بيعة بإمرة المؤمنين من جهة ثانية ومحاولة تبرئته من أعمال السلب والنهب والمنكرات المخلة بالشرف ونسبتها لولده علي ولابن الأفطس من جهة ثالثة. وأعتقد أن الإجابة تكمن في النهاية التي أفضت إليها حركته والمقام الذي وجده بعدئذ عند المأمون. ففي خطبة التنازل التي مرت بنا يعتذر ابن جعفر عما بدر منه ويؤكد حق المأمون في الخلافة، كما أنه بعد ذلك حظي بتقريب المأمون له، ولا يصح بالتالي أن يصور علوي يقربه المأمون بأنه سعى للخلافة وأسقط شرعية خلافة المأمون، كما لا يصح أن تنسب له منكرات وأفاعيل وإلا لطال المأمون منها نصيب ولظهر موافقا على ما يروى من منكرات لأشخاص يؤمون بلاطه، ومن جهة

أخرى فلا شك أن الدعاية المأمونية كانت في أمس الحاجة إلى من يؤكد شرعية خلافة المأمون بعد مقتل أخيه الأمين وخاصة من علويين بسير تقية وسمعة زكية، وقد لعب محمد بن جعفر دورا في ذلك عبر خطبته في مكة والتي لا شك أنها لاقت ذيوعا ليعرف القاصي والداني رأي هذا العلوي الذي كان بويع خليفة، بخلافة المأمون. لكل ذلك نرى أن الـــرواية المبـــثوثة في معظم المصادر التي تصور إكراه محمد بن جعفر على البيعة لا تستقيم مع وقائع الحركة، ولكنها تســـتقيم مـــع سياسات المأمون في تثبيت خلافته، خاصة وأن كتابة التاريخ قد تأثرت بانتصارات المأمون وتم تزوير العهـــود الـــتي علقت في الكعبة بين الأمين والمأمون، كما يرجح ذلك بأدلة مقنعة مـــؤرخ معاصر[٦١]. وعليه يمكن القول أن رواية باقي الأحداث التاريخية المتصلة بزمن المأمون ستتأثر هي الأخرى بحاجة المأمون إلى تبرئة ساحته من دم أخيه ومن فكرة التغلب على الخلافة بالقوة .

المنكرات المنسوبة لأركان حركة ابن جعفر، ابنه علي وحسين الأفطس

هـــنا نـــريد مناقشة أعمال السلب والنهب والمنكرات التي نسبتها معظم المصادر[٦٢] لحسين الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر. ولا بأس من إعادة ما ذكرنا سابقا من أعمال قبيحة ومنكرات واضحة، وأنهما تتبعا ودائع بني العباس وأتـــباعهم، وســـطيا على أموال الناس بحجة البحث عن ودائع بني العباس وانهما قاما بتعذيبهم وأنشئا دارا خاصة سميـــت "دار العـــذاب"[٦٣]، كما سطيا على جميع ما في خزانة الكعبة من أموال وقلع أصحابه شبابيك الحرم وحكوا الذهب القليل من معظم أساطين المسجد الحرام وقسم كل ذلك بينهم مع كسوة الكعبة المتروعة على قدر المترلة لكل شخص. وقد أدى كل ذلك إلى هرب أكثر الناس فهدمت دورهم. كما نسبت إليهم وقائع مخلة بالشرف كاغتصاب امرأة وصفت بالجمال البارع، وأخذها من بيت زوجها قهرا لابن الأفطس واستبقائها عنده إلى أن تمكنت من الهرب، وكاختطاف غلام أمرد من قبل علي بن محمد بن جعفر وصف أيضا بالجمال وهو ابن لقاضي مكة.

فما الموقف من كل هذه الأعمال وما علاقة محمد بن جعفر بها؟. من بين المصادر والمراجع التي بين أيدينا يعلق فقط صاحب كتاب تاريخ أمراء مكة على أخبار الاغتصاب بالذات بعبارة واحدة دون مناقشة تقول "وقد تكون هذه الأخبار من باب التعريض بابن الأفطس وجماعته وقد نقلناها كما وردت"[٦٤].

ولنـــبدأ بالأخـــبار الخاصة بأعمال السلب والنهب. ذكرنا بأن الفراغ الذي حصل في السلطة عند نهاية القرن الـــثاني الهجـــري وبقـــاء الخليفة المأمون في مرو قد شجع كثيرين أفرادا وجماعات ومنهم الطالبيون على التغلب على الأمصـــار واعـــتماد أعمال السلب والنهب طريقا قصيرا للثراء وأن الأخبار التفصيلية المتعلقة بهذه الأعمال في بغداد وغيرها من المدن، بالإضافة إلى حركة أبي السرايا وما ارتبط بها من أعمال سلب ونهب تجعل من الصعب عدم تصديق الـــروايات المتعلقة بما جرى من أعمال سلب ونهب في مكة، لقد كانت روحا طاغية في كل العراق والجزيرة العربية، لدرجـــة أن حـــركات مناهضة لحركات السلب والنهب تشكلت فيما بعد تحت مسمى المطوعة، أو الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر[٦٥]، كما أن حركة مثل حركة العيارين والشطار قد لعبت دورا آخر أساسيا في نشر روح الفوضى والسلب رغم أنها كانت تعبيرا عن الفاقة والجوع في وجه الرغد والوفرة[٦٦]، ووجدت في فراغ السلطة القائم لها متنفسا. وقد خرجت أعمال السلب والنهب عن حدود الاعتداء على أموال الخلافة وممثليها إلى سلب أموال الناس العادين الذين اضطروا للهرب من مكة، وأيا كانت مبالغات المصادر في تصوير أعمال السلب والنهب فإن تلك المبالغات لا تنفي الوقائع مع ذلك.

والسؤال المطروح هنا هو هل شارك محمد بن جعفر شخصيا في أعمال السلب والنهب أو ناله من غنائمها نصيب؟

ونشير في البدء إلى أن المصادر التي تتحدث عن إكراه محمد بن جعفر على البيعة تظهره ورعا زاهدا وأن لا صلة له بأعمال السلب والنهب، لكن رواية عند الخطيب البغدادي تقلب هذه الصورة فتظهر ابن جعفر مشاركًا في أخذ الأموال، وإن كانت الرواية مرتبطة بأموال أحد ولاة بني العباس وليس سائر الناس. ويسند الخطيب البغدادي إلى حفيد لإسحاق بن موسى والي العباسي في اليمن والذي خرج منه بعد ظهور العلوي إبراهيم بن موسى هناك، ومر بنا في الحديث عن وقائع الحركة ومواجهته العسكرية مع ابن جعفر، يذكر الخطيب البغدادي نقلا عن حفيد إسحاق أن جده خلف عياله وثقله في مكة حين ولاه المأمون على اليمن وأن محمد بن جعفر قد أخذ كل ذلك[٦٧]. كما ينفرد الخطيب البغدادي بذكر أن قسما من ديباج الكعبة الذي نزعه ابن الأفطس قد وصل إلى محمد بن جعفر ومما يشير إلى عظم هذا القسم أن صاحب الرواية عند الخطيب البغدادي يذكر أنه ذهب لمبايعة محمد بن جعفر بالخلافة فأمر له "بشقة ديباج... وطرح من تلك الكسوة على الدواب دوابه ودواب أصحابه"[٦٨]. وهذا يعني أن محمد بن جعفر كان شريكا لولده وابن الأفطس فيما أخذوه من أموال بني العباس وأموال الكعبة، وإلا فمن أين لهم تلك الأموال التي ذكر أنهم جندوا بها الأعراب وفرضوا لهم وحفروا بها خندقا حول الكعبة وأداروا جولتين حربيتين كبيرتين على الأقل[٦٩]. وهناك قصة ظريفة تصور محمد بن جعفر لا علاقة له بابن الأفطس وابنه وبما نهباه، وأنه استلف من حجبة الكعبة ٥٠٠٠ دينار ليستعين بها على أمره[٧٠]، ولسنا نعلم كيف سَلِمَتْ هذه الأموال من السلب وقد تجاوز السلب والنهب أموال بني العباس وخزائن الكعبة إلى أموال الناس العادين واضطروهم للهرب من مكة، وأضنها قصة موضوعة لتدعم زهد محمد بن جعفر في الدنيا وفي الخلافة، خاصة وقد دبجت القصة بأن حَجَبَة الكعبة قد أخذوا عليه سندا بذلك وأشهدوا عليه الشهود، وأن المأمون قضاها عنه بعد أن فشلت حركته وطولب بها. ومما يدل على ضعف هذه الرواية هي أن أجواء مكة في هذه الفترة عند نهاية القرن الثاني الهجري لم تكن تسمح بجريان الأمور على النحو الذي تصوره الرواية، وما دام ابن جعفر قد بويع خليفة وله الأمر والنهي، تبقى قصة الاستلاف وتشديد الحجبة بضرورة كتابة سند بذلك وإشهاد الشهود ثم قضاء الدين من قبل المأمون ضمن الروايات التي أرادت تصوير ورع ابن جعفر وتبرئته من الأعمال الشائنة للأسباب التي ذكرناها في مناقشاتنا حول أمر البيعة، زد على ذلك أن رواية الاستلاف هذه لا ترد إلا

عند مصدر واحد متأخر وهو إتحاف الورى بأخبار أم القرى لعمر بن فهد المتوفى ٨٨٥ للهجرة.

أما الروايات المتعلقة باغتصاب المرأة والغلام الأمرد. فلا بد من التنبيه على أن ابن خياط واليعقوبي لا يذكران هاتين الواقعتين ولا الوقائع الأخرى ذات الصلة في العراق، وليس هذا بالضرورة دليلا على عدم حدوثها، بل له علاقة بمنهج الكتابة المقتصر على خيط الأحداث الرئيس عند اليعقوبي وابن خياط،. أما باقي المصادر كالطبري وابن الأثير وصاحب العيون والحدائق وابن الجوزي وابن خلدون فيوردون خبرا واحدا عن الخطف لكل من المرأة والغلام. لكنه يختلف في التفاصيل قليلا في هذا المصدر أو ذاك. يذكر الطبري "فوثب حسين بن حسن (الأفطس) على امرأة من قريش من بني فهر –وزوجها رجل من بني مخزوم، وكان لها جمال بارع- فأرسل إليها لتأتيه فامتنعت عليه، فأخاف زوجها وأمر بطلبها فتوارت منه، فأرسل ليلا جماعة من أصحابه فكسروا باب الدار، واغتصبوها نفسها، وذهبوا بها إلى حسين، فلبثت عنده إلى قرب خروجه من مكة فهربت منه، ورجعت إلى أهلها وهم يقاتلون بمكة. ووثب علي بن محمد بن جعفر على غلام من قريش، ابن قاض بمكة يقال له إسحاق بن محمد، وكان جميلا بارعا في الجمال - فاقتحم عليه بنفسه نهارا جهارا في داره.. حتى حمله على فرسه في السرج"[٧١].

وهذه الرواية تكرر بعدئذ في المصادر المتأخرة عن الطبري، والتي لا نرى ضرورة للإشارة إليها باستثناء ما كتبه صاحب العيون والحدائق وابن خلدون، اللذين جعلا هاتين الحادثتين الفرديتين حالة عامة، فكتب صاحب العيون والحدائق "حتى صار أصحابه (ابن الأفطس) إلى أخذ الحُرَم وأخذ أبناء الناس وهَتْك في أولادهم"[٧٢]، وكتب ابن خلدون "وأفحشوا في الزنا واللواط واغتصاب النساء والصبيان"[٧٣].

والظاهر أن صاحب العيون والحدائق وابن خلدون قد اتخذا من تلك الحادثة المروية دليلا على شيوع فعل جماعي، وفي هذا كما نرى مبالغة وسوء تصوير غير مسنود من الواقع ولا من الروايات الأخر، واعتقد أننا فقط أمام رواية لحالتي اختطاف واغتصاب لامرأة وغلام. فهل هذه الأخبار من باب التعريض بابن الأفطس وجماعته كما يذكر صاحب تاريخ أمراء مكة أم أننا فعلا أمام وقائع حدثت مخلة بالشرف ومحرمة شرعا وهي مما يأباه الذوق العربي المؤسس على معاني الحلال والحرام وعلى النخوة العربية المعلية لشأن العرض وكرامة النساء. يبدو أننا في هذه الفترة التاريخية الحرجة، فترة خلو الخلافة الإسلامية من سلطة فاعلة في العراق والجزيرة، وسيادة روح التغلب بالقوة، وخلو الحركات من شعارات سياسية، مضطرون للاعتراف بفساد الأخلاق الذي ساد وانتشر في جهات كثيرة من العراق[٧٤] وبلاد الحجاز. ومن السهل قطعا أن نقول أن هذه روايات موضوعة للتشهير، لكننا مع ذلك نحتاج إلى حجج لدعم القول بالتشهير، وأخرى لنفي قرائن قد تدعم تأكيد الخبر. ومنها أنه ما دمنا لا نستطيع إنكار الاعتداء على أموال الناس بل وعلى أموال الكعبة المشرفة، فإن هذا الأمر يقنع بأن الذي لا يستحي من الله جل وعلى ويسقط هيبة الكعبة وقدسيتها علنا، لا يستحي من الناس وبإمكانه ارتكاب أية فاحشة أو منكر معتدا بقوته. وما دام ابن الأفطس سيد الموقف فله أن يفعل ما يشاء. ومما يرشح الفعل للتصديق هو تحديد هوية المرأة وزوجها، لكن الذي

يضعف هذه الرواية القول بأن الجماعة التي أرسلت لإحضارها قد قامت باغتصابها أولا ثم حملتها لابن الأفطس، وهو تصوير غير معقول ولا متصور من أتباع ينفذون رغبة سيدهم في أكثر الأمور مساسا بالكرامة، حتى وهم يعتدون على كرامة غيرهم بحكم التغلب الحاصل. وقبل أن نقرر شيئا نهائيا بشأن هذه الرواية نلتفت إلى رواية الغلام المخطوف وهو جرم لا يقل فحشا عن الأول، والغريب أن يروى أن أهل مكة قد ثاروا وتجمهروا أمام دار الإمارة حيث الخليفة المبايع محمد بن جعفر. وتصور الرواية أن الحشد كان كبيراً والهياج حاداً والتهديد بالخلع أو بالقتل عاليا لدرجة أن أمير المؤمنين المبايع يطلب الأمان كي يخرج لابنه وينتزع منه الغلام، وقد منحوه أمانا كي يذهب إلى ولده لانتزاع الغلام منه بعد أن رفض ابن الأفطس التدخل في الأمر مشيرا إلى عجزه عن ذلك وخوفه من حرب بينه وبين علي بن محمد بن جعفر[٧٥]، وهي مناسبة هنا لنؤكد على حالة الفوضى في مكة وأن كل واحد من المتنفذين كان يعمل باستقلالية عن الآخر على الأقل في أمور النهب والمنكرات المذكورة. وقد تمكن محمد بن جعفر، كما تفيد الرواية، من الذهاب إلى ولده وانتزاع الغلام منه وتهدئة خواطر الناس. ورغم أن الغلام ابن لقاضي مكة، إلا أن موقفا للقاضي بهذا الصدد لتخليص ابنه لم يرو، ولعله لم يدرك ذلك لوقوع الخطف والتحرير في نفس اليوم، كما أن علاقة محمد بن جعفر بهذا القاضي لم تتأثر كما يبدو، إذ رأينا أن محمد بن جعفر يرسل إلى جماعة من أهل مكة فيهم القاضي كي يتدخل لدى إسحاق بن موسى للحصول على أمان كي يخرج من مكة بعد هزيمته في الجولة الأولى من الحرب[٧٦]. والغريب في الأمر أن المرأة وهي الأكثر تمثيلا للعرض والشرف والنخوة والتي اختطفت من بيت زوجها وأكرهت على معاشرة رجل بالحرام، كما تذكر الرواية، لم تثر غيرة الناس كما حدث مع الغلام، هل لأن خطف الغلام وقع جهارا نهارا، فيما خطفت المرأة فجرا وكان زوجها قد هرب من مكة كما تصور الرواية؟ أم لخوفهم من سطوة ابن الأفطس ورجاله كما قد عرفوه حتى الآن؟ أم أن الحادثة لم تقع أصلا وأن الأمر كله تعريض وتشهير بخصوم بني العباس في هذه الفترة؟ ومع ذلك فإن هذا السؤال الأخير تقل دلالته عندما نعلم أن موضوع النساء كان حاضرا في المواجهات سواء أكان للدعاية السياسية أم للفعل الدال على قوة المنتصر. يورد الأصفهاني على لسان الجيش العباسي المهاجم لأبي السرايا في الكوفة "وأقبل أهل بغداد يصيحون يا أهل الكوفة: زينوا نساءكم وأخواتكم وبناتكم للفجور، والله لنفعلن بهم كذا وكذا "[٧٧].

وهذا القول وإن قيل أنه داخل في الإرجاف العلوي ضد العباسيين، كما هو الحال في قصة المرأة والغلام وأنها يمكن أن تكون إرجافا ضد العلويين، إلا أن وجود هذه الأخبار يعد رغم ذلك دليلا على حصول هتك للأعراض هنا أوهناك. ومما يقوي الاعتقاد بحصول تلك المنكرات في مكة إقرار الأصفهاني بسوء سيرة ابن الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر، ليس صراحة بالاسم، ولكن ضمن معايير الاختيار التي أعتمدها لكتابه "مقاتل الطالبيين" كما أشار إلى ذلك في المقدمة حيث يقول "ومقتصرون في ذكر أخبارهم (الطالبيين) على من كان محمود الطريقة، سديد المذهب، لا من كان بخلاف ذلك، أو عدل عن سبيل أهله ومذاهب أسلافه أو كان خروجه على سبيل عيث أو فساد"[٧٨]

ولذلك حُرم ابن الأفطس وعلي بن محمد بن جعفر من سيرة ذاتية مستقلة في كتاب الأصفهاني بين ذلك الحشد الهائل من الأسماء.

ومـــع ذلـــك فإن أقصى ما يمكن أن نخلص إليه بعد هذا الاستعراض بشأن المرأة والغلام، وأخذا بعين الاعتبار سيادة روح التغلب وانتشار الفوضى وتراجع القيم عند نهاية القرن الثاني الهجري، أنها أمور غير مستبعدة.

خلاصة

والخلاصـــة أن حركة محمد بن جعفر العلوي بدأت في البصرة عام ١٩٩هـــ ثم انتقلت إلى مكة، وأنها وقعت كنتيجة من نتائج الحرب بين الأمين والمأمون وخلو العراق وكل شبه الجزيرة من سلطة خلافية فاعلة بعد مقتل الخليفة الأمين عام ١٩٨هـــ. وكانت هذه الحركة من بين حركات تغلب علوية كثيرة قامت عند نهاية القرن الثاني الهجري لم تحمـــل في طياتها أي بديل سياسي معلن في شعار أو خطبة. وهي الحركات التي وجدت في حركة أبي السرايا غير العلوي مظلة عسكرية لها، كما وجد أبو السرايا في العلويين واجهة دينية يقاتل تحت لوائها. وقد تميزت حركة محمد ابـــن جعفر عن باقي حركات التغلب الأخرى بأنها أعلنت خلافة علوية عقب حرب الأمين والمأمون وخلو العراق والجزيـــرة مـــن ســـلطة خلافية مقبولة، وكان ابن جعفر أول طالبي يبايع بالخلافة بعد الحسن بن علي وتلقب بإمرة المؤمـــنين، وهـــو ما جعل خطر حركته يكون الأقوى. وقد ترافقت الحركات العلوية ومنها حركة محمد ابن جعفر بأعمال سلب ونهب واعتداء على أموال الكعبة كما نسبت إلى بعض شخوصها منكرات أخلاقية فاضحة. وقد كان ابن جعفر طامحا في الخلافة عاملا لها بكل ما استطاع. وقد أمكن دحض الروايات التي تصوره زاهدا في السلطة وأنه إنما أجبر على ذلك، وكان بقدر أو بآخر شريكا لولده ولابن الأفطس في أعمال السلب والنهب المذكورة، وأوضحنا أن ســـبب تصـــويره زاهدا في الخلافة أو الأعمال المنكرة تكمن في النهاية التي آلت إليها حركته وهي الاستسلام ثم التســـليم بخلافة المأمون وفي الحظوة التي وجدها عند المأمون بعدئذ. وقد دامت حركته من ربيع الآخر إلى ذي الحجة سنة ٢٠٠ للهجرة، على أن بيعته كخليفة لم تدم إلا ثمانية أشهر من ربيع الآخر حتى ذي الحجة من نفس العام.

التعليقات

(١) تضـــيف له بعض المصادر لقب الديباج أو الديباجة، ويبرر ذلك بحسن وجهه، وقد جاء في لسان العرب لابن منظور (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م)، ١: ١٣١٧، في مادة دبج "وديباجة الوجه وديباجه: حسن بشرته، أنشد ابن الأعرابي للنجاشي

هم البيض أقواما وديباج أوجه، كرام إذا اغبرت وجوه الأشائم

وبينما لا نجد هذا اللقب عند مؤرخ معاصر لمحمد بن جعفر هو ابن خياط، في تاريخه، ولا عند اليعقوبي في تاريخه ولا الطبري في تاريخه ولا ابن الأثير في الكامل، ولا ابن الجوزي في المنتظم، ولا في العيون والحدائق عند المؤلف المجهول، نجد اللقب عند آخرين أمثال الخطيب البغدادي، وابن الجوزي، وابن خلدون ، وعند ابن علي الفاسي في شفاء الغرام..، وعند الفاسي في إتحاف الورى

بأخـــبار أم القرى وهو الذي يستخدم اللقب بكثافة عوضا عن الاسم. ويبدو أن اللقب لم يكن شائعا ولا متفق عليه، وإلى هذا يشـــير ابـــن حـــزم، أبو محمد علي بن أحمد، *جمهرة أنساب العرب* (بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٨٣م)، ٥٩، حين يذكر" والشيعة تلقبه الديباجة لجمال وجهه" ومع ذلك فانقسام المصادر حول إيراد لقبه من عدمه لا يبدو أنه على أساس مذهبي ، وإلا لســـقط من بعض المصادر التي أوردناها بعاليه، ويبقى أن نقول أن غياب أخبار مفصلة عن حياة محمد بن جعفر الأولى باستثناء أنـــه كان يروي عن أبيه يقنع بأنه كان مغمورا، وأنه إنما عرف على نحو واسع عند نهاية القرن الثاني الهجري بعد قيامه بالحركة التي نحن بصدد إلقاء الضوء عليها، وأن اللقب الذي منحته الشيعة إياه قد حدث كما نرجح بعد حركته بوقت طويل وإلا لأثبته كافة المؤرخين استسهالا للإشارة إليه بلقب بدلا من محمد بن جعفر كما سنرى في متن البحث.

(٢) في الرســـائل المتبادلة بين الطالبي محمد النفس الزكية وأبي جعفر المنصور تظهر جليا المرتكزات التي على أساسها أدعى كل فريق الحق لنفسه في خلافة المسلمين، أنظر، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار روائع التراث العربي، د.ت.)، ٧: ٥٦٦- ٥٧٣؛ وقد جاء في رد محمد النفس الزكية لأبي جعفر المنصور، *الطبري* ٧: ٥٦٧، ما يلي، وأن الحق حقنا وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا" وقد كانت تلك المرتكزات وأهمها القرب من نسب النبي ﷺ عبر ابنـــته فاطمة هي القاسم المشترك، أو قل الوعي المشترك الذي كان يعلن عن نفسه في كل حركة طالبية، كما كان النسب عند بني العباس عبر العم العباس هو الآخر من بين أهم المرتكزات إلى جانب النجاح في الإطاحة بالخلافة الأموية.

(٣) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، *تاريخ بغداد* (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٩٧٠م)، ٢: ١١٣؛ الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد، *مقاتل الطالبين*، شرح وتحقيق: السيد أحمد صقر (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٠م)، ٥٣٧.

(٤) المقدســـي، مطهـــر بـــن طاهر، *كتاب البدء والتاريخ المنسوب* لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي، مصور عن طبعة خاصـــة في (باريس: ١٨٩٩م)، ٥: ١١٢.

(٥) مجهول، *العيون والحدائق*، من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم (هولندا: مطبعة بريل، ١٨٦٩م)، ٣٤٦.

(٦) المقدسي، *البدء والتاريخ*، ٥: ١٠٩.

(٧) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار صادر، ١٩٧٩م)، ٦: ٣٠٥.

(٨) هذه هي السيرة التقليدية التي نجدها لأبي السرايا في معظم المصادر التاريخية التقليدية، انظر مثالا على ذلك الطبري، *تاريخ الرسل والملـــوك*، ٨: ٥٣٤-٥٣٥؛ لكـــن هذه الصورة لا وجود لها عند الأصفهاني في *مقاتل الطالبين*، والذي لا يذكر شيئا من هذه الأخـــبار المتواترة عن أبي السرايا بل يركز على الفترة التي اتصل بها بابن طباطبا، ويصوره شيعيا محبا لآل البيت، آمرا بالمعروف وناه عن المنكر، الأصفهاني، ٥١٨، ٥٣٦- ٥٤٢- ٥٥٩.

(٩) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥٢٨؛ *العيون والحدائق*، ٢٤٦.

(١٠) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥١٩.

(١١) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٥.

(١٢) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٢١.

(١٣) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥٢٩.

(١٤) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٣١.

(١٥) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٢.

(١٦) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٢.

(١٧) المشـــاش: مـــنطقة متصلة بجبال عرفات، انظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي (بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٩٥م)، ٢: ١٥٤.

(١٨) ابـــن عـــلي الفاسي، محمد بن أحمد، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، ط١، حققه ووضع فهارسه د. عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م)، ٢٨٩.

(١٩) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٦.

(٢٠) مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨.

(٢١) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٦.

(٢٢) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٧.

(٢٣) عـــن أســـاطين الحرم وأعدادها وما وجد بها من ذهب، أنظر الأزرقي محمد بن عبد الله بن أحمد، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار* (بيروت: دار الأندلس، ١٩٩٦م)، ١: ٨٢- ٨٣.

(٢٤) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣١١.

(٢٥) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٦؛ مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨.

(٢٦) كانت قرية على طريق المدينة على بعد ست مراحل من المدينة وعلى ثلاث مراحل من مكة، ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ٢ : ١٢٩.

(٢٧) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٩.

(٢٨) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٤٠.

(٢٩) أحمد بن أبي يعقوبي، *تاريخ اليعوبي*، ٢: ٤٤٨.

(٣٠) يستثنى من ذلك الصفدي، صلاح الدين بن أيبك، *الوافي بالوفيات*، ج٢ (دار فرانس ستاينر للنشر، ١٩٧٤م)، ٢: ٢٩١، الذي يورد تاريخين لوفاته هما سنة ٢٠٤ وسنة ٢٠٣، ثم يذكر أن الأخير هو التاريخ الصحيح.

(٣١) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٤٠.

(٣٢) ابـــن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٩٢م)، ١٠: ٨٥.

(٣٣) ابـــن فهـــد، الـــنجم عمر بن فهد محمد بن محمد بن فهد، *إتحاف الورى بأخبار أم القرى*، تحقيق: وتقديم فهيم محمد شلتوت، (القاهرة: مكتبة الخانجي ١٩٨٣م)، ٢: ٢٦٩.

(٣٤) ابن خياط،خليفة بن خياط، *تاريخ خليفة بن خياط*، تحقيق: أكرم ضياء العمري، (بيروت: دار القلم ومؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٧٧م)، ٤٧٠.

(٣٥) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، *تاريخ*، مج٢، ٤٤٨.

(٣٦) الفاســـي، محمـــد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي، *الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة*، ، تحقيق: د. مصطفى محمد حسين الذهبي (الرياض: ١٩٩٧م)، ١٧٩.

(٣٧) ابن علي الفاسي، *الزهور*، ٢٨٨.

(٣٨) ابـــن خلدون، عبد الرحمن، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر* (القاهرة: وبيروت: دار الكتاب المصري واللبناني، ١٩٩٩م)، ٥: ٥٢٠.

(٣٩) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٦٢.

(٤٠) الأصفهاني، مقاتل الطالبين، ٥٤١.

(٤١) الخطيب البغدادي، *التاريخ*، ٢: ١١٥، كما أن رواية البغدادي هذه تجعل موت ابن جعفر بخراسان بينما عامة الروايات تؤكده في جرجان.

(٤٢) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٦٤، ٥٦٧.

(٤٣) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٤١.

(٤٤) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، شرحه وقدم له مفيد قميحة، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ٣: ٥٠٢.

(٤٥) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٧.

(٤٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣١١.

(٤٧) مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨-٣٤٩.

(٤٨) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١: ٨٢.

(٤٩) الذهـــبي، أحمد بن محمد عثمان، *تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام*، حوادث، ١٩١-٢٠٠، تحقيق: د. عمر عبدالسلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٩م)، ٧٨.

(٥٠) ابن خلدون، *تاريخ ابن خلدون*، ٥: ٥١٩.

(٥١) مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨.

(٥٢) ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣١١.

(٥٣) الذهبي، *حوادث*، ١٩١-٢٠٠، ٧٥.

(٥٤) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣١٢.

(٥٥) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٣٩.

(٥٦) المقدسي، *البدء والتاريخ*، ٥: ١٠٩.

(٥٧) اليعقوبي، *تاريخ*، ٤٤٨.

(٥٨) أنظـــر: مقدمـــة التحقيق: لكتاب تاريخ خليفة بن خياط التي كتبها الدكتور أكرم ضياء العمري وبين فيها منهج ابن خياط في الكتابة التاريخية ومستوى الثقة التي تلقاها رواياته، ١٤ وما بعدها.

(٥٩) ابن خياط، *تاريخ*، ٤٦٩.

(٦٠) لاحـــظ المستشـــرق الهولـــندي، ك. سنوك هورخرونيه في كتابه ، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، أن الكتاب العلويين -و لم يســـمهم- يـــرون أن محمد بن جعفر غير مذنب، لكنه يرى أن هذا الزعم غير صحيح بدليل نشاط ابن جعفر للاستيلاء على المدينة. والمستشرق في ملاحظته هذه خلط بين أمر السلب والنهب والرغبة في الخلافة، فاستدل بالثانية على الأولى، لكنها تبقى ملاحظة مهمة تعزز ما ذهبنا إليه من رغبة أكيدة لمحمد بن جعفر في نيل الخلافة. ك.سنوك هورخرونيه، *تاريخ مكة المكرمة*، نقله

إلى العربية د. علي عودة الشيوخ (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٩٩٩م)، ١: ١٣٠.

(٦١) شاكر مصطفى، *دولة بني العباس* (الكويت: وكالة المطبوعات، ١٩٧٣م)، ١: ٤٠٤-٤١٠، ٤٢٨-٤٣٦.

(٦٢) الطبري ٨: ٥٣٦-٥٣٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣١١- ٣١٢؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٠: ٨٢؛ مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨؛ ابن خلدون، *تاريخ*، ٥: ٥١٩-٥٢٠؛ ابن فهد، *اتحاف*، ٢٦٥؛ ابن علي الفاسي، *الزهور*، ٢٨٦.

(٦٣) الطبري، ٨: ٥٣٧.

(٦٤) عبدالغني، عارف، *تاريخ أمراء مكة*، ط١ (دمشق: دار البشائر، ١٩٩٢م)، ٢٨٣.

(٦٥) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٥١.

(٦٦) عبدالمولى، محمد أحمد ، *العيارون والشطار في التاريخ العباسي* (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ١٩٧٨م)، ١٦٦.

(٦٧) الخطيب الغدادي، *تاريخ*، ٢: ١١٤.

(٦٨) الخطيب البغدادي، *تاريخ*، ٢: ١١٤.

(٦٩) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٨- ٥٣٩.

(٧٠) عمر بن فهد، *اتحاف الورى*، ٢: ٢٦٧.

(٧١) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٧-٥٣٨.

(٧٢) مجهول، *العيون والحدائق*، ٣٤٨.

(٧٣) ابن خلدون، *تاريخ*، ٥: ٥٢٠.

(٧٤) انظر مثلا ما كتبه الطبري، ٨: ٥٥١، حول فساق الحربية والشطار ببغداد والكرخ، وكيف الهم أخذوا الغلمان والنساء علانية من الطرقات، وأنهم تمكنوا من فعل ذلك لأنه لا سلطان يمنعهم من ذلك "لأن السلطان كان يعتز بهم".

(٧٥) الذهبي ، *حوادث*، ١٩١-٢٠٠: ٧٤.

(٧٦) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٣٩.

(٧٧) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥٢٦.

(٧٨) الأصفهاني، *مقاتل الطالبين*، ٥.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

ثورات أعراب الجزيرة العربية في خلافة الواثق بالله (٢٣٠ – ٢٣٢هـ / ٨٤٥ – ٨٤٧م)

أمينة محمد علي بيطار
جامعة الملك سعود – الرياض

أولاً: المقدمة:

نشبت عـدة ثورات من قبل أعراب الجزيرة العربية في خلافة الواثق بالله العباسي[١] (٢٢٧- ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ - ٨٤٧م)، ويمكن تقسيم هذه الثورات إلى قسمين.

١- ثورات الأعراب في طريق الحج، مثل ثورات بني سليم[٢] وهلال[٣]، وغيرها[٤].

٢- ثورة بني نمير[٥] في اليمامة[٦] وقد تكون أكثر أسباب هذه الثورات واحدة، وقد يختص بعضها بأسبابها الخاصة.

هـذا ويمكـن القـول بأن الجزيرة العربية لم تشهد في العصر العباسي قبل عهد الخليفة الواثق بالله من ثورات الأعـراب إلا ثورة اليمامة التي نشبت سنة (١٦٦هـ/ ٧٨٢م) في عهد الخليفة المهدي (١٥٨- ١٦٩هـ/ ٧٧٥- ٧٨٥م)[٧]. وقـد يكـون سببها لفت انتباه الخلافة العباسية إلى أوضاعهم، والعمل على تحسينها. وعلى العموم فقد كانـت علاقـة قـبائل الجزيرة العربية حسنة مع الخلافة العباسية حتى سنة (٢٣٠هـ / ٨٤٥م)، ذلك لأن سياسة العباسـيين قبل خلافة الواثق بالله كانت تعمل على استرضاء القبائل التي كانت تنزل على طريق الحجاج، وفي جوار المدينـتين المقدسـتين، مكة والمدينة[٨]، وتعمل في نفس الوقت على مراقبة المتمردين فيها[٩] وغاية ما قامت به هذه القـبائل هو انضمامها إلى ثورة محمد النفس الزكية (ت ١٤٥هـ/ ٧٦٢م)[١٠]. ولم يكن لانضمام هذه القبائل إلى النفس الزكية أي أثر لخروجهم في خلافة الواثق بالله.

ثانياً: أسباب ثورات القبائل العربية:

كان لخروج القبائل وثوراتها على الخليفة الواثق بالله أسبابها، وعلى رأس هذه الأسباب:

١- إهمال الخلفاء العباسين منذ خلافة المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ/ ٨١٤- ٨٣٣م)، لا بل منذ خلافة الأمين (١٩٣ - ١٩٨هـ/ ٨٠٩- ٨١٤م) لإصـلاح طريق الحج، والإنعام على القبائل القاطنة على طرفيـه لانشغالهما

بمشـــاكل أخرى متعددة[١١]، على حين أن من سبقهما من الخلفاء العباسين، كان طريق الحج وتأمينه من أهم مشـــاغلهم. ففي سنة (١٣٤هـ/ ٧٥١م) بعد قيام الخلافة العباسية بأقل من سنتين، ضرب أبوالعباس المنار من الكوفـــة إلى مكة[١٢] ووضع الأميال، وكان أمير الحج يدفع الأموال للقبائل القاطنة على طرفي الطريق[١٣]. وفي سنة (١٣٦هـ/ ٧٥٣م) حين حج أبو مسلم الخراساني مع أبي جعفر المنصور، تسابقا إلى الإحسان إلى القبائل، وإصلاح طريق الحج. فقد كان أبومسلم يصلح العقاب[١٤]، ويكسو الأعراب في كل منزل البتوت والملاحف، ويصل كل من يسأله، ويحفر الآبار ويسهل الطرق[١٥].

وفي سنة (١٦١هـ/ ٧٧٨م) أمر الخليفة المهدي ببناء القصور في مكة، على أن تكون أوسع من القصـــور التي كان الخليفة أبو العباس قد بناها من القادسية إلى زبالة، وأمر بالزيادة في قصور أبي العباس، وترك منازل أبي جعفر التي كـــان بـــناها عـــلى حالها، وأمر باتخاذ المصانع في كل منهل، وجدد الأميال والبرك، وحفر الركايا[١٦] وبنى المصانع للمياه[١٧].

ويجب أن لا ننسى ما قام به الخليفة هارون الرشيد وزوجه زبيده لإصلاح الطريق إلى مكة، وهو الطريق الذي عـــرف باسم طريق زبيدة[١٨] وقد أدى وقوع بلاد العديد من القبائل العربية على طريق الحج، ودعم العباسيين للأمن في هذا الطريق، والقيام بالإصلاحات فيه، ودعم قبائله مادياً إلى ازدهار لا بأس به في حياة هذه القبائل الاقتصادية[١٩] القاطنة على هذا الطريق.

٢ - مـــن أســـباب ثورات القبائل في عهد الخليفة الواثق بالله، قلة الماء في طريق الحج، وعدم قيام أولي الأمر بمعاقبة المكلفـــين بالاهتمام بالطريق، وتوفير المياه اللازمة. فقد كان الماء قليلاً في خلافة الواثق بالله، حتى إنه أراد الحج ســـنة (٢٣١هـــــ/ ٨٤٦م)، فـــلما علم بقلة الماء في الطريق، عاد دون أن يحج[٢٠]. ولم يعاقب المهملين لأمر الطريق. وكان الخلفاء العباسيون الذين حكموا قبله يحاسبون المقصرين. فحين خرج الخليفة المهدي للحج سنة (١٦٤هـ/ ٧٨١م)، وعلم بقلة الماء غضب على يقطين بن موسى الذي كان يلي المصانع وعاقبه[٢١].

ولمـــا ضـــاق المـــاء في خلافة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م)[٢٢] هب لحل المشكلة إذ أمر بجمـــع عيون الدوائر[٢٣]، وأحدث لها ماجلين[٢٤] بالمعلاة تصب فيهما يعرفان باسمه، ثم تسكب بالبركة التي عند باب المسجد الحرام[٢٥].

ومـــع مـــا قـــام به هارون الرشيد، فإن الماء بقي غير كاف، وبلغ ذلك زبيدة فأمرت بعمل بركتها في مكة، وأجـــرت لها عيناً من الحرم، وأتبعت ذلك بإجراء عيون من الحل، وعملت لها بركاً تجتمع فيها السيول، واشترت حـــائط حـــنين، فأجرت عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سداً تجتمع فيه السيول[٢٦] ولم يقتصر اهتمامها على مكة، وأمـــاكن المناســـك، بل اهتمت بطريق الحج، وتوفير الماء فيـــه، والإحسان إلى من يقطنه، ذلك الطريق الذي عرف

باسم طريق زبيدة[٢٧] وهذا ما جعل القبائل القاطنة على طريق الحج، تعيش آمنة هادئة، تحصل على بغيتها دون القيام بثورات.

ولعدم محاسبة الخليفة الواثق بالله للمشرفين على طريق الحج سنة (٢٣١هـ/ ٨٤٦م)، ولعدم قيامه باصلاحات واسعة، استمر الماء قليلاً في الطريق، وأصاب الحجاج سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) عطش شديد في أربعة منازل إلى الربذة، فبلغت الشربة عدة دنانير، ومات خلق كثير من العطش[٢٨]. فلما جاء علي بن عيسى إليها، ووجد قلة الماء، وأن أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقل الماء إلى مكة، ابتاع عدداً من الجمال والحمير، ووقفها على حمل الماء، وأقام لها العلوفة الراتبة، ومنع السخرة وحظرها، وحفر آباراً في مناطق أخرى، فخرجت مياه عذبة تصلح للشرب، فسماها الجراحية، وابتاع عيناً غزيرة بألف دينار، وفتحها ووسعها حتى كثر ماؤها، واتسع الماء في مكة[٢٩].

٣- غلاء الأسعار بسبب عوامل متعددة، على رأسها العوامل الطبيعية التي تعرضت لها المنطقة، ففي سنة (٢٢٨هـ / ٨٤٣م)، ارتفعت الأسعار بطريق مكة، فبلغ رطل الخبز بدرهم، وراوية ماء بأربعين درهماً بسبب قلة الماء[٣٠] حدث هذا على الرغم من أن الأسعار كانت قبل عصر الخليفة الواثق بالله رخيصة، فقد كان ثمن الكبش درهماً، والحمل بثلثي الدرهم، والتمر ستين رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمان أرطال بدرهم[٣١] وهذا يعني أن ثمن راوية الماء في هذه السنة تجاوزت ثمن أربعين كبشاً. وهذا شيء لا يمكن للقبائل أن تتحمله.

٤- لم يعد العرب يملكون القرار السياسي في بلادهم، فقد أصبح الأعاجم هم الذين يعينون الولاة، ويتولون الولايات ويسيرون أمورها. فقد عين وزير الخليفة الواثق بالله "محمد بن عبدالملك الزيات"[٣٢] سنة (٢٣١هـ/ ٨٤٦م) إسحاق ابن إبراهيم بن أبي خميصه مولى بني قشير من أهل أضاخ[٣٣] على اليمامة والبحرين وطريق مكة[٣٤]، في الوقت الذي عانى فيه الأعراب من الغلاء، وقلة الماء في طريق الحج، وفي هذا أمرين.

أولها: تعيين مولى ليحكم القبائل العربية، ويفرض أحكامه عليها، إضافة إلى تعيينه على طريق الحج الذي تسكنه قبائل عربية لها قوتها ومكانتها.

ثانيها: إن الذي عقد لإسحاق في دار الخلافة وزير الخليفة، ولم يسبق أن عَقد أحد لوال في دار الخلافة إلا الخليفة، وهذا يدل على غياب دور الخليفة، وأن القرار السياسي أصبح في يد وزرائه والأعاجم.

كما أن أمرة الحج التي كانت حكراً على العباسين[٣٥]، ويعينون من قبل الخليفة مباشرة، أصبح ولاتها يعينون بإشارة من الأعاجم أمثال طاهر بن الحسين[٣٦]، أو أشناس[٣٧]، أو أيتاخ[٣٨]، أو غيرهما. فقد حج العباس بن موسى ابن عيسى بالناس سنة (١٩٧هـ/ ٨١٣م) بتوجيه من طاهر بن الحسين[٣٩]، وحج محمد بن داود بالناس سنة

(٢٢٦هـ/ ٨٤١م) بأمر أشناس الذي أصبح والياً على كل المناطق التي يمر فيها أثناء حجه، ودعي له على جميع المنابر التي مر بها من سامراء إلى مكة والمدينة، وبقي الدعاء له عليها حتى عاد إلى سامراء[٤٠] ولما توفي أشناس سنة (٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) صيرت مرتبته وأكثر أعماله إلى ايتاخ التركي[٤١] الذي حج وهو والي مكة والمدينة والموسم، ودعي له على المنابر[٤٢].

وهكذا فإن من أسباب ثورات الأعراب استئثار الأعاجم بالدولة العباسية. فقد أخذ الخلفاء بتعيين ولاة من الأعاجم على مكة والمدينه كما جعلوهم أمراء للموسم والحج. فقد عين المعتصم قائده أشناس والياً على الحجاز، وكانت ولايته ولاية عقد دون مباشرة، أو ما يسمى ولاية اسمية فخرية. لم يكن له منها إلا الدعاء على المنابر. وعين بغا الكبير التركي على أحداث الموسم سنة (٢٣٠هـ/ ٨٤٥م)، كما تولى المنصب نفسه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب[٤٣]. وعين الواثق سنة (٢٣٣هـ/ ٨٤٨م) واليًا خاصًا على طريق مكة، هو المولى يحيي بن هرثمة[٤٤]. وكان لذلك أثره في نفس العرب الذين كانوا ما يزالون يحتفظون بنظرة التفوق على الأعاجم، لأنهم مادة الإسلام، وثار العرب لهذا السبب ولأسباب أخرى على الخليفة الواثق بالله، فأرسل والي المدينة لقتالهم المولى حماد بن جرير الطبري صاحب مسلحة المدينة[٤٥]، ولما انهزم حماد وقتل، أرسل الخليفة لقتالهم مولى آخر هو بغا الكبير، ورأت القبائل العربية في ذلك ذلاً، وأنفت من الخضوع للأعاجم. وقد وضح عرب نمير ذلك، وأعلنوا سبب خروجهم على الخلافة العباسية، بأنهم يرفضون رئاسة العبيد والعلوج عليهم، مخاطبين محمد بن يوسف[٤٦] الذي قدم إليهم ليتوسط بينهم وبين بغا قائد جيوش العباسين، ويدعوهم إلى الطاعة قائلين: "يا محمد بن يوسف: قد والله ولدناك، فما رعيت حرمة الرحم، ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم، والله لنرينك العبر"[٤٧].

وقد أججت هذه العوامل مجتمعة القبائل العربية، وأثارت ضغينتها، ونالت من كرامتها، فعمت ثوراتهم الجزيرة العربية، وخاصة القبائل التي كانت تسكن طريق الحج، وذلك لاثبات عدم مقدرة الخلافة العباسية على حماية الحجاج، وعدم تمكنها من المحافظة على الأمن، فأخذوا بمضايقة الحجاج أثناء مرورهم في طريق الحج، وتطاولوا على الناس حول المدينة، وعاثوا في أسواق الحجاز.

وهكذا تعددت الأسباب التي أدت إلى ثورات القبائل العربية في خلافة الواثق بالله، تلك الثورات التي نشبت حول المدينة وفي طريق مكة، ودامت ثلاث سنوات ما بين سنتي (٢٣٠- ٢٣٢هـ/ ٨٤٥- ٨٤٧م)، على الرغم من أن الخلافة العباسية استعانت بأقوى رجالها وقادها من الأتراك للقضاء عليها.

بدأت الثورات بقيام بني سليم ومعهم بنو هلال[٤٨] بالتطاول على ما حول المدينة المنورة، وأخذوا بنهب أسواق الحجاز وبيوعها[٤٩]، وعاثوا بالأرض فساداً وأخافوا السبيل[٥٠] وقطعوا الطريق، حتى تخلف الناس عن الحج[٥١]. وقد يكون بنو سليم فعلوا ما فعلوا لتوجيه رسالة إلى الخلفاء العباسيين، تشعرهم بتقصيرهم، وأنهم غير قادرين على حماية

الطرق، وخاصة طريق الحج إلا بمساعدتهم، وبالتالي فعليهم تقديم الأموال إليهم، والعمل على إصلاح الطريق، وتأمين الماء.

ومـن أجـل ذلـك نظم بنو سليم أنفسهم، وجعلوا عزيزة بن قطاب السُّلمي على قيادتهم(٥٢)، وسلموا عليه بالخلافة(٥٣) وبدؤا ثورتهم بالاعتداء على ميناء الجار(٥٤) وأوقعوا بجماعة من كنانة(٥٥) وباهلة(٥٦)، وقتلوا بعضهم وذلك في (جمـادى الآخـرة سنة ٢٣٠هـ/ سبتمبر وأكتوبر ٨٢٥م)، ووجد والي المدينة محمد بن صالح بن العباس الهاشمي نفسه مضطراً إلى الوقوف في وجه بني سليم. فأرسل لقتالهم حماد بن جرير الطبري صاحب مسلحة المدينة بمن معه من الجند وبمن انضم إليه من مطوعة المدينة ومواليهم وسودانهم(٥٧).

كمـا جمـع بـنو سليم جموعهم، فجاءهم من البادية عونٌ يقدر بستمئة وخمسين رجلاً يرأسهم " أشهب بن دويكل بن يحيى بن حمير العوفي السلمي، وعمه سلمة بن يحيي وتجمع لهم من الخيل مئة وخمسون فرساً، ثم وصل لبني سليم مدد يقدر بخمسمئة من موضع بدوهم(٥٨).

ونشب القتال بين الطرفين في موضع يقال له الرويثة(٥٩) أثبت فيه بنو سليم قوة وجدارة، أدت إلى انهزام سودان المدينة بالناس، وثبت حماد الطبري ومن معه من قريش والأنصار مدة بسيطة، ثم ما لبثوا أن انهزموا أمام بني سليم ومن ساعدهم من القبائل العربية، أمثال فزارة(٦٠) ومرة(٦١)، وغطفان(٦٢)، وأشجع(٦٣)، وثعلبة(٦٤)، وكلاب(٦٥). فقتل حماد وعامـة أصـحابه، كمـا قـتل ممن ثبت من قريش والأنصار عدد لابأس به. وحازت بنو سليم الكراع والسلاح والثياب(٦٦). وهكذا كانت الجولة الأولى لصالح بني سليم.

أدى هذا النصر المؤزر، والمكاسب التي حصل عليها بنو سليم إلى أن يزداد تطاولهم، فعملوا على استباحة القرى والمناهل فيما بين مكة والمدينة،حتى لم يكن أحد يتمكن من أن يسلك ذلك الطريق، وتطرقوا إلى من يليهم من قبائل العرب(٦٧). وقد أراد بنو سليم بذلك أن يقطعوا طريق الحج، وأن يثبتوا بأن الخلافة بجندها من أتراك وغيرهم وقادتهم من الأعاجم غير قادرين على العرب، وليس ذلك غريباً فقد سبقهم إلى ذلك نصر بن شبث العقيلي الذي ثار من سنة (١٩٨- ٢١٠هـــ/ ٨١٣- ٨٢٥م) على الخلافة العباسية في شمال بلاد الشام والجزيرة الفراتية، دفاعاً عن العرب، لأن الخليفة المأمون فضل عليهم العجم(٦٨).

لم يهتم الواثق بالله بهذه النفسية العربية الأبية، والأنفة من الخضوع للأعاجم، وتابع طريقه في تسليمهم المناصب القيادية في الجزيرة العربية، فولى قائده بغا الكبير أبا موسى التركي قيادة الجيش المؤلف في غالبيته من الأعاجم، وأعطاه صلاحيات واسعة، وأمره بقتل كل مـن وجـده من الأعراب(٦٩) وذلك -حسب رأيه- لحماية طريق الحج الذي يمر بأراضـيهم من العراق وما وراءها من بلاد المسلمين إلى مكة والمدينة(٧٠)، ولتأديبهم لما قاموا به من اعتداءات، وحماية الحجاج منهم(٧١).

وصل بغا في (شعبان سنة ٢٣٠هـ/ أبريل - مايو ٨٤٥م) [٧٢] إلى حرة بني سليم[٧٣]، وعلى مقدمته طرد وش التركي[٧٤] وجرت بين الفريقين معركة بشق الحرة من وراء السوارقية[٧٥] قرية بني سليم وفيها حصونهم[٧٦].

وإذا كان بنو سليم قد جمعوا قواهم لقتال حماد الطبري، فإنهم لم يفعلوا مثل ذلك حين هاجمهم بغا، فقد واجه بني عوف من سليم فقط، وفيهم عزيزة بن قطاب، والأشهب، وقد يكون ذلك بسبب استهانتهم بجيوش العباسيين لما حققوه من نصر على جيش المدينة بقيادة حماد، وشعورهم بتفوقهم على أعدائهم، أو أن بقية بطون سليم اكتفوا بما فعلوه، ولم يكونوا راغبين في قتال الجيوش الواصلة من مركز الخلافة العباسية. وقد ساعد ذلك بغا على الانتصار عليهم، فما أن حدثت المواجهة حتى قتل منهم نحواً من خمسين رجلاً، صلبهم على الشجر[٧٧]، وأسر مثلهم، وانهزم الباقون[٧٨].

أدرك بغا قدرة الأعراب على الكر والفر، وأنه لم يهزمهم جميعاً، بل هزم بطناً[٧٩] من بطونهم، وخشي أن يهاجموه ليثأروا لهزيمتهم، وينتقموا منه، فأخذ يفاوضهم ويدعوهم إلى الأمان على حكم الخليفة الواثق بالله، وأقام بالسوارقية ينتظر ردهم، فجاؤوا إليه متفرقين، فاحتبس عنده من رأى أنه موصوف بالشر والفساد، فكانوا زهاء ألف رجل، وخلى سبيل سائرهم[٨٠]. وحقيقة الأمر أن بغا لم يتمكن من أن يأسر المطلوبين الذين كانوا يؤذون الناس، ويطرقون الطرق، لأنهم تمكنوا من الهرب، وأسر من استطاع أسره من غيرهم.

حاول بنو سليم أن يستعطفوا بغا، طالبين منه الإحسان إليهم، وأن يفعل بهم ما أمر به الخليفة الواثق بالله، فأنشدوه قائلين:

يابُغْيَة الخيْر وسَيْف الُمنْتبَهْ	وَجانبَ الجْور البَعيد الُمشْتبَه
مَنْ كانَ منا جانياً فَلسْتَ بهْ	افْعَل هَداكَ اللهُ ما أُمرْتَ بهْ[٨١]

فأجابهم بغا قائلاً: "أمرت أن أقتلكم"[٨٢]

كما أنهم حاولوا استعطاف الخليفة طالبين منه أن يعفوَ عنهم. فأنشد أحد بني سليم:

أميرُ المؤمنينَ سما إلينا	سُمُوَّ الَّليْث ثارَ من الغريف
فإنْ يْمنُن فَعَفْوُ الله نَرْجو	وإن يقتل فقاتلُنا شَريف[٨٣]

ولكن ذلك لم يجدهم، ورحل بغا بالأسارى والمستأمنين إلى المدينة في (ذي القعدة سنة ٢٣٠هـ/ يوليو- أغسطس ٨٤٥م)[٨٤]، فحبسهم فيها، وعاد إلى مكة، فقام بشعائر الحج[٨٥].

بعد أن انتصر بغا على بني سليم، فقتل من قتل، وأسر من أسر، توجه إلى ذات عرق، إلى بني هلال، وعرض عليهم مثل ماعرضه على بني سليم، فأقبلوا إليه طائعين، لأنهم وجدوا أنفسهم غير قادرين على قتاله، فأخذ منهم

ثلاثمئة رجل، ممن اعتقد أنهم مردة وعتاة بني هلال، وخلى سبيل الباقي، وحملهم معه إلى المدينة المنورة، حيث سجنهم مع بني سليم(٨٦). وهكذا أصبح عدد مساجين القبيلتين ألفًا وثلاثمئة سجين.

بعد أن انتقم بغا، وأدب كلاً من بني سليم وهلال، توجه لتأديب كل من بني مرة وفزارة الذين اتهموا بالوقوف إلى جانب بني سليم، وترك السجناء في المدينة المنورة، الذين أعطوا البواب المكلف بحراستهم رشوة قدرها ألف دينار ليفتح لهم باب السجن. ففعل وقد أكدوا ذلك بالشعر الذي أنشدوه، فقال قائلهم:

المَوْتُ خيرُ للفَتى من العار قد أخَذَ البّواب ألْف دينار(٨٧).

وهناك رواية أخرى تذكر بأن السجناء من سليم وهلال نقبوا جدار الدار التي سجنوا بها ووثبوا على الموكلين بهم، فقتلوا منهم رجلاً أو رجلين، وخرجوا من السجن، فأخذوا سلاح الموكلين بحراستهم، ولكن أهالي المدينة تنبهوا إلى ما فعلوه، فاجتمعوا أحراراً وسوداناً وعبيداً لقتالهم، فحاصروهم حول الدار وقتلوهم جميعاً على الرغم من البطولة التي أبدوها(٨٨). وأظهر زعيمهم عزيزة ابن القطاب بطولة، وأخذ يرتجز الشعر قائلاً:

لابُدَّ من زَحْم وإنْ ضاقَ الباب إنّي أنا عُزَيْزة بن القطّاب

للمَوْتُ خيْرُ للفتَى من العذاب هذا ورَبيّ عَمَلُ البُواب(٨٩)

وعلى الرغم من حصار أهالي المدينة للسجناء من القبائل، إلا أن بعضهم تمكن من الفرار إلى بعض أزقة المدينة، فلاحقهم سودان المدينة وقتلوهم(٩٠)، وقيل بأن عزيزة بن قطاب كان من بين الناجين بأنفسهم، ولما شاهد قتل أصحابه صار إلى بئر، فدخلها، ولكن أحد رجال المدينة تمكن من الوصول إليه وقتله(٩١).

ومع اختلاف الروايات حول طريقة خروج سجناء كل من بني سليم وهلال من السجن، فالمرجح أنهم أغروا السبواب ورشوه فأخرجهم. إذ لا يمكن للمقيدين أن يخرجوا ويقتلوا البوابين،وشاهد الشعر أكبر دليل على طريقة خروجهم من السجن.

وهكذا فقد شهدت المدينة المنورة مجزرة حقيقية، قتل فيها ما يزيد عن ألف وثلثمئة رجل من العرب في غياب بغا، الذي كان قد توجه لقتال فزارة ومرّة، متهماً إياهم بالتغلب على فدك(٩٢). وقبل البدء بالقتال أرسل إليهم أحد رجاله يدعوهم إلى الأمان، ويأتيه بأخبارهم، ويتجسس عليهم من جهة أخرى. وقام الرسول بتحذيرهم من سطوة بغا، وزين لهم الهرب، فهربوا ودخلوا في البراري تاركين فدك. واستأمن بعضهم، وهرب الباقون مع أحد رجالهم المعروف بالركاض إلى موضع البلقاء من بلاد الشام، وأسر بغا من استطاع أسره منهم، وعاد بهم إلى المدينة(٩٣).

تمكن بغا بما فعله من تهديد ووعيد وتجسس من تمزيق قبيلتي مرة وفزارة في مناطق شتى، فمنهم من توجه باتجاه الشام، ومنهم من دخل في البراري،هذا إضافة إلى من أسر منهم. وقد ساعد نجاح بغا على سهولة إخضاع قبائل

غطفان، وأشجع، وثعلبة، وغفار[٩٤]، إذ أرسل إليهم رسولاً ليصيروا إليه ففعلوا، وتركهم بعد أن استحلفهم، على أن لايتخلفوا عنه متى دعاهم للحضور إليه فحلفوا له[٩٥]، وبذلك نجوا بأنفسهم من مجرزة مثل التي حلت ببني سليم وهلال، وتفرقوا في البلاد، ولم يعودوا إليه حين طلبهم -بعد ذلك- خشية أن يبطش بهم[٩٦].

خضع أعراب الجزيرة لقوة وسطوة بغا، إما سلماً، وإما حرباً، وبقي بنو كلاب، فسار بغا إلى مركزهم ضرية[٩٧] لطلبهم، فاجتمع إليه منهم نحو ثلاثة آلاف رجل، فاحتبس منهم حوالي ألف وثلاثمئة، ادعى أنهم من أهل الفساد، وأطلق الباقي، وقدم بمن سجنهم إلى المدينة في شهر رمضان سنة (٢٣١هـ/ ٨٤٦م)، حيث أودعهم السجن[٩٨]. وبقي الكلابيون في سجن بغا، دون أن يلتفت أحد إلى شؤونهم حتى نقلوا إلى سامراء[٩٩].

حين حقق بغا الكبير انتصاراته على القبائل العربية القاطنة على طريق الحج، وفي جوار المدينتين المقدستين، توجه إلى اليمامة إلى بني نمير، متهماً إياهم بأنهم عاثوا فساداً في الأرض، وأغاروا على اليمامة وما قرب منها[١٠٠].

هذا وقد قيل بأن الخليفة الواثق بالله لم يكن يعلم بما كان يجري من بني نمير في اليمامة. وأن الذي أعلمه بذلك الشاعر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفى[١٠١]، الذي حضر إلى الخليفة الواثق بالله، مادحاً له، وحصل على جائزة قدرها ثلاثون ألف درهم، فتباسط مع الخليفة وأعلمه بما كان يفعله بنو نمير[١٠٢].

وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على عدم معرفة الخليفة بما يجرى في أرجاء دولته عن طريق موظفية وعيونه من رجال البريد وغيرهم،وأن موظفيه كانوا يخفون عنه الأخبار ليبقوا في مناصبهم، ولو لم يحضر الشاعر عمارة بن عقيل، لما علم بما يجرى في بلاده. وهذا يدل على إهمال الواثق لشؤون الجزيرة العربية، وأن ولاته لم يكونوا أكفاء لحكم المنطقة[١٠٣]. علي حين أن من سبقه من الخلفاء العباسين، أمثال الخليفة المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ/ ٧٥٣- ٧٧٥م) كانوا يعلمون بكل ما يجرى في بلادهم الواسعة. فكان ولاة البريد في الآفاق كلها يكتبون إليهم كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم، وبسعر كل مأكول، وبكل مايقضى به القاضي في نواحيهم، وبما يعمل به الوالي، وبما يرد إلى بيت المال، فإن وجد خللاً أصلحه بشكل سريع حتى لاتنشب الفتن[١٠٤].

صدّق الخليفة الواثق بالله الخبر الذي نقله إليه الشاعر عمارة، ودون أن يتحرى الأمر عن طريق عيونه، أرسل إلى قائده بغا الذي كان مازال مقيماً في الحجاز[١٠٥]، يطلب منه سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٦- ٨٤٧م) المسير لقتال بني نمير، فاتخذ محمد بن يوسف دليلاً له ليرشده إلى الطريق، فلقي جماعة من بني نمير في مكان يقال له الشُّريف[١٠٦]، فقتل منهم ما يزيد عن خمسين رجلاً، وأسر نحواً من أربعين، ثم سار إلى حظيان[١٠٧]، ومنها على قرية لبني تميم تدعى مرات فترل بها[١٠٨].

بدأ بغا الكبير -بعد أن أظهر قوته أمام المجموعة النميرية التي واجهها- بمراسلة بني نمير عارضاً عليهم الأمان، ودعاهم إلى السمع والطاعة، ولكنهم رفضوا ذلك، وقد يكونوا فعلوا ذلك حمية وأنفه،أو أنهم رأوا ما حدث لبقية

الأعراب حين نزلوا على حكمه، فامتنعوا عليه وشتموا رسله. ووصل بهم الأمر إلى قتل أحد رسله، وأثخنوا الثاني بالجراح[١٠٩].

أمام هذا التصرف من قبل بني نمير، لم يكن أمام بغا، إلا أن يبدأ بقتالهم، فتوجه في (أول صفر سنة ٢٣٢هـ/ ٢٧ سبتمبر ٨٤٦م) إلى بطن نخل[١١٠]، ومنها إلى نخيلة، فتحصن بنو نمير بجبال السّوْد[١١١]. ولما أدرك أنه لايستطيع الصعود إليهم، أرسل طالباً منهم القدوم إليه فأبوا ذلك. فلم يكن من بغا إلا أن أرسل السرايا لقتالهم، فأصابوا بعض بني نمير، وأسروا البعض الآخر. وقد جرأه هذا النصر الجزئي على الإقدام لقتال بني نمير بألف رجل، فجمعوا وحشدوا لحربه ثلاثة آلاف في مكان يقال له روضة الأبان، وبطن السر[١١٢]، فتمكن بنو نمير من هزيمة مقدمته، وكشفوا ميسرته، وقتلوا من أصحابه نحواً من مئة وعشرين، وقيل مئة وثلاثين، وعقروا من إبل عسكره نحواً من سبعمئة بعير، ومئة دابة، وانتهبوا الأثقال وبعض الأموال، ثم أدركهم الليل وتوقف القتال[١١٣].

وهكذا فإن بغا الذي كان يمثل الخلافة العباسية، ويقاتل بجيوشها المسلحة بأفضل تسليح في عصره، انهزم أمام بني نمير، وخسر العديد من رجاله وأمواله وكراعه، فلم يعد أمامه إلا دعوتهم إلى الرجوع إلى طاعة الخليفة ثانية، وكان رسوله إليهم، دليله محمد بن يوسف الجعفري، ولكن بني نمير رفضوا وساطته، قائلين له: "... جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم، والله لنرينك العبر"[١١٤].

ولما رفض بنو نمير الانصياع إلى الوساطة، اتخذ بغا قراراً بمهاجمتهم، واقترح عليه دليله محمد بن يوسف أن يباغتهم في العتمة قبل الصبح، لئلا يكتشفوا قلة من معه فيطمعوا به، ولكن بغا خشي من المغامرة، وحدث ما كان يتوقعه محمد بن يوسف، إذا ما أن رأى بنو نمير قلة عدد من مع بغا، حتى عبؤوا أنفسهم ونظموا صفوفهم، فجعلوا رجالتهم أمامهم، وفرسانهم من خلفهم، ونعمهم ومواشيهم في المؤخرة، وهاجموا بغا، وحملوا عليه حتى بلغوا معسكره، وهزموه شر هزيمة حتى أيقن بالهلاك[١١٥] وظهر له أن حدس محمد بن يوسف كان صحيحاً.

بهذا النصر الثاني الذي أحرزه بنو نمير على جيش الخلافة العباسية، أشرف بغا وجيوشه على الهلاك، وأدرك أنه مهزوم إن لم يستخدم معهم الحيلة والدهاء. فأخذ يستعلم ويتحرى أخبارهم، ويرسل بعض سراياه لمناوشتهم. وعلم عن طريق رجاله بمكان تجمعهم، فوجه إليهم ليلاً مئتين من فرسانه لأخذهم على حين غرّة. فما أن شعر فرسان بني نمير بهذا الهجوم المباغت، حتى فرّوا ناجين بأنفسهم، وبقي الرجالة الذين وقعوا في يد جند بغا، فقتلوا عن آخرهم[١١٦]، وذلك في (١٣ جمادى الآخرة سنة ٢٣٢هـ/ ٥ فبراير سنة ٨٤٧م)[١١٧].

وقد أورد بعض المؤرخين روايات أخرى حول المعركة، ملخصها أن بني نمير أوقعوا بجيش بغا هزيمة ثالثة، وفر أصحابه عنه، وأخذ بنو نمير بنهب المتاع، وتشاغلوا بالنهب وعقر الإبل والدواب، فاستغل بغا الفرصة، وجمع قواته، ومن تفرق من جنده ونظمهم وكرّ بهم على بني نمير المشغولين بمكاسبهم المادية، فتمكن من هزيمتهم، وقتل

منهم زهاء ألف وخمسمئة رجل، واستولى على موضع الماء المعـروف ببطن السر، واستـراح هو ورجاله ثلاثة أيام بعد ذلك[١١٨]. وأيّ كان الذي حدث، وسواء أكان انتصار بني نمير على بغا في جولتين، أم في ثلاث جـولات، فإن النصر النهائي كان لجيوش الخلافة العباسية بقيادة بغا، وانهزم بنو نمير.

كانـت هـذه المعركة فاصلة، إذ أن الذين نجوا منها من بني نمير، أخذوا يطلبون الأمان، وخاصة حين علموا بوصـول نجـدات إلى بغا، قدرها سبعمئة رجل، بقيادة واجن الأشروسني الصغدي، فأعطاهم بغا الأمان وأسرهم، وعمل بعد ذلك على ملاحقة الفارين، فلم يدرك منهم إلا الضعيف، وبعض المواشي والنعم، وقد أشار الشاعر عمارة ابـن عقيل إلى أن بغا لم يقتل ويأسر من بني نمير إلا الضعاف، وأنه لم يصطدم في قتاله معهم مع كل من بني عامر من نمير أصحاب النخل والشاء، ولا بني عبدالله بن نمير الذين يهاجمون المدن، وهما من أقوى بطون بني نمير، فقال:

تَرَكْتَ الأعَقَفيْـن وبَطَنَ قَـوّ وَمَلأْتَ السَّجون مـنَ القمـاش[١١٩].

عمل واجن الأشروسني مع رجاله على تتبع بني نمير، والتوغل في بلادهم، وقد وصل إلى تبالة ، ومع ذلك فإنه لم يـستمكن إلا من قتل عدد قليل منهم، وجاء عدد من ساداتهم يطلبون الأمان لأنفسهم ولمن ينتمي إليهم، فقبل بغا ذلك منهم، وأخذ زهاء ثمانمئة رجل منهم أسرى، فأثقلهم بالحديد، وحملهم إلى البصرة في (ذي العقدة سنة ٢٣٢هـ/ يونية ويولية ٨٤٧م)[١٢٠].

ويذكـر ابـن كثير[١٢١] بأن بغا الكبير بعد أن هزم بني نمير قاتل بني تميم[١٢٢]، وكانوا في ثلاثة آلاف، وجرت بين بغا وبينهم حروب كثيرة، ثم كان الظفر له عليهم أخيراً، وذلك في النصف من (جمادى الآخرة سنة ٢٣٢هـ/ ٧ فبراير ٨٤٧م)، و لم تذكر المصادر عدد من قتل منهم، ولا عدد من أسر.

حاول سجناء بني نمير الشغب وكسر قيودهم أثناء نقلهم إلى سامراء، فعاقبهم بغا بالضرب المبرح، فكان يحضر الواحد منهم يضربه ما بين الأربعمئة إلى الخمسمئة، دون أن يظهر أحدهم التوجع، وهذا دليل على أنهم لم يكونوا من الضـعاف. وكان بغا قبل أن ينطلق بالسجناء إلى العراق، قد كتب إلى محمد بن صالح العباسي أمير المدينة بالمسير بمن قبله من أسرى بني كلاب وفزارة ومرّة وثعلبة وغيرهم، فوافاه وبرفقته الأسرى في بغداد، وصاروا جميعاً في (المحرم من سنة ٢٣٣هـ/ أغسطس ٨٤٧م) إلى سامراء، فوصل منهم حوالي ألفين ومئتي أسير، عدا من قتل منهم ويزيدون على ألفي رجل[١٢٣]، إضافة إلى من فر هارباً ناجياً بنفسه[١٢٤].

وهكذا فقد نجح بغا في القضاء على ثورات الأعراب في خلافة الواثق بالله، إلا أنه لم يستطع القضاء على جذوة غضـبهم، ولا على أسباب ثوراتهم، ولذلك فإن الثورات تكررت بعد فترة قصيرة وكانت تنشب بين الحين والآخر، مـن ذلـك ثـورة بـني عقيل سنة (٢٥١هـ / ٨٦٥م) الذين قطعوا طريق جدة، فحاربهم قادة العباسيـن[١٢٥]، وتكـررت الثورات فـي السنوات (٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١هـ/ ٨٧٩، ٨٨١، ٨٨٢، ٨٨٤م) وغيرها[١٢٦].

الخاتمة:

ومن المهم أن نذكر هنا أن القوة لا تكفي وحدها في ضبط الأعراب، وتوجيههم الوجهة التي تريدها القيادة السياسية، وأن الجيوش النظامية وحدها لا تستطيع أن تتعقب فلول الأعراب التي تتراجع بسرعة إلى البادية، سرعة لا تبلغها عادة الجيوش النظامية، ذلك لأن البادية حصن الأعراب الحصين، وأن الجيوش النظامية متى توغلت في البادية، فإن احتمالات اندحارها واندثارها تزيد على احتمالات الانتصار، فالأعرابي أخبر بالبادية من جيوش الخلافة. ومن الخير للقيادة السياسية وجيوشها استرضاء الأعراب، بالاتفاق مع سادات القبائل الأقوياء، وعلى دفع هبات مالية سنوية ترضيهم في مقابل ضبط الحدود، وحماية الطرق والقوافل التجارية والدينية من المخاطر والغارات، وتقديم الخدمات الضرورية للجيوش كالجمال وغيرها لحمل الجنود والأثقال، وباختصار تقديم كل ما يحتاج إليه الجيش في عبوره للبوادي، كما كان يفعل الخلفاء العباسيون قبل خلافة الواثق بالله.

ومن المهم أن نذكر هنا، أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمة الأعراب أمام جيوش الخليفة العباسي الواثق بالله، التي تتلخص فيما يلي:

١- عدم تكتل القبائل العربية حين واجهتها الجيوش العباسية، مما جعل بغا قائد هذه الجيوش، يقاتل كل قبيلة على حدة، فينتصر عليها، ويقتل ويأسر أفرادها، ويشتت شملها، ثم ينتقل إلى قتال القبيلة الثانية، وهكذا حتى قضى على ثوراتهم، لا بل إنّ بعض بطون القبيلة الواحدة كانت تقاتل دون البطون الأخرى، مما أدى إلى انهزامها، ولو قاتلوه يداً واحدة، وثاروا في وجهه ثورة رجل واحد لاستطاعوا الانتصار، ولفرضوا عليه شروطهم.

٢- لم يكن لهذه القبائل جميعاً أهداف بعيدة من هذه الثورات، و لم يقدموا مطالب واضحة، كما أنهم لم يتمكنوا من استغلال ثوراتهم، علماً بأنه كان لهم من وراء هذه الثورات أهدافهم المشروعة.

٣- استخدام الخليفة وقادته وجنده من الأعاجم، كل ما ملكوه من قوة وسلاح للقضاء على هذا الثورات.

٤- الخلاف بين القبائل العربية التي تعيش في أطراف المدن، وبين السكان المستقرين في المدن — الذين عانوا من هجمات الأعراب على ممتلكاتهم — فعملوا على مساعدة ودعم جيوش الخلافة ضد هؤلاء الأعراب لتأديبهم، وإبعاد شرهم وهجماتهم عن المدن.

٥- شعور القبائل العربية بأنهم لن يتمكنوا من مقاومة جيوش الخلافة العباسية طويلاً، لأن هذه الجيوش تقاتل عن السلطة الشرعية للخلافة التي تدعمها بكل ما تستطيع، على حين أن القبائل كانوا ثائرين على السلطة الشرعية، ولن يجدوا من يدعمهم في وجهها.

هذا عن أسباب هزيمة القبائل، أما عن الأسباب التي أدت إلى طول مدة القضاء على هذه الثورات التي تجاوزت ثلاث سنوات، فتعود إلى ما يلي: –

١ - تعدد القبائل التي قاتلتها جيوش الخلافة العباسية، إذ شمل القتال معظم القبائل العربية القاطنة في ضواحي المدينتين المقدستين، وعلى طريق الحاج بكامله، إضافة إلى القبائل القاطنة في اليمامة وأطراف نجد.

٢ - تصميم القبائل العربية على الاستمرار بالقتال، لشعورهم بحقوقهم على الخلافة العباسية، وأن هذه الحقوق قد أهدرت، ولذلك فإنهم قاتلوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

٣ - وجود مناطق تملكها القبائل العربية الثائرة، يصعب على الجيوش النظامية اجتيازها، فقد كانت المناطق التي تسيطر عليها قبيلة بني سليم حصينه حصانة طبيعية، فهم على حرة من جهة، وفي قلب جبال عالية، يصعب اقتحامها، فحرة بني سليم مسنونة لا تدع للخيل والإبل مجالاً إلى اقتحامها، وكذلك لا يستطيع مشاة المقاتلين ولوجها، فهي سور طبيعي حصين لمن تحصن بها.

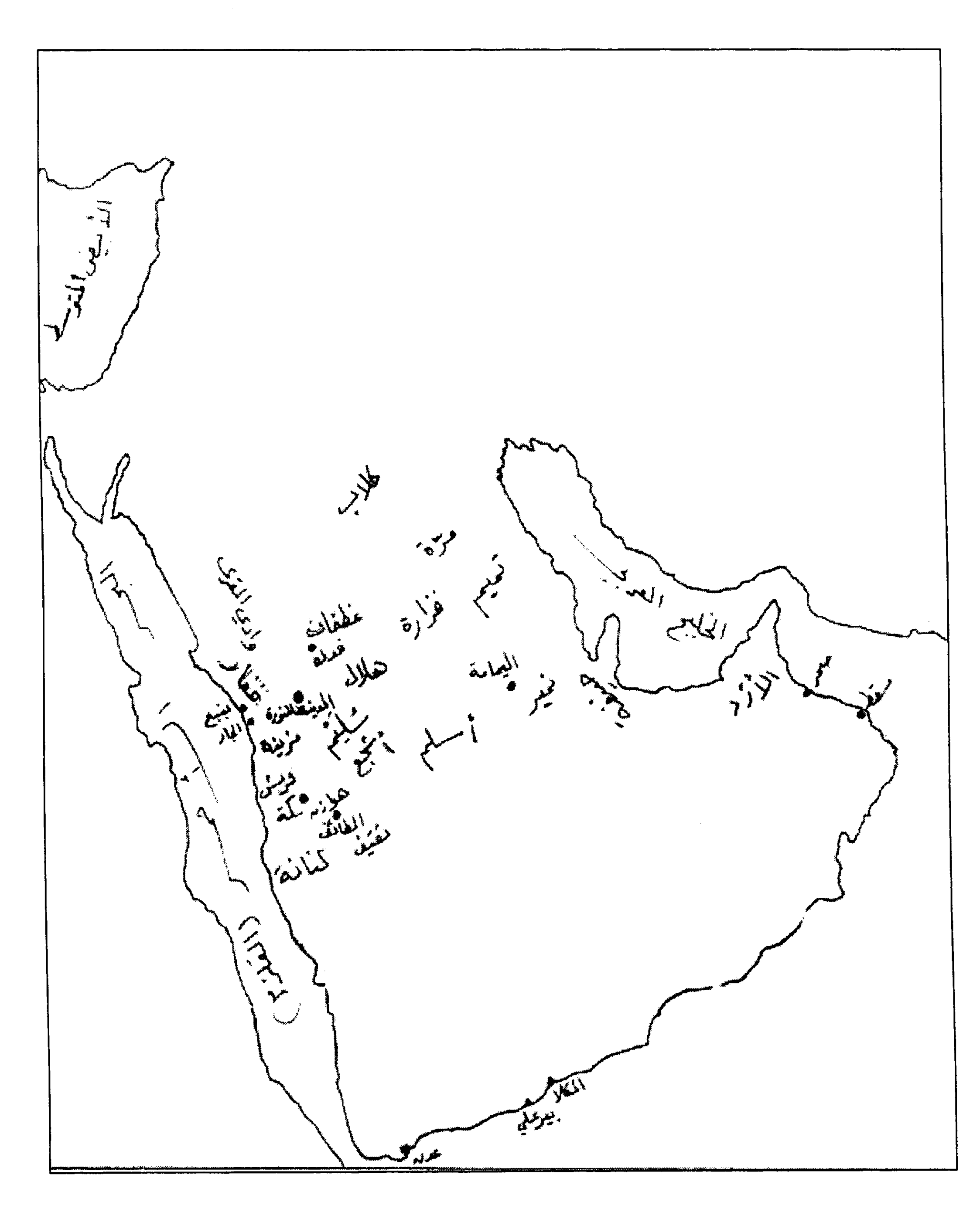
هذا وقد نتج عن هذه الثورات عدة نتائج:

١ - من أولى نتائج ثورات الأعراب، أن الخليفة العباسي الواثق بالله وجيوشه من الأعاجم، تمكنوا من القضاء على هذه الثورات قضاء مؤقتاً، إلا أنهم لم يقضوا على مسبباتها. ولم يحاول الخليفة الواثق التعمق في أسباب هذه الثورات الحقيقية والقضاء عليها.

٢ - نتج عن القضاء على هذه الثورات بالقوة المسلحة، تشتت هذه القبائل، وتركها لأماكن سكناها. فقد فر بنو مرة وفزارة إلى البلقاء، وفر قسم منهم إلى البراري، وفر فرسان بني نمير، وتركوا مناطق استقرارهم، وتابعهم واجن الأشروسني إلى تبالة. وكذلك تفرقت قبائل غطفان، وأشجع، وثعلبة، وغفار، فارين ناجين بأنفسهم.

٣ - قتل نتيجة للقضاء على ثورات الأعراب بالقوة العسكرية عدد كبير من أفراد القبائل العربية، وأسر عدد آخر. ومع ذلك فإن الثورات لم تتوقف إلا فترة وجيزة لعدم القضاء على أسبابها.

ولابد من القول أخيراً بأن الاحتفاظ بود القبائل البدوية، أمر يحتاج إلى حنكة ومهارة ودراية بنوازع نفوسهم الحساسة، وأنفتهم التي قد تثيرها أمور بسيطة، فتسبب أحقاداً وحروباً تتفانى القبائل فيها. ولم يكن المال وحده، أو القوة العسكرية أو الحلف في ذاته، تكفي للحفاظ على حسن الصلات مع هذه القبائل البدوية. وإنما السياسة الحكيمة، وحسن اختيار الولاة وعدم جعل من يحكمهم أقل منهم مكانة، لأنهم لن يستكينوا له، ولن يطيعوه.



مواقع القبائل التي ثارت في خلافة الواثق بالله

التعليقات

(١) عـــن الواثق بالله. أنظر المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق: محمد محـيي الدين عبدالحميد، ط١(بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٨٦م)، ٤: ٦٦- ٨٤؛ الخطيب البغدادي، الحافظ أبي بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ)، *تاريخ بغداد أو مدينة السلام*، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية د. ت)، ١٤: ١٦-٢٠؛ الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ)، *تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير والإعلام*، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري (بيروت: دار الكتاب العربي، حوادث ووفيات، ٢٣١-٢٤٠هـ)، ٣٧٩- ٣٨٦.

(٢) بنو سُلَيم: من القبائل العدنانية من قيس عيلان، جدهم سليم بن منصور، ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار، كانت هذه القبيلة تتمتع بالمنعة والقوة لكثرة عدد أفرادها، وحصانة مواقعها الطبيعية، فمنازلها تقع في شمال مكة المكرمة إلى الجنوب الشرقي من المدينة، عـلى طـول حدود نجد والحجاز. من واحاتها الربذة، وفران، ومعدن البرم، وصفينة، وسوارقية وغيرها. انظر عنهم ابن حزم الأندلسـي، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ): *جمهرة أنساب العرب*، (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م)، ٢٦١-٢٦٤؛ عـلي، جواد: *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*، ط٢ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٧م)، ٤: ٥١٨-٥٢٠؛ الأنصـاري، عبدالقدوس: *بين التاريخ والآثار*، (جدة: مطابع الروضة، ١٣٩٧هـ) ٤٥- ٤٨؛ *دائرة المعارف الإسلامية*، ترجمة محمد ثابت الفندي ورفاقه (بيروت: دار المعرفة)، مجلد١٢، ١٤٤؛ وانظر الخريطة المرافقة.

(٣) بـنو هلال: من القبائل العدنانية، ينتسبون إلى عامر بن صعصعة بن معاوية. مساكنهم في الحجاز و نجد حول مكة، أقاموا بعد هجرتهم في الشام إلى أن ظعنوا إلى مصر والمغرب. انظر عنهم: ابن حزم: المصدر السابق، ٢٧٣- ٢٧٥، ٤٤٢؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ)، *نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب*، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١ (القاهرة : د. ط، ١٩٥٩م)، ٤٣٧؛ *وقلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان*، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١ (القاهرة : دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣م)، ١١٧-١١٨؛ كحالـة، عمـر رضا، *معجم القبائل القديمة والحديثة*، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٨م)، ٢: ١٢٢١؛ وانظر الخريطة المرافقة.

(٤) انظر فيما بعد:

(٥) بنو نمير: من القبائل العدنانية، ينتسبون إلى عامر بن صعصعة بن معاوية. مساكنهم في منطقة نجد واليمامة، وكانت لهم كثرة في الجاهلية والإسلام. من ديارهم وقراهم قرماء (ضرَمًا)، و أضاخ، وملهم. ومن مياههم الشريف، النشناش. دخلوا الجزيرة الفراتية وكـانوا فـيها كالرعايا لبني حمدان. انظر فيما بعد، وانظر الخريطة المرافقة، وابن حزم: المصدر السابق، ٢٧٩، ٢٨١- ٢٨٤؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ٤٣٣؛ كحالة، المرجع السابق، ٣: ١١٩٥؛ جواد علي، المرجع السابق، ٤، ٥١١.

(٦) انظر عن هذه الثورة فيما بعد.

(٧) نشـبت ثـورة الأعـراب في اليمامة سنة (١٦٦هـ) في عهد الخليفة المهدي، إذ أفسد العرب في بادية البصرة وما بين اليمامة والبحرين، وقطعوا الطريق، وانتهكوا المحارم. انظر ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ)، *الكامل في ا لتاريخ*، راجعه و صححه محمد يوسف الدقاق، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م)، ٦: ٧٧.

(٨) انظر فيما بعد.

(٩) دائرة المعارف الإسلامية، ١٢: ١٤٥.

(١٠) انضـم إلى محمـد النفس الزكية في ثورته على الخليفة المنصور سنة (١٤٥هـ) عدد من القبائل العربية، منها جهينة، و مزينة، وسـليم، وبكر، وأسلم، وغفار. انظر الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، *تاريخ الطبري أو تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٧م)، ٧: ٥٨١.

(١١) كان للخلاف بين الأمين والمأمون، و من ثم للثورات التي نشبت بعده الأثر الكبير لانشغال الخلفاء.

(١٢) الجزيري، عبدالقادر بن محمد (ت في القرن العاشر)، *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج، و طريق مكة المعظمة*، ط١ (الرياض: دار اليمامة، ١٤٠٣هـ)، ٢٠٩. المنار: العلم يجعل للاهتداء في الطريق.

(١٣) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٤٦٥.

(١٤) العقاب، مسيل الماء إلى الحوض. ابن منظور: لسان العرب، مادة عقب.

(١٥) الطبري، المصدر السابق، ٧: ٤٨٠؛ ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)، *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق: محمد ومصطفى عبدالقادر عطا، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م)، ٨: ٤. والبتوت: الثياب الغليظة.

(١٦) الركايا، الآبار ذات الماء، و مفردها ركية. انظر ابن منظور، *لسان العرب*، مادة ركا.

(١٧) الطبري، المصدر السابق، ٨: ١٣٦؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ)، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، تحقيق: محمد جابر عبدالعال الحيني (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٤م)، ٢٢: ١١٣.

(١٨) الراشد، سعد بن عبدالعزيز، *درب زبيدة، طريق الحج من الكوفة إلى مكة ا لمكرمة*، دراسة تاريخية حضارية أثرية، ط١ (الرياض: دار الوطن للنشر والإعلام، ١٤١٤هـ)، ٦٧- ٦٩.

(١٩) الأنصاري، المرجع السابق، ٥٢.

(٢٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٠.

(٢١) الطبري، المصدر السابق، ٨: ١٥٠؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ٨: ٢٧١؛ النويري، المصدر السابق، ٢٢: ١١٥.

(٢٢) ارتفع سعر الماء في خلافة هارون الرشيد، حتى كان ثمن الراوية في موسم الحج عشرين درهما أو أكثر، وفي سائر السنة نصف دينار وثلث دينار (أي ما يساوي سبعة دراهم).

(٢٣) عيون الدوائر، هي عيون معاوية بن أبي سفيان عملت و جمعت في عين واحدة، سميت الرشا. الفاكهي، محمد بن إسحاق (من علماء القرن الثالث الهجري)، *أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه*، دراسة وتحقيق: عبدالملك بن دهيش، ط٢ (بيروت: دار خضر، ١٩٩٤م)، ٣: ١٥٢.

(٢٤) الماجل، خزان الماء.

(٢٥) الفاكهي، المصدر السابق، ٣: ١٥٢.

(٢٦) الفاكهي، المصدر نفسه، ٣: ١٥٢- ١٥٣.

(٢٧) انظر عن طريق الحج، اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـ)، *كتاب البلدان* (طبع ليدن، ١٨٩١م)، ٣١١؛ الراشد، سعد، *برك المياه على طريق الحج من العراق إلى مكة*، مجلة الأطلال، العدد الثالث (١٣٩٩هـ) ٦٦.

(٢٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٥٠.

(٢٩) علي بن عيسى هو أبو الحسن البغدادي (ت ٣٣٤هـ)، نشأ في بيت علم وأدب، وتربى تربية إسلامية صحيحة، فكان متديناً متعبداً، وله عدد من المؤلفات في التفسير والسياسة والرسائل وغيرها. خدم الخلافة العباسية قرابة سبعين عاما، تولى الوزارة والدواوين والولايات في عهد عدد من الخلفاء العباسيين. انظر. الصابئ، أبو الحسن الهلال بن المحسن (ت ٤٤٨هـ)، *الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء*، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨م)، ٣١١؛ الزهراني، ضيف الله يحيى، *الوزير العباسي علي بن عيسى بن داود بن الجراح* (مكة: جامعة أم القرى، ١٩٩٤م)، ١٢-٢١، ٨٦.

(٣٠) الطـــبري، المصدر السابق، ٩: ١٢٤؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١١: ١٢٩؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٧٧؛ الفاسي، أبـــو ا لطيـــب تقـــي الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـــ)، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، تحقيق: عمر عبدالسلام التدمري، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م)، ٢: ٣٤٤- ٣٤٥؛ ابـــن كثير، الحافظ أبو ا لفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـــ)، *البداية والنهاية*، ط٨ (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٩٠م)، ١٠: ٢٩٩.

(٣١) ابـــن الجوزي، المصدر السابق، ٧: ٣٤٨؛ ياقوت الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـــ)، *معجم البلدان*، ط١ (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٤هـــ)، ١: ٤٥٩؛ بيطار، أمينة، *دراسات في تاريخ الخلافة العباسية (١٣٢- ٢٣٢هـــ/٧٥٠- ٨٤٤م)*، ط٢ (الرياض: دار القلم والكتاب، ١٤٢٠هـــ)، ٣٢٣.

(٣٢) هو محمد بن عبدالملك بن أبان بن حمزة أبو جعفر، المعروف بابن الزيات (ت ٢٣٣هـــ)، وزير المعتصم والواثق. كان عالماً باللغة والأدب. نكـــبه وعذبـــه الخليفة المتوكل،إلى أن مات ببغداد. انظر ابن خلكا، أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـــ)، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان* (القاهرة: ١٣١٠هـــ)، ٢: ٥٤.

(٣٣) أضـــاخ بالضم من قرى اليمامة، وهي لبني نمير، من أعمال المدينة، بينها وبين أضاخ ليلة، وهي سوق وبها بناء وجماعة. ياقوت الحمـــوي، المصدر السابق، ح٢، ص ٢١٣؛ الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـــ)، *المغانم المطابة في معالم طابـــة*، قســـم المواضـــيع، تحقـــيق: حمـــد الجاسر، ط١ (الرياض: دار اليمامة للبحث والنشر، ١٣٨٩هـــ)، ٢١هامش ٢٢؛ الســـمهودي، نـــور الدين علي بن أحمد (ت ٩١١هـــ)، *وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٥٥م) ٣: ١٠٩٤.

(٣٤) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢هـــ)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار صادر ودار بيروت، ١٩٦٠م) ٢: ٤٨٠؛ الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٠.

(٣٥) كان أمراء الحج من العباسيين بنسبة (٩٨٪) ومن قريش (٢٪) وذلك في فترة البحث. وقد حصلت على هذه النسبة من حصر أمرا ء الحج و معرفة نسبهم.

(٣٦) طاهـــر بـــن الحســـين بـــن مصعب الخزاعي بالولاء ذو اليمينين (ت ٢٠٧هـــ)، من كبار قادة الخليفة المأمون، أديب وحكيم وشـــجاع. تـــولى شـــرطة بغداد، ثم تولى الموصل والجزيرة والشام ومصر، وخراسان فأسس بذلك الدولة الطاهرية. انظر عنه الطـــبري، المصـــدر الســـابق، ٨: ٥٩٣-٥٩٦؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١٠: ١٦٥- ١٦٨؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٢٦٠.

(٣٧) أشـــناس، أحد كبار قادة المعتصم (ت ٢٣٠هـــ)، تركي الأصل، ولاه الخليفة المعتصم بالله سنة (٢٢٦هـــ)، و دعي له على منابر الحرمين وغيرهما من البلاد التي اجتاز بها. ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٤؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٢.

(٣٨) ايـــتاخ، أحـــد قـــادة الواثق بالله من الأتراك. تولى المدينة المنورة والموسم حتى سنة (٢٣٤هـــ)، أصبح ذا قوة وبأس في الخلافة العباســـية، قـــتل بعد عودته من الحج سنة (٢٣٤هـــ). انظر اليعقوبي، تاريخ، ٢: ٤٨١؛ الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠.

(٣٩) الطبري، المصدر السابق، ٨: ٤٣٨ ؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١٠: ٢٧-٢٨، ٣٩.

(٤٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١١٤- ١١٥؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١٠: ١١٢؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٧٧؛ ابن كـــثير، ا لمصـــدر السابق، ١٠: ٢٩٩؛ الطبري المكي، الجمال محمد بن علي بن فضل (ت ١١٧٣هـــ)، *تاريخ مكـــة، اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن*، تحقيق: محسن محمد حسن سليم (القاهرة: دار الكتاب الجامعي، د. ت)، ١: ٨٠-٨١.

(٤١) اليعقوبي، تاريخه، ٢: ٤٨١.

(٤٢) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٥٠.

(٤٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٤.

(٤٤) الفاكهي، المصدر السابق، ٣: ١٠٩٤.

(٤٥) انظر عن حماد بن جرير الطبري فيما بعد، وانظر الطبري، ا لمصدر السابق، ٩: ١٢٤– ١٢٩.

(٤٦) انظر عن محمد بن يوسف فيما بعد.

(٤٧) انظر فيما بعد، وانظر الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٧.

(٤٨) عن بني هلال، انظر فيما بعد.

(٤٩) دائر المعارف الإسلامية، ١٢: ١٤٥.

(٥٠) ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٢؛ ابن خلدون، عبدالرحمن (ت ٨٠٨هــ)، *تاريخ ابن خلدون، المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢م)، مجلد٣، ٣٣٢.

(٥١) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٤٨٠؛ الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٢٩؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ١٠: ٨١.

(٥٢) هو عُزَيْزة بن قطاب اللبيدي من بني لبيد بن سُلَيْم. انظر الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٠.

(٥٣) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٤٨٠؛ الأنصاري، المرجع السابق، ٥٠.

(٥٤) الجار، ميناء المدينة المندثر، بقرب ماء بدر. الأنصاري، المرجع السابق، ٥٠.

(٥٥) كنانة قبيلة عدنانية، وهم كنانة بن خزيمة بن مدركة، كانت منازلهم في أطراف مكة بين هذيل و أسد بن خزيمة. انظر ابن حزم، المصدر السابق، ١١، ٧٠، ١٨٠، ٢٠٦، ٤٦٥؛ جواد علي، المرجع السابق، ٤: ٤٧٨، ٥٣٢.

(٥٦) ابــن خلدون، المصدر السابق، مجلد٣، ٣٣٢؛ وباهلة هو أعصر، وبنو باهلة من ولد سعد بن قيس عيلان، يسمون باسم أمهم باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة من مذحج. انظر ابن حزم، المصدر السابق، ٢٤٤، ٢٤٥– ٢٤٧، ٢٤٧، ٤٦٨، ٤٨١.

(٥٧) الطــبري، المصــدر الســابق، ٩: ١٢٩؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١١: ١٥٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١ ؛ ابن خلدون، المصدر السابق، مجلد ٣، ٣٣٢– ٣٣٣.

(٥٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٢٩– ١٣٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٥٩) الرويــثة، على ثلاث مراحل من المدينة، أو على ليلة منها. تقع بين العرج والروحاء، وهي منهل من المناهل بين الحرمين. سميت بهــذا الاسم لأن تبع حين رجع من قتال أهل المدينة يريد مكة، نزل بها. وقد أبطأ في مسيره، فسماها الرويثة من راث يريث إذا أبطأ. الفيروز آبادي، المصدر ا لسابق، ١٦٥– ١٦٦.

(٦٠) فــزارة، هي فزارة بن ذبيان بن بغيض، بطن عظيم من غطفان من العدنانية. ابن حزم، المصدر السابق، ٢٥١، ٢٥٥– ٢٥٩، ٤٦٠، ٤٨١؛ القلقشندي، *قلائد الجمان*، ١١٣–١١٤؛ *ونهاية الأرب*، ٣٩٢– ٣٩٣؛ كحالة، المرجع السابق، ٣: ٩١٩.

(٦١) مــرّة: هــم بــنو مرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان، منازلهم قريبة من منازل بني سليم. انظر ابن حزم، المصدر السابق، ٢٥٢؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ٤١٨.

(٦٢) غطفان، قبيلة كبيرة، يرجع نسبها إلى سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. تقع منازلهم بنجد مما يلي وادي القرى وجبل طيء أجا وسلمى، ثم افترقوا في الفتوحات الإسلامية، ابن حزم، المصدر السابق، ٢٤٨– ٢٤٩؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ٣٨٨؛ كحالة، المرجع السابق، ٣: ٨٨٨– ٨٨٩؛ جواد علي، المرجع السابق، ٤: ٢٥٢– ٢٥٣.

(٦٣) أشـجع، قبيلة من غطفان من قيس عيلان من العدنانية، وهم بنو أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان العدنانية. كانت منازلهم في الحجاز بضواحي المدينة، وبالمغرب الأقصى، منهم حي عظيم. انظر ابن حزم، المصدر السابق، ٢٤٩- ٢٥٢؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ٤٠؛ كحالة، المرجع السابق، ١: ٢٩؛ جواد علي، المرجع السابق، ٤: ٥١٠.

(٦٤) ثعلـبة، سمـي بهذا الاسم عدد كبير من القبائل والبطون، منهم من ينسب إلى القحطانية، والآخرون إلى العدنانية، و المرجح أن ثعلـبة الذيـن حاربهم بغا في خلافة الواثق، هم بنو ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. انظر عنهم ابن حزم، المصدر السابق، ٣١٤-٣١٥؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ١٩٣- ١٩٤؛ كحالة، المرجع السابق، ١: ١٤٥.

(٦٥) كلاب، بطن عظيم من عامر بن صعصعة من العدنانية. كانت ديارهم حمي ضرية، وحمى الربذة في جهات المدينة المنورة، وفدك والعـوالي. ثم انـتقلوا بعـد ذلك إلى الشام. و أسسوا الدولة المرداسية. انظر عنهم ابن حزم، المصدر السابق، ٢٨٢- ٢٨٤؛ القلقشندي، *نهاية الأرب*، ٤٠٧؛ جواد علي، المرجع السابق، ٤: ٤٨٠- ٤٨١؛ كحالة، المرجع السابق، ٣: ٩٨٩.

(٦٦) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٢٩- ١٣٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١؛ كحالة، المرجع السابق، ٣: ٩٨٩

(٦٧) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٢٩- ١٣٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٦٨) ابـن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، *المعارف*، تحقيق: ثروت عكاشة، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩م)، ١٦٩- ١٧١؛ ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر (ت ٢٨٠هـ)، *تاريخ بغداد*، ليبزغ (١٩٠٨م)، ٦: ٣٤-٣٥، ١٤١-١٤٢.

(٦٩) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢: ٤٨٠.

(٧٠) عن طريق الحج والمناطق التي يمر بها، انظر اليعقوبي، *البلدان*، ٣١١-٣١٢.

(٧١) الأنصاري، المرجع السابق، ٥٠.

(٧٢) الطبري، المصدر ا لسابق، ٩: ١٣٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٢.

(٧٣) حرة بني سلم، تقع في عالية نجد، قريبة من حرة ليلى قرب المدينة، وفيها عدة معادن. انظر الفيروزآبادي، *المغانم المطابة*، ١١١؛ كحالة، معجم قبائل العرب، ٢: ٥٤٤، هامش١.

(٧٤) لم أجد في المصادر ترجمة له.

(٧٥) السـوارقية، تعد مدينة نجدية، وهي لبني سليم، قرية غناء كبيرة فيها الكثير من المزروعات، وفيها مسجد و منبر و سوق. انظر الفيروزآبادي، المصدر السابق، ١٨٩.

(٧٦) الطبري، المصدر ا لسابق، ٩: ١٣٠.

(٧٧) اليعقوبي، المصدر السابق، ٢: ٤٨٠.

(٧٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٠؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٢؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣

(٧٩) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٠-١٣١ ؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١١: ١٥١؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١؛ ابن خلدون، الصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٨٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٠.

(٨١) الطبري، المصدر نفسه، ٩: ١٣٣.

(٨٢) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٣؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥.

(٨٣) الطبري، المصدر نفسه، ٩: ١٣٤.

(٨٤) ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨١.

(٨٥) اليعقوبي، المصدر السابق، ٢: ٤٨٠؛ ابن كثير، المصدر ا لسابق، ١٠: ٣٠٢.

(٨٦) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٢؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٨٧) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٣؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥.

(٨٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٢-١٣٣؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١١: ١٦٣؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٨٩) الطبري، ا لمصدر السابق، ٩: ١٣٢- ١٣٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام،حوادث ووفيات (٢٢١-٢٣٠هـ) ٣٥، وينوه عُزَيْزَة بهذا الشعر بمساعدة البواب لهم. وقد ورد الشعر الأول من البيت الثاني عند الطبري، (للموت خير للفتى من العاب). وما ذكره الذهبي أكثر صحة.

(٩٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٣؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥.

(٩١) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٣.

(٩٢) فدك: قرية على يومين من المدينة، فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم حصونها صلحاً بعد خيبر، فسأله أهل فدك أن يصالحهم على النصف من ثمارهم و أموالهم، فأجابهم إلى ذلك، فيها عين فوارة ونخيل كثير. انظر الفيروزآبادي، المصدر السابق، ٣١١-٣١٤.

(٩٣) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٤؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥؛ ابن خلدون، ا لمصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٩٤) هي غفار بن مُلَيْل بن ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. و غفار بطن ضخم، منهم أبو ذر الغفاري، انظر ابن حزم، المصدر السابق، ٤: ١٨٦، ٤٦٥.

(٩٥) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٤؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٩٦) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٥.

(٩٧) ضريّة، صقع واسع بنجد، ينسب إليه حمى ضرية، يليه أمراء المدينة، ويترل به حاج البصرة. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ٢٢٨-٢٣٠؛ السمهودي، المصدر السابق، ٣: ١٠٩٢-١٠٩٤.

(٩٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٤؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٨٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(٩٩) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٣٤- ١٣٥.

(١٠٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٦؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(١٠١) عمارة بن عقيل بن بلال الكلبي اليربوعي التميمي (ت ٢٣٩هـ)، من أحفاد الشاعر جرير. شاعر مقدم فصيح من أهل اليمامة. له صلات قوية مع الخلفاء العباسيين، وكانوا يجزلون العطاء له. كان عالماً بالنحو، له ديوان شعر ومطبوع. انظر عنه الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ١٢: ٢٨٢؛ ابن المعتز، عبدالله بن محمد (ت ٢٩٦هـ)، *طبقات الشعراء* (القاهرة: ١٩٥٥م) ١٥٠.

(١٠٢) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٦؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠.

(١٠٣) الطبري، المصدر السابق، ٨: ٧٠؛ بيطار، المرجع السابق، ٨٧.

(١٠٤) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٧.

(١٠٥) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٦؛ ابن الجوزي، ا لمصدر السابق، ١١: ١٧٦؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٧.

(١٠٦) الشّريف، إلى جنب الشرف، كبد نجد، يفصل بين الشريف والشرف التسرير. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ٢٠٢.

(١٠٧)حظيان أو حضيان، هو اسم سوق لبني نمير، فيه مزارع حبوب. انظر الحموي، *معجم البلدان*، ٢: ١٠١، ٢٧٢.

(١٠٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٦؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(١٠٩) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٦؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠.

(١١٠) بطن نخل، جمع نخلة، قرية قريبة من المدينة على طريق البصرة، بينهما الطَّرَف على الطريق. الفيروزآبادي، المصدر السابق، ٥٧.

(١١١) جبال السّوْد: تقع خلف اليمامة، وأكثر أهله باهلة.

(١١٢) بطن السِّر: على مرحلتين من القرنين، وعلى مرحلة من أضاخ. حدث فيه يوم من أيام العرب، قال جرير فيه:

أ أستقبل الحيُّ بطنَ السر أم عَسَفُوا فالقلب فيهم رهين أينما انصرفوا.

ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ٤: ٤٤٩.

(١١٣) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(١١٤) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٧.

(١١٥) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(١١٦) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٨؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩٠-٩١؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣.

(١١٧) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٨؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦٣: ٩١؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨.

(١١٨) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٨؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩١؛ ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨.

(١١٩) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٨- ١٤٩.

(١٢٠) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٩- ١٥٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩١.

(١٢١) ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨.

(١٢٢) بنو تميم، ينتسبون إلى مر بن أدبن طابخة بن إلياس، المشهورة بطونها، منتشرة في شرق الجزيرة العربية و في نجد و في أنحاء مختلفة من جزيرة العرب، لهم أيام عديدة، و بطون تميم عديدة. انظر عنهم، ابن حزم، المصدر السابق، ١٦٨، ٢٠٦، ٢٠٧، ٣٧١، ٤٦٦- ٤٦٧، ٤٨٠؛ جواد علي، المصدر السابق، ٤: ٥٢٦- ٥٢٩.

(١٢٣) ابن كثير، المصدر السابق، ١٠: ٣٠٨؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ٣: ٣٣٣- ٣٣٤.

(١٢٤) الطبري، المصدر السابق، ٩: ١٤٩- ١٥٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ٦: ٩١.

(١٢٥) الطبري، المصدر السابق، ٩: ٣٤٦.

(١٢٦) الطبري، المصدر السابق، ٩: ٥٥٢- ٥٥٣، ٥٥٤، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦١٣؛ ١٠: ٨؛ ابن الجوزي، المصدر السابق، ١٢: ٢٠٧، ٢٤٤.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

إدارة اليمامة في العصر العباسي

عبدالله بن إبراهيم العسكر

قسم التاريخ – كلية الآداب

جامعة الملك سعود

ملخص:

أضحت إدارة اليمامة من آخر أولويات بغداد بسبب السياسة العباسية المركزية المتبعة في إدارة الأقاليم. وأُنيط بوالي مكة الإشراف على اليمامة، ثم أصبحت اليمامة تُدار من المدينة أو البحرين أو من بغداد مباشرة. وهذا يُشير إلى أن العلاقات بين سكان اليمامة والخلفاء العباسيين لم تكن في صورة جيدة. أو أن اليمامة نفسها لم تعد إقليماً ذا أهمية. وكلا الأمرين أُضع لمزيد من الفحص والتحليل.

ومن المثير أن وضع اليمامة في ذلك العصر بقى وضعاً غير مستقر، مع فترات تُعد استثناءً مثل جعل اليمامة ولاية مستقلة، وربطها ببغداد في عصر الخليفة أبو جعفر المنصور. وهذا الإجراء تم لسنوات قصيرة. والأمر لا يتعدى أهمية الوالي المُعين وقربه من الخليفة، لا إلى أهمية اليمامة.

من الملاحظ أن اليمامة في ذلك العصر زادت بُعداً عن الخلافة العباسية، وكثرت فيها الفتن، وأختل الأمن، وزاد تذمر السكان. وافتقرت لبنية اقتصادية قوية. ولعل كل هذه المظاهر جعلتها مكاناً مناسباً ومثالياً، بل وملاذاً أميناً للمعارضة السياسية. وفوق هذا، فقد وجد المعارضون مستوطنين من السهل إثارتهم، وضمهم إلى صفوفهم. وهو ما استغله ثائر علوي هارب من الحجاز، الذي أسس إمارة له عُرفت باسم إمارة الأخيضرين.

ومن السمات البارزة في هذا العصر ارتباط مفهوم الإدارة وتطبيقاتها في اليمامة بالمفهوم القبلي لا الجغرافي. فالقبائل القيسية، وبعض بطون بني تميم تدفع زكاتها لوالي اليمامة بصرف النظر عن مقر سكانها. وهذا ضعف انتماء للمنطقة التي طالما رفعت شعار الإقليمية في وجه القوات الإسلامية في العصور السابقة للعباسيين.

توطئة:

إن دراسة وضع الإدارة في اليمامة، أو في غيرها، في العصر العباسي هو من قبيل دراسة التاريخ السياسي لذلك العصر. فقد أصبحت اليمامة -مثل غيرها من مناطق الجزيرة العربية- بعد انتقال العاصمة الإسلامية من المدينة المنورة، وبعد اتخاذ خلفاء بني أمية دمشق عاصمة لدولتهم الجديدة. أقول: أصبحت اليمامة أقل أهمية في أولويات الإدارة الأموية، ومن ثم العباسية. وأصبح يدير اليمامة والي المدينة، أو البصرة، أو مكة، أو البحرين، ويرجع ذلك إلى قوة الوالي الموجود على رأس الإدارة، ومكانته في كل من تلك المدن، أو لأسباب طارئة رأتها العاصمة.

وبسبب السياسة الحكومية المركزية المتبعة في إدارة أقاليم الدولة كان الولاة والعمال عادة ما يستبدلون بصورة متكررة، بسبب التناقضات السياسية والإدارية القائمة بين الحكومة المركزية والمعارضة في تلك الأقاليم، مما جعل الخليفة العباسي يستبدل عماله وولاته إمّا نتيجة تقصير، وإما لمجرد إرضاء المعارضة، وإما لأن الولاية ذاتها منحة مالية تُعطى للمقربين، أو القادة العسكريين. وإما خوفاً من قيام الوالي بتشييد قاعدة شعبية له، ثم تترع نفسه إلى الاستقلال. وقد يستبدلون نتيجة إخفاقهم في تحقيق رغبات شخصية للخليفة العباسي، مما يسبب غضب السكان، وقد يدفعهم ذلك الإجراء إلى الثورة أو العصيان[1].

وقد ضُمت المنطقة إدارياً إلى البحرين بعد انتهاء حرب ردة بني حنيفة في اليمامة، وشُطب اسم اليمامة من السجلات العائدة إلى فترة الخلفاء الراشدين[2]. عُرفت اليمامة باسم العروض في فترة الخلفاء الأمويين. أما في فترة الدولة العباسية، فقد فقدت اليمامة مكانتها أكثر من ذي قبل، وأصبح يديرها والي مكة؛ فقد عيّن الخليفة أبوالعباس السفاح قريبه داود بن علي بن عبدالله بن عباس والياً على اليمامة، بعد دمجها مع عُمان والبحرين واليمن. ولكن الوالي لم يباشر من مقر عمله (في أي منها) مطلقاً، وأصبح يقيم إما في مكة إما في بغداد[3].

في سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م وجه والي المدينة زياد بن عبيدالله الحارثي من قِبل العباسيين جيشاً إلى اليمامة يقوده إبراهيم بن حسن السلمي، وذلك من أجل انتزاع المنطقة من واليها الأموي المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة، واستطاع الجيش القادم من المدينة السيطرة على المنطقة، ولقي الوالي الأموي مصرعه[4]. ويظهر أن مهمة الجيش العباسي كانت سهلة، وربما يرجع ذلك إلى انضمام عدد من اليماميين إلى طلائع جيش الحكومة الجديدة، على أن المقاومة التي لقيها الجيش العباسي في اليمامة، واستمرت يومين، لا تدل إلاّ على كون الوالي الأموي، المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة، من أشد المخلصين لتلك الأسرة[5].

يبدو أن صفحة من العلاقة الجيدة والثقة المتنامية بين أهل اليمامة وخلفاء بني العباس شكلت في السنوات الأولى من تاريخ اليمامة في العصر العباسي الأول. فقد اشترك رجال من اليمامة في الدعوة العباسية في أطوارها الأولى، فكان من نقباء الدعوة العباسية من اليمامة: شبل بن طهمان الشيباني مولى بني حنيفة[6]، وداود بن خالد بن إبراهيم بن قعبل

ابـــن شـــيبان من ذهل بن ثعلبة الذي أسند إليه أبوجعفر المنصور ولاية خرسان[٧]. ومن الدعاة: أبوعبدالله محمد بن عبدالله الحنفي، ومصعب بن قيس الحنفي ونفر من باهله[٨].

وتذكـــر المصادر تولي عدد من اليماميين ولايات عباسية جراء خدماتهم، وما حازوه من ثقة الحكومة العباسية مـــنهم: معـــن بـــن زائـــدة الشيباني الذي تقلّد ولاية اليمن، ثم ولاية سجستان، وسهم الحنفي الذي أصبح والياً في طبرستان[٩].

ويســـتطيع المـــتأمل في الروايات التاريخية أن يلحظ محاولات جادة، حاولت من خلالها الخلافة العباسية إيلاء الـــيمامة اهتماماً، وخصوصاً في مجال الأمن؛ وذلك لكثرة تعديات القبائل المحيطة باليمامة على المستوطنات والأهالي. فقد لبى الخليفة الواثق دعوة أعيان اليمامة لرد تعديات وغارات نفر غير قليل من قبيلة بني نُمير عام ٢٣٢هـــ/٨٤٦م، فسيّر جيشاً بقيادة بُغا الكبير لوضع حدٍ لتجاوزات تلك القبيلة[١٠].

وضع اليمامة الإداري في العصر العباسي:

تتمتع اليمامة بموقع استراتيجي في شبه الجزيرة العربية، وكان يقطنها أو يستغل أراضيها الرعوية كثير من القبائل العربـــية. ويظهر أن ما كان يتبعها من أراضين يشغل مساحات واسعة، وعُمال زكاتها وجباتها يذهبون بعيداً. ويكاد يصـــدق رواية أوردها البكري، وياقوت مفادها أن نجداً كلها من عمل اليمامة[١١]. وهذا كله زاد من اهمية مركزها الإداري، ومركز من يتولى إدارتها من الولاة العباسيين، أو من ينوب عنهم. وهذا ايضاً ما جعل مؤلف مثل الأصفهاني يفرد لإدارة اليمامة حديثاً قصره على (عمل اليمامة)، على حد تعبيره. مما يدل على أهمية هذا الإقليم[١٢]. ولعل سبب ســـعة مساحة اليمامة من حيث الإدارة -وهي تفوق مساحتها أو حدودها الطبيعية- أم جُعلت لها حق جباية زكاة قبيلة قيس عيلان بن مضر، وهي قبيلة كثيرة العدد تنتشر من حدود اليمن من الجنوب حتى حدود البصرة من الشمال، ومن حدود البحرين من الشرق حتى ميقات أهل نجد بقرن المنازل من الغرب.

يقول ياقوت الحموي ما نصه: "ربما ضُمت اليمامة إلى المدينة، وربما أُفْرِدت. هذا كان أيام بني أمية، فلما ولى بـــنو العـــباس صيّروا عُمان والبحرين واليمامة عملاً واحداً"[١٣]. وهذا النص ينطبق على معظم فترة العصر العباسي الأول. ومع دمج تلك الأقاليم في عمل إداري واحد فإنه قلما تمتع باستقلال إداري.

وواقـــع الحـــال أنـــه في بدايـــة العهد العباسي ضمت اليمامة إلى الحجاز من عام ١٣٢هـــ/ ٧٥٠م حتى عام ١٤١هـــــ/ ٧٥٨م[١٤]، ثم فصلها الخليفة أبوجعفر المنصور، وجعلها مستقلة ترتبط مباشرة بالعاصمة بغداد، وأسند ولايـــتها إلى السري بن عبدالله بن الحارث بن العباس، وبقيت على هذه الحالة حتى عام ١٦١هـــ/ ٧٧٧م[١٥]. وقد رأى بعـــض الباحـــثين في جعل اليمامة ولاية مستقلة دليلاً على أهميتها، لكن الواقع العام يشير إلى عكس ذلك تماماً. فالســـنوات التي أضحت فيها اليمامة ولاية قائمة بذاتها سنوات قليلة في عمر الدولة العباسية. والأمر لا يتعدى كون

مكانة الوالي المُعيّن، وقربه من الخليفة العباسي، هي التي تجعل اليمامة عملاً مستقلاً، أو مضموماً إلى عمل آخر.

وفي عهــد الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م) طرأ تغيير على وضع اليمامة الإداري، فقد أصبحت هي والــبحرين والبصرة والأهواز وفارس والفرض وعُمان ولاية واحدة، وعُيّن محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس والياً عليها. ولعل رغبة الخليفة الرشيد في إحكام السيطرة على الأمن، واستتبابه، وخصوصاً على طريق التجارة المار بتلك المناطق يفسر إجراءه ذلك[١٦].

وقد كان لإجراءات الرشيد أسباب ذكر بعضها المؤرخون المحدثون مثل الحديثي الذي يرى: أن الدافع الحقيقي وراء توحيد تلك الصقاع إدارياً هو اعطاء الدولة مرونة في الحركة العسكرية بحراً وبراً، ولحماية الخليج والتجارة التي تعبره خصوصاً أن الخلافة العباسية تعتمد على تجارة الخليج. وقد تعرض الخليج لهجمات بحرية لقوم عرفوا (بالميد)[١٧] أخذوا يهددون أمن الخليج، والتجارة التي تمر فيه[١٨]. ويظهر أن سياسة الرشيد نجحت بدليل أن هجمات الميد توقفت بعد عام ١٨١هـ/٧٩٧م[١٩]. لكن ابن الأثير بقول برأي آخر، فعندما تحدث عن أحداث سنة ١٦٧هـ/٧٨٣م قال ما نصه: "وفيها افسد العرب في بادية البصرة بين اليمامة والبحرين"، وهذا النص يشير صراحة إلى تعديات الأعراب، وتهديدهم طُرُق التجارة في منطقة شرق الجزيرة العربية، وليس الميد وراء إجراءات الرشيد الإدارية[٢٠]. ويربط الوشمي بــين غلــبة الأعراب على طرق التجارة في شرق الجزيرة العربية، وبين تخلي الولاة العباسيين عن مسؤولياتهم الأمنية. فأراد الرشيد جمع تلك المسؤوليات في يد والٍ واحد[٢١].

وفي نهايــة خلافــة المعتصم عام ٢٢٧هـ/٨٤١م، جُعلت اليمامة والبحرين وطريق نجد -الحجاز عملاً واحداً كان في مُعظم الوقت تحت ولاية البصرة[٢٢].

ملحوظات إدارية عامة:

إن تتــبع الإشــارات المتعلقة بإدارة اليمامة في العصر العباسي يوفر للباحث بعض النقاط والمسائل التي قد تُعد وصــفاً عاماً لما عليه الإدارة في ذلك العصر. وهي مسائل جديرة بالفحص والدراسة، وربطها بمسائل أخرى. وهذه المسائل والنقاط يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ - أصــبحت مدينة حجر قاعدة اليمامة في العصر العباسي. يقول ابن الفقيه في هذا الصدد ما نصه "اليمامة سُرّة نجد ومدينة نجد حجر"، وابن الفقيه من أهل القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. ويذهب مذهبه كل من أبي حنــيفة الدينوري، والأصفهاني الذي يقول: "حجر سُرة اليمامة، وهي منزل السلطان والجماعة، ومنبرها أحد المــنابر الأولية: مكة، والمدينة، واليمن، ودمشق، واليمامة، والبحرين، والكوفة. وجل أهلها من بنو عبيد، وبها كل القبائل"، ويؤكد ما تقدم أن حجراً حافظت على كونها عاصمة لإقليم اليمامة، بعد نزاع طويل بينها وبين عــدد مــن مــدن اليمامة منذ عصر ما قبل الإسلام، وفي العصر الراشدي، والعصر الأموي. ومع هذا فقدت

(حجـــر) بوصـــفها عاصـــمة لإقليم اليمامة مع قدوم بنو الأخيضر في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ونقلهم العاصمة إلى مدينة الخضرمة الواقعة جنوب إقليم اليمامة.

٢ - اعـــتاد الـــولاة المُعيّـــنون على اليمامة وما حولها، أو يتبعها البقاء في بغداد، ونادراً ما كانوا يباشرون من مقر عمـــلهم، واعـــتادوا إرســـال ممثلين عنهم إلى تلك النواحي. وهذا الإجراء أصبح علامة من علامات كسب الولايـــات، أو فقدها، بل وأضحت الولايات تُنزع من شخص، وتُعطى لآخر. ولم يكن يُسمح للوالي، أو لمن يـــنوبه بالبقاء في منصبه مدة طويلة كي لا يستبد بأمور الولاية، فتنزع نفسه إلى الاستقلال. وأضحى منصب الولاية ضرباً من المكافأة، أو المقايضة، أو المحاسبة والمعاقبة[٢٣].

٣ - كـــان الوضع الإداري العام في اليمامة يتصف بالضعف، وكان الأمن هشاً، إلا في سنوات تعتبر استثناءً. ولكن قُرب منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، شهدت اليمامة ضعفاً ظاهراً، فاستغل الأخيضريون ذلك الوضع، واستقلوا بجنوب اليمامة المعروفة باسم (منطقة الخضرمة) عام ٢٥٢هـ/٨٤٩م[٢٤].

٤ - ومـــع إعـــلان قيام إمارة الأخيضريين واستيلاءها على أهم نواحي اليمامة، إلاّ أن سلطة الخلافة العباسية ظلت ســـائدة في جزء من اليمامة؛ لأنها بقيت ترد في قوائم ولايات الخلافة العباسية. وهذا استنتاج قد يدحضه رأي مؤداه أم لا عبرة بورود قوائم بأسماء الولاة في تلك الفترة، بسبب أن الخليفة العباسي يمنح ولاية اليمامة لشخص مُعيّن، ويُترك لـــه أمر توليه المنصب، أو مباشرة العمل[٢٥].

٥ - ومـــن الـــروايات المهمة التي تُشير إلى بقاء جزء من اليمامة تحت سلطة العباسيين، بصرف النظر عن كون بقية أجـــزاء الـــيمامة يقع تحت نفوذ الأخيضريين، ما أورده الطبري في حوادث عام ٢٥٢هـــ/٨٦٦م التي أمر فيها الخليفة المعتز بسجن الحاجب (كنجور البخاري) باليمامة، فحُمل مقيداً من بغداد إليها[٢٦]، وربما اعتُرض على ذلـــك بـــالقول: إن إمارة الأخيضريين لم تعلن رسمياً، أو لم تستكمل سيطرتها على منابر اليمامة، إلا بعد تلك السنة. وعلى كل فالأمر يبقى عرضة لمزيد من البحث والاستقصاء[٢٧].

٦ - ومن السمات الإدارية في اليمامة، العبء الإداري الكبير الملقى على كاهل الإدارة العباسية في اليمامة، وخاصة ما يتعلق بالأمن بعد زيادة تسلط قرامطة البحرين على طريق التجارة المار باليمامة، وطريق الحج المار بها أيضاً، ونهـــبهم الحجاج مراراً. وكانت المسؤولية المباشرة تقع على والي اليمامة والبحرين. ولعل هذه السمة هي وراء كثرة تغيير الولاة، أو تبديل وضع اليمامة الإداري، ونقلها من منطقة إلى أخرى[٢٨].

٧ - تأثـــر الوضـــع الإداري نتـــيجة ضعف سلطة الخلافة العباسية على الولايات. وبدأ تفكك أوصال الخلافة منذ منتصـــف القـــرن الثالـــث الهجري/ التاسع الميلادي، وملأت الفتنة نواحي الدولة، ولم يبق للخلافة إلا اسمها، وأصبحت كثير من النواحي في خلافة المعتضد ٢٧٩-٢٨٩هـــ/٨٩٢-٩٠١م مغلوباً عليها، أو مستقلة. ولعل

هذا يُفسر سهولة توسع الأخيضريين في اليمامة، ومتانة سيطرتهم على نواحيها[٢٩].

٨ - تمتع ولاة اليمامة في العصر العباسي بحق جباية زكاة القبائل الكثيرة التي ترتبط باليمامة، وهي قبائل وعشائر تنتشر على رقعة جغرافية واسعة. ثم أن هذا الحق جعل الولاة يتنافسون في حيازة منصب الوالي في اليمامة، لمردوده المالي. وهو في الوقت نفسه أعطى اليمامة مكانة باسقة في تشكيل الولاة العباسيين[٣٠].

٩ - ارتبط المفهوم الإداري وتطبيقات الإدارة بالنسبة إلى اليمامة بالمفهوم القبلي لا الجغرافين فالقبائل القيسية، وبعض بطون بني تميم تدفع زكاتها لوالي اليمامة بصرف النظر عن مقر سكناها، فبنو قيس –مثلاً– يدفعون زكاتهم لوالي اليمامة، مع أنهم يقطنون بـ (ثاج): وهي قرية بالقرب من البحرين. ولعل السبب في هذا يعود إلى التحالفات القبلية كتحالف بني تميم مع كلب، وتحالف بني حنيفة مع عجل. وليس بعيداً أن الانتماء للأرض، أو المهنة، أو المنطقة ضعف كثيراً بعد حروب الردة، فقد كان قبل ذلك واضحاً في الشعارات التي رفعتها بنو حنيفة في وجه القوات الإسلامية[٣١].

١٠- كما يمكن ملاحظة كثرة الخلافات والفتن بين قبائل اليمامة، خصوصاً بين بني حنيفة وجيرانهم. وقد ألمح الهجري في كتابه (التعليقات والنوادر) إلى بعض الوقائع والحروب التي حدثت بيت تلك القبائل، ومثله فعل صاحب (شرح أشعار الهذليين) مثل: "يوم أنف" بين هذيل وبني سُليم و"يوم ملَسْلَسان"، أو "الغيامة" بين بني سُليم وبني عامر، و"يوم مُرامِرات" بين بني سُليم وغطفان[٣٢].

١١- وتميزت اليمامة بكثرة منابرها، والمنبر: إصلاح سياسي إداري يشير إلى أهمية المدينة التي فيها منبر، وإلى كثرة سكانها[٣٣].

وقد ذكر الحربي عدد منابر اليمامة في القرن الثالث الهجري، فقال: إنها سبعة وعشرون منبراً[٣٤]. والجدير بالذكر أن عدد المنابر تناقص تدريجياً بعد زوال السلطة العباسية عن اليمامة، وقيام إمارة الأخيضريين. وهذا عن صح يشير إلى تنامي المجتمع البدوي على حساب المجتمع الحضري[٣٥].

زوال السلطة العباسية عن اليمامة:

ومع بزوغ حركة القرامطة في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي في شرق الجزيرة العربية أمر الخليفة العباسي المتوكل بضم اليمامة إلى البحرين، وكلف والي البصرة بإدارتها. وكان سبب الإجراء الجديد هو السيطرة على طريق التجارة المار بكل من اليمامة والبحرين والمتجه إلى العراق، وعدم تركه عرضة لتعديات الخوارج، وتهديداتهم للسابلة. مع العلم انه سبق أن أتخذ مثل هذا الإجراء زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد سنة ١٧٠هـ/٧٨٦م، ولأسباب تشبه الأسباب التي دعت الخليفة المتوكل إلى القيام بمثل هذا العمل[٣٦]. ثم ضُمت اليمامة بعد ذلك إلى مكة، ثم المدينة، واستمر هذا ديدن الوضع الإداري في اليمامة، نستثني من ذلك بعض السنوات التي لا تُشكل علامة بارزة، أو ظاهرة مطردة.

أضــحت اليمامة منطقة مهملة، بعيدة إلى حد معقول عن العاصمة السياسية للدولة، وتفتقر إلى بنية اقتصادية قوية، وربما متخلخلة سكانياً، كل تلك العوامل جعلتها مكاناً مناسباً ومثالياً، وملاذا أمناً للمعارضة السياسية. ناهيك عــن أن المعارضــين وجدوا مستوطنين من السهل إثارتهم وضمهم إلى صفوفهم. يُضاف إلى كل ذلك ما يتصف به ســكان اليمامة من شعور إقليمي قوي، ونزعة إلى الاستقلال من سيطرة العباسيين. وهما نزعة وشعور طالما تمثلا في حــركات التمرد والانفصال التي قادها اليماميون في عصر الخلافة الراشدة، والخلافة الأموية، وسببت لكلا الفريقين مصاعب جمة(٣٧).

تلــك النزعــة والشعور الإقليمي برز إلى الواجهة مرة جديدة مع وصول ثائر علوي هارب من الحجاز، ومع وصــول أول المناصــرين لتأسيس إمارة بني الأخيضر في اليمامة،بل أن الوضع السياسي في اليمامة، ووضع المسؤول العباســي فيها يعد وضعاً غير مستقر، وهو وضع أتصف بالضعف والتشتت، وعدم السيطرة على الأمن لفترة تسبق وصول الهاربين الحسنيين من الحجاز(٣٨).

عانت البحرين وعاني طريق التجارة عبر شرق الجزيرة من الوضع المتردي في اليمامة، وقامت القبائل القاطنة في الــيمامة، أو حولهــا بغــارات متعددة من أجل النهب والسلب، وتعرضت المستوطنات المحلية لأنواع من التعدي، والتخريب، والسرقة، ومثلهم التجار المارين بطريق اليمامة –البحرين– العراق. العراق. يذكر ابن خلدون أن نفراً من قــبائل تلــك المــنطقة انهمك في مهاجمة سالكي تلك الطرق المهمة، وأثار الرعب بين الأهالي ضارباً بعرض الحائط أساسيات الدين ، أو الشعور الديني(٣٩). هذا وقد لاحظ الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن مستوى التدين لدي أفراد القبائل القاطنة حول اليمامة متدنٍّ حتى أنه ظنهم شعوباً بلا دين.

ولعــا ســائل يسأل عن سبب تدهور أوضاع منطقة اليمامة في العصر العباسي تدهوراً فاق بأضعاف مثيله في العصــور السابقة، مثل هذا السؤال يقود الباحث إلى الاعتقاد أن غياب الأمن، أو ضعفه الشديد في اليمامة بات هو الصــورة الواضــحة الــتي طبعت تاريخ اليمامة خصوصاً في فترة ضعف الخلفاء العباسيين. وقد يبدو للمرء أن فراغاً سياسياً تشكل مع مرور الزمن، وكان لابد لهذا الفراغ من يملؤه.

إن قدوم محمد بن يوسف الأخيضر هارباً من الحجاز عام ٢٥٢هــ/٨٦٤م، ومن ثَّمَّ نجاحه السريع في تأسيس إمــارة علويــة عُرفت فيما بعد بإمارة الأخيضرين، وعاشت حتى عام ٤٥٠هــ/١٠٦٤(٤٠)، ثم تلاشت، وذابت في خضــم القــبائل العربية التي انساحت في اليمامة، وصبغت تاريخها منذ منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر المــيلادي. أقول إن خروج اليمامة من سيطرة العباسيين أضاف عبئاً ثقيلاً على الخلافة العباسية أنضم إلى أعباء كثيرة عانت منها الجزيرة العربية. لكن المشهور أن بني الأخيضر في اليمامة لم يتحالفوا مع قوى المعارضة السياسية في الجزيرة العربــية. لهــذا لم توجــه لهم الحكومة المركزية أية قوة، وبقوا في معزل عن الصراع العباسي في شرق الجزيرة ، أو جنوبها، أو غربها.

اسم الخليفة العباسي الذي عاصر قيام إمارة الأخيضريين هو المعتز محمد بن جعفر المتوكل (٢٥٢- ٢٥٥هـ/ ٨٦٦- ٨٦٨م)، وكان ولاته على اليمامة عند قدوم الأخيضريين هما: كحمد بن أبي العون، ثم سعيد بن صالح المعروف بالحاجب على التوالي[٤١]، ومع هذا استمر ورود اسم اليمامة في قائمة الولايات العباسية، وأسماء ولاتها، أو أسماء من أقطعت له. أما من عام ٢٨٩هـ/٩٧٠م، وهي سنة بداية خلافة المكتفي بالله فقد غاب اسم اليمامة في تلك السجلات.

والطريف أن اليمامة أضحت بعيدة جداً من ذهن المؤرخ المعاصر لقيام الإمارة الأخيضرية، وهو الإمام أبي جعفر الطبري، فأمر لا يقف عند خلو سجلات الحكومة من أسماء ولاة اليمامة، بل يتعداها إلى تجاهل ما يدور في اليمامة من أحداث سياسية، أو عسكرية. وهذا الأمر يحتاج إلى مزيد من البحوث والاستقصاء.

قائمة ولاة اليمامة في العصر العباسي

عهد الخليفة أبي العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ/ ٧٥٠-٧٥٣م):

١ - داود بن علي بن عبدالله بن العباس ١٣٢هـ/٤٧٩م مع الحجاز واليمن[٤٢].

٢ - زياد بن عبيدالله بن عبدالله بن عبدالمدان الحارثي ١٣٣-١٣٦هـ/٧٥٠-٧٥٣م مع الحجاز[٤٣].

عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٤م):

١ - زياد بن عبيدالله بن عبدالله بن عبدالمدان الحارثي ١٣٦-١٤١هـ/٧٥٣-٧٥٨م مع الحجاز[٤٤].

٢ - السري بن عبدالله بن الحارث بن العباس ١٤١-١٤٣هـ/٧٥٨-٧٦٠م ولاية مستقلة[٤٥].

٣ - قُثَمْ بن العباس بن عبيدالله بن عباس ١٤٣-١٥٨هـ/٧٦٠-٧٧٤م ولاية مستقلة[٤٦].

عهد الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٨هـ/٧٧٤-٨٨٤م):

١ - قُثَمْ بن العباس بن عبيدالله بن عباس ١٥٨-١٥٩هـ/٧٧٤-٧٧٥م ولاية مستقلة[٤٧].

٢ - الفضل بن صالح (ابن خلدون، العبر، ٥: ٤٤٠. ربما مدته ١٥٩-١٦١هـ)[٤٨].

٣ - بشر بم المنذر البجلي ١٦١هـ/٧٧٧م ولاية مستقلة[٤٩].

٤ - جعفر بن سليمان ١٦١-١٦٦هـ/٧٧٧-٧٨٢م مع الحجاز[٥٠].

٥ - عبدالله بن قُثَمْ بن العباس بن عبيدالله بن عباس ١٦٦هـ/٧٨٢م مع مكة والطائف[٥١].

٦ - عبدالله بن مصعب بن الزبير ١٦٧-١٦٩هـ/٧٨٣-٧٨٥م ولاية مستقلة[٥٢].

عهدالخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م):

١ - محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس ١٧٠-١٧٣هـ/٧٨٦-٧٨٩م مع البصرة والبحرين وعُمان والفُرض وكور الأهواز وفارس[٥٣].

٢ - سليمان بن أبي جعفر ١٧٤هـ/٧٩٠م مع البصرة والبحرين[٥٤].

٣ - عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور وفي رواية أخرى أن الوالي هو: عمر الأصغر بن عبدالعزيز بن عبدالله من ولد عمر بن الخطاب[٥٥].

٤ - المعلى بن طريف مولى المهدي (من كبار قواد هارون الرشيد) مع البصرة وفارس والبحرين والأهواز والغوص[٥٦].

٥ - عُمارة بن حمزة (وقيل اسمه: عُمارة بن مالك بن يزيد بن عبدالله من الكتاب البلغاء، مولى لبني هاشم)[٥٧].

٦ - أحمد بن موسى بن عيسى بن موسى[٥٨].

عهد الخليفة الأمين بن هارون الرشيد (١٩٣-١٩٨هـ/ ٨٠٨-٨١٣م):

١ - منصور بن المهدي والي البصرة. ويظهر أن نتيجة الاضطرابات السياسية التي صاحبت فترة الأمين لم تلتفت الخلافة لليمامة[٥٩]، ولا يستبعد أن والي اليمامة انحاز للمأمون في صراعه مع أخيه الأمين فأبقاه على عمله فترة الصراع[٦٠].

عهد الخليفة المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨-٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م):

١ - طاهر بن الحسين وأناب عنه: عبدالله بن محمد بن عيينه وضمت إلى البحرين وغوص البحر[٦١].

٢ - الحسن بن سهل[٦٢].

٣ - داود بن ماسجور ٢٠٦هـ/٨٢١م مع البصرة وكور دجلة والبحرين[٦٣].

٤ - محمد بن عبدالحميد المعروف بأبي الرازي قبل ٢١٢هـ/٨٢٧م[٦٤].

٥ - إسحاق بن إبراهيم بن مصعب ٢١٥هـ/٨٣٠م مع سواد دجلة[٦٥].

عهد الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٣٣-٨٤١م):

١ - إسحاق بن إبراهيم بن مصعب مع سواد دجلة[٦٦].

عهد الخليفة الواثق بن المعتصم (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤١-٨٤٦م):

١ - أحمد بن سعيد بن سلم الباهلي مع البحرين وطريق مكة[٦٧].

٢ - إسحاق بن إبراهيم بن أبي خميصة مع البحرين وطريق مكة[٦٨].

عهد الخليفة المتوكل بن الأمين بن هارون الرشيد (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٦-٨٦١م):

١ - إسحاق بن إبراهيم بن أبي خميصة وفي عام ٢٣٥هـ/٨٤٩م ضمت اليمامة إلى البحرين وطريق مكة ومُنحت للمنتصر بن المتوكل[٦٩]، فقام المنتصر وولى على اليمامة.

٢ - محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مصعب[٧٠].

عهد الخليفة المنتصر بن المتوكل (٢٤٧-٢٤٨هـ/ ٨٦١-٨٦٢م):

١ - محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن مصعب[٧١].

عهد الخليفة المستعين بن المعتصم (٢٤٨-٢٥٢هـ/ ٨٦٢-٨٦٦م):

١ - محمد بن عبدالله بن طاهر مع أطراف في العراق والحرمين[٧٢].

عهد الخليفة المعتز بن المتوكل (٢٥٢-٢٥٥هـ/ ٨٦٦-٨٦٨م):

١ - محمد بن أبي عون مع البصرة والبحرين[٧٣].

٢ - سعيد بن صالح المعروف بالحاجب مع البصرة وكور دجلة والبحرين[٧٤].

عهد الخليفة المهتدي بن الواثق (٢٥٥-٢٥٦هـ/ ٨٦٨-٨٦٩م)

١ - سعيد بن صالح مع البصرة وكور دجلة والبحرين[٧٥].

عهد الخليفة المعتمد على الله بن أبي جعفر (٢٥٦-٢٧٩هـ/ ٨٦٩-٨٩٢م):

١ - يارجوج مع البصرة وكور دجلة والبحرين[٧٦].

٢ - الحارث بن سيما مع البصرة وفارس والأهواز والبحرين[٧٧].

٣ - موسى بن بُغا ٢٦٠هـ/٨٧٣م مع البصرة وفارس والأهواز والبحرين، وأناب عنه عبدالرحمن بن مفلح[٧٨].

٤ - مسرور البلخي ٢٦١هـ/٨٧٤م مع الأهواز والبصرة وكور دجلة والبحرين، وبقي مسرور في بغداد في ديوان الموفق أخي الخليفة المعتمد، وفي عام ٢٧٠هـ/٨٨٣م اقتصر قطاعه على اليمامة والبحرين وفارس، وبقيت اقطاعاً له حتى وفاته عام ٢٨٠هـ/٨٩٣م في خلافة المعتضد بالله[٧٩].

عهد الخليفة المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢-٩٠١م):

١ - مسرور البلخي مع البحرين وفارس[٨٠].

٢ - احمد بن محمد بن يحيى الواثقي حتى عام ٢٨٦هـ/٨٩٩م مع البصرة وكور دجلة والبحرين[٨١].

٣ - عباس بن عمر الغنوي ٢٨٧هـ/٩٠٠م مع البحرين ومحاربة القرامطة[٨٢].

عهد الخليفة المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ/ ٩٠١-٩٠٧م):

توقفت السجلات الرسمية عن ذكر اليمامة، وصرفت الحديث إلى قرامطة البحرين، وأشارت إلى امتداد نفوذهم إلى اليمامة، وهو وهم لا يقوم على ساقه[٨٣].

التعليقات

(١) الطبري، محمد بن جرير (ت ٣٤١هـ/ ٩٢٢م)، *تاريخ الأمم والملوك*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٠م)، ٦: ٢٨٩.

(٢) تشير بعض المصادر إلى أن خالد بن الوليد استخلف على اليمامة، بعد انتهاء العمليات العسكرية، سمرة بن عمرو العنبري. انظر: البلاذري، أبوالعباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، *فتوح البلدان*، تحقيق: رضوان محمد رضوان (بيروت: مكتبة الهلال، ١٩٧٨م)، ٣: ١٨٠؛ ابن حجر، شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٣هـ/ ١٤٤٨م)، *الإصابة في تمييز الصحابة* (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م)، ٣: ١٨٠؛ بينما يذكر ابن خياط في تاريخه إلى أن أبا بكر عّن سليط بن قيس، ابن خياط، أبو عمر خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) *تاريخ خليفة بن خياك*، تحقيق: أكرم ضياء العمري (الرياض: دار طيبة، ١٩٨٥م)، ١: ١٢٣.

(٣) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٥٩.

(٤) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٥٨.

(٥) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٩٤؛ أبن حبيب، أبوجعفر محمد بن حبيب البغدادي (ت ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، *المحبر*، تحقيق: إيلزه ليختن، (بيروت: دار الآفاق الجديدة)،٤٦٥؛ وانظر أيضاً: ابن الأثير، عز الدين أبوالحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، *الكامل في التاريخ*، تحقيق: عبدالله القاضي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م)، ٥: ٣٤؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي، (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)، *المنتظم في الريخ الملوك والأمم*، حيدر آباد الدكن، ٧: ٢٧٦.

(٦) ابن حبيب، *المحبر*، ٤٦٥.

(٧) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٩٤.

(٨) فاروق عمر، *طبيعة الدعوة العباسية* (بيروت: دار الإرشاد، ١٩٧٠م)، ٢٩٦.

(٩) الطبري، تاريخ، ٧: ٥٠٥. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، *كتاب الحيوان*، تحقيق: عبدالسلام هارون (بيروت:دار إحياء التراث العربي، ١٣٥٧هـ)، ٤: ١٣٨.

(١٠) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٤٦؛ مسكوية، أبوعلي أحمد بن محمد بن يعقوب، (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م)، *تجارب الأمم وتعاقب الهمم*، نشرة أمدروروز (القاهرة: ١٩١٤م)، ٦: ٥٣٢. ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٩٠.

(١١) البكري، أبوعبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، *معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع*، تحقيق: مصطفى السقا (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٣م)، ١: ١٣؛ ياقوت الحموي، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر، ١٩٥٦م)، ٥: ٢٦٢.

(١٢) الأصفهاني، الحسن بن عبدالله (ت ٣٥١هـ/ ٩٦٢م)، *بلاد العرب*، تحقيق: حمد الجاسر وصالح العلي (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٨هـ)، ٣٢٥-٣٢٧.

(١٣) ياقوت الحموي، معجم، ١: ٣٤٧.

(١٤) يشير بعض الباحثين المعاصرين إلى أن سبب وضع اليمامة تحت إدارة الحجاز يرجع إلى اعتبارات اقتصادية، إذ كانت اليمامة تصدر الحنطة والقمح إليه. نزار الحديثي، "اليمامة في الإدارة العربية"، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد الثاني والعشرون، (١٩٧٨م)، ٢٨٥.

(١٥) ابن خياط، *تاريخ*، ٤١٤؛ الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥١٥-٤٥٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٦١؛ ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر* (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩م)، ٥: ٤٤١.

(١٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٦٩؛ وانظر ملاحظات الطبري، *تاريخ*، ٨: ٢٠٤؛ وابن خياط، *تاريخ*، ٤٤٨؛ عن إجراءات الرشيد أنظر: الخطيب البغدادي، أبوبكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، *تاريخ بغداد أو مدينة السلام* (بيروت: دار الكتاب العربي)، ١: ٩٦.

(١٧) الميد: قبائل منتشرة على شطوط نهران من حد اللتات "السند" إلى البحر ووصفوا بالكفر. انظر: ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٩م)، *صورة الأرض*، تحقيق: M.j. de Goeje (ليدن: بريل، ١٨٧٣م)، ٢٧٧-٢٨٠.

(١٨) خليفة بن خياط، *تاريخ*، ٢: ٤٤٦.

(١٩) الحديثي، *اليمامة في الإدارة العربية*، ٢٩١- ٢٩٣.

(٢٠) ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٢٥٦.

(٢١) الوشمي، صالح بن سليمان، *ولاية اليمامة: دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري* (الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢١هـ)، ١١١.

(٢٢) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٤٠، ١٨٣، ٣٥٤، ٥١٢.

(٢٣) الجاسر، "حول اليمامة وولاياتها"، مجلة العرب، العدد السادس والثمانون، رمضان (١٣٩٠هـ)، ٢٧٩.

(٢٤) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٣٤٦.

(٢٥) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٢٣٠.

(٢٦) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٢٧٢؛ كنجور البخاري حاجب المؤيد، قتل عام ٢٥٩هـ بسامراء، انظر: الطبري، تاريخ، ٩: ٢، ٥.

(٢٧) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٨٣؛ يرى بعض المؤرخين أن الأخيضريين استولوا على اليمامة عام ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، بينما ينفرد ابن

حوقـــل بالقول عام ٢٣٢هـــ/٨٤٦م، وهو قول مُفرد. ابن حزم، محمد بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري (ت ٤٥٦هـــ/ ١٠٦٣م)، *جمهرة أنساب العرب* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م)٤٦. ابن حوقل، صورة الأرض، ٥٧.

(٢٨) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٨٣.

(٢٩) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٢٢٤- ٤٧٤؛ ابن خلدون، *العبر*، ٥: ٧١١-٧٢٠.

(٣٠) البكري، *معجم ما استعجم*، ١: ١٣. ذكر السخاوي أن عبدالله بن محمد بن عجلات المدني ولاه الخليفة المهدي على صدقات اليمامةز وهذا يُبيّن مقدار أهمية زكوات اليمامة وكثرتها وتوسع رقعتها؛ لذلك كان الخليفة وليس الوالي هو الذي يعين صاحب منصـــب جابي الزكاة . انظر: السخاوي، محمد بن عبدالرحمن (ت ٢٩٠هــ) *التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة* تحقيق: أسعد طرابزوني الحسيني (القاهرة: دار نشر الثقافة، ١٩٧٩م)، ٢ك ٨٣.

(٣١) أبوعبيدة، *النقائض*، ١: ٢٥، ١٣٠.

(٣٢) حمد الجاسر، ابن عربي: *موطد الحكم الأموي في نجد*، (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٠هـــ)، ٢٦٣.

(٣٣) يـــربط ابن منظور بين المنبر ومقر الأمير، أو الوالي. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري (٧١١هــ/ ١٣١١م)، *لسان العرب*، (بيروت: دار صادر)، ٥: ١٨٩.

(٣٤) الحـــربي، إبراهيم بن إسحاق (ت ٢٨٥هــ/٨٩٨م)، *المناسك وطرق الحج ومعالم الجزيرة*، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: دار الـــيمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هـــ)، ٦١٢- ٦١٩؛ انظر تعليق الوشمي على أهمية المنبر معتمداً على بعض المؤرخين القدماء في الوشمي، ولاية اليمامة، ١٣٢.

(٣٥) ربمـــا يعـــود تناقص المنابر في اليمامة في فترة الدولة الأخيضرية إلى كون الأخيضريين لم يتمكنوا من بسط نفوذهم على كافة مناطق وبلدات اليمامة، مما جعل بعض المناطق الخارجة عن سيطرتهم تعيش فراغاً إدارياً وسياسياً ينعدم في ظله دور المنبر. وربما يعـــود السبب إلى هجرة بعض السكان إلى خارج اليمامة نتيجة المصادمات مع الأخيضريين. انظر عبدالله العسكر، "*هجرة بني حنيفة إلى الأمصار الإسلامية في العصر الأموي*" (مجلة الدارة، العدد الثالث، ربيع الآخر، وجمادى الأول والآخر ١٤١٣هـــ)، ١٥- ٢٣.

(٣٦) ابن خياط، *التاريخ*، ٤٤٨. ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٦٩.

(٣٧) عبدالله العسكر، Al- Yamama in the Early Islamic Era, (London: Ithica Press, 2002)

(٣٨) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٣٠٨.

(٣٩) ابن خلدون، *ديوان المبتدأ والخبر*، ٣: ٣٣٩.

(٤٠) لا يوجد في المصادر ما يشير إلى معارضة مسلحة واجهت طلائع بني الأخيضر في اليمامة، وحتى الطبري المعاصر لهم لم يذكرهم في حولياته، على أن الأصبهاني ذكر خبراً عن حدوث مصادمات دامية بين الطرفين. الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦هـــ)، *مقاتل الطالبين*، تحقيق: أحمد صقر (القارة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٩م)، ٧٠٥.

(٤١) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٣٥٤- ٣٧٦.

(٤٢) ابن خياط، *تاريخ*، ٤١٤؛ الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٥٨.

(٤٣) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٤٥٩.

(٤٤) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥١١.

(٤٥) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥١٥؛ ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، *الطبقات الكبرى*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٩٧٦م)، ٥: ٣١٥.

(٤٦) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥١٥؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٣٦.

(٤٧) الطبري، *تاريخ*، ٨: ١٢١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٢٣١؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، ٨: ٢٢٩.

(٤٨) انفرد ابن خلدون بهذا الخبر، بينما تشير مُعظم المصادر إلى أن الخليفة المهدي بعد أن عزل قثم بن تاعباس صيّر ولاية اليمامة إلى بشر بن المنذر؛ انظر: الطبري، *تاريخ*، ٤: ٥٥١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٢٣١؛ ابن الجوزين *المنتظم*، ٨: ٢٢٩؛ وفوق هذا يذكر الطبري أن الفضل بن صالح كان في الفترة الزمنية المذكورة والياً على منطقة الجزيرة، وهي عند الطبري ما بين سنة ٢٥٩ -٢٦١هـ.

(٤٩) الطبري، *تاريخ*، ٨: ١٢١-١٢٣.

(٥٠) الطبري، *تاريخ*، ٨: ١٤١.

(٥١) الطبري، *تاريخ*، ٨: ١٦٣؛ الزبيري، أبو عبدالله بن مصعب بن عبدالله المصعب (ت ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م)، *كتاب نسب قريش*، تحقيق: ليفي بروفنسال (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦م)، ٣٣.

(٥٢) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٦٦؛ الزبيري، *نسب قريش*، ٢٤٢؛ البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١٠: ١٧٣.

(٥٣) ابن الخياط، *تاريخ*، ٤٤٨؛ الطبري، *تاريخ*، ٨: ٢٣٤-٢٣٨؛ البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١: ٩٦.

(٥٤) ابن خياط، *تاريخ*، ٤٦١.

(٥٥) الزبيري، *كتاب نسب قريش*، ٣٥٨؛ ابن قتيبة، *المعارف*، ١٦٥.

(٥٦) البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١: ٩٦؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٣٢٢.

(٥٧) البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١: ٩٦؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٣٢٢.

(٥٨) الصولي، *كتاب الأوراق*، ٣١٢.

(٥٩) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٤١٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٤٨.

(٦٠) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٤٢٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٥٣؛ ابن كثير، عماد الدين أبوالفدا إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، *البداية والنهاية* (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م)، ١٠: ٢٥٩.

(٦١) المبرد، أبوالعباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)، *الكامل*، تحقيق: محمد احمد الدال، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م)، ٢: ٥٤.

(٦٢) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٢٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ١٧٣.

(٦٣) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٥٨٠.

(٦٤) الأصبهاني، *كتاب الأغاني*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم وآخرون (القاهرة: دار الكتب، ١٩٢٣-١٩٢٩م)، ١١: ٣٤٩؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٢١٦.

(٦٥) الطبري، *تاريخ*، ٨: ٦٢٣.

(٦٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٢٢٢.

(٦٧) الزبيدي، أبوبكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي (ت ٣٧٩هـ/٩٨٩م)، *طبقات النحويين واللغويين*، تحقيق: محمد

أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: ١٩٥٤م)، ١٧١- ١٧٣.

(٦٨) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٤٠.

(٦٩) ذكـــر الطـــبري أن الشاعر مروان بن أبي الجنوب صنع قصيدة في مدح الخليفة المتوكل بن الأمين فكافأه الخليفة بولاية اليمامة والـــبحرين. أنظر: الطبري، *تاريخ*، ٥: ٣٣٨؛ ياقوت، *معجم الأدباء*، ١٠: ٢٩٤. وقد علق أحد الباحثين المعاصرين على هذا الخـــبر بقوـــله إنها لم تكن سوى ولاية صورية كون الحادثة وقعت سنة ٢٤٧هـــ واليمامة والبحرين كانتا ضمن إقطاع كبير للمنتصـــر بن الخليفة المتوكل. انظر: الوشمي، ولاية اليمامة، ١١٤. وتفنيد خبر الطبري السابق، أو استنتاج صالح الوشمي نجده عـــند الطبري نفسه الذي يشير صراحة إلى أن الخليفة أقطع الشاعر مروان بن أبي حفصة ابن الجنوب قطعة أرض زراعية كانت ضمن وقفية الخليفة المعتصم على ولده. وخبر توليه هذا الشاعر تتكرر عند الطبري مع الخليفة المعتز بن المتوكل. ويمكن أن يفند هـــذا الخبر بمثل ما فند به الخبر السابق، فالمعتصم ربما جدد إقطاع والده للشاعر مروان؛ انظر: الطبري، *تاريخ*، ٥: ٤٠٦. قال محمد بن مروان بن أبي حفصة قصيدة يمدح فيها الخليفة المعتز، وفيها إشارة واضحة إلى الإقطاع الذي سبق ومنح له نجتزئ منها هذين البيتين (الطبري، تاريخ، ٩: ٣٥١):

فارْدُدْ عليَّ بنجد ضَيعة قبضَت فإن مثلك مثلي يُقطعُ الضيعا

فإن ردَدت إمام العدلِ غَلَّيهـــا فالله أنفَ حُسّادي به جَدعا

(٧٠) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٧٥- ١٨٣.

(٧١) الطبري، *تاريخ*، ٩: ١٨٣.

(٧٢) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٢٥٨.

(٧٣) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٣٥٤.

(٧٤) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٤٧٦.

(٧٥) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٤٧٦- ٥٠١.

(٧٦) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٥١٢.

(٧٧) الطبري، *تاريخ*، ٩: ٥١٣.

(٧٨) ابن خلدون، *العبر*، ٥: ٧١٥، ٧: ٦٩١؛ الطبري، *تاريخ*، ٩: ٥١٢- ٥١٤. تقصر المصادر التاريخية تولية عبدالرحمن بن مفلح عـــلى ولاية الأهواز دون ذكر بقية الولايات؛ انظر: الطبري، *تاريخ*، ٥ك ٥٠١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦ك ٢٤٠. ولعل تكرار الخبر أدى إلى اختصاره، أو ربما ولاية الأهواز تُعد آنذاك أكبر ولاية، وما عداها ولايات صغيرة تتبعها.

(٧٩) الطبري، *تاريخ*،٩٠:٤٩٠، ٩١٠، ٥٤١، ٦٠٢، ٦٦٣ ، ١٠: ٣٤؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٥٣.

(٨٠) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧١- ٧٥.

(٨١) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧١- ٧٨.

(٨٢) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ١٠٤.

(٨٣) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ١٣٠؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ١٤٧.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

قرامطة البحرين والخلافة العباسية
دراسة أولية للعلاقة السياسية بينهما
في القرنين الثالث والرابع الهجريين (٢٧٨- ٣٣٢هـ)

محمد بن فارس الجميل
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الملك سعود

المقدمة:

نتيجة للفراغ السياسي في جنوب العراق والخلل الاقتصادي والتفاوت الطبقي بين سكانه، أصبح بيئة ملائمة لقيام الاضطرابات والثورات ضد السلطة العباسية، وغالباً ما تتخذ هذه الانتفاضات من الدين عباءة لها، مثل: حركة الزنج وكذلك القرامطة[١]، وغالباً ما يكون ادعاء المهدية والتبشير بالمهدي أحد الوسائل الناجحة في الوصول إلى قلوب الجماهير المتلهفة للعدالة الاجتماعية والمساواة.

ولعل مما ساعد على ارتفاع وتيرة السخط والتذمر، وإعلان التمرد والعصيان في بعض الأحيان هو ضعف تمثيل السلطة المركزية هناك، حيث إن الخلافة نفسها كانت تصارع من أجل بقائها.

ومن نافلة القول التذكير بأن الخلافة العباسية أصبحت لا تملك زمام أمرها منذ أيام المعتصم[٢](ت: ٢٢٧هـ)، الذي جلب أعداداً من العنصر التركي واعتمد عليهم حرساً وجيشاً بدلاً عن العرب، واستشرى بين قادة الأتراك التناحر على المناصب والمصالح الذاتية، وذلك على حساب مصلحة الخلافة أولاً ثم المصلحة العامة للدولة ثانياً. لقد بلغ ذلك التنافس النكد والمرير ذروته بمقتل الخليفة المتوكل سنة (٢٤٧هـ) على يد كبار قادة الأتراك[٣]. وبذلك أصبح أول خليفة عباسي يموت مقتولاً على يد جنده. !!

ومنذ ذلك التاريخ صار الخليفة والخلافة العباسية رهن الوصاية والتسلط الأجنبي، فلم يعد الخليفة يملك حرية التصرف ولا القدرة كذلك على اتخاذ القرارات الحاسمة، ولعل أصدق تصوير لتلك الفترة الحالكة من أيام الدولة العباسية قول الشاعر:

خليفة في قفص	بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له	كما تقول الببغا

في هـــذه الظروف من الفوضى والاضطراب خرجت حركة الزنج في جنوب العراق حيث أصبح في ظل هذه الفوضى البيئة الملائمة لظهور المذاهب والحركات المناوئة للدولة، واستمرت في تحديها السافر للسلطة حتى تم القضاء علـــيها في سنة (٢٧٨هـــ)، وفي هذه الأثناء أعلنت حركة القرامطة عن ميلادها في جنوب العراق كذلك، ومن غير المشـــكوك فـــيه أن حركة الزنج هي التي منحت الحركة القرمطية شهادة ميلادها. ذلك أن القرامطة استغلوا انشغال الخلافة في حربها الضروس مع الزنج في الدعوة لأنفسهم في جنوب العراق الذي كان لا يزال يعاني سكانه من البطالة والفقر وأخلق بهذه البيئة أن تصبح مكاناً ملائماً لتفريخ المذاهب والدعوات الهدامة.

ولقـــد عانـــت الخلافة العباسية والمجتمعات الإسلامية كثيراً من الإرهاب القرمطي المتمثل بمهاجمة المدن العراقية كالبصرة والكوفة وغيرهما وكذلك مهاجمة قوافل الحج وقتل الحجاج وسبيهم وسلب أموالهم.

في ضـــوء هـــذه الصـــورة البالغة القتامة للعلاقة بين قرامطة البحرين والخلافة العباسية يأتي هذا البحث محاولاً التعرف على أوجه القوة والضعف في كلا الجانبين، ويحاول الإجابة بوجه خاص عن سؤال هو:

هل ما لحق بالخلافة العباسية في القرنين الثالث والرابع الهجريين من ضعف وهوان أمام قرامطة البحرين يعود في أصله إلى قوة القرامطة وانتشار نفوذهم أم أن قوة القرامطة الحقيقية واتساع هيبتهم في المنطقة يعودان في أساسهما إلى ضعف مركز الخليفة العباسي وتدهور مؤسسة الخلافة؟

١ - تمهيد:

لســـنا هـــنا بحاجة للحديث عن نشأة حركة القرامطة وفروعها في سواد العراق والشام واليمن، فإن أخبارها مبـــثوثة في ثنايا المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة[٤] إضافة إلى الدراسات الحديثة والمعاصرة التي نجحت في إماطة اللثام عن بعض جوانب الغموض التي اتصفت بها حركة القرامطة[٥]. أما ما يهمنا في هذا المقام فهو إلقاء الضوء على قرامطة البحرين وعلاقتهم بالخلافة العباسية وذلك في عهد اثنين من أشهر رجالهم وهما:

أبـــو سعيد الجنابي (ت: ٣٠٠هـــ) وابنه أبو طاهر الجنابي (ت: ٣٣٢هـــ) وموقفهما من الخلفاء العباسيين في الفترة ما بين (٢٧٨- ٣٣٢هـــ) وهم: المعتضد والمكتفي والمقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي.

ترتبط بدايات الدعوة القرمطية بالبحرين[٦] بالحركة القرمطية في سواد الكوفة، أيام حمدان بن الأشعث وعبدان، فقـــد جرى إرسال داعية إلى منطقة هجر يدعو بين قبائلها، وكان على رأس هذه القبائل عقيل وكلاب من قبائـــل عامر ابن صعصعة[٧] ومن المرجح أن اسم هذا الداعية هو أبو زكريا يحيى بن علي الطمامي وقد أنفذ سنة ٢٨١هـــ/ ٨٩٤م، ثم أُلحـــق بعـــد فـــترة بأبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي[٨]. وقد اتهم يحيى الطمامي داعية القرامطة بالبحرين بالفســـاد والغدر وإظهار الإباحية، فما كان من شريكه في الدعوة أبي سعيد الجنابي إلا أن وثب عليه وقتله، واستولى على الأمر بعده[٩].

ولكن أبا سعيد هو الآخر لم يسلم من التهمة ذاتها التي اتهم بها الطمامي فقد قال عنه القاضي عبدالجبار الهمذاني (ت: ٤١٥هـ) في كتاب تثبيت دلائل النبوة: "فقد غرر بالناس لما ملكهم وأظهر من الإباحية وتعطيل الشرائع ما هو مذكور، وقال: إنه رسول الأمين الإمام حجة الله على خلقه، وهو محمد بن عبد الله بن الحنفية... وهو المهدي، في سنة ثلثمائة للهجرة يخرج ويملك الأرض كلها"(١٠).

إن أبا سعيد الجنابي الذي يبشر هنا بقرب المهدي المنتظر كان حسب رأي القاضي عبدا لجبار؛ "شريراً فاسقاً جاهلاً لا يعرف من كتاب الله شيئاً ولا من سنة نبيه، ولا شيئاً من الأدب، ولا شغل له إلا المعاش، فقد كان يبيع الدقيق والطعام بعين الزاره(١١) من أرض البحرين(١٢)".

ويظهر من إحدى الروايات عند المقريزي (ت: ٨٤٥هـ) في كتاب اتعاظ الحنفا ...، أن أوائل من تبع دعوة أبي سعيد الجنابي ؛ أنهم قوم ضعفاء ما بين قصاب وحمال وأمثال ذلك. إضافة بالطبع إلى عائلة آل سنبر الذين أصبحوا فيما بعد وزراء لعائلة الجنابي(١٣).

٢ - أبو سعيد الجنابي والخلافة العباسية (٢٨٦ - ٣٠٠هـ):

ذكر الطبري في حوادث سنة (٢٨٦هـ) أن رجلاً من القرامطة يدعى أبا سعيد الجنابي ظهر بالبحرين، فاجتمع إليه جماعة من الأعراب والقرامطة وكثر أصحابه وقوي أمره في منتصف السنة، فقتل من حوله من أهل القرى، ثم صار إلى القطيف فقتل من بها(١٤).

فكان عام (٢٨٦هـ) هو أول ظهور مسلح لأبي سعيد الجنابي، وما من شك في أن ظهوره بهذه الصورة يَعدُ تحدياً سافراً للخلافة العباسية، التي ما إن علمت بهذا الخبر وبنية الجنابي بمهاجمة البصرة حتى سارعت بعمل سور عليها قدرت النفقة عليه بأربعة عشر ألف دينار(١٥).

ولكن قبل أن يأخذ منا العجب مأخذه جراء جرأة الجنابي على حرمة الدولة العباسية واقتطاع جزء من كيانها يجب أن نلتفت بضعة أشهر إلى الوراء لنعلم أنه في المحرم سنة (٢٨٥هـ)، هجم صالح بن مدرك الطائي بجماعة من طيئ على الحاج بالأجفر، فظفر الأعراب بالقافلة وأخذوا ما كان فيها من الأموال والتجارات وأخذوا جماعة من النساء الحرائر والمماليك، وقيل إن الذي أخذوا من الناس بقيمة ألفي ألف دينار(١٦).

وفي سنة (٢٨٦هـ) كذلك وفي رجب أي بعد خروج الجنابي ووقعته بالقطيف بشهر قام جماعة من أعراب بني شيبان بمهاجمة قرى الأنبار وقتلوا من لحقوا من الناس واستاقوا المواشي، وأرسلت العاصمة بغداد زهاء ألف رجل للمسؤول عن أمن الأنبار فهزمهم الأعراب، كما أرسلت قوة أخرى بقيادة العباس الغنوي، ولكن بعد فوات الأوان وبعد أن عاث الأعراب فساداً بعين التمر ونواحي الكوفة(١٧).

أمـــا في الســـنة التالية وفي شهر ربيع الأول سنة (٢٨٧هـــ) فقد اشتد خطر القرامطة بالبحرين فأغاروا على نواحـــي هجـــر وقرب بعضهم من نواحي البصرة، فأرسلت العاصمة ثماني سفن فيها ثلثمائة رجل، كما أمر المعتضد باختيار جيش لينفذه إلى البصرة[١٨].

وفي شـــهر رجـــب من السنة نفسها كانت المواجهة العسكرية بين القائد العباسي العباس الغنوي وأبي سعيد الجنابي في السبخة المعروفة "بأفان" بالقرب من القطيف، وكان الجيش العباسي يتألف من سبعة آلاف رجل من الجند ومُطَّوعـــة البصـــرة والبحرانيين الذين كانوا جلوا عن البحرين، أما الجنابي فكان يقود سبعمائة فارس وراجل . انتهي ذلـــك اللقـــاء بهزيمة جيش الغنوي وتشريده وأسر قائده وسبعمائة رجل من رجاله، ومما زاد الأمر سوءاً أن البصرة أرسلت لمن أفلت من جيش الغنوي وهم قليل، أربعمائة راحلة عليها الأطعمة والكساء والماء فخرج عليهم بنو أسد، فأخذوا تلك الرواحل بما عليها وقتلوا جماعة ممن كان مع تلك الرواحل ومن أفلت من أصحاب العباس[١٩].

ربمـــا يسأل سائل عن الغرض من هذا السرد الممل للأحداث، وما صلته بموضوع العلاقة بين قرامطة البحرين والخلافـــة العباسية. ؟ والإجابة عن هذا السؤال لا تحتاج إلى كبير عناء، ألا وهي إبراز بعض الجوانب المعتمة في دار الخلافة، والمقصود هنا الجانب الأمني وهيبة الدولة . فمتى ضاع الأمن ضاعت هيبة الدولة.

والمـــتأمل قلـــيلاً في الأحداث التي مرّ ذكرها يلاحظ أن اضطراب الأمن في العراق، وبصورة أخص في جنوبه، كـــان سابقاً على الظهور المسلح لأبي سعيد الجنابي في منتصف عام (٢٨٦هـــ) إذ إن صالح بن مدرك الطائي وقومه هـــاجموا في سنة (٢٨٥هـــ) إحدى قوافل الحجاج وأخذوا الأموال والنساء. و لم تحرك الدولـــة ساكناً بـــل بعثـــت بـــالفداء لمن في قبضة الأعراب. ونلاحظ كذلك أنه بعد شهر من ظهور الجنابي في البحرين عاث الأعراب فساداً في قـــرى الأنبار ونواحي الكوفة وفشلت قوات الخلافة في السيطرة على الأمور؟ ولعل الأدهى من ذلك كله هو خيانة أعـــراب بـــني ضبة ومُطَّوعة البصرة وهربهم من جيش العباس الغنوي ووقوع العباس وسبعمائة رجل من أصحابه في قبضة أبي سعيد الجنابي الذي كانت قوته تعادل عُشر قوة العباس الغنوي، بل إن مما زاد الطين بلة إجهاز الأعراب على فلول الجيش العباسي المهزوم ونهب المدد الذي أرسل لهم من البصرة ! فماذا عسى المتتبع لهذه الأحداث أن يقول بعد ذلك؟

ألـــيس مـــرد ذلك التصرف هو ضياع هيبة الدولة، وضياع الأمن نتيجة مباشرة لذلك!! نحن نعلم أن الخلافة خاضـــت حرباً لا هوادة فيها طوال خمسة عشر عاماً ضد الزنج في البصرة وما حولها، ولكن هذه الأحداث تأتي بعد مضي ما يقارب ثماني سنوات من القضاء على حركة الزنج، يفترض أن الدولة قد استعادت في خلالها قوتها وحيويتها وقدرتها على مواجهة المستجدات، ولكن ذلك لم يحدث!!

في هذه الأثناء أي في ربيع الآخر سنة (٢٨٩هـــ) توفي الخليفة المعتضد وخلفه ابنه علي الذي آثر لقب المكتفي،

وفي عهــد المكتفي عاث قرامطة السواد والشام ومن تبعهم من بعض القبائل العربية فساداً في الأرض، وذلك بزعامة زكرويه بن مهرويه في الفترة ما بين (٢٩٣- ٢٩٤هــ) وكانت وقعاتهم بالحجاج مشهورة في واقصة والعقبة والهبير والثعلبــية والشقوق وقيل إنه بلغ من قتل من الحجاج ورجال السلطة خمسين ألف قتيل !! ولو صح نصف هذا العدد فإن الأمر يكون مفزعاً[٢٠].

وفي الربع الأول من سنة (٢٩٤هــ) سقط زكرويه بن مهرويه قتيلاً[٢١] على يد قوات المكتفي الذي لم يمتد به الأجل لينعم بانتصاره، إذ توفى في أواخر سنة (٢٩٥هــ).

٣ – خلافة المقتدر (٢٩٥- ٣٢٠هــ):

وجيــئ بجعفــر بــن أحمــد الملقب بالمقتدر (ت: ٣٢٠هــ)[٢٢] إلى كرسي الخلافة في شهر ذي القعدة سنة (٢٩٥هــ) وسنه آنذاك لا تتجاوز الثالثة عشرة. ويجدر بنا هنا أن نتعرف على المقتدر عن قرب لتتضح الصورة.

"أفضت الخلافة إليه -كما يقول المسعودي- وهو صغير غر ترف لم يعان الأمور ولا وقف على أحوال الملك، فكان الأمراء والوزراء والكتاب يديرون الأمور ليس له في ذلك حل ولا عقد ولا يوصف بتدبير ولا سياسة، وغلب عــلى الأمــر النســاء والخدم وغيرهم، فذهب ما كان في خزائن الخلافة من الأموال والعدد بسوء التدبير الواقع في المملكة، فأداه ذلك إلى سفك دمه واضطربت الأمور بعده وزال الكثير من رسوم الخلافة[٢٣]". ويضيف ابن مسكويه قائلاً: "... وفوض [المقتدر] الأمور إلى أبي الحسن بن الفرات ... وتفرد المقتدر على لذاته متوفراً واحتشم الرجال واطرح الجلساء والمغنيين، وعاشر النساء، فغلب على الدولة الحرم والخدم ..."[٢٤].

والسؤال هنا لماذا اختير من هذه سنه وهذه صفاته لأرفع منصب ديني ودنيوي في الدولة ألا وهو الخلافة؟ لماذا لم يرشــح لهذا الأمر من هو أقدر منه وأسنُ منه من أبناء البيت العباسي؟! الإجابة عن هذا السؤال تظهر جليــة في المشــاورات التي دارت بين ابن الفرات وبين الوزير العباس بن الحسن [وزير المكتفي]، بشأن المفاضلة بين ابن المعتز وبــين المقــتدر، قــال ابن الفرات مخاطباً الوزير العباس: "إن ابن المعتز يخبر نِعَم أصحاب السلطان ويعرف أسرارهم وذخائرهم، وقد خالط الناس وفهم أمورهم فعينه ممتدة إلى ما في أيديهم".

وأشار ابن الفرات على الوزير العباس بن الحسن بجعفر بن المعتضد مرشحاً للخلافة، وعندما أجابه أنه صغير، رد ابــن الفرات قائلاً: "ولِمَ نأتِ برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج لنا، وإن كان جعفر بن المعتضد بالله صغيراً فأنت تدبره ..."[٢٥].

وهكــذا تظهر أهداف رجال الإدارة من وزراء وكتاب، فهم يطمحون إلى أن يكون الخليفة مجرد لعبة بأيديهم يوجهونهــا كــيف يشــاءون ولا أفضل لهم من صبي صغير في الثالثة عشرة من العمر لتحقيق أهدافهم تلك! بل إن "شــغب"، والــدة المقتدر التي أصبحت تعرف بالبلاط فيما بعد بالسيدة، إشارة لجلال قدرها وعظم مترلتها، كانت

تدرك عدم أهلية ابنها المقتدر للخلافة، فبعد فشل الحركة الانقلابية التي قام بها أنصار ابن المعتز سنة (٢٩٦هـ)[٢٦]، أجلست ابنها المقتدر بالله في حجر الوزير ابن الفرات وقالت له: "هذا يا أبا الحسن ولدك وأنت قلدته الخلافة أولاً وثانياً"[٢٧].

إن السيدة شغب تدرك عدم صلاحية ابنها للخلافة، ولكنها تدرك أيضًا أن ذلك أدعى لتفردها بالأمر دونه .

ولا أدل على ضعف المقتدر عن إدارة شئون الدولة واضطراب الأمور عليه أن استوزر في مدة خلافته التي بلغت خمساً وعشرين سنة، اثني عشر وزيراً فيهم من وزر له المرتين والثلاث، وعلق على ذلك المسعودي قائلاً: "ولم يعرف فيما قبله أنه استوزر هذه العدة"[٢٨].

لقد طال بنا الوقوف مع الخليفة المقتدر بالله، لأنه أطول خلفاء هذه الفترة حكماً ومن ثم فإن علاقته بقرامطة البحرين أطول زمناً وكانت متوترة في معظمها، لذلك كان لابد من هذه الوقفة!

ومن أجل التعرف بصورة أكثر وضوحاً على حال الخلافة والخليفة معاً لابد من ذكر بعض الحوادث المتلاحقة في تلك الفترة التي قد تساعد في إلقاء المزيد من الضوء على العلاقة بين الخلافة العباسية وقرامطة البحرين، فمثلاً: في شهر ذي الحجة سنة (٢٩٩هـ)، غضب المقتدر على وزيره علي بن محمد بن الفرات وحُبس ووضعت ممتلكاته تحت الحراسة وكان أُدّعي عليه أنه كتب إلى الأعراب بأن يكبسوا بغداد[٢٩]. ربما لإثارة الاضطراب والفوضى حتى يشعر الخليفة بمدى أهمية وزيره ابن الفرات مثلاً؟ !

وعين المقتدر بدلاً عنه محمد بن عبيدالله بن خاقان، وقيل إن السبب في ولايته كان مشورة أم ولد المعتضد "دستنبويه" [؟] على أن ضمن لها مئة ألف دينار[٣٠]. فهنا الاختيار للمنصب ليس للكفاءة بل لمن يدفع أكثر . ويظهر أن هذا الوزير لم يكن أهلاً لمنصب الوزارة وإدارة الدولة، فقد ذكر أحد المصادر أن أولاده وكتابه كانوا يرتفقون من العمال بما يولونهم به من الولايات ثم يعزلونهم، إذا رأوا مطمعاً، فاجتمع بحلوان في خان بها سبعة عمال، أسند لهم في عشرين يوماً ولاية ماء الكوفة[٣١]. وحسب أحد المصادر كذلك فقد كان يولى العمل الواحد جماعة في أسبوع، حتى قلدّ عمالة بادوريا في أحد عشر شهراً أحد عشر عاملاً[٣٢].

ولما رأى المقتدر ضعف الوزير محمد بن عبيد الله أراد إقالته وتنصيب أحمد بن يحيى المعروف بابن أبي البغل وزيراً مكانه، وما أن علم الوزير بذلك حتى ذهب إلى دار الخلافة وصانع جماعة من الخدم والحرم وضمن لأم ولد المعتضد التي كانت قد عنيت بولايته في أول أمره خمسين ألف دينار، فنقضت أمر ابن أبي البغل ورُدّ والياً على فارس[٣٣]. ولكن هذه الرشوة لأم ولد المعتضد لم تَحُل بين الوزير محمد بن عبدالله والعزل حيث عُزل وفرضت عليه وعلى أبنائه الإقامة الجبرية وعين في الوقت ذاته علي بن عيسى بن الجراح[٣٤] الذي قدم من الحجاز[٣٥].

في هذه السنة أي سنة (٣٠٣هـ) حاول الوزير علي بن عيسى أن يصل إلى علاقة طيبة مع قرامطة البحرين

لعلـــه يصـــرف خطـــرهم عن الحجاج وغيرهم فشغلهم بالمكاتبة والمراسلة والدخول في الطاعة وأطلق لهم التسوق بسيراف[٣٦] فردعهم بذلك وكفهم، فخطأه الناس واتهموه بأنه قرمطي[٣٧].

وفي أوائـــل ذي الحجة سنة (٣٠٤هـــ) قبض على الوزير علي بن عيسى، ونهبت منازل إخوته ومن يمت إليه بصلة، وحُبس في دار الخليفة المقتدر، وتقلد في اليوم نفسه الوزارة علي بن محمد بن الفرات[٣٨].

ومما يدل على انفلات الأمور في دار الخلافة واستبداد النساء باتخاذ القرار، وهو ما يعكس بطبيعة الحال ضعف مركز الخليفة، هو ما أقدمت عليه السيدة أم المقتدر، بتكليف قهرمانة لها تدعى " ثمل"[٣٩] أن تجلس للمظالم وتنظر في رقـــاع الـــناس في كـــل جمعة يوماً[٤٠] وكان الأجدر بمن يقوم هذا المقام الخليفة نفسه أو أحد ذوي الجاه من رجال دولته.!!

وبســـبب هزيمة القائد العباسي مؤنس سنة (٣٠٦هـــ) أمام يوسف بن أبي الساج أحد الخارجين على الخلافة، كـــثر الطعن على الوزير ابن الفرات ونسب كل ما حدث إلى تضييعه للأمور، فقبض عليه في أواخر شهر ربيع الآخر وأودع الســـجن، فكانـــت وزارته هذه المرة سنة وخمسة أشهر تقريباً وعُين للوزارة بدلاً عنه حامد بن العباس، الذي كان قد ضعف وكبرت سنه[٤١].

ومـــن اللافـــت للـــنظر مـــا أشـــار إليه ابن الجوزي أنه في السنة التالية أي سنة (٣٠٧هـــ) دخل القرامطة البصرة،ووافق ذلك تقليد ابن الفرات الوزارة للمرة الثالثة[٤٢] . وهذا وهم وقع فيه ابن الجوزي، لأن حوليات التاريخ الإسلامي لم تذكر أن القرامطة دخلوا البصرة في ذلك العام، ومعلوم كذلك أن ولاية ابن الفرات الثالثة للوزارة كانت في سنة ٣١١هـــ التي عرفت بسنة الدمار[٤٣].

ويقـــع في الخطـــأ نفسه ماد لونغ Madelong عند مناقشته لإشارة ابن الجوزي هذه فيقول مصححاً ... إن الولاية الجديدة لابن الفرات حدثت في العام (٣١٨هـــ/ ٩٢٣م) "بالتأكيد"[٤٤] أما الذي يجب تأكيده هنا فهو أن ابن الفـــرات مات مقتولاً في سنة (٣١٢هـــ) الموافق (٩٢٤م) تقريباً وأن عام (٣١٨هـــ) يوافق (٩٣٠م) تقريباً وليس كما جاء عند مادلونغ .

٤ - أبو طاهر الجنابي والخلافة العباسية: (٣١٠ - ٣٣٢هـــ)

لقـــد لقـــي أبـــو سعيد الجنابي مصرعه على يد أحد الخدم في ظروف غامضة، وذلك في سنة (٣٠٠هـــ) أو (٣٠١هـــ) مع جماعة من كبار خواصه[٤٥] وتولى الأمر من بعده ابنه سعيد، وكان أَسَنَ إخوته ولكنه كان ضعيفاً، ثم ما لبث أن خلع سعيد سنة (٣٠٥هـــ)، وجاء محله أخوه أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي[٤٦] حيث تولى القيادة في ســـنة (٣١٠هـــ) وعمره آنذاك ستة عشر عاماً تقريباً[٤٧] وفي عهده بلغت حركة قرامطة البحرين ذروة عنفوانها وهيبتها وشهدت فيه العلاقة مع الخلافة العباسية أسوأ مراحلها.

فـإذا انتقلـنا إلى أحـداث سنة (٣١١هـ) فإننا نشم منها روائح الفضائح والتهم بالخيانة المتبادلة بين وزراء الدولة، ونرى فيها كذلك الأحداث المفجعة في البصرة على يد القرامطة.

قـال الصولي عن أحداث هذه السنة:دخل أصحاب الجنابي البصرة في ليلة الاثنين بعد ولاية ابن الفرات الثالثة بأربعـة أيام، وكان خبر ولايته والقبض على علي بن عيسى قد بلغ إليهم ممن يكاتبهم بوقته وأظنه "بطائر" لأن بعض البصـريين الثقات حدثني قال: "جعل القرامطة يقولون لنا: يوم الاثنين! ويلكم ما أراد سليطينكم من ذلك الشيخ ما فيكم أعقل منه ولا أجود رأياً وإن كان دينكم على دينه ولتعلمن ما تلقون بعده. قالوا: ونحن لا نعلم ما يقولون حتى ورد خـبر من بغداد ونحن بالجزيرة وهم بشط البصرة حالياً، فأخبرنا بالقبض على علي بن عيسى وحامد بن العباس وولاية ابن الفرات"(٤٨).

وكان أبو طاهر الجنابي قد دخل البصرة فجر يوم الأثنين لخمس بقين من ربيع الآخر سنة (٣١١هـ) في ألف وسـبعمائة رجل وأنه وصل إليها بسلاليم نصبها على سورها وقتل الحراس وقتل سبك المفلحي أمير البصرة وأحرق المربد وبعض الجامع وحاربه أهل البصرة عشرة أيام وهربوا منه وأقام بها سبعة عشر يوماً . وغادرها بعد أن حمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان(٤٩).

وهكـذا عـاث قـرامطة البحرين سبعة عشر يوماً في البصرة إحدى حواضر العراق الرئيسة و لم تحرك الخلافة ساكناً!!

وحـوادث هذه السنة أي سنة (٣١١هـ) تؤكد أن ابن الفرات قد قلد الوزارة للمرة الثالثة بمسعى من مفلح خـادم المقتدر، واعتقل علي بن عيسى وسُلم إلى زيدان القهرمانة(٥٠). وكانت هذه السنة شديدة الوطأة على الناس، سميت سنة الدمار والهلاك ولي فيها علي بن الفرات الوزارة للمـرة الثالثة ...(٥١).

وادعى ابن الفرات على علي بن عيسى أنه كاتب القرامطة على المسير إلى البصرة ويذكر الهمذاني صاحب هذا الخبر أن علياً نوظر فلم يصح عليه شيء(٥٢).

وجاء عند ابن مسكويه في حديثه عن المناظرة التي وقعت بين ابن الفرات وعلي بن عيسى قوله: "ثم ناظره على مـا حملـه إلى القرامطة من الهدايا والسلاح وما ترددت بينه وبينهم من المكاتبات مرة والمقاربات مرة أخرى. فقال أردت اسـتمالتهم وإدخـالهم في الطاعة وكفهم عن الحاج وأعمال الكوفة والبصرة مدة ولايتي دفعتين وأطلقوا من الأسارى الذين كانوا من المسلمين عدة ..."(٥٣).

وكمـا هـو ملاحظ فإنه يتبين من رواية ابن مسكويه أن العلاقة بين الوزير علي بن عيسى وقرامطة البحرين كانـت شـبه متصلة وقديمة ربما تعود إلى أواخر أيام أبي سعيد بن بهرام، حيث يذكر أحد المصادر أن علياً كاتب أبا سـعيد وطلب منه إطلاق أسر من لديه من المسلمين، وأن الكتاب لم يصل إلا بعد وفاة أبي سعيد وأن أولاده أطلقوا

من لديهم من الأسرى وهم "نحو ثلاثين ألفاً(٥٤)" .

أما ابن الجوزي فيؤرخ للاتصال الأول الذي حدث بين الوزير علي بن عيسى، بتوجيه من الخليفة المقتدر وبين أبي سعيد الجنابي بأنه في سنة (٣٠١هـ) وحسب رواية ابن الجوزي فإن ذلك الاتصال لم يسفر عن شيء حاسم في أمر العلاقة بين الطرفين و لم يرد فيه أي ذكر لقضية الأسرى(٥٥).

ويضيف ابن الجوزي أنه في سنة (٣٠٣هـ)، نظر علي بن عيسى بعين رأيه إلى أمر القرامطة فخافهم على الحاج وغيرهم فشغلهم بالمكاتبة والدخول في الطاعة وأطلق لهم التسوق بسيراف، فكفهم بذلك فخطأه الناس ونسبوه إلى موالاتهم ... (٥٦).

وكما هو واضح فإنه ليس في روايات ابن الجوزي التي أُشير إليها هنا ما يفيد في موضوع الأسرى، أو عدد من أفرج عنه منهم.

ولكن يظل عدد من أطلق من الأسرى حسب رواية القاضي عبد الجبار، الذي يجب التعامل مع رواياته بقدر من الحذر -رقماً ظاهر المبالغة- ولا يجوز التسليم به على إطلاقه لاسيما وأن القاضي عبد الجبار لم يذكر ما قدمته الدولة العباسية للقرامطة، مقابل إطلاق هذا العدد الجم من الأسرى .!!

ومادام الحديث لا يزال موصولاً عن اتصالات الوزير علي بن عيسى بقرامطة البحرين، والتهم التي وجهت إليه من قبل بعض أعدائه في الدولة العباسية، فقد جاء في "كتاب العيون" القول إن القرامطة الذين استسلموا في عام (٣١١هـ) قد زعموا أن علياً بن عيسى كاتبهم بالمسير إلى البصرة وأنه وجه إليهم عدة أوقات بهدايا وسلاح"(٥٧).

أمام هذا الاضطراب بخصوص علاقة الوزير علي بن عيسى بقرامطة البحرين واتصاله بهم، جاء عند ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ) ما يمكن أن يساعد على فهم طبيعة تلك العلاقة، ففي عن حديثه عن محاكمة علي بن عيسى أمام الوزير ابن الفرات وبحضرة أحد القضاة، تبين أن الوزير علي بن عيسى قد كاتب قرامطة البحرين فعلاً، وكان سفيره إليهم رجلاً يدعى ابن قليجة، وهو شاهد الإثبات ضد الوزير.

ونتيجة لاتصالات علي بن عيسى بالقرامطة تمكن من فكاك أسر ثلاثة آلاف أسير من المسلمين، كانوا لديهم - وليس ثلاثين ألفاً كما زعم القاضي عبدالجبار- وأقر الوزير كذلك بأن القرامطة كاتبوه يلتمسون منه المساحي والطِّلَقْ، وأنه أجاب مطلبهم، وحجته في ذلك قوله: "أردت بهذا المصلحة، واستعادتهم إلى الطاعة بالرفق وبغير حرب"(٥٨).

وهكذا تظل تهمة الاتصال بالقرامطة تُردد في أكثر من مصدر، ولعل أخطر ما فيها هو إعطاء السلاح للقرامطة!! وهل كان القرامطة بحاجة فعلية إلى السلاح؟ ويظهر أن هجوم القرامطة على البصرة في سنة (٣١١هـ) لم

يكــن بســبب دعــوة علي بن عيسى المزعومة لهم، بل ربما كان تنفيذاً لأمر الفاطميين كما يذهب إلى ذلك أحد الدارسين(٥٩).

وإذا كــان للباحث أن يأخذ برواية الصولي عن دخول القرامطة للبصرة -وهي بلا شك رواية جديرة بالثقة- فإنــه ربما كان أحد الأسباب الوجيهة لدى القرامطة لمهاجمة البصرة هو عزل علي بن عيسى عن الوزارة وتقليــدها لعلي بن الفرات.

وهكــذا فقــد وجهت التهمة للوزير علي بن عيسى بالخيانة وممالأة القرامطة، فصودرت بعض أمواله وقضى الوزيــر ابن الفرات بنفيه إلى اليمن، -على الرغم من تبرئة القاضي له- ووكل به رجلاً من أصحابه وأمره بالاحتيال لقتله في الطريق(٦٠).

ومن المفارقات في هذه القضية أن الذي يوجه الاتهام ويصدر الحكم هو العدو اللدود للمتهم علي بن عيسى أي ابن الفرات، ويلاحظ أن الخليفة مغيبٌ فلا نكاد نسمع له قولاً في هذا ا لشأن الخطير(٦١). سوى أنه أذن لابن الفرات في إبعاد علي بن عيسى إلى مكة(٦٢).

ولدينا رواية أخرى ذات صلة مباشرة بإقالة علي بن عيسى ومهاجمة البصرة، وهي تكشف لنا في الوقت نفسه عــن مدى النفوذ الذي بلغه القرامطة وشيعتهم في دار الخلافة، يقول القاضي عبدالجبار: "... وكان بنو بسطام وبنو القاســم بن عبد الله وآل الفرات وأمثالهم يستولون على دولة المقتدر بالله، وكانوا يتشيعون فراسلوا أولاد أبي سعيد [أي الجنابي]، وقالوا لهم: أنتم خرجتم أيام المعتضد والمكتفي فلما صار الأمر إلى هذا الصبي -المقتدر- قعدتم، قوموا فنحن كتابه وأصحابه والدولة لكم ولا يوحشنكم قتل أبي سعيد وما كان منه فإن الناس قد تناسوا ذلك . فقالوا هذا الرجل علي بن عيسى رجل صالح ومادام هو الناظر فما نختار مخالفته، فلما قبض السلطان على علي بن عيسى، أطلق مــن ببغداد والكوفة من الشيعة الطيور إلى البحرين بذلك، فغزوا البصرة على غفلة وغدروا بهم أقبح غدرة، ثم غزوا الكوفة وسر بهم الشيعة، وقالوا: أبو طاهر بن أبي سعيد ولي الله وحجة الله، والمهدي بالبحرين يخرج عن قرب، وأبو طاهر خليفته وهو الذي يأخذ الأرض له ويكون ملكه بالبحرين ..."(٦٣).

هــذه الرواية التي ذكرها القاضي عبد الجبار إن كان للباحث أن يقبل بها مع بعض التحفظ فهي في واقع الأمر لائحــة اتهــام لبعض الأسر النافذة في بغداد بميولهم الشيعية وموالاتهم لأعداء الدولة من القرامطة وتآمرهم على رأس الدولــة أي الخليفة، بل إن القاضي عبد الجبار يكرر القول بأن في بغداد والكوفة وسوادها أناساً يراعون أمر المقتدر ويــنقلون أخــباره إلى أبي طاهر بن أبي سعيد(٦٤). مفاد هذا الخبر أن جواسيس القرامطة والمتعاطفين معهم من ذوي الميول الشيعية يكثرون وينشطون في العاصمة بغداد وفي الكوفة وريفها ويتصلون بأبي طاهر ويكشفــون لــه عــن أخبار الدولة وأسرارها. وهذا ما يمكن وصفه بلغة اليوم أن الجبهة الداخلية للدولة أصبحت مخترقة وأن طابوراً خامساً

يعمل لصالح العدو في أهم حواضر الخلافة.

وفي خضـــم هـــذه الأحـــداث المتلاحقة، التي تعصف بالخلافة، أتى الخبر في أول شهر المحرم سنة (٣١٢هـ) باعـــتراض أبي طاهر الجنابي طريق الحاج في "الهبير وهم في طريق عودتهم من الحج [٦٥]" إذ إن الجنابي وأصحابه أوقعوا بهم فقتلوا عامتهم وأسروا خلقاً، وأخذوا ما معهم فماتوا عطشاً وجوعاً، كما قتل كثيراً من وجوه المجتمع البغدادي، وكان جملة أصحاب الجنابي قرابة ألف وستمائة رجل[٦٦].

ويضيف عريب إلى هذا الخبر قوله: وكل من أفلت من أيدي القرامطة . أكلهم الأعراب، وسلبوا ما بقي معهم مما كان تخبأه الناس من أموالهم، ومات أكثر الناس عطشاً وجوعاً[٦٧].

ومـــاذا عن موقف الخليفة أمام هذا التحدي الخطير لسلطانه والعبث بأمن مملكته والاستهانة بحرمة حجاج بيت الله الحرام؟ !

لقـــد أمـــر الخليفة بمواجهة هذا الحادث الجلل وطلب من مؤنس الخادم القدوم من الرقة ليخرج إلى القرمطي! ووصـــل مؤنـــس أخيراً إلى بغداد في غرة شهر ربيع الأول[٦٨]. أي بعد هذه الحادثة بشهرين، ولكن من الواضح أن مؤنساً لم يفعل شيئاً تجاه هذه الكارثة.

وأمام هذه الفاجعة التي حلت بالحجاج في الهبير على يد أبي طاهر، انقلبت بغداد كما يقول ابن الأثير: واجتمع حُـــرَم المأخوذين إلى حُرَم المنكوبين الذين نكبهم ابن الفرات، وجعلن ينادين: القرمطي الصغير أبو طاهر قتل المسلمين في طريق مكة، والقرمطي الكبير ابن الفرات قد قتل المسلمين ببغداد". ثم يعلق ابن الأثير على ذلك بالقول: "وكانت صـــورة فظـــيعة شـــنيعة، وكســـر العامـــة منابر الجوامع، وسودوا المحاريب يوم الجمعة لست خلون من صفر سنة (٣١٢هـ)" [٦٩].

ويقـــدم لنا ابن مسكويه صورة عن الاتهام الذي وجهه نصر الحاجب ضد ابن الفرات أمام الخليفة المقتدر، وفيه تعلـــيل أيضـــاً لنكـــبة الحجاج في الهبير، جاء فيه: الساعة تقول: "أي شيء الآن .." بعد أن زعزعت أركان الدولة وعرضـــتها للزوال، بإبعادك مؤنساً الذي يناضل الأعداء ويدفع عن الدولة، فمن يمنع الآن هذا الرجل [أي أبوطاهر القـــرمطي] عن السرير، ومن الذي أسلم رجال السلطان وقواده وحرمه إلى القرمطي سواك[٧٠]! وقد ظهر الآن أمر العجمي الذي وجد في دار السلطان، وإنه إنما كان صاحب القرمطي ..."[٧١].

وكـــان قـــد وجد في أوائل محرم سنة (٣١٢هـ) رجلاً أعجمياً على سطح دار السر، التي كان المقتدر يكثر الجلوس فيها ومعه محبرة وأقلام وورق وحبل وسويق ومقدحة وسكين، واحضر إلى ابن الفرات فسأله عن حاله فقال لا أخاطب غير الخليفة، فضرب وهو يقول "ندانم" أي لا أعرف بالفارسية، حتى قتل بالعقوبة[٧٢].

والغريـــب أن هـــذا الفارسي المشتبه في أمره قد طلب مقابلة الخليفة ليفصح لـــه عن سبب وجوده في الدار،

ولكن ابن الفرات لم يمكنه من ذلك، بل عاقبه حتى تلف فصلب ولف على حبل(٧٣)!!

ووجود هذا الفارسي في دار الخلافة أصبح تهمة خيانة ومؤامرة على حياة الخليفة رمي بها كل من نصر الحاجب وابن الفرات صاحبه في حضرة الخليفة(٧٤).

والحقيقة، أنها ليست المرة الأولى التي يظهر فيها رجل غريب في دار الخلافة فقد حدث في سنة (٢٨٤هـ) أن ظهر شخص غريب في دار المعتضد بالثريا أكثر من مرة مما سبب الخوف والانزعاج في نفس المعتضد، ودعاه إلى إحكام السور وتشديد الحراسة حوله، ولكن لم يظفر بذلك الرجل(٧٥)!

وربما كان إدخال بعض الغرباء في قصور الخلفاء أحد أساليب رجال السياسة في ذلك العصر لابتزاز الخليفة وتخويفه. وليس من المستبعد كذلك أن يكون أولئك الغرباء الذين ظهروا في أكثر من مناسبة في قصور الخلفاء مجندين للقرامطة أو للإسماعيلية !! (٧٦).

واستجابة للغليان الشعبي احتجاجاً على تفريط ابن الفرات في حفظ الحجاج الذين أوقع بهم أبو طاهر الجنابي، وكذلك اشتطاطه في مصادرة أموال بعض الناس في بغداد، ونتيجة لضغوط كل من مؤنس وشفيع اللؤلؤي ونصر وشفيع المقتدري على الخليفة بالتخلص من ابن الفرات وولده المحسِّن، فقد وجهت إليه التهمة، ويمكن اختصارها حسب ما وردت عند عريب بأنها: "عظيم ما أحدث في الملك، وأفسد من الأمور وأتلف من الرجال ..."(٧٧) فأصدر الخليفة المقتدر أمره بقتل ابن الفرات وابنه المحسِّن، ورمي برأسيهما في دجلة.

وكان قد تم القبض على ابن الفرات وابنه في أوائل شهر ربيع الآخر سنة (٣١٢هـ)(٧٨) أي بعد ثلاثة أشهر تقريباً من نكبة الحجاج في الهبير.

ثم أُحضر أبو القاسم عبدالله بن محمد الخاقاني فاستوزر مكان ابن الفرات، وكان مؤنس الخادم هو الذي أشار به، وزين أمره وحض المقتدر على استيزاره(٧٩).

وهكذا ينفرد خادم في قصر الخلافة بترشيح الوزير الذي يناط به تصريف أمور المملكة والناس ومعاشهم، وهذا في ظل غياب مجلس استشاري بعيد عن الأهواء يشير على الخليفة بمن هو جدير بتحمل مسؤولية الأمانة !!

وبالعودة إلى علاقة قرامطة البحرين بالخلافة، نجد في بعض المصادر ما يفيد أن أبا طاهر القرمطي قد أطلق من الأسر ألفي رجل ومائتين وعشرين وخمسمائة امرأة، فأطلق منهم أبا الهيجاء عبدالله بن حمدان بن حمدون الأمير، وأحمد بن بدر عم السيدة -أي أم المقتدر- وغيرهم، وطلب من الخليفة أن يتنازل له عن البصرة والأهواز، ولكن الخليفة رفض الطلب(٨٠).

وبسبب رفض الخليفة لطلب أبي طاهر، فقد قرر الانتقام وذلك عن طريق تعطيل قوافل الحج ونهبها، وكان قد قدم في ذي القعدة من سنة (٣١٢هـ) حجاج خراسان إلى بغداد في طريقهم للحج، وكانوا مستعدين بالخيل

والسـلاح ويصـحبهم خفارة يقدر عددها بستة آلاف إضافة إلى ألف رجل من بني شيبان بقيادة جعفر بن ورقاء الشـيباني أمير الكوفة، وكان الجنابي قد كمن لقوافل الحجاج بالقرب من "زبالة"[٨١] وصارت المناوشة بين الفريقين، وتخلص ابن ورقاء بنفسه، وقُتِل خلق من الجند ممن كان معه وترك الحاج المتسرعة خيلهم وتفرقوا راجعين إلى الكوفة واتبعهم القرمطي حتى الكوفة وقتل خلقاً من الجند وغيرهم وانهزم الباقون إلى بغداد وأقام القرمطي بالكوفة أياماً وأخذ كثيراً من أهلها وأسرهم أصحابه .. ورحل إلى البحرين بعد أيام[٨٢].

وكان كل ما فعله الخليفة أمام هذا التحدى القرمطي لسطانه أن بعث جيشاً إلى الكوفة لإخراج أبا طاهر منها بلغت النفقة عليه كما قيل ألف ألف درهم، ولكن لم يجد نفعاً إذ إن القرمطي قد رحل إلى بلاده[٨٣].

ونتـيجة لهـذه الوقعة فقد بطل الحج من العراق هذا العام[٨٤]. وفي شهر رمضان سنة (٣١٣هـ) قبض على الوزيـر عـبد الله بن محمد الخاقاني ووكل به في منزله، فكانت ولايته ثمانية عشر شهراً[٨٥]، وكان من أسباب عزله اعتلال صحته والأزمة المالية الخانقة التي لم يستطع أن يجد لها حلاً[٨٦].

وقـد أشار إلى ذلك عريب في قوله: "ومما أوهن أمر الوزير وكرّهه إلى الناس غلاء الأسعار في زمانه ولم يكن عنده حيلة يكثّر بها ورود الميرة إلى بغداد"[٨٧]. ومن ثم رُشح الخصيبي للوزارة بدلاً عن الخاقاني، والذي قام بالترشيح هذه المرة لهذا المنصب الخطير بعض نساء القصر!!

فقـد جـاء في روايـة لابن مسكويه أن مؤنساً أشار على المقتدر باستحضار علي بن عيسى وتقليده الوزارة فاستبعد المقتدر ذلك. -لأن علياً كان في المغرب آنذاك- فأشارت السيدة أي والدة المقتدر والخالة. أي أختها ؟- بأبي العباس الخصيبي[٨٨].

أمـا رواية عريب فهي تختلف بعض الشيء، وتؤكد على دور القهرمانة ثمل في ترشيح الخصيبي للوزارة، قال: "... وظهـر مـن أمر الوزير عبد الله بن محمد ما ظهر -أي العجز عن العمل-، وتكلموا في عزله وشاوروا في رجل يصلح للوزارة مكانه، فمالت ثمل -وكانت متمكنة من المقتدر- برأيها وعنايتها إلى أحمد الخصيبي، وكان يكتب لأم المقتدر، وساعدها نصر على ذلك حتى تم له وصح عزم المقتدر عليه"[٨٩].

وهكذا يتبين من مجريات الأحداث أن الخليفة وهو رأس الدولة ليس له دور ملحوظ فيمن يلي أمر الوزارة على الـرغم مـن خطورته، حيث إن الذي يختار ويتخذ القرار هي القهرمانة ثمل أو أم الخليفة وخالته أو بعض القادة من العناصر الأجنبية - مثل مؤنس أو نصر .

يحدث مثل هذا التصرف والبلاد لازالت تعاني من الصدمة التي تركتها الأعمال الوحشية للقرامطة في زبالة وفي نهب الكوفة، قبل بضعة أشهر مضت.!

والآن رب سائل يسأل ما الصفات التي كانت تميز الخصيبي عن سواه حتى يكون المرشح المفضل للوزارة ؟ ! ما من شك في أن أهم صفة كان يتصف بها في نظر من رشحه للوزارة أنه كان كاتباً للسيدة أم المقتدر[٩٠]. أما صفاته الأخرى فكان يواصل شرب النبيذ بالليل والنوم بالنهار في أيام وزارته كلها، وإذا كان مخموراً لا فضل فيه للعمل. جعل رد الكتب الواردة وقراءتها والتوقيع عليها إلى نوابه وأهمل الاطلاع عليها، فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم[٩١]. وهابه الناس لموضعه من الخليفة، ومن السيدة وثمل القهرمانة، لكتابته لها ولأن ضياع السيدة تحت يده[٩٢]. ولكن الأمور على كل لم تصفُ للخصيبي، "ولم يكن للناس في هذا العام -أي (٣١٣هـ)- موسم حج لتغلب القرامطة على البلاد، وقلة المال وضيق الحال، فطولب بالأموال قوم لا حجة عليهم إلا لفضل نعمة كانت عندهم، وألح الوزير على الناس في ذلك حتى طلب امرأة المحسِّن ودولة أم علي بن محمد بن الفرات وابنة موسى بن خلف وغيرهم، وكثَّر الناس في ذلك وأنكروه غاية الإنكار"[٩٣]. وتمنى الخصيبي أنه لم يكن دخل في الوزارة، وجعل أمره يضعف كلما قل مال المصادرين[٩٤]. وجاء عند ابن مسكويه قوله: "وكثرت الأراجيف بالخصيبي وأنه مصروف عن الوزارة لأنه حمار لا يحسن شيئاً غير المصادرات واللعب وأن الأمور كلها ضائعة والمهمات واقفة ..."[٩٥]وأخيراً في شهر ذي القعدة سنة (٣١٤هـ) عُزل الخصيبي عن الوزارة، وكان سبب ذلك الضائقة المالية مما سبب توقف أمور الدولة، أو كما يقال: "وتوقفت أمور السلطان لذلك"[٩٦].

ونظراً لاشتداد الأزمة المالية وظهور عجز الخصيبي، قبض عليه يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة (٣١٤هـ)،وعلى ابنه معه وأسبابه، فكانت مدة وزارته أربعة عشر شهراً[٩٧]. واستوزر مكانه علي بن عيسى الذي كان بالمغرب متولياً للأشراف، واستخلف له عبيدالله بن محمد الكلواذي إلى حين قدومه[٩٨].

وبعد أقل من ثلاثة أشهر من إقالة الخصيبي واعتقاله، قدم علي بن عيسى بغداد في الخامس من شهر صفر سنة (٣١٥هـ)، ومثل بين يدي الخليفة في منتصف صفر تقريباً، فاستعفى منه منصب الوزارة، فلم يعفه[٩٩].

وعلى الفور باشر علي بن عيسى مهام وزارته وظهر حزمه وأمانته، قال عنه الصولي وهو شاهد عيان: "وضبط علي بن عيسى الأمر جهده وطاقته، ونظر ليله ونهاره، وجلس للمظالم كل يوم ثلاثاء . ودعته الضرورة في قلة المال إلى الإخلال في بعض الإقامات [في طريق مكة وغيرها] لأنه كان لا يأخذ مال أحد ولا يظلم كظلم غيره، ولا يسأل عن مستتر ولا يسمع من صاحب خبر، فأمن أصحاب السلامة في أيامه، وقطع الزيادات والتعلل وتحفظ من أن تجري عليه حيلة"[١٠٠].

وفي هذه الأثناء وصلت الأخبار إلى بغداد أن أبا طاهر القرمطي خرج من هجر قاصداً العراق، فأمر المقتدر ابن أبي الساج بالخروج لحربه وأمر علي بن عيسى عمال الكوفة بإعداد الميرة لابن أبي الساج[١٠١].

وسار ابن أبي الساج من واسط قاصداً الكوفة في آخر ليلة من رمضان، ولكن أبا طاهر القرمطي سبق ابن أبي

الساج إلى الكوفة، وأخذ ما أُعد ليوسف من الميرة وهو مائة كر[١٠٢] دقيقاً وألف كر شعير[١٠٣]، وكان قد فني ما مع الجنابي من الميرة والعلوفة فقووا بما أخذوه[١٠٤].

ووصـــل يوسف بن أبي الساج إلى الكوفة بعد وصول القرمطي بيوم واحد فحال بينه وبينها، فلما وصل إليهم أرســـل يدعوهم إلى طاعة المقتدر، فإن أبوا فموعدهم الحرب؛ فقالوا: لا طاعة علينا إلا لله تعالى والموعد بيننا للحرب بكرة غد[١٠٥].

وهكذا في يوم السبت التاسع من شوال سنة (٣١٥هـ) وقع القتال في ضواحي الكوفة بين الطرفين، فأسر ابن أبي الســـاج، واصطلِمَ عسكره كما يقول المسعودي وأُتي على أكثر من (٣٠٠٠٠) ألف فارس وراجل مع من تفرق من أصحابه عنه في الطريق وتأخرهم عنه وصاحب البحرين في نحو من ألفين من المقاتلة أكثرهم رجاله[١٠٦].

وكـــان لهذه الوقعة بالجيش العباسي أثرها النفسي الكبير على سكان العاصمة بغداد كما يقرر ابن الأثير، فقد خـــاف الخـــاص والعـــام من القرامطة خوفاً شديداً، وعزموا على الهرب إلى حُلوان وهمذان، ودخل المنهزمون بغداد أكثرهم رجالة، حفاة، عراة[١٠٧].

وبغـــض النظر عن العدد الصحيح للجيش العباسي في تلك الوقعة إلا أن المقارنة بين الفريقين تبقى كبيرة جداً، وإن كـــان لابـــد من تفسير مقبول لهذه الهزيمة النكراء، فلا يستبعد أن للروح المعنوية أثر كبير في نفوس المقاتلين وأن الغـــرور والغطرســـة والاستهانة بالعدو التي كان يتصف بها يوسف بن أبي الساج وجنوده كما تشير المصادر[١٠٨]، كانت من العوامل الحاسمة في تقرير مصير الحرب. وليس من المستبعد كذلك أنه ربما كان للخيانة في صفوف الجيش العراقي نصيب فيما حدث !

وبعد وقعة الكوفة سار القرامطة نحو عين التمر ومن ثم الأنبار واستولوا عليها، وخرجت قوات عباسية إضافية بقيادة نصر الحاجب فبلغ الجيش العباسي كما تذكر بعض المصادر نيفاً وأربعين ألف مقاتل[١٠٩]! وتقدم القرامطة غير مـــبالين بالجيوش العباسية حتى أصبحوا على بعد فرسخين من بغداد حيث وجدوا قنطرة نهر زبارا قد قطعت فتوقف زحفهم نحو بغداد[١١٠].

وأدرك أهل بغداد الفزع والخوف من دخول القرامطة مدينتهم فاكترى كثيراً منهم سفناً، ونقلوا إليها أموالهم، وفيهم من نقل متاعه إلى واسط وإلى حُلوان ليسيروا إلى خراسان[١١١].

وقصـــد القرامطة هيت، فلما بلغوها كان عسكر الخلافة قد سبقهم إليها، وكان المؤرخ المسعودي في هيت في ذلك الوقت قادماً من الشام قاصداً بغداد، يقول: فواقع [الجنابي] أهل هيت يوم الأحد لثمان خلون من ذي الحجة [أي سنة ٣١٥هـــ] فكان القتال بينه وبين جيش الخلافة على أسوار المدينة فاحترقت له عدة دبابات، وارتحل عنها يوم الاثنين[١١٢]. وبالرغم من ذلك فلم يحج في هذه السنة أحد من العراق وخراسان خوفاً من القرامطة[١١٣].

لذلـــك سكنت نفوس الناس ببغداد واستبشروا بهذا الظفر وتصدق المقتدر بمائة ألف درهم شكراً لله على هذا النصر المؤقت[١١٤].

وفي الحقـــيقة أن النجاح الذي حققه بعض القادة العباسيين مثل: هارون بن غريب الخال وسعيد بن حمدان في صد الهجوم القرمطي على هيت لم يكن يعني نجاح الخلافة في السيطرة على أوضاعها الداخلية والخارجية.

فمن ناحية الجيش العباسي يظهر أنه كان يعاني من قلة الانضباط وعدم صدق الولاء للخلافة وإلا فكيف يمكن لألفـــين وخمس مائة من القرامطة أن يهزموا جيشاً يزيد على الأربعين ألفاً !![١١٥]. وإن كان للمرء أن يصدق ما قيل عن تقدير الخليفة المقتدر للجيش فهو ضعف العدد المشار إليه؛ قالوا: "لما علم المقتدر بعدة عسكره وعسكر القرامطة، قال "لعن الله نيفاً وثمانين ألفاً يعجزون عن ألفين وسبعمائة"[١١٦].

لذلـــك فلـــيس من المستبعد أن هناك مبالغة كبيرة في حجم جيش الخلافة، وليس من المستبعد كذلك أنه كان يضم بين أفراده أعواناً للقرامطة، وهو احتمال ليس ببعيد كما يرى أحد الباحثين[١١٧].

وربمـــا يقـــوي هـــذا الاحتمال العثور على جاسوس شيرازي في بغداد كان يتجسس لصالح أبي طاهر الجنابي ويكاتبه، فأحضر إلى الوزير علي بن عيسى فأقر أنه من أصحاب أبي طاهر وأنه لم يتبعه إلا لحق رآه معه، وقال مخاطباً الوزيـــر: "لســـنا كالرافضة الحمقى، الذين يدعون إماماً منتظراً وإمامنا فلان بن فلان بن إسماعيل بن جعفر، فأمر به فحبس بعد الضرب، وامتنع عن الطعام ومات بعد ثلاثة أيام[١١٨]. هذا جاسوس واحد وربما أن بغداد وجيش الخلافة كانا يعجان بالكثير من الجواسيس القرامطة.

وفي هذه الأثناء كانت التهمة تحوم حول يوسف بن أبي الساج قائد الجيش الذي أسره الجنابي وقتله بالأنبـــار في أثناء العام نفسه، لقد اتهمه كاتبه وأمين سره محمد بن خلف النيرماني[١١٩] بأنه لا يرى عليه طاعة للخليفة العباسي "المقتدر" ولا لبني العباس على الناس طاعة وأن الإمام المنتظر هو العلوي الذي بالقيروان وأن أبا طاهر الهجري صاحب ذلك الإمام وأنه صح عنده أنه [أي ابن أبي الساج] يتدين بدين القرامطة ... "في حديث طويل[١٢٠]. إن كان القبول بهذه الرواية ممكناً فهي تظهر عدم إخلاص ابن أبي الساج للخلافة العباسية ولكنها لا تعني بالضرورة اعتناقه للإسماعيلية أو مذهب القرامطة . إذ إن مثل هذه التهم يروج سوقها في أوقات الاضطرابات وفي المنافسة بين الخصوم.

ومـــن المفارقات أنه في الوقت الذي كان فيه أبو طاهر الجنابي وأتباعه يعيثون فساداً في أنحـــاء مختلفـــة مـــن العـــراق، كانـــت الشـــائعات تتحدث عن السيدة أم الخليفة والمؤامرة التي تعدها لاغتيال أحد أبرز القادة في الجيش العباســـي ألا وهـــو مؤنس المظفر[١٢١]، وقبل ذلك بستة أشهر أي في ربيع الأول من العام نفسه (٣١٥هــ)، كانت الشـــائعات قـــد سرت كذلك حول مؤامرة الخليفة على حياة مؤنس المظفر، مما حدا بالجيش إلى التخلي عن الخليفة والالـــتفاف حـــول القائد مؤنس والوقوف بجانبه، مما دفع بالخليفة أخيراً إلى نفي التهمة عن نفسه والاعتذار لمؤنس وتطييب خاطره[١٢٢].

والســـؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يمكن لرجال الدولة أن يفرغوا أنفسهم ويتصدون لأعداء الوطن وهم غير آمنيين على أنفسهم من غدر رأس الدولة التي يدافعون عنها؟

وبكـــلمة أخـــرى يمكـــن القول إن جبهة العراق الداخلية كانت في تلك الظروف العصيبة مفككة والولاءات مشـــكوك فيها، والشائعات والمؤامرات كانت السمة الظاهرة في مجتمع العاصمة العباسية. لذلك فلا عجب أن ينجح أبو طاهر الجنابي في الاستفادة من هذه الظروف واستغلالها لصالحه، إذ شعر أن الدولة مشغولة بنفسها عن أعدائها!

ومما زاد الأمر سوءاً أن خزانة الدولة أصبحت شبه فارغه، ولعل هذا كان أحد الأسباب التي أضعفت من قدرة الدولة على مطاردة قوات القرامطة وصد خطرها عن أنحاء العراق المتفرقة.

ويمكـــن إدراك إفلاس خزينة الدولة من خلال مخاطبة الوزير علي بن عيسى للخليفة بقوله:"... إنما جمع الخلفاء الأمـــوال لـــيقمعوا بها الأعداء، و لم تلحق المسلمين مضرة كهذه من هذا الكافر الذي أوقع بالحاج سنة اثنتي عشرة وثلثمائة و لم يبق في بيت الخاصة شيء فاتق الله يا أمير المؤمنين، وخاطب السيدة حتى تطلق ما عندها من مال أدخرته لشديدة، فهذه أمها، وإن لم يكن هناك شيء فالحق خراسان"[١٢٣].

ومن ثم دخل المقتدر على السيدة والدته وأطلعها على جلية الأمر فأعطته خمسمائة ألف دينار[١٢٤]. هذه الصورة تـــبين إلى أي مدى وصلت حالة الدولة المالية من التدهور، وتظهر في الوقت نفسه مدى استحواذ والدة الخليفة على الثروة لدرجة أن يحتاج الجيش إلى عونها المادي.

وفي أثـــناء ســـنة (٣١٦هـــ) كان أبو طاهر القرمطي لا يزال يعيث فساداً في أرجاء العراق يشيع فيها الخراب والدمـــار، فقد أوقع بأهل الرحبة[١٢٥] وقتل منهم مقتلة عظيمة ووجه بسرية إلى ديار ربيعة فأوقعت ببوادي الأعراب واســـتباحتها، كما زحف إلى الرقة فقاومه أهلها مقاومة عنيفة. ورهبته الأعراب أو كما يقول الهمذاني: "حتى كانوا يتطايرون عند سماع ذكره". وجعل على كل بيت منهم ديناراً بعد أن نهبهم[١٢٦].

أمام فشل الجيش العباسي في مواجهة القرامطة ووضع حد لهجماتهم على المدن العراقية إضافة إلى الضائقة المالية التي تعاني منها الدولة، شعر الوزير علي بن عيسى بالعجز التام عن تسيير أمور الخلافة كما يجب، لذلك قدم استقالته للخلـــيفة الذي قبلها بعد تردد[١٢٧]. ثم ما لبث أن أمر باعتقاله، وكان الوزير يتوقع هذا المصير فقد لبس خفاً وعمامة وطيلساناً واستصحب مصحفاً ومقراضاً[١٢٨] فأخذ إلى دار السلطان، فاعتقل في دار زيدان القهرمانة[١٢٩] وكان ذلك في النصف من شهر ربيع الأول سنة (٣١٦هـــ)[١٣٠].

ثم مـــا لبـــث أن وجهت إلى الوزير تهمة الخيانة وأنه كان بينه وبين أبي طاهر زعيم قرامطة البحرين اتصالات مشـــبوهة. فقد أدعى عليه نصر الحاجب؛ أنه وجد رجلاً يعرف بنصر الجوهري أقر أنه صاحب القرمطي وأنه جعله سفيراً بينه وبين علي بن عيسى، وحكى عنه أن علي بن عيسى كان يكاتب القرمطي على يده[١٣١].

ولكن السيدة والدة المقتدر تدخلت هذه المرة لصالح الوزير، وبحثت عن حقيقة التهمة، فاكتشفت بطلانها، ومن ثم أقنعت ابنها الخليفة ببراءته[١٣٢]. وكان الخليفة قد عزم على ضرب علي ابن عيسى على باب العامة[١٣٣].

وكان سبب تلفيق هذه التهمة ضد الوزير كما يقول الهمذاني عداوة بين نصر الحاجب والوزير ولعلاقة الوزير الطيبة مع مؤنس. وهكذا فالعلاقات الشخصية أحياناً تلعب دورها الحاسم إيجاباً وسلباً في مصير الدولة العباسية في تلك الفترة الحرجة من تاريخها[١٣٤].

أما الذي خلف الوزير علي بن عيسى في الوزارة فهو علي بن مقلة[١٣٥]، اضطراراً حسب رأي الهمذاني، وذلك بمشورة نصر الحاجب[١٣٦] !! وكان قد رشح نفسه لهذا المنصب محمد بن خلف النيرماني وبذل في سبيل ذلك أي الوزارة ثلثمائة ألف دينار فلم تقبل منه، لما عرف عنه من الجهل بالكتابة والتهور في الأفعال[١٣٧].

وهكذا فتعيين الوزير الذي يتولى إدارة البلاد يتم بترشيح من أحد أفراد الحاشية المحيطة بالخليفة كالحاجب مثلاً أو في أحيان أخرى يتوقف الترشيح لذلك المنصب الخطير على مقدار ما يدفعه المرشح من مال لقاء الفوز بالوزارة.! ويظهر من ذلك كله أن الخليفة ليس له رأي فيما يحدث، وليس له مجلس مشورة من ذوي الحجى والرأي يوجهونه لما فيه خير الأمة!!

في هذه الأثناء كان أبو طاهر الجنابي لا يزال يوالي حملاته المروعة في أنحاء متفرقة من العراق ويشيع الرعب والفزع في الكثير من أرجائه . مما أغرى من بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة فيكتمه خوفاً، إلى الظهور العلني وتحدى السلطة، فاجتمع منهم بسواد واسط والكوفة أكثر من عشرة آلاف رجل، عرفوا بالبقلية[١٣٨]، وولوا أمرهم رجلاً يدعى حُريث بن مسعود، وظهرت منهم طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها في جمع كثير وولوا أمرهم شخصاً يدعى عيسى بن موسى، وهو ابن أخت عبدان الملقب قرميط، وكانوا يدعون إلى المهدي، -المهدي الفاطمي في تونس-. وكان أتباعهم خليطاً من القبائل العربية من بني ذهل وبني رفاعة وعبس وغيرهم[١٣٩]. فسار عيسى بن موسى إلى الكوفة وجبى خراجها وصرف العمال من السواد، وسار حريث بن مسعود إلى أعمال الموفقي، وبنى بها داراً سماها دار الهجرة، فكانوا ينهبون ويسبون ويقتلون[١٤٠] وأخذوا الجزية ممن خالفوهم[١٤١].

وبعد عدة مصادمات مع جيش الخلافة أُلحقت بهم الهزيمة، وحُمل إلى بغداد مائتا أسير، كما أدخلت أعلامهم بغداد منكوسة، مكتوباً عليها: الآية الكريمة: ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ (القصص: ٥)

واللافت للنظر أن هذه الآية الكريمة، قد رفعها الزنج شعاراً لهم في جنوب العراق قبل أكثر من نصف قرن، وقد لقيت هوى في نفوس الكثيرين من سكان جنوب العراق إذ إنها تعبر عن تطلعاتهم نحو حياة أفضل ومستقبل واعد.!

ومـــن الواضـــح كذلك أنها وجدت لها صدى عميقاً في نفوس أتباع الحركة القرمطية في سواد العراق، حيث ترســـخت الدعوة بينهم واستجاب لها الكثير منهم وحسبنا شهادة على كثرتهم في سواد العراق ما ذكره الطبري عن انتفاضـــتهم في ســـنة (٢٨٧هـــ)، فذكر أن غلاماً الطائي -أحد القادة العباسيين- قد قتل منهم "مقتلة عظيمة، ثم تركهم خوفاً على خراب السواد، إذ كانوا فلاحيه وعماله ..."[١٤٢].

وهكذا يظهر من هذه الإشارة أن أغلبية سكان السواد قد اعتنقوا الدعوة القرمطية حتى إن ولاة الأمور خشوا عـــلى خـــراب جنوب العراق إذا ما مضوا في معاقبة سكانه . وما من شك في أن القبول الواسع الذي لقيته الدعوة القرمطـــية في الســـواد هو مؤشر على تردي الأوضاع الاجتماعية والمعاشية بين الناس هناك[١٤٣]، مما جعلهم يتعلقون بدعوة تقدم لهم الكثير من الوعود والآمال في التغيير الاجتماعي والاقتصادي إلى مستوى أفضل. ولكن ليس بالضرورة كذلـــك القول إن سرعة انتشار الدعوة القرمطية في أرض السواد يعني أن الناس هناك قد اقتنعوا بالمبادئ الدينية التي تقوم عليها ؛ ولكنهم ربما قبلوا بها كمخرج من الأزمة الاجتماعية والمعاشية التي يعانون منها.!

عـــلى كـــل حال، يظهر أن أبا طاهر الجنابي قد أطال المكث في العراق في هذه السنة أي سنة ٣١٦هـــ حيث مكـــث في الرحبة وحدها نحواً من سبعة أشهر حسب رواية المسعودي[١٤٤]، و لم يغادرها إلا في أول شعبان من السنة نفسها وفي طريق عودته إلى البحرين هاجم هيت ثانية، وعاود مهاجمة نواحي الكوفة والقادسية[١٤٥]. وبالرغم من هذا كلـــه لم نســـمع للجيش العباسي أية مواجهة حاسمة مع قوات أبي طاهر! وربما يعود ذلك إلى انشغال جيش الخلافة بتحركات قرامطة السواد بزعامة مسعود وعيسى[١٤٦] في العام نفسه. ويذكر ابن الجوزي أن أبا طاهر الجنابي عاد إلى بلـــده في ســـنة (٣١٦هـــــ) وابتنى بها داراً سماها "دار الهجرة" ودعا إلى المهدي الذي ببلاد المغرب[١٤٧]. بينما نجد المســـعودي وهـــو مـــؤرخ معاصر لتلك الأحداث يؤرخ لعودة الجنابي إلى البحرين في أواخر المحرم وأول صفر سنة (٣١٧هـــ)[١٤٨] وهي رواية جديرة بالثقة .

وهذا يعنى أن انسحاب الجنابي من العراق ربما استغرق نحواً من ستة أشهر بدءاً من أول شعبان سنة (٣١٦هـــ) وانتهاءً بأول صفر سنة (٣١٧هـــ) حسب رواية المسعودي[١٤٩].

وعلى الرغم من القضاء على تحركات قرامطة السواد وكذلك انسحاب أبي طاهر من العراق، إلا أن الأمور في بغـــداد أخذت تزداد سوءاً، حيث كانت تسير في غير صالح الخليفة، وربما يعود شطر منها للتنافس المرير على السلطة بين هارون بن غريب الخال -ابن خال المقتدر-، ومؤنس المظفر حيث سرت شائعة في بغداد مفادها أن الخليفة المقتدر قـــد بـــايع لهارون بإمرة الأمراء، فعظم ذلك على أصحاب مؤنس، وكتبوا إليه بذلك وهو بالرقة، فأسرع العودة إلى بغداد، و لم يسع لمقابلة الخليفة[١٥٠]!

ومـــن هنا بدأت تتأزم الأمور بين الخليفة وقائد الجيش، حيث إن مؤنساً نصب له معسكراً في إحدى ضواحي

بغداد والتف الجند حوله، وانقضت السنة سنة (٣١٦هـ) والأمر على هذه الحال[١٥١].

وفي يوم السبت الثالث من محرم من السنة التالية سنة (٣١٧هـ) ومن معسكره بالشماسية أرسل مؤنس خطاباً إلى الخليفة المقتدر يذكر فيه: أن الجيش عاتب منكر للسرف فيما يطلق باسم الخدم والحُرَم من الأموال والضياع، ولدخولهم في الرأي وتدبير المملكة ويطالبون بإخراجهم من الدار ... [١٥٢].

ثم إن المقتدر أجاب مؤنساً بخطاب طويل دافع فيه عن سياسته، وأخيراً صار الاتفاق بين الطرفين على إخراج هارون بن غريب الخال عن بغداد، فوجهه الخليفة من يومه إلى الثغور الشامية والجزرية[١٥٣]. وعلى الرغم من التنازلات التي قدمها الخليفة لقادة الجيش وإخراج ابن خاله هارون بن غريب الخال في مهمة عسكرية، إلا أن الأمور لم تجر على ما يحب الخليفة فقد عاد مؤنس والجيش إلى بغداد في العاشر من محرم (٣١٧هـ)، "يوم عاشوراء"، وقد أعدوا العدة للانقلاب على الخليفة. حيث زحفوا إلى دار السلطان، وهرب منها أعوان الخليفة وأهل ثقته، وأُخرج هو ووالدته وحرمه ليلاً إلى دار مؤنس، وبويع لمحمد بن المعتضد بالخلافة، ولقب بالقاهر بالله[١٥٤]. ونهب الجند الدار ومحوا رسوم الخلافة وهتكوا الحرمة[١٥٥].

وبعد يومين من هذا الانقلاب ما لبث الجند وقادتهم أن انقلبوا على الخليفة الجديد بسبب عدم وفائه لهم بدفع مستحقاتهم المالية "الرزق" نظراً للعجز المالي الذي تعاني منه خزانة الدولة، ثم أُعيد تنصيب المقتدر خليفة مرة أخرى وجددت له البيعة[١٥٦]. ومقابل ذلك فقد تعهد المقتدر على نفسه أمام الجند بقوله: "لكم عليَّ أرزاق أربعة أشهر، وزيادة خمسة دنانير لكل واحد منكم ؛ وما عندي ما يفي بهذا، ولكني أبيع ما بقي من ثيابي وفرشي وأبيع ضياعي وضياع من يجوز عليه أمري " فبايعه الناس بيعة مجددة واجتهد في توفية ما ضمن لهم[١٥٧]. حتى إنه اضطر في سبيل ذلك إلى صرف أواني الذهب والفضة، ثم أعجلوه عن صرفها فكان يزنها لهم مكان الدنانير والدراهم ... ويستمر عريب في حديثه عن الأزمة المالية الخانقة ومحاولة الخليفة المقتدر الوفاء بما شرطه على نفسه للجند، فيقول: "... ولم يف مال المقتدر والآنية التي أحضرها بأرزاق الجند، فأمر بارتجاع ما كان أقطعه الناس من الأموال والمستغلات، وأفرد لها ديواناً... وسُمي ديوان المرتجعة"[١٥٨].

ومن اللافت للنظر هنا أن الخليفة يضطر لبيع أمتعته الشخصية نظراً لعدم وجود المال اللازم في بيت المال لفداء نفسه وتسيير الأمور العامة للدولة، بينما في خلال هذه الأزمة عثر أحد الرجال الموالين للقاهر حين الانقلاب ضد المقتدر على ستمائة ألف دينار للسيدة، والدة المقتدر، مدفونة في تربتها[١٥٩]! هذا مدفن واحد تم العثور فيه على هذا المبلغ، فما بالك ببقية المدافن؟

ومما تجدر ملاحظته بهذا الخصوص أن الانقلاب على الخليفة المقتدر كان بسبب التنافس بين كبار القادة على مراكز القوة في دار الخلافة، إضافة إلى تبرم الجيش من التلاعب بالثروة والأموال العامة للدولة وتدخل الخدم والنساء

في شـــئون الحكم، وصرف القاهر عن الخلافة بعد يومين من تنصيبه نظراً لعجزه عن معالجة أمر أرزاق الجند، لذلك أعاد الجند المقتدر مرة أخرى إلى كرسي الخلافة لا حباً فيه بل ظناً منهم بأنه القادر على معالجة هذه الأزمة سيما وأن السـيدة والدته "شغب" كانت تحتجن ثروة كبيرة، فربما ظن الجند أن إعادة المقتدر للخلافة سيشجـع والدتـه على المشاركة في حل المأزق المالي وصرف أرزاق الجند.

ورب سـائل يسـأل عـن محمد بن المعتضد الذي لقب بالقاهر، من أين جاء ؟ أو من أين جيء به لتولي أمر الخلافة؟

في الحقـيقة أنه كان ببغداد في ذلك الوقت داراً تعرف بدار ابن طاهر، هي مستقر أولاد[١٦٠] الخلفاء، أو على وجـه الحقـيقة مستودع أبناء الخلفاء، تقوم عليها حراسة شديدة وإدارة صارمة من قبل كبار قادة الأتراك، فمتى ما أرادوا اسـتبدال خليفة بآخر أرسلوا لإدارة هذه الدار بطلب من يريدونه مرشحاً للخلافة ! وهكذا يتم تعيين خليفة المسـلمين وفق الشروط والضوابط التي تتوافق مع مصالح هؤلاء الأجانب من القادة، أما مصلحـة الأمـة فتأتي في المرتبة الأخيرة. !

وقـد أدرك المقتدر هذا الوضع بعد أن أُعيد للخلافة وأُحضر القاهر بين يديه وصار يتوسل إليه في الإبقاء على حياته حيث خاطبه بقوله: "يا أخي قد علمت أنه لا ذنب لك، وأنك قهرت ولو لقبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر ..."[١٦١]. فالمقتدر يعلم أنه لا هو ولا أخوه ولا غيرهما من أبناء البيت لهم الخيرة من أمرهم فيما يتعلق بأمر الخلافة، إذ إنهـم مجـرد دمـى يؤتـى بهم إليها ويبعدون عنها حسب ما تقتضيه ظروف التنافس بين كبار القادة. ولعل هذا الاستطراد يلقي شيئاً من الضوء على حقيقة القوة التي كان يتمتع بها الخليفة العباسي ومؤسسة الخلافة برمتها في أثناء الصراع مع قرامطة البحرين.

وفي المقـابل فـإن قرامطة البحرين تجمعهم قيادة واحدة متمثلة بأبي طاهر سليمان الجنابي، تساعده في الإدارة ورسـم الخطط وتنفيذها جماعة استشارية مؤلفة من ستة وزراء[١٦٢]، وقد تسلم القيادة في ذلك المجتمع بدءاً من سنة (٣١٠هـ)[١٦٣] وحتى وفاته في سنة (٣٣٢هـ)، و لم يظهر في تلك الفترة من ينازعه الزعامة من أبناء أسرته.

٥ – الهجوم القرمطي على مكة (٣١٧هـ):

وفي ظـل هذا الصراع على مراكز القوة والنفوذ في دار الخلافة والفوضى العارمة في صفوف الجيش العباسي، قرر أبو طاهر استثمار هذا الوضع المزري الذي تمر به بغداد بتوجيه الضربة الموجعة لرمز المرجعية الدينية التي تعتـز بها الخلافة العباسية كما يعتز بها المسلمون في كافة أصقاع الأرض ألا وهو غزو مكة واستباحة البيت العتيق. !! وقد ترك لنا المسعودي وهو مؤرخ معاصر لذلك الحدث وصفاً دقيقاً لتلك الفاجعة، قال: "ثم سار إلى مكة فدخلها يوم الاثنين لسبع خلون من ذي الحجة من هذه السنة أي [٣١٧هـ] في ستمائة فار س وتسعمائة راجل، وأميرها يومئذ محمد

ابـــن إسماعيل المعروف بابن مخلب بعد أن كان من بها من الأولياء وغيرهم من عوام الناس من الحاج وغيرهم صافوه انكشفوا من بين يديه عند قتل نظيف غلام ابن حاج. وكان من شحنة مكة وممن يعـــول عليـــه وأخذ الناس السيف وعـــاذوا بالمسجد والبيت. فاستحر القتل فيهم وعمهم . وقد تنوزع في عدة من قتل من الناس من أهل البلد وغيرهم مـــن ســـائر الأمصار فمكثر ومقلل، فمنهم من يقول ثلاثين ألفا ومنهم من يقول دون ذلك وأكثر. وكل ذلك ظن وحســـبان إذ كان لا يضبط وهلك في بطون الأودية ورؤوس الجبال والبراري عطشاً وضـــرا ما لا يدركه الإحصاء واقتلع باب البيت الحرام. وكان مصفحا بالذهب وأخذ جميع ما كان من البيت مـــن المحاريب الفضية، والجزع وغيره ومعاليق وما يزين به البيت من مناطق ذهب وأنازيرات ذهب وفضة وقلع الحجر الأسود ومقدار موضعه ما يدخل فيه الـــيد إلى أقل من المرفق. وجرد البيت مما كان عليه من الكسوة. وحمل ذلك على خمسين جملا إلا ما أصابه الدم عند عوذ الناس به فإنه ترك. وذلك يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة (٣١٧هـــ)"[١٦٤].

وعـــلى الرغم من شمولية التقرير الذي قدمه المسعودي عن هذه الكارثة التي حلت ببيت الله العتيق وحجاجه، وعلى الرغم كذلك من معاصرة المسعودي لما حدث إلا أن التقرير جاء خلواً من بعض المعلومات التي يجدها الباحث في بعض المصادر الأخرى، والتي يمكن أن تساعد على فهم ما حدث.

فمن ذلك ما جاء عند القاضي عبد الجبار في وصف طويل لتلك الحادثة يمكن الإشارة إلى شيء منه هنا، قال: "وأبو حفص عمر بن زرقان صهر أبي سعيد واقف حذاء البيت والسيف يأخذ الناس ... ثم قال: ما آمنهم من خوفنا، ظهـــر الـــباطن يا أهل مكة، حجوا إلى البحرين، وهاجروا إلى الأحساء من قبل أن نطمـــس وجوهاً فنردهـــا على أدبارهـــا"[١٦٥]. وجاء عند الهمذاني رواية عن الخليفة المقتدر بسنده .. قال: إن أبا طاهر وبين يديه خمسون يضربون الرقاب فقتل من الحجيج نحو عشرة آلاف وهو يقول:

ولو كان هـــذا البيت بيتاً لربنـــا	لصبّ علينا النار من فوقنا صبـــا
وإنا تركنـــا بين زمـــزم والصفـــا	جنائز لا نبغي سوى كسبها ربـــا

ولـــيس مـــن المستبعد أن هذه الأبيات منحولة على أبي طاهر القرمطي حيث كثر الشعر المنسوب إليه في تلك المناسبة[١٦٦].

وجاء في رواية أخرى عند أبي العلاء المعري قوله عن أحد رواته: "كنت بمكة وسيف" الجنابي "قد أخذ الحاج، ورأيـــت رجلاً منهم قد قتل جماعة وهو يقول: يا كلاب، أليس قال لكم "محمد" المكي: "ومن دخله كان آمناً "أي أمنٍ هنا ؟"[١٦٧].

وبعد فلا يزال لدينا طائفة كبيرة من الروايات المتعلقة باستباحة البيت الحرام وقد يكفي ما أشير إليه هنا بقصد التعرف على عقيدة قرامطة البحرين في نظرتهم إلى مقدسات المسلمين. إذ إنهم من واقع هذه الروايات ومن حقيقة ما

أقدمـــوا عليه من استهانة ببلد الله الآمن وانتهاكٍ لحرمة بيته العتيق وما ارتكبوه من مذابح لحجاج بيته، كل ذلك ينبئ عـــن كفرهم بالله وتكذيبهم لرسوله وهم يسخرون من حماية الله لبيته ولا يعترفون بنبوة نبيه ﷺ فهو عندهم "محمد المكي".

وإذا جـــاز لنا السؤال عن سبب هذا كله نجد أحد الباحثين يفسر ذلك بالقول إن الغرض في هجمتهم هذه هو تصـــديع أركـــان الدولة وانتهاك أهم حرمة لديها وإظهار لعجزها عن الدفاع عن المقدسات وحماية الحاج. ولم يكن هدف هذه الهجمة بطلان قدسية الحجر الأسود أو الكعبة بدافع من نزعة مادية لدى القرامطة بل إن الغاية الاقتصادية واســـتطراداً السياســـية ظلـــت أكثر بروزاً بين الغايات(١٦٨). وإذا كان للباحث القبول بمثل هذا الرأي إلا أن عقيدة القرامطة ببطلان قدسية الحجر الأسود أو الكعبة لا يمكن الدفاع عنها.

وجـــاء في رأي آخـــر وهو فيما يبدو أقرب للصواب فيما يتعلق بتلك الحادثة الشنيعة القول "إنها كانت حملة بربـــرية قصدت إلغاء الحج، وذلك تمهيداً لإعلان قيامة عظمى، حيث لم يلبث بعد هذه الحملة حتى ظهر في الأحساء زكريا الطمامي بن أبي زكريا الداعية القرمطي السابق لأبي سعيد ... الذي قدمه [أبو طاهر] لأهل البحرين بقوله: هذا إلهنا وإلهكم وربنا وربكم"(١٦٩).

إن صـــحت هـــذه الحادثة وصح ما نسب إلى أبي طاهر من تأليهه لبشر مثله فهو أمر يدل على تفاهة وطفولية عقـــول القرامطة، إذ إن هذا الحادث هو بالأسطورة أشبه، لأن أبا طاهر نفسه ما لبث أن قتل هذا الإله المزعوم عندما شعر بخطره(١٧٠).

ويلمح الباحث في إحدى الروايات أن العامل الاقتصادي ربما كان أحد الأسباب الرئيسة وراء الهجوم القرمطي عـــلى مكـــة في سنة (٣١٧هـــ)، ففي رواية القاضي عبد الجبار التي سبقت الإشارة إليها نجد عمـــر بن زرقان أحد زعمـــاء القـــرامطة يخاطـــب الـــناس في أثـــناء إشرافه على المذبحة في الحرم بقوله: حجوا إلى البحرين وهاجروا إلى الأحســـاء(١٧١). ومن المعلوم بداهة ما الأثر الاقتصادي الذي سيصيب الناس في البحرين والأحساء من جراء انصراف الحجـــيج إليهم . كما أننا نجد عند أبي العلاء المعري في رسالة الغفران ما قد يساعد على إدراك الحافز الاقتصادي من وراء هجوم القرامطة على مكة واستباحة الحرم وانتزاع الحجر الأسود، فقد أشار المعري إلى ذلك عندما قال: "وأخذ حجر الملتزم وظن أنها مغناطيس القلوب ..."(١٧٢).

كمـــا أن ناصـــر خسرو أشار إلى ذلك بوضوح أكثر عندما قال: "وانتزع الحجر الأسود من مكانه ونقله إلى الحسا. وقد زعموا أن هذا الحجر مغناطيس يجذب الناس إليه من أطراف العالم ..."(١٧٣).

وهكذا يظل السبب المادي في هاتين الروايتين هو أحد البواعث القوية على مهاجمة مكة واستباحة البيت العتيق، حيـــث إن القصـــد من وراء انتزاع الحجر الأسود كما تصرح هذه الروايات هو جلب الناس إلى البحرين بدلاً من

مكة!! ولا شك إن كان هذا التصور حقيقياً فهو تصور على قدر كبير من السذاجة وسطحية التفكير.

وعلى كل فإن الذي يستطيع أن يخرج به الباحث من مشكلة انتزاع الحجر الأسود والذهـــاب به إلى البحرين، هـــو أن هذا الفعل يرمز إلى استخفاف القرامطة بالمقدسات الإسلامية والاستهانة بمشاعر المسلمين، إضافة إلى إشاعة حالـــة من الشك في نفوس الناس في جدوى تعظيم هذه الرموز مما قد يؤدي بالتالي إلى فقدان الخليفة العباسي لأهميته الدينية والسياسية كزعيم لعالم الإسلام، ربما تمهيداً لظهور البديل وهو الإمام المنتظر . !!

ومرة أخرى فإن أخذ القرامطة للحجر الأسود لا يعني بالضرورة اعتقادهم بقدرته المغناطيسية على جذب الناس إلى البحرين من كافة أقطار الأرض، ولكن ربما كان القصد من أخذه هو تجريد مكة من أهميتها الروحية عند المسلمين بسبب انتزاع ذلك الحجر المقدس، ومن ثم يبطل الحج تبعاً لذلك. وهذا بالضرورة سيفقد الخلافة مصدراً اقتصادياً بالغ الأهمية طالما اعتمدت عليه.

أما السؤال الذي قد يبدو أكثر إلحاحاً فهو من الذي كان وراء مهاجمة مكة ؟ هل هم قرامطة البحرين منفردين أم أن وراءهم جهة أخرى؟

لـــيس مـــن الميسور تقديم إجابة مقنعة عن هذه الأسئلة، إذ إن المعلومات التاريخية المتصلة بهذه القضية يشوبها الغموض والتضارب فقد جاء عند ابن الأثير في حوادث سنة (٣٣٩هـــ)، وهي السنة التي أُعيد فيها الحجر الأسود إلى مكة، إشارة غامضة حول أخذه وإعادته مرة أخرى؛ قال ابن الأثير:

في هـــذه الســـنة أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة، وقالوا: "أخذناه بأمر وأعدناه بأمر"[١٧٤] والسؤال مرة أخرى أمر مَنْ؟ ليس من إجابة شافية. سوى أن دي خويه في أثناء مناقشته لهذه الحادثة أشار بإصبع الاتهام إلى الخليفة الفـــاطمي حيث قال :"... بدا للإمام الخليفة الفاطمي أن الأمر بإرجاع الحجر سيكسبه، بصفته حامياً للدين، رصيداً شـــعبياً ... وقـــد تمكـــن المنصـــور بإقناعه القرامطة أن يردوا الحجر من كسب قلوب المسلمين وجذبها نحوه ونحو سلالته"[١٧٥].

ولكـــن من المعلوم كذلك أن الإمام الفاطمي في تونس الذي كان معاصراً لتلك الحادثة لما بلغه فعلة القرامطة بمكة أنكرها أشد الإنكار، وقد أشار ثابت بن سنان (ت: ٣٦٥هـــ)، في تاريخ أخبار القرامطة إلى ذلك بقوله: فلما بلـــغ ذلك المهدي أبا محمد عبد الله العلوي الفاطمي بإفريقية كتب إليه ينكر عليه فعله، ... ويلومه ويلعنه ويقول له: "قد حققت على دولتنا وشيعتنا ودعاتنا اسم الكفر والزندقة ..."[١٧٦].

ومـــا دامـــت القضية على هذا النحو من الغموض، أليس من الممكن افتراض أن إنكار المهدي لهذه الحادثة هو ضـــرب مـــن التقية حتى يجنب نفسه وشيعته وما يدعو إليه سخط عامة المسلمين، ويحرم بالتالي الخليفة العباسي من استثمار تلك الحادثة الشنعاء لصالحه في صراعه مع دولة الفاطميين الناشئة حديثاً .؟! إنه احتمال قريب.

وقـد اختلفـت المصـادر التاريخية في تقدير ضحايا تلك المذبحة المروعة، فذكر المسعودي كما سبق أن هناك اختلافاً بيناً في تقدير القتلى: "... فمكثر ومقل، فمنهم من يقول ثلاثين ألفاً ومنهم من يقول دون ذلك وأكثر. وكل ذلـك ظـن وحسبان إذ كان لا يضبط وهلك في بطون الأودية ورؤوس الجبال والبراري عطشاً وضراً ما لا يدركه الإحصاء ..."[١٧٧].

وذكـر القاضي عبد الجبار أنهم نحو عشرين ألفاً وثمان مئة[١٧٨] وجاء في كتاب الفرق والتواريخ أن من قتل من المسلمين بالمسجد ألفي قتيل، وقتل في سائر المدينة عشرة آلاف[١٧٩]. ويكاد الهمذاني في التكملة يتفق مع هذا التقدير الأخـير فهـو يذكـر أن القتـلى كانوا نحو عشرة آلاف. ثم يضيف قائلاً: وأتى أهل مكة على من عندهم مـن الحـاج[١٨٠]. وهذه الجملة الأخيرة تضاعف من الشعور بالمرارة إذا كان حقاً أن أهل مكة وهم المسلمون قد ساعدوا في الإجهاز على البقية من إخوانهم الحجاج!! ثم ماذا عن هيبة الدولة وهيبة القانون؟! ألم يكن في مكة قوة للإشراف عـلى الأمـن والـنظام؟ ما من شك في أن هذه التقديرات على قدر كبير من المبالغة، ومن الصعوبة الأخذ بها دون تمحـيص، ولابـد أن جـزع أتقـياء المسلمين كما يقول دي خويه وارتياعهم جعلهم يرون كل شيء عبر عدسة مكبرة[١٨١].

نقـول إن تقديرات عدد القتلى ظاهرة المبالغة إذا أخذ الباحث بعين الاعتبار الحجم التقريبي لقوة القرامطة التي هاجمـت مكـة، فالمسعودي وهو أحد المصادر القريبة الاطلاع والمعاصر للحادثة يذكر أن تعداد تلك القوة يبلغ ألفاً وخمسمائة رجل ما بين فارس وراجل[١٨٢]. بينما تذكر بعض المصادر الأخرى أن قوة القرامطة كانت سبعمائة رجل لا غـير[١٨٣]. لذلـك يستحيل على قوة صغيرة كهذه حتى لو كانت ألف وخمسمائة أن تقتل هذا العدد الكبير من الناس. لهذا فأحسب أن جميع الروايات التي عالجت هذه القضية كانت على قدر كبير من المبالغة وتضخيم صورة ما حدث. ثم إذا تركنا مسألة عدد ضحايا المذبحة جانباً، فلنا أن نسأل عن موقف بغداد من تلك الكارثة؟ ما الذي فعلته لردع القرامطة؟ هل قطعت عليهم طريق العودة إلى البحرين؟ أم هل حاصرتهم في عقر دارهم؟ هل انتقمت لهيبة البيت العتيق وقدسيته؟ وهل ثأرت لدماء الحجاج الأبرياء؟

يظهـر أن أيـاً من ذلك لم يحدث، فقد دخلت السنة التالية أي سنة (٣١٨هـ) والخليفة غارق في أكثر من مشكلة، فمن ناحية خرج أعراب بني نمير بن عامر وبني كلاب بن ربيعة فعاثوا بظهر الكوفة واستطالوا على المسلمين وأخافو السبيل حتى لم تجد نفعاً مقاومة محمد بن ورقاء أمير الكوفة لهم فوقع بيدهم أسيراً[١٨٤].

وكذلـك اضـطرب الجـند الرجالة ببغداد وحاصروا دار الخلافة، واستطالوا على المسلمين واستهان قوادهم بالخلـيفة والوزير، وأخيراً تمكن حرس الخلافة بعد جهد من هزيمتهم وتشتيت شملهم وذلك في أواخر شهر محرم من السنة نفسها[١٨٥].

وفي رجـــب عزل ابن مقلة عن الوزارة وعُين مكانه أبو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد[١٨٦]، وكان سبب عزل ابن مقلة اتهام الخليفة له بميله نحو مؤنس المظفر الذي كانت العلاقة بينه وبين الخليفة في غاية التأزم[١٨٧].

ومما زاد الأمور سوءاً في آخر هذه السنة اكتشاف مؤامرة ضد الخليفة يقودها جماعة من وجوه القواد والكتاب، وكانوا قد سعوا بالبيعة لأبي أحمد محمد بن المكتفي بالله،وكان قد استجاب له نحو ثلاثة آلاف رجل من الجند حسب زعم الرواية[١٨٨].

وبســـبب الضـــائقة المالية ومطالبة الجند بأرزاقهم، إضافة إلى ما ظهر من سخف الوزير سليمان بن الحسن بن مخلد، كما يقول عريب، أمر الخليفة بالقبض عليه،وولي الوزارة بدلاً منه أبو القاسم عبيد الله الكلواذي[١٨٩] وذلك في شهر رجب من سنة (٣١٩هـــ)[١٩٠] .

ويضـــيف ابـــن الأثير أسباباً أخرى لعزل ابن مخلد عن الوزارة، وهي أنه نظراً لتوقف مؤسسات الدولة بسبب الأزمـــة المالـــية: "اتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعاية به [أي بابن مخلد]، والضمان بالقيام بالوظائف، وأرزاق الجند وغير ذلك"[١٩١].

وقـــبل نهايـــة شعبان من السنة نفسها داهم قرامطة البحرين الكوفة وعسكروا بأحد مصلياتها، وأقاموا بالمدينة خمســـة وعشـــرين يومـــاً، مطمئنين كما يقول عريب، يقضون حوائجهم، وقتلوا بها خلقاً كثيراً من بني نمير خاصة واســـتبقوا بـــني أسد ... [١٩٢] وفي إشارة عريب إلى أن القرامطة قتلوا جماعة وابقوا على أخرى ربما يعني أن بني أسد وهم الذين أُبقي عليهم كان لهم ضلع في دخول القرامطة إلى الكوفة.

ويلاحـــظ أن الدولة لم تحرك ساكناً و لم ترسل نجدة لمدينة الكوفة، وربما هذا يعود إلى انشغال الخلافة بمواجهة شـــغب الجند "الرجّالة" ببغداد، ولو أن القضاء على تلك الحركة لم يستغرق سوى يوم واحد[١٩٣]. وفي الوقت نفسه كانـــت الخلافـــة تواجه أيضاً مشكلة الوزارة، حيث إن الكلواذي أقام في منصبه شهرين فقط متبرماً به نظراً لضيق الأمـــوال وكـــثرة الاعتراضـــات واتصـــال الشغب، وقعود العمال عن حمل المال فاستعفى، فصرف عنها، وكـــان أبو الجمال الحسين بن القاسم بن وهب يسعى دهره كما يقول عريب في طلب الوزارة، ويتقرب إلى مؤنس وحاشيته حتى جاز عندهم وملأ عيونهم، فقلد الوزارة سلخ شهر رمضان[١٩٤].

وهكـــذا بالسعايات والوشايات والتقرب إلى مؤنس وحاشيته من الخدم والقادة الأتراك يحصل من يرشح نفسه للوزارة عليها بصرف النظر عن أهليته لهذا المنصب وبصرف النظر كذلك عن اقتناع الخليفة أو عدمه في هذا الشخص أو ذاك.

٦ – مقتل الخليفة المقتدر (٣٢٠هـــ):

ونظـــراً للتنافس المرير بين رجال حاشية المقتدر والدسائس والمؤامرات التي يحوكها كل فريق ضد الآخر سعياً

لـلحفاظ على مصالحهم الذاتية، فقد أسهموا في تأزم العلاقة بين الخليفة وقائد جنده، أي مؤنس المظفر، هذه الأزمة نجحت في إشاعة عدم الثقة بينهما وتربص كل منهما بصاحبه قرابة عشرة أشهر، بدءاً من محرم وحتى شوال من العام نفســه، حيــث صــارت المنازلة الكبرى بين الخليفة وجنده من جهة ومؤنس المظفر وأنصاره من الجهة الأخرى في الشماسية إحدى ضواحي بغداد، حيث ظهرت خيانة بعض قادة جيش الخلافة كما يقول عريب، وانفضوا من حول الخلـيفة. فاجـتمع على الخليفة بعض أنصار مؤنس وذبحوه ذبحاً، وجرد من لباسه وترك في ساحة المعركة، وذلك في الثامن والعشرين من شوال سنة ٣٢٠هـ[١٩٥]. ويعلق ابن الأثير على مقتل المقتدر قائلاً: "وكان ما فعله مؤنس سبباً لجــرأة أصــحاب الأطــراف عــلى الخلفاء وطمعهم فيما لم يكن يخطر لهم على بال، وانخرقت الهيبة، وضعف أمر الخلافة ..."[١٩٦].

وفي الحقــيقة فإن هيبة الخلافة قد انخرقت قبل أكثر من سبعين عاماً، لما تجاسر القادة الأتراك على قتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧هـ.

٧ – القرامطة والخلافة العباسية بعد المقتدر:

بسبب الفراغ الدستوري الذي نشأ عن مقتل المقتدر، فقد سارع العسكر إلى اتخاذ الإجراء اللازم لملء الفراغ، فأمــر مؤنس بإحضار بلال بواب دار ابن طاهر، التي فيها أولاد الخلفاء وسأله عمن فيها منهم، فذكر له جماعة منهم محمد بن أحمد المعتضد، فمال هواهم إليه، فقالوا: هو كهل، ولا أُم له، ونرجو أن تستقيم أمورنا معه[١٩٧].

وكان رأي مؤنس في أول الأمر تنصيب ابن المقتدر أحمد، "لأنه إذا جلس في الخلافة سمحت نفس جدته والدة المقتدر وإخوته، وغلمان أبيه ببذل الأموال" ولكن هذا الرأي قوبل بالرفض من قبل أحد المشاركين بقوله: "بعد الكد والتعب استرحنا من خليفة له أم، وخالة، وخدم يدبرونه، فنعود إلى تلك الحال والله لا نرضى إلا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا"[١٩٨].

وأخــيراً أُجلس القاهر وهو لقب محمد بن أحمد المعتضد في خيمة بإزاء خيمة مؤنس ولم تزل المراسلات بينهما والشــروط متخذة على القاهر إلى أن أجاب إلى جميعها إلا نفقة الجند[١٩٩]. ومن ثم تم اختيار رأس الدولة الإسلامية ورمــز الخلافة فيها على يد القائد التركي مؤنس ومن شايع من بطانته وفقاً لشروطهم ومصالحهم، ولم نسمع في هذا الاختــيار صوتاً لأي أحد من أبناء البيت العباسي أو رجال الشورى من أهل بغداد، بل قضى الأمر وكأنه لا يخص أهل المملكة بقدر ما يخص هذه الشرذمة من قادة الأتراك.

والقاهــر الــذي جاء به الأتراك إلى كرسي الخلافة، لم يكن له من مؤهلات السياسة والحكم نصيب، يصفه المسعودي قائلاً: إنه شديد الإقدام على سفك الدماء، أهوج محباً لجمع المال على قلته في أيامه، قليل الرغبة في اصطناع الرجال، غير مفكر في عواقب الأمور، سيئ التدبير قبيح السياسة[٢٠٠].

ويظهـــر مـــن سوء سياسته أنه بدلاً من أن يصطنع الرجال ويؤمنهم ويؤملهم ويكسبهم إلى جانبه، وبدلاً من سياســـة صارمة تجاه قرامطة البحرين وحماية جنوب العراق من شرورهم، وتأمين طرق التجارة والحج، بدلاً من ذلك كله، نراه يهتم بصغائر الأمور فيتتبع عورات الناس ويبدأ بأهله وذوي قرابته، فقد سجن وعذّب السيدة والدة المقتدر، أي والـــدة أخـــيه فعلقها من رجلها وتناولها بالضرب في المواضع الغامضة من بدنها، وصـــادر أموالهـــا(٢٠١) وطال بالسجن والعذاب أبناء المقتدر والراضي وإخوته، وغيرهم من أبناء البيت العباسي(٢٠٢).

واختلطت على القاهر الأمور ففي خلافته القصيرة التي لم تدم سوى ثمانية عشر شهراً استوزر ثلاثة وزراء(٢٠٣) وســـاء ظنه بمن حوله من رجال الحاشية وقواد الجيش، فخافوه على أنفسهم فسعوا إلى الحد من سلطانه فاستولى ابن بُلـــيق وحاشـــية مؤنـــس على القاهر، حتى صار لا يجوز له أمر ولا نهي إلا على أهل بيته، وأولاد المقتدر المحبوسون عـــنده(٢٠٤). فكان الحاجب علي بن بليق يفتش جميع ما يدخل الدار على القاهر ويضيق عليه(٢٠٥). ثم ما لبث الخليفة القاهـــر أن انـــتقم لنفسه بأن ذبح بليق وابنه والقائد مؤنس المظفر(٢٠٦). ونتيجة لهذه المذبحة، فقد لقب القاهر نفسه بالمنتقم من أعداء الله(٢٠٧).

ثم مـــا لبثـــت الجنود الساجية(٢٠٨) والحجرية، أن حاصرت دار السلطان بتحريض من الوزير ابن مقلة – الذي كـــان متخفـــياً -فقبضـــوا عـــلى الخليفة القاهر في السادس من جمادى الآخر سنة (٣٢٢هـــ)، فخلع عن الخلافة وسُـــمل(٢٠٩). وسمـــل العـــيون أســـلوب جديد في التعامل مع الخلفاء حتى لا يكون لهم أمل مستقبلاً في العودة إلى السلطة(٢١٠).

ونتـــيجة لخلع القاهر، فقد جاءت الفرق العسكرية من الساجية والحجرية بخليفة جديد هو أبو العباس محمد بن المقتدر، وأجلسوه على سرير السلطة، وبايع له القواد، ولقب بالراضي بالله(٢١١). ولا نعلم شيئاً عن مؤهلات الراضي السياســـية والإداريـــة سوى إشارة عابرة نجدها عند المسعودي حيث وصفه بأنه: "شديد التضريب [الإغراء؟] بين أوليائه، لاستبدادهم بالأمور دونه، وقصور يده عن تغيير ذلك ..." (٢١٢).

وجرياً على سياسة علي بن عيسى الوزير من الاتصال بقرامطة البحرين لإقامة علاقة سلمية معهم، حاول محمد ابن ياقوت الحاجب أن يستميل القرامطة إلى جانب الخلافة فأرسل في هذه السنة أي سنة (٣٢٢هـــ) رسولاً إلى أبي طاهـــر القـــرمطي، يدعـــوه إلى طاعة الخليفة وأن يكف عن الحاج جميعهم وأن يرد الحجر الأسود إلى موضعه بمكة، ومقابل ذلك اعتراف الخليفة بسلطته على ما تحت يده من البلدان وأن يقلده بعد ذلك ما شاء، ويحسن إليه(٢١٣).

وجـــاء الـــرد من أبي طاهر مشروطاً، حيث أجاب إلى عدم التعرض للحاج فسار الحاج في هذه السنـــة و لم يـــتعرض لهم القرامطة، و لم يجب إلى رد الحجر إلى مكة، وطلب في الوقت نفسه أن يسمح له الخليفة بالاتجار المباشر والحـــر مـــع البصرة، مقابل الخطبة باسم الخليفة في أعمال هجر(٢١٤). ولكن يظهر أن الخليفة لم يستجب لمطالب أبي طاهر، فتوقفت المفاوضات بين الطرفين. وذلك يعود ربما إلى ضعف الإدارة في بغداد وازدياد الصراع على النفوذ بين

المتــنفذين فلم تعد للخليفة القدرة على اتخاذ القرارات الحاسمة. إذ إنه في عهد الراضي ازدادت الأمور سوءاً من جميع الــنواحي ســواءً من الناحية المالية للدولة أو الناحية الإدارية والسياسية، ولا أدل على تدهور الحالة من كثرة الوزراء الذيــن اســتعان بهم في فترة خلافته القصيرة نسبياً[٢١٥]. ولكن لم يجد تبديل الراضي لوزرائه شيئاً، بل ازدادت الحالة المالــية ســوءاً، وعندئذ سلم الراضي الأمور لمحمد بن رائق[٢١٦] تسليم المضطر سنة (٣٢٤هــ)، فقد قلده الإمــارة وقيادة الجيش، وجعله أمير الأمراء، وشارك ابن رائق الخليفة في خطبة الجمعة والأعياد[٢١٧].

وبذلك بطل أمر الوزارة، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ولا الدواوين ولا الأعمال ولا كان له غير اسم الوزارة فقط[٢١٨].

ولا عجــب، وحال الخليفة على هذا المستوى من التردي والضعف، أن يعاود قرامطة البحرين بقيادة زعيمهم أبي طاهــر مهاجمة قوافل الحجاج وبعض مدن العراق . ففي أواخر شوال سنة (٣٢٣هــ) خرج أبو طاهر على رأس قوتــه التي لم تتجاوز الألفي رجل لاعتراض الحاج في طريق مكة فأوقع بهم بالقادسية وناحية زبالة والعقبة والعذيب، فقــتل وأســر، وصــار له كمــا يقول المسعودي من صنوف الأموال والأمتعة ما لا يوقف على تحديده ولا يحاط بمبلغه[٢١٩]. ويضيف ابن الأثير أن جماعة من العلويين بالكوفة خرجوا إلى أبي طاهر، فسألوه الكف عن الحجاج فكف عــنهم، وشــرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد، فرجعوا، ولم يحج بهذه السنة من العراق أحد، وسار أبو طــاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها[٢٢٠].

وبعــد سنتين تقريباً من تلك الأحداث أي في سنة (٣٢٥هــ)، حاول أبو طاهر الوصول إلى اتفاق مع الخلافة العباســية، يقضي بأن تدفع له الدولة سنوياً مالاً وطعاماً بنحو مائة وعشرين ألف دينار، مقابل أن يقيم ببلده، ولكن ابــن رائــق الذي أصبح أميراً للأمراء عرض على أبي طاهر أن يكون هو وأصحابه جنداً في خدمة الخلافة ويدخلوا بالطاعة مقابل ما التمسه من رزق. وبالطبع فإن مثل هذا المطلب لم يرق لأبي طاهر، وتوقفت المفاوضات[٢٢١].

ويظهــر أن أمر قرامطة البحرين أخذ بالضعف، وقوتهم بالاضمحلال بدءاً من سنة (٣٢٦هــ)، كما يشير إلى ذلك ابن الأثير، بقوله: في هذه السنة فسد حال القرامطة، وقتل بعضهم بعضاً[٢٢٢]، وهو يشير هنا إلى حادثة قتل أبي طاهر الدجال الأصفهاني، الذي زعم أنه صاحب الأمر المنتظر[٢٢٣]. ولكن دى خويه يشكك في تاريخ مقتل الدجال الأصفهاني، ويظهر أنه محق في شكوكه[٢٢٤].

وما من شك في أن ضعف قرامطة البحرين أصبح أكثر وضوحاً في سنة (٣٢٧هــ) حيث شهدت تلك السنة اتفاقــاً بين الخلافة العباسية وبين أبي طاهر نزولاً عند طلب الأخير بأن يقوم بحراسة قوافل الحج مقابل، فديه سنوية، اختلفت المصادر في تقديرها[٢٢٥].

بل يبدو أن العلاقات الحسنة والمنافع المتبادلة بين الخلافة وقرامطة البحرين ذهبت إلى أبعد من ذلك، فقد رافقت

فـــرقة منهم الخليفة الراضي وقائده وأمير الأمراء في وقته ابن رائق في حملتهم على منطقة نصيبين في أثناء تمرد ناصر بن حمدان وتأخره في إرسال المال المتوجب عليه من ضمان البلاد التي بيده[٢٢٦].

وفي الشـــهور الأولى من سنة (٣٢٩هـــ)، أي في ربيع الأول، توفي الخليفة، الراضي، وله اثنتان وثلاثون سنة وأشهر، وكانت خلافته ست سنوات وعشرة أشهر[٢٢٧].

في هذه الأثناء كان أمر الخليفة في تدهور، وطاعته غير نافذة، وسلطته قاصرة، حيث لم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق[٢٢٨].

ويســـتطرد ابـــن الأثير في وصفه للأوضاع السياسية العامة إبان أيام الراضي بالقول: " وأما باقي الأطـــراف فكانـــت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي ؛ وفارس في يد عماد الدولة بن بويه، وكرمان في يد أبي علي محمد بن الياس، والرّي وأصفهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، والمغرب وإفريقية في يد أبي القاســم القـــائم بأمـــر الله بن المهدي العلوي... وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني؛ وطبرستان وجرجان في يد الديلم؛ والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي"[٢٢٩].

يظهر من استقراء الأوضاع العامة في هذه المرحلة لدى كل من الخلافة العباسية من جانب وقرامطة البحرين من جانـــب آخر، أنهما أصبحا على درجة متساوية من الضعف تقريباً ولهذا كان لابد من الالتقاء والتفاهم، حيث أصبح كـــل مـــنهما غير قادر على هزيمة الآخر. إضافة إلى ذلك وفاة أبي طاهر القرمطي في سنة (٣٣٢هـــ) أي بعد وفاة الراضي بثلاث سنوات.

لذلـــك فليس من جدوى هنا لمناقشة أمر الخلافة وعلاقة القرامطة بها في ظل الخلفاء الثلاثة الذين جيء بهم إلى كرســـي الســـلطة على التوالي، فقد صور لنا المسعودي الوضع قائلاً: "و لم نعرض لوصف أخلاق المتقي والمستكفي والمطـــيع ومذاهـــبهم، إذ كـــانوا كالمولى عليهم لا أمر ينفذ لهم، أما من نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثرها المتغلـــبون، واستظهروا بكثرة الرجال والأموال، واقتصروا على مكاتبتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم، وأما بالحضرة، فتفرد بالأمور غيرهم، فصاروا مقهورين خائفين، قد قنعوا باسم الخلافة، ورضوا بالسلامة ..."[٢٣٠].

وممـــا زاد في تدني مترلة الخليفة واضمحلال أمره هو أن أحمد بن بويه قد دخل بغداد في خلافة المستكفي سنة (٣٣٤هـــــ) واستولى على الأمور هناك ولقبه الخليفة بلقب معز الدولة، وطوقه وعقد له اللواء وقلده الإمـــارة[٢٣١]. ومـــنذ ذلك الوقت لم يعد لخلفاء بني العباس حق التصرف في سياسة الدولة وشؤونها و لم يعد لهم ما يعتزون به سوى لقـــب الخليفة. وحتى علاقة قرامطة البحرين بالخلافة العباسية اتخذت منحى آخر، إذ أصبح القرامطة يتعاملون مباشرة مع البويهيين الذين أصبحوا السادة الفعليين في بغداد منذ ذلك الحين.

الخاتمة:

إجمـــالاً يمكـــن القول إن الحركة القرمطية نشأت أول ما نشأت في جنوب العراق ربما في خلال حرب الخلافة العباســية مع الزنج، وما من شك في أن للظروف الاجتماعية والاقتصادية السيئة التي كانت تسود في ذلك الجزء من العراق دوراً حاسماً في نجاح الحركة وانتشارها في السواد وبادية الشام ومن ثم البحرين.

وكـــان أول ظهور مسلح لقرامطة البحرين ضد السلطة العباسية في سنة (٢٨٦هـــ) بزعامة أبي سعيد الجنابي بـــدءاً بالقطيف وما حولها، أما في السنة التالية فكانت المواجهة العسكرية الحاسمة بين أبي سعيد الجنابي وجيش الدولة العباسية والتي انتهت بهزيمة نكراء لجيش الخلافة وأسر قائده العباس بن عمرو الغنوي.

وهكـــذا اســـتمر الجنابي في سياسته المعادية للدولة العباسية والمتمثلة بمهاجمة مناطق نفوذها وتهديد قوافل الحج والتجارة، وتوفي في سنة (٣٠٠هــ) تقريباً، وآل الأمر لأحد أبنائه الذي كان ضعيفاً كما يقال ومن ثم صارت سيادة القـــرامطة لأبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي في سنة (٣١٠هـــ) وكان آنذاك يناهز السادسة عشرة من العمر، بلغت العلاقة في عهده بين الخلافة العباسية وقرامطة البحرين أسوأ فتراتها وذلك بمهاجمة القرامطة لبيت الله الحرام وقتل الكثير من الحجاج ومصادرة كنوز الكعبة واقتلاع الحجر الأسود وذلك في موسم حج (٣١٧هـــ).

والملاحـــظ على الدولة العباسية في هذه الفترة من الخصام النكد بينها وبين القرامطة أنه لم يكن لها سياسة ثابتة وواضحة تجاههم، بل كانت مواقفها منهم مجرد ردود أفعال آنية و لم تكن تسير وفق خطة مدروسة للتفاهم معهم أو القضـــاء علـــيهم . ولا غرابة في مثل هذه السياسة العباسية المائعة إذا ما علمنا أن الخليفة المقتدر الذي كان معاصراً للأحداث، كان قد جيئ به إلى سدة الحكم وهو لم يبلغ بعد الثالثة عشرة من العمر، فلم يكن له كلمة أو دور يذكر في ما يدور حوله وما يحيق بدولته.

فقد استحوذ على السلطة ببغداد، جماعات مختلفة من الرجال والنساء والجواري والخدم كل فريق منهم يريد أن يســـتأثر بالسلطة والنفوذ لصالحه بغض النظر عن المصالح العليا للدولة والمجتمع، فلا غرابة والحال كذلك أن صارت الدســـائس والمؤامرات بين هذه الجماعات هي الأساليب المتبعة في تصفية الحسابات بين المتنافسين والمتصارعين وذلك في غياب نظام سياسي قوي وإدارة رشيدة تستطيع السيطرة على الأوضاع الداخلية والخارجية للدولة.

وفي المقـــابل فقد كانت سياسة القرامطة تجاه الدولة العباسية سياسة واضحة المعالم تمثلت في المطامع الاقتصادية بموانيء جنوب العراق كالبصرة أو سيراف والإشراف كذلك على طرق الحج والتجارة بغرض فرض الضرائب عليها وانـــتهاك قدسية الحرم وهتك حرمة الكعبة واقتلاع الحجر الأسود وكان الهدف من ذلك كله فيما يبدو سلب مكة مكانـــتها المقدســـة في أفـــئدة المسلمين، لأنهم هم أنفسهم -أي القرامطة- لا يؤمنون بقدسيتها إضافة إلى الأهداف السياســـية الأخـــرى التي منها إظهار عجز الخلافة عن حماية المسلمين ومقدساتهم والتأكيد من خلال ذلك على أن

الخليفة العباسي لا يستحق هذه الهالة من التقدير والإجلال، اللتين يتمتع بهما في نفوس اتباعه من المسلمين.

إنه من المشكوك فيه أن هذا الزعيم القرمطي أبا طاهر الذي تواً بلغ سن المراهقة حين تسلم القيادة كان بمقدوره أن يتحمل مسؤولية اتخاذ مثل تلك القرارات الجسورة المتمثلة بمهاجمة بعض المدن العراقية، وقوافل الحج، ومداهمة بيت الله الحرام، ما لم يكن هناك برنامج محدد وسياسة مرسومة من قبل مجلس قرمطي قيادي واستشاري يضع مثل هذا الخطط، أما أبو طاهر نفسه فما هو إلا مجرد منفذ لها.

إن هذا التباين الواضح بين القيادتين السياسيتين لدى كل من العباسيين والقرامطة يظهر بكل جلاء أن انتصارات قرامطة البحرين في الكثير من المواجهات مع الجيوش العباسية ونجاحهم كذلك في تعطيل مواسم الحج في سنوات متتالية إضافة إلى تعطيل طرق التجارة وتهديد نشاط الموانئ البحرية كالبصرة وسيراف لا يعود في أساسه إلى قوة القرامطة العسكرية أو الاقتصادية بل يعود بصورة رئيسة إلى ضعف الخلافة العباسية نفسها المتمثل بتعاقب ثمانية خلفاء على كرسي الخلافة في أقل من نصف قرن من الزمان يقابلهم لدى القرامطة ثلاثة رجال، ناهيك عن كثرة الوزراء الذين تنازعوا منصب الوزارة فيما بينهم في البلاط العباسي وحسبك أن تعلم أن المقتدر استوزر في خلافته أكثر من اثني عشر وزيراً ظلت الشبهات تحوم حول ا لبعض منهم بضعف الأمانة ونهب ثروة الأمة والميل نحو القرامطة وممالأتهم . يضاف إلى ذلك كله ضعف ولاء الجيش للخلافة وتعلقه بقادته من الأتراك، لذلك فقد فشل في تحقيق النصر الحاسم على القرامطة في الكثير من المواجهات العسكرية.

في غالب الظن أن بعض المآخذ على الدولة العباسية التي أمكن حصر بعضها هنا وغفل عنها البعض من المهتمين بأمر علاقة قرامطة البحرين بالخلافة العباسية هي التي جعلتهم ينظرون إلى القرامطة مبهورين كقوة قاهرة وغالبة لأنهم أهملوا النظر في ما كان يدور داخل عاصمة الخلافة نفسها ولو فعلوا ذلك لعرفوا سر تلك القوة القرمطية الزائفة.

التعليقات

(١) القرامطة: القرامطة إحدى الحركات الباطنية، لقب أتباعها بهذا الاسم "نسبة إلى رجل يقال له حمدان قرمط،وكان أحد دعاتهم في الابتداء، فاستجاب له في دعوته رجال، فسموا قرامطة وقرمطية"، انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، *فضائح الباطنية*، مراجعة محمد القطب (صيدا وبيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ)، ٢٢.

(٢) هو المعتصم بالله، أبو إسحاق بن هارون الرشيد ولد في سنة ١٨٠هـ، وتولى الخلافة سنة ٢١٨ بعد وفاة أخيه المأمون، ودامت خلافته ثماني سنوات، حيث توفي في سنة ٢٢٧هـ؛ انظر: أحمد بن علي الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد* (بيروت: دار الكتب العلمية، د: ت) ٣: ٣٤٢- ٣٤٧. (ترجمة: ١٤٥١).

(٣) المتوكل على الله: أمير المؤمنين جعفر بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بويع له بالخلافة بعد الواثق سنة ٢٣٢هـ، وقتل في شوال سنة ٢٤٧هـ وكانت خلافته أربع عشرة سنة، انظر: علي بن الحسين المسعودي، *التنبيه والإشراف* (بيروت: دار مكتبة الهلال، ١٩٨١م)، ٣٢٩- ٣٣٠؛ الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ٧: ١٦٥- ١٧٣(ترجمة: ٣٦١٢).

(٤) انظر: على سبيل المثال: سهيل زكار، أخبار القرامطة في الأحساء – الشام – العراق – اليمن (الرياض: دار الكوثر، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م)، حيث أن الكتاب يضم بين دفتيه فصولاً منتزعة من ثلاثة عشر مصدراً، كلها ناقشت قضية القرامطة؛ أبو حامد الغزالي، *فضائح الباطنية* ؛ عبد الرحمن بن الجوزي، *القرامطة*، تحقيق: محمد الصباغ (بيروت: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م).

(٥) انظر مثلاً: ميكال يان دي خويه، *القرامطة*، ترجمة وتحقيق: حسني زينه، (بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٧٨م)؛ برناردلويس، أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، راجعه وقدم له، خليل أحمد خليل (بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٠م)؛ إسماعيل الميرعلي، *القرامطة* (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)؛ حسن بزّون، *القرامطة* بين الدين والثورة (بيروت: الانتشار العربي، ١٩٩٧م) "*الفاطميون وقرامطة البحرين*" و. مادلونغ، ٣٥- ٨٢؛ *الإسماعيليون في العصر الوسيط، تاريخهم وفكرهم*، لمجموعة مؤلفين وتحرير" فرهاد دفتري، ترجمة سيف الدين القصير (دمشق: المدى، ١٩٩٩م).

(٦) البحرين: قال الأزهري: "البحرين موضع بين البصرة وعمان". وإنما ثنوا البحرين لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء وقرى هجر، بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ: انظر: محمد بن أحمد الأزهري، *تهذيب اللغة*، تحقيق ومراجعة عبد الله درويش ومحمد علي النجار (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت) مادة "بحر".

(٧) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ١٤٧.

(٨) أبو سعيد الجنابي: هو أبو سعيد الحسين بن بهرام، تزعم الحركة القرمطية في البحرين وما جاورها وطالما اعتدى على طرق وقوافل التجارة والحج وتوفي مقتولاً على الأرجح في سنة ٣٠٠ أو ٣٠١هـ في البحرين . انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٤- ٣٥٨؛ انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٢٩٩- ٣٠١.

(٩) زكار، *أخبار القرامطة*، ٢٩٩.

(١٠) زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠٠.

(١١) الزارة: عين بالبحرين معروفة، والخط والزارة والقطيف، قرى بالبحرين وهجر . ياقوت الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر وبيرت، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، ٣: ١٢٦.

(١٢) زكار، *أخبار القرامطة*، ٢٩٩.

(١٣) انظرك زكار، *أخبار القرامطة*، ٥٤١- ٥٤٢.

(١٤) انظر: محمد بن جرير الطبري، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، د: ت)، ١٠: ٧١.

(١٥) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧١.

(١٦) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٦٧.

(١٧) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧٢، وقارن: عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، *المنتظم في تاريخ الأمم والملوك*، دراسة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا وآخرين (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ١٢: ٣٧٧.

(١٨) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧٥.

(١٩) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٧؛ وقارن: الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٧٨؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٢: ٤١١.

(٢٠) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤١- ٣٤٢؛ جاء عند المسعودي أن اسمه ذكروية بن مهرويه أما ابن الأثير فقد أشار إليه في مواضع كثيرة بـ: زكرويه بن مهرويه. انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٧: ٥٤١- ٥٥١.

(٢١) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٢.

(٢٢) المقتدر: هو جعفر بن أحمد المعتضد بويع له بالخلافة في أواخر سنة ٢٩٥هـ وعمره لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة وقتل على يد جنده في ضواحي بغداد سنة ٣٢٠هـ. انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٢- ٣٥٢؛ الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ٧: ٢١٣ - ٢١٩ (ترجمة: ٣٦٩٢).

(٢٣) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٤.

(٢٤) أحمد بن مسكويه، *تجارب الأمم*، ١: ١٣؛ علي بن أبي الكرم بن الأثير، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٩م)، ٨: ٢٤٣؛ وقارن: إسماعيل بن عمر بن كثير، *البداية والنهاية*، تحقيق عبدالله بن عبدالمحسن التركي (القاهرة: دار هجر، ١٤١٩هـ /١٩٩٨م)، ١٢: ٦٢.

(٢٥) انظر: محمد بن عبد الملك الهمذاني، *تكملة تاريخ الطبري*، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، د: ت) ١١: ١٩١؛ وانظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٠.

(٢٦) انظر عن أخبار المحاولة الانقلابية، محمد بن يحيى الصولي، *قسم من أخبار المقتدر بالله العباسي*، تحقيق: خلف رشيد نعمان، (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٩٩م)، ٦٥- ٧٢.

(٢٧) انظر: حمدان عبدالمجيد الكبيسي، *عصر الخليفة المقتدر بالله* (النجف: مطبعة النعمان، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ١٠٤؛ نقلاً عن: هلال الصابئ ، الوزراء، ١٣٣.

(٢٨) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٤- ٣٤٥؛ وانظر: توفيق سلطان اليوزبكي، *الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية* (الموصل: ١٣٩٦هـ)، ٢٧٨- ٢٨١.

(٢٩) عريب بن سعد القرطبي، *صلة تاريخ الطبري*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، د: ت)، ١١: ٣٩.

(٣٠) عريب، *صلة*، ١١: ٤٠.

(٣١) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٠١.

(٣٢) عريب، *صلة*، ١١: ٤١.

(٣٣) عريب، *صلة*، ١١: ٤٢.

(٣٤) عريب، *صلة*، ١١: ٤٣.

(٣٥) علي بن عيسى بن الجراح: أبو الحسن وزير المقتدر بالله، والقاهر بالله، كان صدوقاً ديناً فاضلاً عفيفاً في ولايته، محموداً في وزارته، كثير البر والمعروف وقراءة القرآن والصلاة والصيام، يحب أهل العلم ويكثر مجالستهم، كان مولده في سنة ٢٤٥هـ ووفاته سنة ٣٣٤ أو ٣٣٥هـ. انظر: الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١٢: ١٤-١٦؛ محمد بن أحمد الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، تحقيق شعيب الأرنؤوط وجماعة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م)، ١٥: ٢٩٨- ٣٠١.

(٣٦) سيراف: مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، كانت قديماً فرضة الهند، وبين سيراف والبصرة إذا طاب الهواء سبعة أيام . ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ٣: ٢٩٤- ٢٩٥.

(٣٧) الصولي، *أخبار المقتدر*، ١٨٦ ؛ عريب، *صلة*، ١١: ٥٧.

(٣٨) الصولي، أخبار *المقتدر*، ١٩٣ ؛ عريب، *صلة*، ١١: ٥٧.

(٣٩) ثمل: من ربات النفوذ والسلطان في الدولة العباسية أيام المقتدر، فكانت الساعد الأيمن لأم المقتدر في شؤون الدولة وسياستها،

وجلست للمظالم بالرصافة يوماً في كل أسبوع . وتوفيت سنة ٣١٧هـ. انظر: عمر رضا كحالة، *أعلام النساء* (بيروت: مؤسسة الرسالة، د: ت)، ١: ١٨٥.

(٤٠) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٠٩- ٢١٠؛ عريب، *صلة*، ١١: ٦٧.

(٤١) عريب، *صلة*، ١١: ٦٨- ٦٩؛ وقارن الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢١٣- ٢١٤.

(٤٢) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ١٨٩.

(٤٣) عريب، *صلة*، ١٣: ٩٧.

(٤٤) مادلونغ، "*الفاطميون وقرامطة البحرين*"، ٤٦ .

(٤٥) انظر: الطبري، *تاريخ*، ١٠: ١٤٨؛ المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٧- ٣٥٨؛ زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠٠، ٥٤٦.

(٤٦) زكار، أخبار *القرامطة*، ١٥١.

(٤٧) انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٤؛ أبو طاهر الجنابي: هو سليمان بن أبي سعيد ابن بهرام الجنابي، كان مولده سنة ٢٩٤هـ وتوفي والده وله من العمر ست سنوات، وبقي في العسكر (عسكر القرامطة) حتى تسلم قيادته سنة ٣١٠هـ وقاد حملات عسكرية مدمرة على المدن العراقية وقوافل الحج، وحتى بيت الله العتيق لم يسلم من شره فقد هاجم الحجاج وهم يطوفون بالبيت وقتلهم شر قتلة وسلب البيت، وتوفي سنة ٣٣٢هـ؛ انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٣- ٣٥٦؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ١٥: ٣٢٠- ٣٢٥.

(٤٨) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٣١.

(٤٩) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٣٨؛ وقارن: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٤٤.

(٥٠) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٢٩.

(٥١) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٣١؛ عريب، *صلة*، ١١: ٩٧.

(٥٢) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٣٨.

(٥٣) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٠٨.

(٥٤) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠١.

(٥٥) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ١٤٢- ١٤٣.

(٥٦) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ١٥٥.

(٥٧) انظر: دي خويه، *القرامطة*، ٧٤.

(٥٨) انظر: ياقوت بن عبد الله الحموي، *معجم الأدباء*، تحقيق: د. س . مرجليوث، نسخة مصورة (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، ٢: ١٤٤- ١٤٦؛ ومعلوم أن المساحي من أدوات الحراثة وآلات الزراعة، أما الطَّلْقَ، فهو كما جاء التعريف بـه في أثناء المحاكمة: بأنه طلاء إذا طلى به البدن أو غيره لم تعمل فيه (النار) وربما أن هذا الطلاء هو المقصود بالسلاح الذي أشارت إليه بعض الروايات السابقة.

(٥٩) دي خويه، *القرامطة*، ٧٤.

(٦٠) الصولي، أخبار *المقتدر*، ٢٣٣ ؛ عريب، *صلة*، ١١: ٩٨؛ وقارن الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٣٨.

(٦١) انظر: الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٣٣- ٢٣٤.

(٦٢) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٣٩- ٢٤٠.

(٦٣) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠١.

(٦٤) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠١.

(٦٥) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٤٩- ٢٥٠؛ وقارن: المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٦؛ الهَبيرْ: " بفتح أوله،وكسر ثانيه؛ قال أبوعمرو: "الهبيرُ مـــن الأرض أن يكون مطمئناً وما حوله أرفع منه ؛ والهبير رمل زرود في طريق مكة .." انظر ياقوت الحموى، *معجم البلدان*، ٥: ٣٩٢.

(٦٦) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٥٠؛ المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٦؛ وذكر ابن كثير أن عدد قوة أبي طاهر (٨٠٠) رجل وأن عمره كان (١٧) سنة، وأن هؤلاء الحاج هم العائدون من موسم حج ٣١١هـ. انظر ابن كثير، *البداية والنهاية*، ١٥: ١١.

(٦٧) عريب، *صلة*، ١١: ١٠٤.

(٦٨) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٥٠ ؛ عريب، *صلة*، ١١: ١٠٤.

(٦٩) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٤٧- ١٤٨؛ وقارن: ابن كثير، *البداية*، ١٥: ١١- ١٢.

(٧٠) إشارة إلى نكبة الحجاج في الهبير حيث قتل وأسر فيها عدد من قادة الجيش العباسي ووجهاء بغداد.

(٧١) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٢١- ١٢٢.

(٧٢) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١١٨، الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٠، ويذكر الهمذاني أن هذا الفارسي دخل الدار مع الصناع وبقي أياماً وعطش فخرج لطلب الماء فظفر به، ١١: ٢٤٠.

(٧٣) انظر: ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١١٨.

(٧٤) انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤١.

(٧٥) الطبري، *تاريخ*، ١٠: ٦٣- ٦٤ ؛ وانظر خبر الشيخ الذي يتشكل بصور مختلفة في: *مروج الذهب ومعادن الجوهـــر*، لعلي بن الحســين المســعودي (بيروت: دار الأندلس، ١٣٨٥هـ) ٤: ١٧١- ١٧٢؛ وانظر رواية ابن الجوزي عن هذه الحادثة في: *المنتظم*، ١٢: ٣٧٣.

(٧٦) الإسماعيلـــية: فرقة من فرق الشيعة، تقول إن الإمام بعد جعفر الصادق، ابنه إسماعيل نصاً عليه باتفاق من أولاده، واختلفوا في وفاتـــه حال حياة أبيه أم بعد ذلك. وأشهر فرق الإسماعيلية هم الباطنية التعليمية، انظر: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، *الملل والنحل*، تحقيق: عبدالعزيز الوكيل (بيروت: دار الفكر، د: ت)، ١٦٧- ١٦٨.

(٧٧) عريب، *الصلة*، ١١: ١٠٥؛ وقارن: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٥.

(٧٨) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٠٤.

(٧٩) عريب، *صلة*، ١١: ١٠٤.

(٨٠) انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٦ ؛ وقارن، ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٥٥- ١٥٦؛ ابن كثير، *البداية*، ١٥: ١٢.

(٨١) زُبالَـــة: بضـــم أوـــله، منزل معروف بطريق مكة من الكوفة،وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية . انظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ٣: ١٢٩- ١٣٠.

(٨٢) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٦٠- ٢٦١؛ ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٤٥- ١٤٦.

(٨٣) انظر: الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٦٠- ٢٦١.

(٨٤) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٦١؛ الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٧؛ وقارن: ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ٢٦٣.

(٨٥) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٦٤؛ عريب، *صلة*، ١١: ١٠٩؛ وقارن ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٤٢.

(٨٦) انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٥٨.

(٨٧) عريب، *صلة*، ١١: ١٠٨.

(٨٨) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٤٢.

(٨٩) عريب، *صلة*، ١١: ١٠٩؛ وذكر ابن الأثير في الكامل: رواية أخرى عن سبب تولية الخصيبي للوزارة، ٨: ١٥٨.

(٩٠) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٠٩؛ وقيل كان كاتباً للقهرمانة ثمل!؛ الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٧.

(٩١) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٤٧؛ وانظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٤٧ ؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٦٤.

(٩٢) الصولي، أخبار *المقتدر*، ٢٦٤.

(٩٣) عريب، *صلة*، ١١: ١١٠؛ وقارن الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٦٦.

(٩٤) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٧٢.

(٩٥) ابن مسكوية، *تجارب*، ١: ١٤٣.

(٩٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٦٣- ١٦٤.

(٩٧) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٧٢- ٢٧٣؛ عريب، *صلة*، ١١: ١١٢.

(٩٨) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٧٢؛ عريب، *صلة*، ١١: ١١٢.

(٩٩) الصولي، *أخبار المقتدر*، ٢٧٤؛ عريب، *صلة*، ١١: ١١٣.

(١٠٠) الصــولي، *أخبار المقتدر* ...، ٢٧٤؛ عريب، *صلة*، ١١: ١١٣؛ وانظر كذلك: محمد بن علي بن طباطبا، *الفخري في الآداب السلطانية* (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٢٦٧- ٢٦٨.

(١٠١) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٢.

(١٠٢) الكُـــرُّ: قال الأزهري، والكُرُ اثنا عشر وسقاً كل وسق ستون صاعاً. انظر: محمد بن مكرم بن منظور، *لسان العرب* (بيروت: دار صادر، د: ت) مادة "كرر".

(١٠٣) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٢.

(١٠٤) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧١.

(١٠٥) ابن الأثير: *الكامل*، ٨: ١٧١.

(١٠٦) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٧.

(١٠٧) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧١؛ وقارن الصولي، *أخبار المقتدر*، ص ٢٧٨.

(١٠٨) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٢- ٢٥٣ ؛ ابن الأثير، الكامل، ٨: ١٧١.

(١٠٩) انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٤ ؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٢.

(١١٠) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٤ ؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٢.

(١١١) انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٣.

(١١٢) المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٨- ٣٤٩، وانظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٥.

(١١٣) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ٢٦٥.

(١١٤) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٥.

(١١٥) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٤- ٢٥٥ ؛ وقارن ابن الأثير، *الكامل*، : ١٧٢- ١٧٣.

(١١٦) انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٣.

(١١٧) انظر: دي خويه، *القرامطة*، ٨٧.

(١١٨) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٥؛ ومن أجل تفاصيل أكثر انظر: ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٨١؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٤.

(١١٩) وردت أكثر من صيغة لإسم كاتب ابن أبي الساج فهو عند الهمذاني: أبو عبدالله بن خلف البرقاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٢.

(١٢٠) انظر: ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٦٦- ١٦٨؛ وقارن: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٧٤- ١٧٥.

(١٢١) الصولي، أخبار المقتدر، ٢٨١؛ وانظر: عريب، *صلة*، ١١: ١١٥.

(١٢٢) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥١.

(١٢٣) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٥.

(١٢٤) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٥.

(١٢٥) الرحـــبة: لعل المقصود بالرحبة هنا، رحبة مالك بن طوق: بينها وبين دمشق ثمانية أيام ... وإلى بغداد مائة فرسخ .. وهي بين الرقة وبغداد على شاطئ الفرات؛ انظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ٣: ٣٤- ٣٥.

(١٢٦) انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٣١٦، عريب، *صلة*، ١١: ١١٧.

(١٢٧) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٦.

(١٢٨) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٦.

(١٢٩) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٦.

(١٣٠) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٨٤.

(١٣١) ابن مسكويه، *تجارب*، ١: ١٨٦- ١٨٧؛ وقارن: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٧.

(١٣٢) ابن مسكوية، *تجارب*، ١: ١٨٧.

(١٣٣) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٧.

(١٣٤) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٧.

(١٣٥) علي بن مقلة، هو الوزير الكبير، ولد بعد سنة ٢٧٠هـــ، وزر للمقتدر والقاهر والراضي، وتعرض لمحن كثيرة، منها قطع لسانه ويده، وهو صاحب خط مشهور وقتل سنة ٣٢٨هـــ. انظر: أحمد بن محمد بن خلكان، وفيات *الأعيان*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٣٩٧هـــ/ ١٩٧٧م)، ٥: ١١٣- ١١٨ ؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ١٥: ٢٢٤- ٢٣٠.

(١٣٦) الهمـــذاني، *تكملـــة*، ١١: ٢٥٦؛ يظهر أن ترشيح نصر لابن مقلة يعود إلى الهدايا الكثيرة التي غمره ابن مقلة بها ليضمن فوزه بالمنصب. انظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٨٤.

(١٣٧) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٧.

(١٣٨) المســـعودي، *التنبـــيه*، ٣٥٤؛ ويعلـــق المسعودي على هذه التسمية أي البقلية بقوله: والعلة في تسميتهم البقلية، هو اسم دياني عندهم. أما عريب بن سعد، فذكر أن هذه الجماعة تعرف بالنقلية. انظر: *صلة*، ١١: ١١٩.

(١٣٩) انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٤- ٣٥٥ ؛ عريب، *صلة*، ١١: ١١٩ ؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٨٦- ١٨٧.

(١٤٠) انظـــر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٥، ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٨٦؛ * الموفقي نهر قرب واسط منسوب إلى الموفق أبي أحمد الناصر لدين الله بن المتوكل على الله وأخي المعتمد وهو نهر كبير حفره الموفق . انظر: ياقوت الحموي، *معجم البلدان*، ٥: ٢٢٥.

(١٤١) عريب، *صلة*، ١١: ١١٩.

(١٤٢) الطبري، تاريخ، ١٠: ٨٢ .

(١٤٣) انظــر: عــبدالعزيز الدوري، *تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري*، ط٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٥م)، ٩٦.

(١٤٤) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٤٥) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٤٦) انظر المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٤.

(١٤٧) ابن الجوزي، *المنتظم*، ٣: ٢٧٢؛ ابن كثير، *البداية*، ١٥: ٣١.

(١٤٨) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٤٩) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٥٠) انظــر: عريب، صلة، ١١: ١٢١؛ فهو يدرج هذه الحادثة ضمن حوادث سنة ٣١٧هــ، وهذا يخالف المشهور من أنها في نهاية سنة ٣١٦هــ، وقارن: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٧- ٢٥٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٨٨.

(١٥١) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ١٨٨.

(١٥٢) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٩ ؛ وقارن: ابن الأثير ، *الكامل*، ٨: ٢٠٠.

(١٥٣) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٥٩.

(١٥٤) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٦١ ؛ القاهر بالله، محمد بن أحمد المعتضد، أمه مولدّة بالمغرب يقال لها قتول، استخلف في شوال سنة ٣٢٠هــــ وخلع وسملت عيناه في جمادى الأولى سنة ٣٢٢هـــ وتوفي سنة ٣٣٩هــــ. انظر: الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ١: ٣٣٩- ٣٤٠. (ترجمة: ٢٥٣).

(١٥٥) عريب، *صلة*، ١١: ١٢٣.

(١٥٦) عريب، *صلة*، ١١: ١١٣- ١٢٥ ؛ الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٦١- ٢٦٢.

(١٥٧) عريب، *صلة*، ١١: ١٢٤- ١٢٥.

(١٥٨) عريب، صلة، ١١: ١٢٥؛ وقارن: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٦٣؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٠٦.

(١٥٩) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٠٢.

(١٦٠) انظر: عريب، *صلة*، ١١ : ٢٧، ٢٨، ١٢٤، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤.

(١٦١) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٠٦.

(١٦٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م)، ١٤٣.

(١٦٣) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٤.

(١٦٤) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠- ٣٥١ ؛ والغريب أن عريب بن سعد الذي أسهب في وصف حادثة الاعتداء على مكة ونهب كنوز الكعــبة يدرج هذه الحادثة ضمن أحداث سنة ٣١٦هـــ وهذا يخالف المشهور، ومن الجدير بالذكر أنه سبق وأن تعرضت مكة للإهانة والنهب والقتل على يد إسماعيل بن يوسف العلوي سنة ٢٥١هـــ، فقد سلبت الكعبة كسوتها وكنوزها وقتل الكثير من سكان مكة على يد ذلك العلوي . انظر: الطبري، تاريخ، ٩: ٣٤٦- ٣٤٧؛ وقارن: أحمد بن واضح اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٠هـــ/ ١٩٨٠م)، ٢: ٤٩٨؛ وانظر: القراءات المختلفة لاسم أمير مكة عند دي خوية، القرامطة، حاشية ٩٣.

(١٦٥) زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠٤.

(١٦٦) الهمـــذاني، *تكملة*، ١١: ٢٦٤؛ وانظر ما جاء من تصويب للبيت الأخير الذي جاء في كتاب: كشف *أسرار الباطنية وأخبار القرامطة*، للحمادي : وهو:

وأنا تركنا بين زمزم والصفا جنائز لا تبغي سوى ربها ربا

انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٥٨ ؛ ٢٢٣.

(١٦٧) أبو العلاء المعري، *رسالة الغفران*، تحقيق: عائشة عبد الرحمن (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧م)، ٣٥.

(١٦٨) حسن بزّون، *القرامطة بين الدين والدولة والثورة* (بيروت: دار الانتشار العربي، ١٩٩٧م)، ٧٦.

(١٦٩) زكار، *أخبار القرامطة*، ١٥٣؛ وانظر الخلاف حول حقيقة هذا الإله الدعي: لدى المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠؛ وقارن كذلك ما جاء عند دي خويه، *القرامطة*، ١٠٤- ١٠٧؛ لويس، أصول الإسماعيلية، ١٣٢ — ١٣٣.

(١٧٠) انظــر: زكــار، *أخــبار القرامطة*، ١٥٣؛ وانظر حول حادثة ظهور الدجال أبو زكريا الطمامي أو التمامــي أو الصمامي وتضــارب الأقــوال في وقــت مقتله، لويس، *أصول الإسماعيلية*، ١٤٤- ١٤٥؛ وانظر كذلك رأي مادلونغ بخصوص ظهور الأصفهاني بين قرامطة البحرين، وتسليم أبي طاهر سلطاته الحكومية له، ثم القضاء عليه أخيراً . "*الفاطميون وقرامطة البحرين*"، ٦١- ٦٢.

(١٧١) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠٤.

(١٧٢) المعري، *رسالة الغفران*، ٣٤.

(١٧٣) ناصر خسرو، *سفر نامة*، ١٤٤.

(١٧٤) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٤٨٦.

(١٧٥) دي خويه، *القرامطة*، ١١٧.

(١٧٦) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٢٢٤.

(١٧٧) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٧٨) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٠٥.

(١٧٩) انظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣٤٤- ٣٤٥.

(١٨٠) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٦٤؛ انظر التقديرات المتفاوتة للقتلى لدىدي خويه، *القرامطة*، ٩٥ - ٩٦.

(١٨١) دى خويه، *القرامطة*، ٩٦.

(١٨٢) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٠.

(١٨٣) انظر: دي خويه، *القرامطة*، ٩٦.

(١٨٤) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٢٧.

(١٨٥) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٢٨- ١٢٩.

(١٨٦) أبــو القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد: انظر خبر وزارته عند، *ابن طباطبا في الفخري في الآداب السلطانية*، ٢٧٣، ٢٨١- ٢٨٢.

(١٨٧) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٣٠؛ وقارن: ابن الأثير، الكامل ...، ٨: ٢١٨.

(١٨٨) عريب، *صلة*، ١١: ١٣١.

(١٨٩) أبو القاسم عبيدالله الكلوذي ؛ انظر: ابن طباطبا، *الفخري في الآداب السلطانية*، ٢٧٣.

(١٩٠) انظر: عريب، *صلة*، ١١: ١٣٨.

(١٩١) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٢٥.

(١٩٢) عريب، *صلة*، ١١: ١٣٩.

(١٩٣) عريب، *صلة*، ١٤٠.

(١٩٤) عريـــب، صلة، ١١: ١٤١؛ وانظر: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٣٠ -٢٣٢ حيث ذكر أسطورة تقليد ابن وهب للوزارة وهي تصور مدى سذاجة بعض رجال الدولة وصناع القرار في ذلك الوقت إن كان في تلك الأسطورة شيء من الصحة.

(١٩٥) عريب، صلة، ١١: ١٤٢- ١٥٢ ؛ وقارن: المسعودي، *التنبيه*، ٣٤٣؛ والهمذاني، يدرج مقتل المقتدر ضمن حوادث سنة ٣١٨ هـــ وهذا يخالف تماماً ما هو معروف، *تكملة*، ١١: ٢٧٢ — ٢٧٣.

(١٩٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٣.

(١٩٧) عريب، *صلة*، ١١: ١٥٢.

(١٩٨) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٤.

(١٩٩) عريب، *صلة*، ١١: ١٥٣ ؛ وقارن: ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٤ : ٢٤٥.

(٢٠٠) انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٢.

(٢٠١) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٧٤.

(٢٠٢) عريب، صلة، ١١: ١٥٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٦.

(٢٠٣) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٤- ٢٧٩؛ وقارن: ابن طباطبا، *الفخري*، ٢٧٦.

(٢٠٤) عريـــب، *صـــلة*، ١١: ١٥٦؛ يذكر عريب اسم يلبق، وورد في مصادر أخرى أنه بليق. انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٧٧- ٢٧٨؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٤٦.

(٢٠٥) عريب، *صلة*، ١١: ١٥٦.

(٢٠٦) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٨١.

(٢٠٧) انظر: عمر فوزي، الخلافة العباسية، *السقوط والانهيار* (عمان: دار الشروق، ١٩٩٨م)، ٢: ٦١.

(٢٠٨) الساجية والحجرية: الساجية: فرقة من الجند ينتسبون إلى ابن أبي الساج، أحد قواد المعتصم. والحجرية: فرقة من الغلمان الأتراك عينهم المعتصم لحراسة الحجر في قصر الخلافة وسموا بالحجرية نسبة إلى هذا الحجر . انظر: صفاء حافظ عبد الفتاح، *نظم الحكم في الدولة العباسية* (القاهرة: دار الثقافة، ١٩٨٦م)، ١٢٨- ١٨٩.

(٢٠٩) الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٢٨٢- ٢٨٤

(٢١٠) عمر، *الخلافة العباسية*، ٢: ٦١.

(٢١١) انظر المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٢- ٣٥٣؛ الهمذاني *تكملة*، ١١: ٢٨٤.

(٢١٢) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٣؛ وانظر: عمر، *الخلافة العباسية*، ٢: ٦٣.

(٢١٣) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٩٤.

(٢١٤) ابـــن الأثير، *الكامل*، ٨: ٢٩٥؛ وانظر: زكار، أخبار *القرامطة*، ١٥٤؛ حيث يذهب إلى القول بأنه بعد فترة من الوقت توصل الفـــريقان إلى اتفاق، تم بموجبه أن تدفع الخلافة لأبي طاهر مبلغاً كبيراً من المال سنوياً، ثم يعلل ذلك بسبب إخفاق القرامطة في

قطــع الحــج وإلى ما لحق الدولة الفاطمية إثر وفاة المهدي سنة ٣٢٢هــ/ ٩٣٤م. وهذا رأي في ظني يحتاج إلى إعادة النظر،، فالربط فيه بين الأحداث غير متماسك.

(٢١٥) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٣؛ وانظر: ابن طباطبا، الفخري في الآداب *السلطانية*، ٢٨٠- ٢٨٣.

(٢١٦) محمد بن رائق: انظر شيئاً من أخباره وسيرته عند: ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، ٥: ١١٤- ١١٥؛ الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ١٥: ٣٢٥- ٣٢٦.

(٢١٧) عمر، *الخلافة العباسية*، ٢: ٦٢؛ وانظر: محمد طقوش، *الدولة العباسية* (بيروت: دار النفائس، ١٤١٧هــ/ ١٩٩٦م)، ١٦٨- ١٦٩.

(٢١٨) انظر: عمر، *الخلافة العباسية*، ٢: ٦٢.

(٢١٩) انظر: المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٣- ٣٥٤.

(٢٢٠) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣١١.

(٢٢١) انظر: بزّون، *القرامطة*، ٢٣١؛ وقارن ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣٣٤؛ حيث أشار إلى ذلك الحدث إشارة غامضة.

(٢٢٢) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣٥١؛ زكار، *أخبار القرامطة*، ٢٢٥- ٢٢٦.

(٢٢٣) ابــن الأثــير، *الكامل*، ٨: ٣٥١- ٣٥٢؛ انظر تفاصيل مقتل الدجال الأصفهاني عند الذهبي، *سير أعلام النبلاء*، ١٥: ٣٢٣- ٣٢٤.

(٢٢٣) دي خويه، *القرامطة*، ١٠٥- ١٠٦؛ وقارن: بزون، *القرامطة*، ٢٣١.

(٢٢٥) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ٣٧٨؛ وانظر: زكار، *أخبار القرامطة*، ٣١٢؛ وانظر تفاصيل أكثر عن الفدية المالية عند دي خويه، *القرامطة*، ١١٠- ١١١.

(٢٢٦) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣٥٣- ٣٥٤، وانظر: دي خويه، *القرامطة*، ١١٢.

(٢٢٧) المسعودي، *التنبيه*، ٣٥٢- ٣٥٣؛ الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد*، ٢: ١٤٢ – ١٤٣.

(٢٢٨) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣٢٣.

(٢٢٩) ابن الأثير، *الكامل*، ٨: ٣٢٣- ٣٢٤.

(٢٣٠) المسعودي، *التنبيه*، ٣٦٢.

(٢٣١) انظر: الهمذاني، *تكملة*، ١١: ٣٥٣.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

حادثة اعتداء القرامطة على مكة في المصادر الأندلسية

خالد بن عبدالكريم البكر
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الملك سعود

التمهيد:*

اعتداء القرامطة على مكة شائعٌ ذائع في الأوساط العلمية، بل هو عندهم أشهر من قفا نبك. ولذا فإن هذه الدراسة لا تسعى إلى إعادة إنتاج أخبار الحادثة، وإنما تهدف إلى بذل المزيد من الجهود العلمية نحو استقصاء آفاق التواصل الحضاري بين الجزيرة العربية والأندلس، ومحاولة البحث عن مصادر أخرى لتاريخ الجزيرة العربية في العصر العباسي، فقد كان الأندلسيون ينظرون باهتمام إلى الحوادث السياسية والثقافية الواقعة بالمشرق فيتفاعلون معها، أما تلك الحوادث ذات الصلة بالمشاعر الدينية فأثرها أشد وأقوى. ويتبين ذلك من خلال رصد ردود فعل الأندلسيين – كما تصورها مصادرهم– على حادثة الاعتداء الآثم الذي وقع بمكة سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) حينما اجترأ أبوطاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي –زعيم قرامطة البحرين– على انتهاك حرمة الأماكن المقدسة، فعبث بها، ووضع السيف في رقاب الحجيج، ثم استخف بمشاعر المسلمين قاطبة عندما اقتلع الحجر الأسود من موضعه وحمله معه إلى بلاده.

لقد اختزنت الذاكرة الأندلسية هذه الحادثة بألم عميق، وظل صداها يتجاوب في أذهانهم عبر أجيال متطاولة. ولذا؛ فإن هذه الدراسة تسعى إلى معرفة أثر الحادثة في المجتمع الأندلسي، من خلال استقراء المصادر الأندلسية، مع التركيز بشكل خاص على المصادر المكتوبة في القرنين الرابع والخامس الهجريين، لقربها الزمني من الحادثة. فكيف عرضتها المصادر الأندلسية؟ وبماذا امتازت روايتهم حول الموضوع عن الرواية المشرقية؟ وما أثرها السياسي والفكري في الأندلس؟

(*) يتقدم الباحث بخالص الشكر والتقدير لسعادة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز بن صالح الهلابي، الذي تفضل بقراءة البحث فلم يكن ضنيناً بوقته ولا شحيحاً بعلمه، وإنما كان –كعادته– جواداً كريماً في إثراء البحث وإبداء عدد من الملحوظات العلمية الصائبة، فعسى الله أن يكافأه بالحسنى.

أولاً: عرض الحادثة في المصادر الأندلسية:

يحسن بنا قبل الخوض في استقصاء تفاصيل الرؤية الأندلسية تجاه الحادثة؛ أن نتساءل عن كيفية وصول خبرها إلى الأندلس؟

فمما يلفت الانتباه أن جُل المصادر التاريخية في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، قد ضربت صفحاً عن ذكر الحادثة، فلم تعتن بتدوينها، أو حتى الإشارة إليها . ويستثنى من ذلك قلةٌ ، منهم عريب بن سعد القرطبي (ت ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م) الذي قدّم توضيحات مهمة عن بعض جوانبها في صلته لتاريخ الطبري[١]، وأبو الوليد بن الفرضي (ت ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) الذي اكتفى بإيراد إشارات مقتضبة عنها في كتابه تاريخ علماء الأندلس[٢].

قد يعطي هذا انطباعاً بأن الأندلس استقبلت خبر الحادثة استقبالاً فاتراً، وليس هذا بصحيح. وإنما تفسير ذلك يكمن -على ما يظهر- في ميل مؤرخي الأندلس وقتذاك نحو تدوين تاريخ بلادهم، واهتمامهم بالتواريخ المحلية دون التواريخ العامة[٣]. ومع هذا فقد نزع بعضهم إلى تسجيل الحوادث التاريخية في المشرق، ومثال ذلك ما كتبه عريب بن سعد، الذي وصل تاريخ الطبري حتى سنة (٣٢٠هـ/ ٩٣٢م)، وتطرق في **صلته** إلى حادثة اعتداء القرامطة على مكة، فجعلها في سنة (٣١٦هـ / ٩٢٨م) خلافاً لما هو شائعٌ عند معظم المؤرخين[٤]، الذين وضعوها في سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م). لقد أورد عريب تفصيلات عما فعله القرامطة داخل المسجد الحرام، لا تختلف كثيراً عما هو مبسوطٌ في المصادر التاريخية، إلا أنه يكاد ينفرد بذكر مقاومة أعراب بني هذيل للقرامطة، عندما صعد أحدهم إلى سطح الكعبة ليقتلع ميزابها، "فرماه بنو هذيل الأعراب من جبل أبي قبيس بالسهام حتى أزالوه عن السطح، ولم يصل إلى قلعه"[٥].

ويبدو عريباً هنا أدنى إلى الدقة من بعض المصادر المشرقية في عصره،والتي تحدثت عن سقوط أحد رجال القرامطة من سطح الكعبة، ولكن دون الإشارة إلى الأسباب الواقعية لذلك . فثابت بن سنان الصابئ يصف المشهد بقوله: "وأصعد -أي القرمطي- رجلاً ليخلع ميزاب البيت، فوقع صريعاً ميتاً"[٦]، ومضى آخرون مثله على هذا النسق[٧]. غير أن قسماً من المصادر المتأخرة[٨]وافقت عريباً فيما ذهب إليه، ولعلها نقلت عنه مباشرة وإن لم تصرّح بذلك في موضعه[٩]، بينما اختار قسمٌ آخر من هذه المصادر، التوفيق بين الروايات المختلفة. ففي هذا الصدد أشار (قطب الدين النهروالي)[١٠] إلى أكثر من رجل صعد إلى سطح الكعبة بأمر القرمطي. فالأول أُصيب بسهم من جبل أبي قبيس فما أخطأ مقتله. وأما الثاني فسقط على رأسه، فتهيّب الباقون من الصعود .

ولقد امتاز عريبٌ أيضاً بإشارته إلى ما نهبه القرامطة من مقتنيات ثمينة في جوف الكعبة[١١]، لكن المؤسف هو أن الرجل لم يذكر مصدره الذي استقى منه هذه المعلومات، فهو ليس شاهد عيان لما حدث، وإلا لما فاته القول بأنه

(رأى) و (سمع)، فضلاً عن أنه لم يرحل أصلاً إلى المشرق كما يستفاد من مصادر ترجمته[١٢]. فإما أن يكون قد استقى معلوماته عن مصادر مشرقية أو مصادر أندلسية. ففي حال افترضنا الاحتمال الأول -وهو النقل عن مصادر مشرقية-؛ فإن أحد الباحثين[١٣]أشار صراحة إلى أن عريباً استفاد في صلته من صلة أخرى لتاريخ الطبري، دوّلها أحد مشاهير تلامذته وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغاني (ت ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م). وهذا من شأنه حسم القضية والتوقف عن التفكير في جميع الاحتمالات الممكنة، لولا أن هذا الرأي لا يخلو من هنات؛ أولها أنه اعتمد على ما ذكره صاعد الأندلسي[١٤]عن صلة الفرغاني لتاريخ الطبري، فاستنتج من ذلك أن صلة الفرغاني كانت متداولة في الأوساط العلمية بالأندلس، بحيث تمكن عريبٌ من مطالعتها والاستفادة منها.

والحق؛ أن صاعداً إنما أعطى في كتابه طبقات الأمم لمحة عابرة إلى صلة الفرغاني دون الإشارة إلى أن عريباً أو أحداً غيره من الأندلسيين قد استفاد منها. بل إنه لم ينصّ صراحة على أنها كانت متداولة في الأندلس، وحتى على فرض أن مجرد إشارته لها إنما تعني ذلك ضمناً ؛ فإن هذا كان في العصر الذي عاشه صاعد وهو القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، لا القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي الذي عاش فيه عريب.

وأمرٌ آخر؛ وهو أن عريباً لم يورد في ثنايا صلته أدنى إشارة إلى صلة الفرغاني، رغم أنه اعتاد على ذكر مصادر أخرى متنوعة.

أما الأمر الثالث؛ فهو أن الأوساط العلمية في الأندلس قد احتفت بكتاب عريب واغتبطت به، حيث قال المقري في هذا الشأن: "عريب بن سعد القرطبي، له كتاب اختصار الطبري، قد سعد باغتباط الناس به"[١٥]، وبالتالي فلا معنى لاحتفائهم بكتاب عريب لو أن صلة الفرغاني كانت في متناول أيديهم وقتئذ.

وبناءً على ما تقدم؛ فإنه لا يمكن القطع بأن جُل الموضوعات الواردة في صلة عريب -ومنها حديثه عن اعتداء القرامطة على مكة- كانت مقتبسة عن مصادر مشرقية. فمن يدري! لعل عريباً التقط مادته من أفواه الحجاج الأندلسيين الذين شهدوا الحادثة. لا سيما وأن ابن الفرضي أشار في تراجمه لعلماء الأندلس في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى بعض من شهد الحادثة من الأندلسيين، حيث نالهم نصيبٌ من أذى القرامطة، كما في حالة سعدان ابن معاوية[١٦] (ت ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) الذي أصابته ضربة سيفٍ في وجهه، أحدثت ضرراً بالغاً في خدّه وعينه[١٧]. ولا بد أن يكون سعدان قد قصّ على أهل بلده خبر القرامطة، وكيف أصابته هذه الجراح من سيوفهم، ولولا أن ابن الفرضي خصص كتابه لسرد تراجم علماء الأندلس، لكنّا نتوقع منه أن يُطلعنا على تفاصيل شافية عن رؤية الأندلسيين لهذه الحادثة. لا سيما وأن ابن الفرضي أشار إلى أندلسي آخر شهد الحادثة، وهو محمد بن شاكر ابن جناح[١٨]، فقال عنه: "رحل وشهد وقعة القرمطي بمكة، وذلك سنة ثمان عشرة"[١٩]. وهذا ما يحملنا على الظن بأن تفاصيل الحادثة ذاعت على الفور في الأندلس، بواسطة رواة أندلسيين كانوا شهود عيان لوقائع الحادثة. بل إن ابن الفرضي

أبدى اهتماماً ملحوظاً بتداعياها اللاحقة، فسعى إلى توثيق أحداثها البارزة من خلال تراجمه، فمثلما ترجم لأشخاص شـــهدوا الحادثة عند وقوعها؛ فقد ترجم أيضاً لآخرين شهدوا الفصل الأخير من تداعياها، والمتمثل في إعادة الحجر الأسود إلى موضعه . ففي ترجمته لمحمد بن عبدالملك بن ضيفون اللخمي[٢٠]، قال عنه: "حج سنة تسع وثلاثين، وشهد صرف الحجر الأسود إلى مكانه في هذا العام"[٢١].

ومـــا يلفت الانتباه أن ابن الفرضي وضع تاريخ الحادثة في سنة (٣١٨هـ/ ٩٣٠م) خلافاً لما ذهب إليه عريب ابـــن سعد من أنها وقعت سنة (٣١٦هـ/ ٩٢٨م). وعدم الدقة في ضبط التاريخ الصحيح لسنة الحادثة أمـــرٌ وارد حتى في المصادر المشرقية، فقد أعطى بعضهم تاريخاً آخر لهذه الحادثة، فوضعها في سنة (٣١٩هـ/ ٩٣١م) مثلما فعل الفاسي في **شفاء الغرام**[٢٢]، لكن معظم المصادر المشرقية أجمعت على تعيينها في سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م) كما مرّ بنا مـــن قـــبل. ونحن لا نظفر بمثل هذا التاريخ في المصادر الأندلسية إلا في القرن الخامس الهجري، وهي أبعد زمناً عن تـــاريخ الحادثة من مصادر القرن الرابع الهجري، غير أن المرء يلحظ تطوراً نوعياً في مادها العلمية عند استقصائه لخبر الحادثـــة. إذ حفلت بتفاصيل جديدة لم ترد في سابقاها من مصادر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وسلّطت الضـــوء على جوانب أخرى من الحادثة، خارج المسجد الحرام، إذ كانت المصادر الأخرى تقتصر -في الغالب- على وصف ما جرى داخل الحرم الشريف، لشناعته وفظاعته . فقد تحدث ابن حزم في الجمهرة[٢٣] عما لحق بقاضي مكة يحـــيى بن عبدالرحمن بن هارون القرشي الزهري من ضرر القرامطة. إذ أوذي في ماله، وسُلب من ممتلكاته ما يُقدر بمائـــة وخمســـين ألف دينار، فهان ذلك عنده مقابل الإبقاء على حياته، حيث تمكن من الهرب مع أسرته إلى وادي الـــرهجان[٢٤]. ولقـــد أثنى عليه ابن حزم ، لأنه "لم يُسمع شاكياً أو ذاكراً شيئاً مما أُخذ له"[٢٥]. وعلى الأرجح؛ فإن قاضـــي مكـــة لم يكن الشخص الوحيد الذي ألّمت به هذه المصيبة في أمواله؛ وإنما لقي آخرون من أهل مكة المصير نفســـه، حيـــث امتد أذى المعتدين إلى بيوت الناس، فنهبوا أموالهم وممتلكاهم ، وهو ما يبيّنه (النهروالي) بقوله: "... وكذلك نُهبت دور أهل مكة إلى أن صار الباقي ممن نجا من تلك الواقعة فقراء يستعطون .." [٢٦].

وعلـــيه؛ فإن ما جاء به (ابن حزم) يعكس جانباً مهماً من معاناة أهل مكة وقتذاك، إلا أنه -أي ابن حزم- لم يذكـــر مصدراً لمعلوماته هذه[٢٧]. واللافت للانتباه أن (ابن فهد) في **إتحاف الورى**، و(عبدالقادر الجزيري) في **الدرر الفـــرائد** اقتفيا أثر (ابن حزم) في إيراد هذا الخبر دون الإحالة إلى مصدر، فلعلهما نقلاه عن **الجمهرة** ، ولربما استقى (ابـــن حـــزم) هذه المعلومة عن معاصريه الأندلسيين العائدين من الحج، حيث كان لبعضهم اهتمامٌ ملحوظ بتدوين الأخبار والوقوف على الآثار، وفي مقدمة هؤلاء أبو العباس أحمد بن عمر العذري (ت ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، والذي أخذ عنه ابن حزم في كتابه الجمهرة[٢٨].

لقـــد رحل العذري إلى مكة وجاور بها ثمانية أعوام (٤٠٨- ٤١٦هـ/ ١٠١٦- ١٠٢٤م)، ثم انتهز فرصة وجوده في مكة، ومضى يقف على معالمها ويتتبع آثارها، فشاهد مقبرة جماعية بالقرب من الحجون[٢٩]، واعتبرها أثراً

ماديـــاً من آثار اعتداء القرامطة على الحجيج سنة (٣١٧ هـــ/ ٩٢٩م) فقصّ خبرها على طلابه في الأندلس، وأثبت ذلـــك أبـــو عبـــيد البكري (ت ٤٨٧هـــ/ ١٠٩٤م) في معرض حديثه عن اعتداء القرامطة على مكة، فقال: "... وأخـــبرني أبو العباس، قال: لما حضرت سنة خمس عشرة وأربعمائة الحفر بين الحجون والأوصام؛ أُثيرت هناك جماجم وعظام كثيرة، فلما رأوا ذلك أعادوا ما نُبش من التراب منها"[٣٠].

عـــلى أن الـــبكري لم يكتف بما شاهده العذري أو سمعه -أثناء مجاورته بمكة- عن اعتداء القرامطة ؛ وإنما نقل مادته أيضاً عن مصادر مكتوبة، وهي فيما يبدو مصادر مفقودة، كتاريخ أبي بكر محمد بن علي بن القاسم، ومصنفٌ لإبراهيم بن فارس، فاستفاد منها البكري، واستوفى معلوماتها عن أخبار الحادثة، ثم عرضها عرضاً مفصّلاً نكاد نفتقر إلى مثله في المصادر المشرقية.

لقد حدّد البكري تاريخ الاعتداء على مكة، فبيّن أنه وقع يوم الاثنين السابع من ذي الحجة من سنة (٣١٧هـــ/ ٩٢٩م)[٣١]، مخـــتلفاً في تعـــيين السنة عن كل من عريب بن سعد وابن الفرضي!. كما حدّد أيضاً قوة القرامطة التي هاجمـــت مكة بتسعمائة مقاتل[٣٢]، وهو رقمٌ ضئيل قياساً بالفظائع التي ارتكبها القرامطة في مكة، غير أنه من الممكن قبـــوله إذا أخذنا ببعض الروايات التي نصّت على أن أبا طاهر سليمان زعيم القرامطة، لم يتمكن من دخول مكة إلا بعـــد أن أعطـــى أهـــلها الأمان، وأظهر لهم أنه قادمٌ للحج[٣٣]، فلو كان عدد قواته كبيراً لما احتاج إلى ذلك كله، ولاقتحم عليهم البلد الحرام عنوةً. ومن الممكن أيضاً القول بأن البكري أراد بهذا العدد احتساب المقاتلين من الرجالة فقط دون الفرسان، وهو ما تعضده مصادر أخرى[٣٤].

أما ضحايا الاعتداء في المسجد الحرام، فبلغ عددهم -وفقاً للبكري- ألفاً وسبعمائة رجل وامرأة، وُضع السيف في رقابهم جميعاً حتى من كان منهم متعلقاً بأستار الكعبة، وقد امتلأت بئر زمزم بجثث القتلى[٣٥]. والبكري في تقديره لعدد الضحايا بهذا الرقم، يبتعد عن المبالغات الواردة في بعض المصادر المشرقية، والتي وصلت بعدد القتلى إلى الثلاثين ألفـــاً[٣٦]، وهو أمرٌ فيه نظر قياساً إلى المدة التي أمضاها القرامطة في مكة، والتي لا تتجاوز أحد عشـــر يوماً في حدّها الأقصى[٣٧].

وعـــندما يصل البكري إلى خبر اقتلاع الحجر الأسود من موضعه ؛ فإنه يعوّل على مصدر أصيل، كان شاهد عـــيان مباشـــر للحدث. ولذا اتسمت مادته هنا بالدقة والشمول، فهو يذكر اليوم الذي اقتلع فيه الحجر الأسود، بل ويحـــدّد وقت اقتلاعه، ثم يعيّن اسم الرجل الذي باشر عملية الاقتلاع بيده، وهو كما يستدل من اسمه؛ رجل من أهل مكـــة اشتغل بحرفة البناء، فقال في ذلك: "قال محمد بن علي الذهبي: وحضرته يوم قلع، يوم الاثنين بعد العصر لأربع عشرة خلت من ذي الحجة من العام المؤرخ -أي عام ٣١٧هـــ/ ٩٢٩م-، قلعه بيده جعفر بن أبي علاج البنا المكي بأمر القرمطي -لعنه الله- وحمل الحجر إلى بلاده .."[٣٨].

الواقع أننا لم نتمكن من الاهتداء إلى شخصية محمد بن علي الذهبي، الذي نقل عنه البكري هذه الفقرة، كما أن

الباحثين[٣٩] الذين درسوا إنتاج البكري وفحصوا مصادره، لم يأتوا بنتيجة تُذكر حول هذه الشخصية . فلعله صاحب مصنفٍ مفقود، مما يعطي رواية البكري هنا قيمة خاصة.

على أن المعلومات التي أوردها البكري تكتسب قدراً آخر من الأهمية، وذلك في إشارته إلى أن زعيم القرامطة استعان بالبنائين لاقتلاع الحجر الأسود. الأمر الذي يكشف عن رغبة القرامطة في المحافظة على الحجر، بقصد المساومة عليه مستقبلاً، وهذا بخلاف ما ذهب إليه (عارف تامر)[٤٠] الذي حاول تعليل هذا المسلك المنحرف من قبل القرامطة، باتساقه مع تعاليم الإسلام التي ألغت عبادة الأصنام !، فاستشهد في ذلك بقول الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ مخاطباً الحجر الأسود: "... والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك"[٤١].

فلو أن الأمر كذلك عند القرامطة؛ لأوكلوا المهمة لأحد رجالهم ليقوم بتكسير الحجر وتحطيمه بشكل كامل، لا أن يستعينوا بأحد البنائين المهرة ليقتلعه من موضعه بعناية.

ثم إذا كان الحرص على تنقية الشعائر الإسلامية من شبهة عبادة الأصنام، هو الذي دفعهم إلى سلب الحجر الأسود؛ فماذا نقول عن قتلهم الرجال والنساء في البلد الحرام وفي الشهر الحرام، فضلاً عن نهب أموال الناس وممتلكاتهم!. ولذا لم يلتفت (مصطفى غالب) إلى مسألة تنقية الشعائر الإسلامية من شبهة عبادة الأصنام، وإنما عني بإظهار البعد السياسي في الحادثة، فقال: "**إن الغاية من هذا التصرف هو إظهار عجز الخلافة العباسية عن حماية الحجاج والأماكن المقدسة**"[٤٢]. ربما كان محقاً بعض الشيء في رؤيته لجانب من جوانب الحادثة، ولكن فاته أن الاستخفاف بمقدسات المسلمين لا يمكن أن يؤدي إلى استعداء الناس ضد الخلافة العباسية وكسب تأييدهم، بل إن العكس هو الصحيح.

ومثلما نصّ البكري على ذكر اسم الرجل الذي اقتلع الحجر الأسود بيده؛ فقد حرص أيضاً على إيراد اسم الرجل الذي باشر عملية إعادته إلى موضعه، فقال: "... وأُعيد الحجر إلى مكانه يوم النحر، ردّه بيده حسن بن المزوّق البنا، فكانت غيبته من يوم قلع إلى أن رُد اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام"[٤٣].

ويلاحظ أن البكري لم يذهب إلى القول بأن هذه المدة الطويلة من احتجاز القرامطة للحجر الأسود، كانت محاولة منهم لإضفاء الطابع الديني على منطقتهم، مثلما فعل غيره من مؤرخي المشرق[٤٤]، والذين دعموا فكرتهم بقيام القرامطة بتأسيس دارٍ للهجرة في الأحساء[٤٥] سنة (٣١٦هـ/ ٩٢٨م)[٤٦]، أي قبل الهجوم على مكة بعام واحد.

ثانياً: أثرها السياسي:

جاء حادث اعتداء القرامطة على مكة متزامناً مع ذروة الصراع السياسي في الغرب الإسلامي بين الفاطميين والأمويين، ووضحت معالم هذا الصراع في مبادرة أمويي الأندلس لانتزاع مدينتي (سبتة)[٤٧] سنة (٣١٦هـ/ ٩٢٨م)

و (طنجة)[٤٨] سنة (٣١٩هـ/ ٩٣١م) لتكونا نقطتي ارتكاز للجيوش الأموية في المغرب، وخط دفاع أمامي للأندلس، يتيح لها مراقبة الأحداث في المغرب الأقصى عن كثب، ومقاومة الخطر الفاطمي الزاحف.

لقد تخلل هذا الصراع حملات دعائية متبادلة بين الجانبين حول شرعيتهما في الحكم، ففي حين رفع الفاطميون شعار حق آل البيت في الخلافة؛ ردّ الأمويون بتكذيب دعوى الفاطميين في انتسابهم إلى الدوحة النبوية. وعندما سمّى الفاطميون أنفسهم خلفاء؛ قام عبدالرحمن بن محمد بإجراء مماثل، فأعلن نفسه خليفةً، واتخذ لقباً خليفياً، فصار يدعى "الناصر لدين الله"، وكان ذلك في ذي الحجة من عام (٣١٦هـ/ ٩٢٨م)، حيث بلغ الصراع ذروته بين الجانبين.

فلما وقعت حادثة اعتداء القرامطة على مكة بعد ذلك بعام، انعكست آثارها بسرعة مذهلة على مسرح الصراع السياسي في المغرب، فقد شعر الفاطميون بحرج شديد في العالم الإسلامي، ولا أدل على ذلك من خطاب عبيد الله المهدي (٢٩٧هـ/ ٩٠٩م) إلى أبي طاهر في هذا الصدد، حيث كتب إليه موبخاً، فقال: "... قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت، وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم، وترد الحجر الأسود إلى مكانه، وترد كسوة الكعبة، فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة ..."[٤٩].

أما في الأندلس ؛ فقد صوّر (ابن حيان)[٥٠] في مقتبسه موقف الخليفة عبد الرحمن بن محمد (الناصر لدين الله) من الحادثة، حيث حرص على استغلالها في دعايته السياسية، فلم يقتصر على التشهير بالفاطميين ومن انضوى إليهم من القرامطة وحسب؛ وإنما غمز قناة العباسيين أيضاً لكونهم عاجزين عن حماية الأماكن المقدسة، ثم لم يلبث أن أعلن عزمه على المسير إلى المشرق لحماية بيت الله الحرام أولاً، و ليطلب الجاني بجنايته ثانياً، ولاستعادة ميراثه وملك آبائه الخلفاء ثالثاً. وشرع في الإعداد لهذا المشروع الضخم، فأعلن التعبئة العامة بين صفوف قواته في الأندلس وقوات حلفائه بالمغرب، وأمر بالاستعداد "لميقات معلوم ووقت محدود" والاستكثار من الأسلحة والمراكب، بل وحدد مرافئ العبور من الأندلس إلى المغرب، وهي سبتة و وهران[٥١]. لكن الناصر لم يحقق شيئاً من ذلك؛ إما لأن الأمر لا يعدو كونه مناورة عسكرية هدفها استعراض القوة وإيهام الفاطميين بهجوم كبير عليهم، وإما لأنه شعر باستحالة تنفيذ مثل هذا المشروع لبعد الشقة بين الأندلس والمشرق، وعدم توفر الإمكانيات اللازمة لهذا المشروع الضخم والخطير[٥٢].

وعليه؛ فإن غاية ما كان يطمح إليه الناصر من وراء توظيف الحادثة في دعايته السياسية، إنما هو مقاومة المدّ الإسماعيلي في الأندلس، إضافة إلى تأجيج الثورات المحلية في إفريقيه ضد الفاطميين، باعتبارهم مسئولين في النهاية عن انتهاك القرامطة لحرمة الأماكن المقدسة، ووضح ذلك في الشعارات التي رددها الثائرون مع أبي يزيد مخلد بن كيداد الزناتي (٣١٦- ٣٣٦هـ/ ٩٢٨- ٩٤٧م)، إذ وصفوا الخليفة الفاطمي القائم بن عبيدالله المهدي (٣٢٢- ٣٣٤هـ/ ٩٣٤- ٩٤٥م)، بـ "القرمطي الكافر"[٥٣].

ثالثاً: أثرها الفكري:

تركت هذه الحادثة الشنيعة في نفوس الأندلسيين شعوراً عميقاً بالألم، شأنهم في ذلك شأن المجتمعات الإسلامية الأخـــرى التي كبُر عليها إهانة المسلمين في مقدساتهم. وهذا ما دفع بعض الأندلسيين إلى وصف القرامطة بأنهم بغاة خارجون على الخلافة الشرعية، إذ قال فيهم (أبو طالب عبد الجبار الشقري) في أرجوزته التاريخية: [٥٤]

فولي الخلافـــة المعتضـــــد	وكــــان في حربـــه يؤيـــد
فخرجت في ملكه القرامطة	بغياً فأبدى فيهم مساخطه

لكـــن السواد الأعظم من مسلمي الأندلس نظر إلى القرامطة باعتبارهم غير مسلمين، وأشدهم في ذلك الفقيه (ابـــن حزم) الذي هاجمهم في المحلى فوصفهم بـــ "القرامطة الكفرة لعنهم الله"[٥٥]، كما وصف زعيمهم أبا طاهر سليمان بـــ "الكافر الملعون الذي قتل المسلمين في المسجد الحرام وسلبهم"[٥٦]، بل إنه ذهب إلى القول أن "من سكن في أرض القـــرامطة مختاراً فكافرٌ بلا شك، لأنهم معلنون بالكفر وترك الإسلام ونعوذ بالله من ذلك"[٥٧]. ولم يقتصر (ابن حزم) على ما تقدم؛ وإنما اتهم القرامطة بالدعوة إلى المساواة في المكاسب والنساء، متأثرين في ذلك بالمزدكية[٥٨].

وقد حاول أحد الباحثين[٥٩] نفي هذه التهمة عن القرامطة العرب لأنهم أقل تطرفاً في المسائل الدينية والأدبية من إسماعيلـــية الفـــرس، أو لأنهـــم لم يكونوا مطلعين على أغراض رؤساء الحركات السرية. وبصرف النظر عما رمي به القـــرامطة مـــن ممارسات إباحية ؛ فإن ما أشار إليه (ابن حزم) -وهو الذي لم يرحل قط خارج الأندلس- من دعوة القـــرامطة إلى المســـاواة في المكاسب، قد أكّده الرحالة الفارسي (ناصر خسرو)[٦٠] عند زيارته لإقليم هجر في القرن الخـــامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وهو أمرٌ يدل في النهاية على أن الأندلس عرفت شيئاً غير قليل عن الحركة القرمطية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين.

ولقـــد صنّف (الشاطبي) القرامطة ضمن الفرق الباطنية[٦١]. أما (القرطبي) فقد شبّههم بالزنادقة الطاعنين في القرآن الكريم[٦٢]، ولعله استمد رأيه هنا مما تناقلته الروايات التاريخية من أن أبا طاهر القرمطي كان يقول مستهزئاً – وهو يخاطب المسلمين في المسجد الحرام-: "... أنتم تقولون: ومن دخل هذا البيت كان آمناً، فأين الأمن وقد فعلت ما فعلت؟"[٦٣]. وكان يقول أيضاً "أين الطير الأبابيل؟ أين الحجارة من سجيل؟"[٦٤].

واعتبر (لسان الدين بن الخطيب) القرامطة رمزاً للسوء والظلم، فقال يصفهم في أرجوزته[٦٥]:

في عهده قد ظهر القرامطة	أمة سوء في الأنام قاسطـــة
اقتلعوا من المقام الحجـــرا	وقتلوا الحجاج ظلماً واجترا

وأياً ما كان حجم الاختلاف في تصنيف القرامطة عند الأندلسيين؛ فإن من الجلي الواضح أن الفكر الأندلسي

في إجماله كان يرى فساد عقائد القرامطة، وأنها رجسٌ من عمل الشيطان، مثلما عبّر عنها أبوحيان النحوي الأندلسي (ق ٧هـ) بقوله[٦٦]

ويجرون التيوس وراء رجس تقرمط في العقيدة والمقال

وقلما ورد في المصادر الأندلسية ذكرٌ لأحد زعماء القرامطة دون أن يكون اسمه متبوعاً باللعن والتجريم والتأثيم . فقد أثنى (ابن حزم) على قاتل أبي سعيد الجنّابي، فقال: "... وما أعلم أحداً أعظم يداً عند المسلمين منهم، رضي الله عنهم"[٦٧]. واعتبر (ابن بسام)[٦٨] أبا سعيد الجنّابي من جبابرة الملوك في الإسلام. ولئن كانت عبارة (ابن بسام) أقل قسوة من مثيلتها لدى (ابن حزم)؛ فإن (ابن جبير) حمل بشدة على أبي طاهر القرمطي، فقال واصفاً الحجر الأسود: "... وفيه أربع قطع ملصقة، ويقال إن القرمطي لعنه الله هو الذي كسره ..."[٦٩].

على أن هناك مصادر أندلسية أمسكت عن ذم القرامطة حين تعرضت لخبر اعتدائهم على مكة، وإنما أوردت خبر الحادثة دون تعليق يشي بموقف فكري، ففي العقد الفريد (لابن عبد ربه) نجد العبارة التالية في سياق الحديث عن باب الكعبة، وهي: "وحواجبه كلها مذهبة ما عدا الحاجب الأيمن، فإن العلوي الثائر لما تغلب على مكة قلع ذهبه فترك على حاله"[٧٠]. بينما يطالعنا (ابن الأبار) في الحلة السيراء بقوله: "... وفي أيام عبيدالله -يعني خليفة الفاطميين- بطل الحج وأخذ الحجر الأسود، أخذه القرامطة فبقي وأقام عندهم اثنتين وعشرين سنة إلا شهراً"[٧١]. أما (محي الدين بن عربي)[٧٢] فقد قال في محاضرة الأبرار ما يلي: "وفي أيام المقتدر بالله، بطل الحج، سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وأخذ الحجر الأسود. وذلك أن أبا طاهر سليمان بن الحسن القرمطي، دخل مكة يوم التروية، فقتل الحجاج قتلاً ذريعاً، ورمى القتلى في زمزم، وأخذ الحجر الأسود، وعرّى الكعبة، وقلع بابها. وبقي الحجر الأسود عندهم اثنين وعشرين سنة إلا شهراً، ثم ردّوه لخمس خلون من ذي القعدة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وكان قد بذل لهم في رده خمسون ألف دينار، فما فعلوا، وقالوا: أخذناه بأمر، فلا نرده إلا بأمر".

فابن عربي هنا لا يستعمل ذات الألفاظ التي استعملها غيره من المؤلفين الأندلسيين في تجريم عمل القرامطة. وفوق هذا فإنه يستبعد تصنيف صنيعهم هذا ضمن أعمال السلب والنهب، حيث نصّ على أنهم رفضوا المبالغ الطائلة التي عرضتها عليهم الخلافة العباسية لافتداء الحجر الأسود منهم[٧٣].

إننا لا نجد في هذه النصوص التي استعرضناها إدانة قوية لجريمة القرامطة كتلك التي مرت بنا من قبل. ولربما خطر في الذهن أن إحجامهم عن ذلك يعزز ما قيل فيهم من أنهم ذوو ميول شيعية. فابن عبد ربه رماه دارسه (جبرائيل جبور) بالتشيع[٧٤]، بينما أعلن (المقري)[٧٥] أنه يشتم رائحة التشيع من كتاب درر السمط وخبر السبط لابن الأبار. وأما ثالث الثلاثة محي الدين بن عربي ، فقد وصفه (المقري)[٧٦] بأنه ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات. كما اعتبره (مصطفى غالب)[٧٧] من أكبر فلاسفة الإسماعيلية.

والواقـع؛ أن ما قيل عن الثلاثة الذين ذكروا غير صحيح، فالأدلة التي ساقها (جبور) لإثبات تشيع ابن عبدربه تقـوم في مجمـلها عـلى أساس أن كتاب العقد مشحونٌ بفضائل علي بن أبي طالب، وذم مخالفيه. وهذا الوجه من الاسـتدلال لا يصح في نعت المرء بأنه يتشيع، فكيف إذا كان هذا المرء من موالي الأمويين -كابن عبدربه- وقد نظم أرجوزة ذكر فيها الخلفاء الراشدين، فأسقط منها علياً رضي الله عنه، وجعل مكانه معاوية بن أبي سفيان ﷺ [٧٨].

وأمـا قـول (المقري) عن تشيع ابن الأبار في كتابه درر السمط، فقد ردّ هذه المسألة محقق الكتاب الذي أكدّ بنـبرة جازمـة "أنـه لم يرد في مصنفات ابن الأبار التي وصلتنا ما يوحي بموقف شيعي أو متعاطف مع آراء الشيعة الكلامية"[٧٩]. وفيما يتعلق بمحي الدين بن عربي وتصنيفه في عداد الإسماعيلية، فيكفي أن نورد هنا البيان الذي عبّر به الـرجل عـن موقفـه من الإسماعيلية بوضوح تام، فقد أثنى على أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) حينما هـاجمهم في كـتابه (فضائح الباطنية) فقال -أي ابن عربي-: "ونبغت طائفة ثالثة ضلت وأضلت؛ فأخذت الأحكام الشـرعية وصرفتها في بواطنهم، وما تركت من حكم الشريعة في الظواهر شيئاً، تسمى الباطنية، وهم في ذلك على مذاهـب مخـتلفة. وقد ذكر الإمام أبو حامد في كتاب المستظهري له في الردّ عليهم شيئاً من مذاهبهم وبيّن خطأهم فيها"[٨٠].

عـلى أن بعض الأندلسيين قد أبدى إعجابه بما فعله القرامطة، وتمنى لو أنه يفعل مثل ما فعلوا، فقد أشار (ابن سهل) في نوازله إلى رجلٍ منهم، اسمه (أبو الخير)، كان يجاهر بقوله: "لو استطعت أن أقلع الكعبة وأترك المسلمين بلا قبلة لفعلت " كما كان يزري على الحجيج "الذين يتعبون أبدانهم ويخرقون ثيابهم ويقصدون حجارة صماء"[٨١].

ويستوقفنا هنا أن أبا الخير لم يدع إلى اقتلاع الحجر الأسود من موضعه فحسب؛ وإنما كان يتمنى إزالة القبلة بأكمـلها، وتعطيل شعائر الحج. ولقد اجتهد في نشر آرائه بين أوساط العامة من الناس. ومثل هذا الكلام قد يستفاد مـنه في الـتعرف على أسباب اعتداء القرامطة على مكة في موسم الحج بالذات، فهو يدعم فكرة القائلين بأن شعائر الحج عند القرامطة من شعائر الجاهلية[٨٢]. لا سيما وأن المصادر نسبت لأبي طاهر القرمطي أبياتاً من الشعر، قالها عند فراغه من مهاجمة مكة، وهي تصب في هذا الاتجاه، وجاء فيها قوله: [٨٣]

فلو كان هـذا البيـت لله ربنـا	لصبّ علينـا النار من فوقنا صبـا
لأنا حججنـا حجـة جاهليـة	محللة لم تبـق شرقاً ولا غربـا
وأنا تركنا بين زمزم والصفـا	جنائز لا تبغي سوى ربها ربـا
ولكن رب العرش جل جلالـه	لم يتخذ بيتاً ولم يتخـذ حجبـا

لم يكـن أبـو الخير وحيداً في هذا الاتجاه ؛ وإنما تبعه في ذلك آخرون من أبناء الأندلس، بدليل قول الخليفة

الحكــم المستنصــر بالله (٣٥٠- ٣٦٦هـ/ ٩٦١- ٩٧٦م): "... وقد بلغني أن جماعة على مذهبه، وأمرت الحكام بالتشديد عليهم وإخافتهم ..."[٨٤]. ومع ذلك فإن رواج مثل هذه الأفكار في الأندلس محدود جداً، وذلك لما كان للمذهب السني من قوة متأصلة[٨٥].

الخاتمة

تبـيّن من الدراسة أن المصادر الأندلسية تناولت -باهتمام- خبر اعتداء القرامطة على مكة، فلم يقتصر عرضها أو الإشـارة إلـيها على المدونات التاريخية وكتب التراجم والطبقات فحسب ؛ وإنما جاءت أيضاً كتب البلدانيات والأنســاب بتفاصيل مهمة عنها، تناقلها -فيما بعد- مؤرخو المشرق الإسلامي، وذلك أمرٌ يدل على أهمية المصادر الأندلسية في الكشف عن جوانب من تاريخ الجزيرة العربية، لا سيما في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، الذي تزامن فيه ازدياد عدد المرتحلين من أبناء الأندلس إلى الحجاز ؛ مع نشاط الحركة العلمية في الأندلس، وما استتبعها من ظهور عدد من المصنفات المتنوعة.

وكشفت الدراسة أيضاً عما امتازت به المصادر الأندلسية من ميل ظاهر إلى الابتعاد عن المبالغة في تصوير وقائع الحادثة، إضافة إلى الدقة والشمول في عرض تفاصيلها، إذ وصل الأمر ببعضهم إلى الوقوف المباشر على مسرح الحادثة بمكة، محاولاً استنطاق آثارها المادية.

كمـا اتضح من الدراسة أن الحادثة ألقت بظلالها على قضية الصراع السياسي في الغرب الإسلامي، بين أمويي الأندلس والفاطميين.

ولعل في ذلك ما يشير إلى درجة التواصل الحضاري بين أطراف العالم الإسلامي وبين مركزه.

التعليقات

(١) عريــب بن سعد القرطبي، *صلة تاريخ الطبري*، نشره محمد أبو الفضل إبراهيم ملحقاً بتاريخ الأمم والملوك للطبري (بيروت: دار التراث، د. ت)، ١١/١١٩.

(٢) ابــن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد الأزدي، *تاريخ علماء الأندلس*، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط١ (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١/٣٢١- ٣٢٢؛ ٢/٧٠٤.

(٣) يوســف أحمــد بــني ياســين، *علم التاريخ في الأندلس حتى نهاية القرن الرابع الهجري*، ط١ (الأردن: حمادة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م)، ٢٢٣.

(٤) المســعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، *التنبيه والإشراف* (بيروت: دار الهلال، ١٩٨١م)، ٣٥١؛ مسكويه، أبو علي أحمد ابن محمــد، *تجــارب الأمــم* (مصر: مطبعة شركة التمدن الصناعية، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، ١: ٢٠١؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عــبدالرحمن، *المنــتظم في تاريخ الملوك والأمم*، ط١ (حيدر آباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧هـ)، ٦: ٢٢٢؛ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد، *الكامل في التاريخ* (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ٦: ٢٠٣.

(٥) عريب بن سعد، *صلة*، ١١: ١١٩.

(٦) الصابىء، ثابت بن سنان، *أخبار القرامطة*، تحقيق: سهيل زكار، ط١ (د. م: منشورات عبد الهادي حرصوني، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ٥٣.

(٧) ابن الجوزي، *المنتظم*، ٦: ٢٢٣؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٣٠٤.

(٨) ابن فهد، النجم عمر بن فهد، *إتحاف الورى بأخبار أم القرى*، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط١ (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م)، ٢: ٣٧٧؛ الجزيري، عبدالقادر بن محمد، *الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة*، نشره حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة، د. ت)، ١: ٥١٠.

(٩) الواقع أن بعض المصادر المتأخرة تميل إلى ما أوردته المصادر الأندلسية عن بعض جوانب الحادثة، مثلما فعل صاحب *الدرر الفرائد* عندما نصّ على نقله المباشر من كتاب *المسالك والممالك* للبكري ؛ الجزيري، *الدرر الفرائد*، ١: ٥١٣.

(١٠) النهروالي، قطب الدين، *الإعلام بأعلام بيت الله الحرام* (بيروت: مكتبة خياط، د. ت)، ٣: ١٦٣.

(١١) عريب بن سعد، *صلة*، ١١: ١١٩.

(١٢) المراكشي، أبو عبدالله محمد بن عبدالملك الأنصاري، *الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، د. ت)، السفر الخامس، القسم الأول، ١٤١- ١٤٣.

(١٣) حسن الوراكلي، تراث أبي جعفر الطبري في الأندلس، *أبحاث أندلسية*، ط١ (د. م: د. ن، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م)، ١٠٩.

(١٤) صاعد الأندلسي، *طبقات الأمم*، تحقيق: حياة بو علوان، ط١ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٥م)، ١٨٣.

(١٥) المقري، أحمد بن محمد التلمساني، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، د. ت)، ٣: ١٨٢.

(١٦) سعدان بن معاوية، من أهل قرطبة، سكن إقليم القصب، وصار مفتياً لأهل ذلك الموضع؛ انظر: ابن الفرضي، *تاريخ*، ١: ٣٢١-٣٢٢.

(١٧) المصدر نفسه، ١: ٣٢٢.

(١٨) محمد بن شاكر بن جناح، من أهل باجة. رحل إلى مكة وأخذ بها عن أبي سعيد بن الأعرابي؛ انظر: المصدر نفسه، ٢: ٧٠٤.

(١٩) المصدر نفسه، ٢: ٧٠٤.

(٢٠) محمد بن عبدالملك بن ضيفون بن مروان اللخمي، من أهل قرطبة. حدّث وكتب الناس عنه؛ انظر: ابن الفرضي، *تاريخ*، ٢: ٧٩٧.

(٢١) المصدر نفسه، ٢: ٧٩٧.

(٢٢) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام* (بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت)، ١: ١٩٣.

(٢٣) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، *جمهرة أنساب العرب*، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط٥ (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ١٣٥.

(٢٤) وادٍ بمكة يصب في نعمان؛ ياقوت، أبو عبدالله الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر، د. ت)، ٣: ١٠٨.

(٢٥) ابن حزم، *جمهرة*، ١٣٥.

(٢٦) النهروالي، *الإعلام*، ٣: ١٦٤.

(٢٧) أورد ابن فهد هذا الخبر دون أن يعزوه إلى مصدر، وفعل الجزيري الشيء نفسه، فقد يكونا ناقلين عن ابن حزم الذي أورده هو

الآخر دون مصدر؛ انظر: ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ٣٧٩؛ الجزيري، *الدرر الفرائد*، ١: ٥١٠.

(٢٨) المصدر نفسه، ٢٣٤.

(٢٩) الحجـــون: جـــبل بأعلى مكة يشرف على مسجد الجن (مسجد الحرس) وعلى شعب الجزارين؛ الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله، *أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار*، تحقيق: رشدي الصالح ملحس (بيروت: دار الأندلس، د. ت)، ٢: ١٦٠.

(٣٠) الـــبكري، أبـــو عبـــيد عبدالله بن عبدالعزيز، *المسالك والممالك*، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري (تونس: الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، ١٩٩٢م)، ١: ٤٠٤- ٤٠٥.

(٣١) المصدر نفسه، ١: ٤٠٤.

(٣٢) المصدر نفسه، ١: ٤٠٤.

(٣٣) الهمـــذاني، القاضي عبدالجبار، *كتاب تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد ﷺ -ضمن كتاب أخبار القرامطة* -، جمع وتحقيق: سهيل زكار، ط١، (د. م: عبدالهادي حرصوني، ١٤٠٠ هـــ/ ١٩٨٠م)، ١٥٥-١٥٦.

(٣٤) مجهـــول المؤلـــف، *العـــيون والحدائـــق في أخبار الحقائق*، تحقيق: نبيلة عبدالمنعم داود، (النجف: مطبعة النعمان، ١٣٩٢هـــ/ ١٩٧٢م)، ٤: ٣٤٨؛ وقد أشار فيها إلى أن جيش أبي طاهر القرمطي كان يتألف من (٦٠٠) فارس، و (٩٠٠) راجل.

(٣٥) البكري، *المسالك*، ١: ٤٠٤.

(٣٦) *العيون والحدائق*، ٤: ٣٤٨؛ ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ٣٧٦.

(٣٧) ابـــن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف، *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـــ/ ١٩٩٢م)، ٣: ٢٥٤؛ ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ٣٧٨؛ الجزيري، *الدرر الفرائد*، ١: ٥١١.

(٣٨) البكري، *المسالك* ، ١: ٤٠٤- ٤٠٥.

(٣٩) حســـين مؤنـــس، *تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس*، ط٢ (القاهرة: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٤٠٦هـــ/ ١٩٨٦م)، ١٣٢- ١٤٨؛ عـــبدالله يوســـف الغنـــيم، *مصـــادر الـــبكري ومنهجه الجغرافي*، ط٢ (الكويت: ذات السلاسل، ١٣٩٩هـــ/ ١٩٧٩م) ١١٣.

(٤٠) عارف تامر، *القرامطة* (بيروت- بغداد: دار الكاتب العربي ومكتبة النهضة، د. ت)، ١٦٧.

(٤١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ١: ٣٢٤.

(٤٢) مصطفى غالب، *القرامطة بين المدّ والجزر*، ط٢ (بيروت: دار الأندلس، ١٩٨٣م)، ٤١٠.

(٤٣) البكري، *المسالك*، ١: ٤٠٤- ٤٠٥.

(٤٤) ناصـــر خسرو، *سفر نامة*، ترجمه يحيى الخشاب، ط٢ (بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٧٠م)، ١٤٤؛ ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ٣٧٨ ؛ الجزيري، *الدرر الفرائد*، ١: ٥١١.

(٤٥) الأحســـاء: مديـــنة في إقليم البحرين -وهو القسم الشرقي من الجزيرة العربية-، تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة المبرز وإلى الشـــمال الشـــرقي من مدينة الهفوف الحالية، وتحيط بها بساتين النخيل من جميع الجهات. عمرها وحصنها أبو طاهر القرمطي؛ يـــاقوت، معجـــم *البلدان*، ١: ١١٢؛ حمد الجاسر، *المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية*، ط١ (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٩هـــ/ ١٩٧٩م)، القسم الأول، ١٢٨.

(٤٦) النهروالي، *الإعلام*، ٣: ١٦٢.

(٤٧) ســـبتة: مدينة في العدوة المغربية تقع في مواجهة الجزيرة الخضراء في الأندلس، وهي ميناء كبير في البحر المتوسط، استولى عليها

البرتغاليون سنة (٨١٨هـ) ثم احتلها الأسبان من بعدهم ولا تزال في حوزتهم إلى الآن، يوجد بها آثار إسلامية ومعالم تاريخية، وبضاحيتها جبل موسى المنسوب إلى موسى بن نصير؛ الحميري، محمد بن عبدالمنعم، *الروض المعطار في خبر الأقطار*، تحقيق: إحسان عباس، ط٢ (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٤م)، ٣٠٣؛ الصديق بن العربي، *كتاب المغرب*، ط٣ (بيروت: دار الغرب الإسلامي ودار الثقافة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ٢٢٥- ٢٢٦.

(٤٨) طنجة: مدينة مغربية فتحها عقبة بن نافع، تقع على رأس مضيق جبل طارق بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، ولا يفصلها عن الشاطيء الأسباني سوى مسافة (١٧) كلم؛ الحميري، *الروض*، ٣٩٥- ٣٩٦؛ الصديق بن العربي، *كتاب المغرب*، ١٦٥.

(٤٩) ابن الأثير، *الكامل*، ٦: ٢٠٤.

(٥٠) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف، *المقتبس*، نشره بيدرو شالميتا (مدريد: المعهد الإسباني العربي للثقافة، ١٩٧٩م)، ٥: ٣٠٥ - ٣٠٦.

(٥١) وهران: مدينة في المغرب الأوسط على ساحل البحر، بناها جماعة من البحريين الأندلسيين سنة (٢٩٠هـ). وهي اليوم من الموانئ المهمة في الجزائر، وتشتهر بصيد الأسماك وكثرة الكروم ووفرة الحمامات المعدنية؛ الحميري، *الروض*، ٦١٢؛ ناجي جواد، *رحلتي إلى إفريقية العربية (الجزائر)* (حلب: مجلة الضاد، د. ت)، ١١٣.

(٥٢) محمد أحمد عبد المولى، *القوى السنية في المغرب من قيام الدولة الفاطمية إلى قيام الدولة الزيرية*، ط١ (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٥م)، ٢: ٦٢٤- ٦٢٥.

(٥٣) ابن عذاري، أحمد بن محمد، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق: جورج كولان وليفي بروفنسال، ط٢ (بيروت: دار الثقافة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م)، ١: ٢٨٥.

(٥٤) ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*، تحقيق: سالم مصطفى البدري (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م)، ١: ٥٨٩.

(٥٥) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، **المحلى**، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، د. ت)، ١٠: ٤٩٥.

(٥٦) ابن حزم، *المحلى*، ١١: ٩٦.

(٥٧) ابن حزم، *المحلى*، ١١: ٢٠٠.

(٥٨) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، *الفصل في الملل والأهواء والنحل* (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ١: ٣٤؛ ٢: ٣٨؛ ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد، *الأصول والفروع*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ٢: ١٧٦.

(٥٩) بندلي جوزي، *من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام*، ط (القدس: منشورات صلاح الدين، ١٩٧٧م)، ١٥٩- ١٦٠.

(٦٠) ناصر خسرو، *سفر نامة*، ١٤٣.

(٦١) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم اللخمي، *الاعتصام* (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ١: ١٥٧.

(٦٢) القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، *الجامع لأحكام القرآن*، ط١ (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ٤: ١٤.

(٦٣) ابن فهد، *إتحاف الورى*، ٢: ٣٧٥.

(٦٤) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، *البداية والنهاية*، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح (القاهرة: دار الحديث، د. ت) ١١: ١٧١.

(٦٥) ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله، شرح رقم الحلل في نظم الدول، نشره عدنان درويش (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٠م)، ١٠٥.

(٦٦) المقري، *نفح الطيب*، ٢: ٥٦٧ .

(٦٧) ابـــن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، *نقط العروس في تواريخ الخلفاء*، تحقيق: شوقي ضيف (القاهرة: مجلة كلية الآداب- جامعة فؤاد الأول، ١٩٥١م)، ٨٠.

(٦٨) ابن بسام، *الذخيرة*، ١: ٦٢.

(٦٩) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني، *تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار* (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١م)، ٥٩.

(٧٠) ابـــن عـــبدربه، أبـــو عمر أحمد بن محمد، *العقد الفريد*، تحقيق: محمد سعيد العريان (د. م: دار الفكر، د. ت)، المجلد الرابع، ٧: ٢٤٧.

(٧١) ابـــن الأبـــار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، *الحلة السيراء*، تحقيق: حسين مؤنس، ط١ (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣م)، ١: ٢٨٩.

(٧٢) محي الدين بن عربي، *محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار* (بيروت: دار صادر، د. ت)، ١: ١١١.

(٧٣) ذهب بعض المؤرخين إلى أن العباسيين افتدوا الحجر الأسود من القرامطة بمبالغ طائلة؛ ناصر خسرو، *سفر نامة*، ١٤٤، وقد نظم الصلاح الصفدي قصيدة في ذلك، جاء فيها:

تغرّب عندهـــم عشرين عاماً ... تلت عامين من بعد الكســـور

ولكن المطيع شراه منهـــم ... بخمسين ألف دينار نضيـــر

انظر: عبدالقادر الجزيري، *الدرر الفرائد*، ١: ٥١٢.

(٧٤) جبرائيل جبور، *ابن عبدربه وعقده*، ط٢ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩م)، ٨٤.

(٧٥) المقري، *نفح الطيب*، ٤: ٥٠٦.

(٧٦) المقري، *نفح الطيب*، ٢: ١٦٤.

(٧٧) مصطفى غالب، *أعلام الإسماعيلية* (بيروت: دار اليقظة العربية، ١٩٦٤م)، ٥٠٥.

(٧٨) المقري، *نفح*، ٢: ٥١٢.

(٧٩) ابـــن الأبـــار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، *درر السمط في خبر السبط*، تحقيق: عزالدين عمر موسى، ط١ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ٤٦، (مقدمة المحقق).

(٨٠) ابن عربي، محي الدين، *الفتوحات المكية* (بيروت: دار صادر، د. ت)، ١: ٣٣٤.

(٨١) ابـــن سهل، أبو الأصبغ عيسى بن سهل، *ديوان الأحكام الكبرى*، تحقيق: رشيد النعيمي، ط١ (د. م: شركة الصفحات الذهبية المحدودة، ١٤١٧هـ)، ٢: ١٣١٨، ١٣١٩- ١٣٢٠.

(٨٢) محمد أحمد الخطيب، *الحركات الباطنية في العالم الإسلامي*، ط١ (عمان: مكتبة الأقصى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م)، ١٥٢.

(٨٣) النهروالي، *الإعلام*، ج ٣: ١٦٤.

(٨٤) ابن سهل، *ديوان الأحكام*، ٢: ١٣٣١.

(٨٥) محمـــود عـــلي مكـــي، التشيع في الأندلس، *صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية*، مدريد، المجلد الثاني، العدد ١- ٢، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م، ١١٥.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

الأسطول الحربي العُماني ودوره في الدفاع عن عُمان منذ القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الثالث الهجري

عبدالله بن ناصر الحارثي
قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة السلطان قابوس

المقدمة:

كـان للأسـطول الحربي العُماني مساهمة كبيرة في مجال الفتوحات الإسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين. وقد تطـورت صـناعة السفن الحربية في عُمان قبيل العصر العباسي ووصلت أوج ازدهارها في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري.

فقد شهدت عُمان منذ منتصف القرن الثاني الهجري فترة من الاستقرار السياسي أدت إلى الازدهار الاقتصادي، وبخاصـة في مجال التجارة والملاحة البحرية، وبالتالي أصبحت مطمعاً للقراصنة الهنود. وكان لابد لعُمان من أن تضع الخطـط والسياسـات الاستراتيجية للتصدي لهؤلاء القراصنة في عرض البحار، ومن ثم أصبح تطوير الأسطول الحربي ضرورة ملحة.

وقـد كوّن الإمام غسان بن عبدالله أسطولاً حربياً، حيث ابتكر العُمانيون في عهده نوعاً جديداً من القوارب الصـغيرة سـريعة الحركة، والتي عرفت "بالشذاءات"، والغرف لملاحقة هؤلاء القراصنة الذين استخدموا سفناً ذات حجم كبير وثقيل الحركة نسبياً، والتي عرفت باسم "البوارج".

وفي عهـد الإمام المهنا بن جيفر اليحمدي ازداد حجم الأسطول الحربي العُماني واتسع نفوذ عُمان. وفي عهد الإمـام الصلت بن مالك الخروصي تعرضت جزيرة سقطري لغزو حبشي، وذلك في النصف الثاني من القرن الثالث الهجـري، ومـن هنا زاد اهتمام الإمام الصلت بالأسطول الحربي العُماني الذي تمكن من الانتصار على هؤلاء الغزاة، وإعادة الجزيرة إلى السيادة العُمانية، وتأمين التجارة البحرية في بحر العرب.

موقع عُمان وحدودها:

كــان ابن خلدون أكثر المؤرخين المسلمين وضوحاً في تعريفه بحدود عُمان وأبعادها الطبيعية إذ يقول: "عُمان وهــي مــن ممالك جزيرة العرب المشتملة على اليمن، والحجاز، والشحر، وحضرموت، عُمان، وهي خامسها إقليم سلطاني منفرد على بحر فارس من غربيه مسافة شهر، شرقيها بحر فارس جنوبيها بحر الهند، وغربيها بلاد حضرموت، وشماليها البحرين"(١)، ويبدو أن ابن خلدون قد نسي نجد والبحرين، وهما على التوالي وسط الجزيرة العربية وشمالها.

ومــن هنا يتضح لنا أن عُمان تقع جنوب شرق شبه الجزيرة العربية، وتحيط البحار بها من ثلاث جهات، بحر العــرب من الجنوب، وخليج عُمان من الشرق، والخليج العربي من الشمال، والربع الخالي من الغرب(٢)، وهي جهة عازلة طاردة، حتمت على العُمانيين التوجه نحو البحر. ولذا اعتبرت بيئة عُمان بيئة بحرية، وإذا كان الإنسان ابن بيئته كما يقول المثل، فالعُمانيون أبناء بيئتهم لم يخرجوا على هذه القاعدة، فقد نشأوا في بيئة بحرية مثالية لعدة أمور منها: مــا تتمتع به بلادهم من سواحل طويلة ممتدة على تلك البحار، وموانئ طبيعية صالحة لرسو السفن، وموقع جغرافي ممــتاز عــلى مدخل الخليج العربي، ذلك الممر التجاري الهام على مر العصور، الذي أكتسب أهمية جغرافية وتجارية وسياسية عظيمة انعكست هذه الأهمية على عُمان، إضافة إلى كبر مساحة عُمان خلال تلك الفترة، فقد كانت عُمان ذات مســاحة كبيرة واسعة النفوذ، إذ سيطرت على أكثر من نصف الساحل الغربي للخليج، وعلى أكثر من نصف الساحل الجنوبي لبلاد العرب(٣).

بهــذا الموقع، وبهذا الامتداد أصبحت عُمان مركزاً وسطاً بين منطقة القرن الأفريقي بساحل شرقي أفريقية من ناحــية، وبــلاد الهند وما خلفها من ناحية ثانية(٤)، ومنطقة الخليج وما خلفها من ناحية ثالثة. هذا الوضع حتم على العُمانيين العمل في البحر فمارسوا فيه شتى أنواع الأنشطة الاقتصادية من صيد وغوص وملاحة وتجارة، كما كان لهم دورهم الفاعل في الجوانب السياسية والعسكرية.

تطور صناعة السفن في عُمان:

أخــذت صــناعة الســفن تتطور في عُمان منذ القدم، وأخذت في الازدهار منذ القرن الأول الهجري/السابع المــيلادي، واســتمر ذلــك الازدهار في القرون اللاحقة، حيث تمت صناعة عدة أنواع من السفن مختلفة الأحجام، ومــتعددة الاســتخدامات لتفي باحتياجات البلاد في النشاط البحري في التجارة ونقل المسافرين، وللغوص، ولصيد الأسمــاك، فكــان منها ما هو للمسافات البعيدة، وأخرى للمسافات القريبة، واستخدمت بعض تلك السفن للأمور الحربية(٥).

وكــان للوضع البحري لعُمان ووقوعها على مدخل الخليج أهمية بالغة، إذ كانت السيطرة على مضيق مسندم (هرمــز) موضع صراع سواء بين القوى المحلية، أو بينها وبين القوى الأجنبية، كما اصبح لعُمان خلال فترة بحثنا هذا

مصالح استدعت أن يكون لها أسطول حربي، وقد لعب هذا الأسطول دوراً بارزاً في التاريخ السياسي للخليج والمحيط الهندي(٦).

تعريف الأسطول:

الأسطول مجموعة من السفن تستخدم للأمور الحربية أو المدنية وتجمع على أساطيل، فيقال الأسطول التجاري، أو الأسطول الحربي(٧)، والذي يهمنا هنا الأسطول الحربي.

دور الأسطول الحربي العماني قبيل فترة البحث:

كانـــت بداية مشاركة الأسطول الحربي العُماني في العصر الإسلامي بعد موقعة جلولاء سنة ١٦هـ/ ٦٣٧م، والتي انتصر فيها المسلمون على الفرس بقيادة ملكهم يزدجرد في السواحل الجنوبية من بلاد فارس الواقعة على الساحل الشرقي للخليج، وذلك لتطويق الدولة الإسلامية الناشئة من الشرق والجنوب، ولكسر ذلك الطوق أمر الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب ﷺعامله على البحرين وعُمان عثمان بن أبي العاص الثقفي بإعداد جيش إسلامي لكسر ذلك الطـــوق، وكـــان الوالي حينئذ في عُمان، فدعا للجهاد، فلبى العُمانيون دعوة الجهاد، فاجتمع له ثلاثة آلاف مجاهد، اجتمعوا في مدينة صحار، فعبر بهم الوالي مياه الخليج من منطقة الصير (جلفار)(٨) إلى جزيرة (ابن كاوان)(٩)، وهناك اجبروا قائد الحامية العسكرية الفارسية الموجودة بها على الاستسلام.

فـــلما علم ملك الفرس يزدجرد بذلك غضب غضباً شديداً، وأمر عامله على إقليم كرمان بأن يعد جملة كبيرة يتوجه بها إلى تلك الجزيرة وتخليصها من يد المسلمين.

الـــتقى الجيشان الإسلامي والفارسي بجزيرة (جاش)(١٠) القسم حالياً، وكانت الدائرة على الفرس، حيث قتل قائد الحملة الفارسية (شهرك). وبذلك يكون الأسطول الحربي العُماني قد قضى على محاولة الفرس اليائسة، وفك ذلك الطوق الذي فرضه الفرس على الدولة الإسلامية. وكانت مشاركة الأسطول الحربي العُماني في هذه الموقعة بداية لدور العُمانيين في الفتوحات الإسلامية اللاحقة على الجبهة الفارسية، ومنها فتح توج الثانية، والتي وقعت في سنة ٢٣هـــ/ ٦٤٣م(١١).

وفي العصـــر الأمـــوي تصـــدى الأسطول الحربي العُماني بقيادة سعيد وسليمان ابني عباد بن عبد بن الجلندى لـــلحملات الـــتي وجهها الحجاج بن يوسف الثقفي الوالي الأموي من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق، والأجـــزاء الشرقية من الدولة الأموية لإخضاع عُمان لولايته، والقضاء على نفوذآل الجلندي بزعامة سعيد وسليمان. وقـــد التقى الطرفان في عدة معارك بالساحل العُماني. منها معركة بركاء بساحل الباطنة. وكانت أكبر معركة وقعت بـــين الطـــرفين تلك التي وقعت بميناء مسقط، حيث بلغ عدد سفنها ثلاثمائة سفينة استطاع الأسطول الحربي العُماني بقيادة سليمان بن عباد تدمير نيفا وخمسين سفينة منها، ولاذت السفن الأخرى بالفرار.

وتورد المصادر التاريخية العُمانية[١٢] أم عدد القوات التي أرسلها الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عُمان بلغت نحو أربعين ألف مقاتل منها عشرون ألف مقاتل قوام الحملة البحرية التي كانت بقيادة مجاعة بن شعوة المزني، ويبدو أن ضخامة هذه الحملة كانت انتقاماً لهزيمة حملة برية سابقة أرسلها الحجاج بقيادة القاسم بن شعوة المزني، وهو أخو مجاعة. ومن جانبنا نرى أن هذه الأعداد المذكورة مبالغ فيها.

دور الأسطول الحربي العُماني في العصر العباسي:

أولاً: المحافظة على استقلال عُمان:

تغّلب العُمانيون على ولاة الدولة العباسية عام ١٧٧هـ/٧٩٣م، وأقاموا دولة اليحمد، فقد بايع العُمانيون محمد بن عبدالله بن أبي عفان اليحمدي إماماً لهم، وبعد عامين تقريباً خلفه الإمام الوارث بن كعب الخروصي اليحمدي، الذي استقرت الأمور في عهده، وبفضل حزمه وعزمه ساد الأمن والنظام ربوع عُمان[١٣]. ومنذ تلك الفترة أصبحت عُمان ذات سيادة مستقلة عن الدولة العباسية، وهناك عدة عوامل ساعدت العُمانيين على الاستقلال ببلادهم، والمحافظة على هذا الاستقلال منها:

- رغبة العُمانيين في اختيار حكامهم حسب نظام ارتأوه لأنفسهم -وهو نظام الشورى- المتمثل في الإمامة المنتخبة.
- طبيعة البلاد الجغرافية من حيث، الموقع العام لعُمان، وبعدها النسبي عن قلب الخلافة العباسية، فضلاً عن تضاريسها الصعبة التي وفرت لأهلها ملاذا حصيناً يحتمون به من أي غزو خارجي يهدد كيانهم السياسي[١٤].
- وحدة العُمانيين وتماسكهم والتفافهم حول قيادتهم.

ومن الطبيعي ألا يوافق الخليفة العباسي هارون الرشيد على انفصال عُمان واستقلالها عن الدولة العباسية، وهو الذي اشتهر عنه مخاطبته لسحابة مرت عليه: "اذهبي حيث شئت فسيأتيني خراجك حيثما كنت"، فأرسل حملة بحرية كبيرة بقيادة ابن عمه عيسى بن جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن العباس لإخضاع عُمان، وذلك سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٤م، قوامها ستة آلاف مقاتل منهم آلف فارس. ونزلت هذه الحملة بجلفار في الساحل العُماني الشمالي، واتجهت إلى مدينة صحار بساحل الباطنة بعُمان[١٥].

وكانت أخبار هذه الحملة قد وصلت إلى صحار مقارش[١٦] بن محمد بن عبدالله اليحمديعن طريق رسالة وصلته من داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة العتكي الأزدي العُماني، وكان حينئذ والياً على السند من قبل هارون الرشيد[١٧]، وهو من أهل البصرة، وكتب الوالي إلى الإمام الوارث بن كعب الخروصي (١٧٩-١٩٢هـ/ ٧٩٥- ٨٠٧م)، فأمره الإمام بإعداد قوة للتصدي للحملة العباسية، فأعد الوالي جيشاً يربو على ثلاثة

آلاف مقـــاتل، والتقى الجيشان بقرية (حتى) الواقعة شمال صحار. وكان النصر حليف العُمانيين، حيث هزمت الحملة العباسية هزيمة منكرة، وتعد هذه الهزيمة أول انتكاسة بحرية للخلافة العباسية في عُمان[١٨]، وفر من بقي من هذه الحملة إلى ســـفنهم الراسية بالساحل العُماني، فوجه إليهم الوالي حملة بحرية مكونة من ثلاثة مراكب[١٩] بقيادة أبي حميد بن فلج الحداني[٢٠] السلوتي، وعمرو بن عمر فاقتحموا سفينة عيسى بن جعفر وأسروه وأحضروه إلى صحار، وتم سجنه بحصنها.

وكـــان الإمام قد خرج من نزوى لصد عيسى بن جعفر، وفي الطريق تلقى خبر هزيمته وسجنه بصحار. فرجع إلى نزوى، وهناك قام في الناس خطيباً فقال: "يا أيها الناس إني قاتل عيسى بن جعفر فمن كان معه قول فليقل". فقام الفقيه علي بن عزره التزاري فقال: "إن قتلته فواسع لك، وإن تركته فواسع لك" فرأى الإمام تركه سجيناً[٢١]، ويعتبر هـــذا الموقـــف من الإمام موقفاً حكيماً، وذلك تجنباً لقيام هارون الرشيد بالانتقام لمقتل قريبه[٢٢]، لكن مجموعة من الشـــراة الشباب بقيادة يحيى بن عبدالعزيز تسوروا السجن وقتلوا عيسى بن جعفر من حيث لا يعلم الإمام ولا واليه على صحار[٢٣]، وذلك لسوء أخلاق جند الحملة العباسية، لما ارتكبوه من مناكر في عُمان مما جعل العُمانيين يثورون علـــيهم، كمـــا ذكـــر البلاذري[٢٤]: "فخرج إليها -يعني عُمان- بأهل البصرة فجعلوا يفجرون بالنساء ويسلبونهم ويظهرون بالمعازف فبلغ ذلك أهل عُمان، وجلهم شراة، فحاربوه ومنعوه من دخولها، ثم قدروا عليه فقتلوه".

و لم يقـــم هارون الرشيد بالانتقام لقتل عيسى بن جعفر، وذلك لانشغاله في مواجهة البيزنطيين، وكانت وفاته بطوس بقرية يقال لها سنباذ عام ١٩٣هـــ/ ٨٠٨م[٢٥].

وقـــبل أن ننهي هذا الموضوع نريد أن نوضح أن انتصار العُمانيين لا يعود فقط على تلك العوامل المساعدة التي أشار إليها الأستاذ فاروق عمر كالرابطة القبلية التي حتمت على داود بن يزيد المهلبي إشعار العُمانيين بهذه الحملة، ولا لانشغال الخليفة هارون الرشيد بحروبه مع البيزنطيين، ولا إلى ذلك الصراع الذي نشب بين الأخوين الأمين والمأمون عـــلى كرسي الخلافة[٢٦]. بل يعود إلى اقتناع العُمانيين بحقهم في اختيار كيانهم السياسي المستقل وإلى استبسالهم في القـــتال، ووقوفهم صفاً واحداً في مواجهة تلك الحملة الغاشمة التي استهدفت ذلك الكيان السياسي بأسلوب عنجهي يتعارض مع تعاليم الإسلام الأخلاقية في أوقات الحروب.

ثانيا: التصدي للقراصنة الهنود:

نعمـــت عُمان بالاستقرار وأنتشر فيها العدل في عهد الإمام الوارث بن كعب الخروصي وازدهرت اقتصاديا في عهـــد خليفـــته الإمام غسان بن عبدالله اليحمدي (١٩٢-٢٠٨هـــ/٨٠٧-٨٢٣م)، حيث شهدت البلاد فترة من الخصـــب والـــنماء نتيجة لهطول أمطار غزيرة أدت إلى وفرة المياه[٢٧]، مما ساعد على نمو الثروة الزراعية والحيوانية، فشـــهدت البلاد نشاطاً تجارياً كبيراً طمع فيه القراصنة الهنود (أو الميد: كما عرفوا عند العرب)[٢٨]، وقاموا بالإغارة

على السواحل العُمانية، وكان ذلك في عام ٢٠١هـ/ ٨١٦م، واستخدموا البوارج -وهي سفن كبيرة مخصصة لنقل الركاب والبضائع- في الإغارة على السواحل العُمانية، واستغلوا في ذلك طبيعة المنطقة الجبلية والأخوار الممدة من جلفار إلى دبا[(٢٩)] (رأس منطقة شبه جزيرة مسندم) مستغلين تلك المخابئ ليقوموا بعمليات السطو على السفن التجارية المارة العابرة من منطقة الخليج وإليها من بحر العرب والمحيط الهندي. فيسلبوها وينهبون ما بها من بضائع، ثم يفرون بها إلى فارس والعراق لبيعها هناك[(٣٠)]. الأمر الذي حدا بالإمام غسان إلى اتخاذ إجراءات سريعة لردع هؤلاء القراصنة، وتنفيذاً لأوامره قام صناع السفن العُمانيون بابتكار نوع جديد من السفن الحربية عرفت بالشذاءات والغرف، والتي تعرف محلياً بالزوارق[(٣١)]، وهي قوارب صغيرة الحجم خفيفة سريعة الحركة بدلاً من تلك المراكب الكبيرة الثقيلة التي يتكون منها سابقاً الأسطول العُماني، وذلك لتتمكن من مطاردة تلك البوارج لكونها أكثر كفاءة لملاحقتها، وأكثر مقدرة على المناورة وسرعة الالتفاف أثناء القتال[(٣٢)].

وقد تكللت جهود العُمانيين بالنجاح، فلم يكتفوا بهزيمة أولئك القراصنة والقضاء على قرصنتهم في الشواطئ العُمانية، بل تعقبوهم إلى بلادهم، كي لا تسول لهم أنفسهم العودة لممارسة عملياتهم الإجرامية مرة أخرى[(٣٣)].

ثالثاً: تطور الأسطول الحربي العُماني واتساع نفوذ عُمان:

كان الإمام غسان بن عبدالله قبل وفاته -رحمه الله- بصدد إعداد حملة بحرية كبيرة لغزو ساحل الهند الغربي لردع أولئك القراصنة الذين يسطون على السفن التجارية المارة ببحر العرب، وبحر الهند، لكن المنية وافته قبل أن يحقق أمله[(٣٤)]، فتحقق ذلك الأمل على يد الإمام المهنا بن جيفر اليحمدي (٢٢٦- ٢٣٧هـ/ ٨٤٠- ٨٥١م)، الذي وصف عهده بأنه امتداد للاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي، الذين شهدتهما عُمان خلال تلك الفترة، وامتاز عهده بحكومة مركزية قوية بفضل شخصيته القوية والحازمة، وكان من مظاهر قوة عُمان في عهده ازدياد عدد القوات العسكرية البرية والبحرية فقد عظمت كفاءة الأسطول الحربي العُماني فبلغت عدد سفنه ثلاثمائة سفينة مهيأة للحرب فضلاً عن بقية السفن الأخرى التي يمكن استنفارها عند الحاجة[(٣٥)].

لقد تمكن العُمانيون بفضل امتلاكهم هذا الأسطول الكبير وخبرتهم الحربية والملاحية من فرض سيطرتهم ونفوذهم على بعض المناطق المجاورة بساحل بحر العرب، وفي منطقة الخليج، وخير مثال على ذلك سيطرتهم على جزيرة سقطرى[(٣٦)] لواقعة بين طرق التجارة العالمية، وعلى مدخل البحر الأحمر، والتي رابطت فيها قوة عُمانية، وكان يقيم بها عامل من قبل أئمة عُمان[(٣٧)].

رابعاً: تحرير جزيرة سقطرى من الاحتلال الحبشي:

كان الوالي على جزيرة سقطرى في عهد الإمام الصلت بن مالك الخروصي (٢٣٧- ٢٧٢هـ/ ٨٥١- ٨٨٥م)، القاسم بن محمد الجهضمي السمدي، وفي تلك الفترة في عام ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، قام نصارى الحبشة بغزو

جزيـرة سـقطرى واحتلالها بالتعاون مع نصارى سقطرى الذين نقضوا معاهدة الأمن والسلام المبرمة بينهم وبين العُمانيين. فقضوا على القوة العُمانية المرابطة في الجزيرة، وقتلوا الوالي العُماني القاسم بن محمد وكثيراً من أهلها المسلمين وسبوا نساءهم وأطفالهم ونهبوا متلكاتهم وحولوا مساجدها إلى كنائس للنصارى. وعند وقوع هذا الغزو كان موجوداً بسقطرى الشاعر حمد بن خلفان بن حميد الجهضمي من أهالي سمد الشأن[٣٨]، وبرفقته أبنته فاطمة في زيارة قريبهم الوالي الجهضمي. وشهدوا مقتله والأفعال الإجرامية التي ارتكبها أُلئك الغزاة بالمسلمين في الجزيرة[٣٩]، وللاستغاثة بالإمام الصلت بن مالك الخروصي، وإثارة حفيظته، وهمم وحماس العُمانيين معه نظم الشاعر الجهضمي المذكور قصيدته المشهورة في كتب التاريخ العُماني على لسان ابنته فاطنة[٤٠]، مضاهاة منه لقصيدة أبي تمام[٤١] المشهورة في الخليفة العباسي المعتصم بن هارون الرشيد في فتح عمورية، وذلك في سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م[٤٢]. وسمى الجهضمي قصيدته الزهراء السقطرية على أنها تعبر عن استغاثة بالإمام الصلت الخروصي.

وقد ربط بعض الشعراء العمانيين[٤٣]، بين هاتين الاستغاثتين، ومن جانبنا لا نستبعد أن يكون هناك اتصال وتعاون بين نصارى هاتين المنطقتين نعني سقطرى والحبشة، وبين الدولة البيزنطية، على أساس أن نصارى سقطرى كانوا أصلاً من بلاد اليونان ويتمذهبون على المذهب النسطوري نسبة إلى نسطور بطريرك القسطنطينية (٤٢٨-٤٣٠م)[٤٤]، وأن هذا الغزو جاء انتقاماً لما قام به الخليفة العباسي المعتصم من تخريب لمدينة عمورية أهم وأفضل مدينة في الأناضول، وعند البيزنطيين، ولكونها مسط رأس والد الإمبراطور تيوفيل، وذلك انتقاماً لما قام به الإمبراطور المذكور، الذي هاجم مدينة "زبطرة" أقرب الثغور الإسلامية إلى بلاد الروم، فأحرقها وخربها وقتل رجالها وسبى نساءها وأطفالها. وغضب المعتصم لهذه الواقعة خصوصاً وأنه كان يعتز بهذه المدينة لأنها كانت مسقط رأس والدته. وكان أشد ما أثار في نفسه الحمية، وقوى همته واستنهض عزيمته هو استغاثة امرأة هاشمية أخذت تصيح عندما وقعت في أسر الروم مستنجدة "وامعتصماه" فغضب ولبى هذه الاستغاثة[٤٥].

وعلى غرار ذلك لبى الإمام الصلت بن مالك الخروصي تلك الاستغاثة التي نظمت على لسان الفتاة السقطرية، فجهز حملة بحرية كبيرة مكونة من مائة إلى مائة وعشرين قطعة بحرية[٤٦]، وتوجه الأسطول العُماني إلى جزيرة سقطرى لتحريرها من قبضة الأحباش، وتم تجهيز الحملة بكل ما تحتاجه من معدات الحرب والقتال والمؤن، وأوكل الإمام بقيادة ذلك الأسطول إلى خمسة من خيرة قادة جيشه في الحزم والعزم والنزاهة والتقوى وأوصاهم بأن يقوم الثاني منهم مقام الأول إذا أصيب، وينقل الشيخ السالمي[٤٧] ذلك بقوله: "فجمع الإمام الجيوش وجهز المراكب وولي عليهم محمد بن عشيرة، وسعيد بن شملال، فإن حدث بأحدهما حدث فالباقي منهما يقوم مقام صاحبه، فإن حدث بهما جميعاً حدث، ففي مقامهما حازم بن همام وعبدالوهاب بن زيد وعمر بن تميم". ولم يكتف الإمام بتجهيز المجاهدين في سبيل الله بما يحتاجون إليه من معدات الحرب ومؤن الطعام والشراب، وإنما أمدهم بما هو أكبر من ذلك وأنفع وأبقى لهم في الدنيا والآخرة، فزودهم بتلك النصائح الإيمانية والنفحات الروحانية فزهدهم في الدنيا ورغبهم في

الآخرة، وذكرهم بتعاليم الإسلام السمحة في القتال وكتب لهم كتاباً بيّن فيه ما يأتون وما يذرون. وليس بإمكاننا أن نورد نص هذا الكتاب في هذا البحث المختصر فهو يربو على خمس عشرة صفحة، ويتضمن عدة وصايا وتعليمات وضّح فيها الإمام مهام كل فئة من هذا الجيش، من قادة وجنود وربابنة سفن والعاملين عليها والعلاقة فيما بينهم، وكيفية تعاملهم مع أهل سقطرى المسلم منهم والمحارب، وأن يكونوا حرصين في اتباع تعاليم الإسلام ومبادئه في غزوهم هذه(٤٨).

فساروا على بركة الله وتوفيقه مستقلين أسطولهم الحربي من ميناء صحار، وعند وصوله الجزيرة أحاط بها إحاطة السوار بالمعصم. و لم تذكر المصادر التاريخية عدد أفراد تلك الحملة، لكن فيما يبدو لنا إنها كانت كبيرة خاصة وأن عدد سفن الأسطول الحربي التي نقلتهم كانت تزيد على المائة سفينة، وأن يتولى قيادتها بالتتابع خمسة من خيرة القادة العُمانيين، الذين كانوا فعلاً عند حسن ثقة الإمام بهم فقد قادوا تلك الغزوة بكل كفاءة واقتدار وأبلوا ومن معهم من الجند بلاءً حسناً. فلا غرو أن حققوا النصر والظفر على أعدائهم وذلك تحقيقاً لوعد الله لعباده المؤمنين ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤٩).

وبالعزيمة والاستبسال حرر الأسطول الحربي العُماني جزيرة سقطرى من الاحتلال الحبشي، وأعادها مرة ثانية تحت السيادة العُمانية، وأعاد معها الأمن والطمأنينة إلى نفوس أهلها والملاحين والتجار والمسافرين المارين عليها للتزود بالماء والمؤن.

الخاتمة:

اتضح لنا من خلال إعدادنا لهذا البحث المختصر أن هناك عدة عوامل هيأت الأسطول الحربي العُماني للقيام بواجبه في الدفاع عن أرض عُمان -البوابة الشرقية للعالم العربي- نذكر منها:

- تفوق العُمانيين في المجال الملاحي والتجاري في المنطقة.
- تطور صناعة السفن وازدهارها في عُمان خلال فترة البحث.
- الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي في عمان خلال فترة البحث.
- تطور الأسطول الحربي العُماني وقيامه بالمحافظة على استقلال عُمان وكيانها السياسي.
- كان أهم حدثين تصدى لهما الأسطول العُماني هما: ردعه للقراصنة الهنود، وتحريره لجزيرة سقطرى من الاحتلال الحبشي، وإعادة الأمن والاستقرار في مياه بحر العرب والخليج العربي.

والله حسبنا ونعم الوكيل؛؛؛

التعليقات

(١) ابن خلدون، عبدالرحمن (ت ٨٠٩هـ)، *تاريخ ابن خالدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)* (بيروت، ١٩٨٣م)، ٤: ١٩٨.

(٢) انظر: الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٢٤هـ)، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط٣ (بيروت: ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٤م)،٣٩، ٨٢- ٩١؛ ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، *الأعلاق النفيسة*، مجلد٧ (ليدن: ١٨٩١م)، ٧: ٩٦؛ الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)، *معجم البلدان* (بيروت)، ٤: ١٥؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد ابن علي (ت ٨٢١هـ)، *كتاب صبح الأعشى*، ٥: ٥٥؛ الحارثي، عبدالله بن ناصر، *بنو نبهان في عُمان والأوضاع الاقتصادية في عصرهم*، ٥-٦ ، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٠م.

(٣) رجب محمد عبدالحليم، *العُمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام منذ ظهوره إلى قدوم البرتغاليين* (مسقط: مكتبة العلوم، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م)، ٤٣-٤٤؛ عُمان وتاريخها البحري، ٢٣-٢٥.

(٤) رجب، *العُمانيون والملاحة*، ٤٤؛ أبوالعلا، محمود، *جغرافية إقليم عُمان (سلطنة عُمان ودولة الإمارات)*، ط١ (مكتبة الفلاح، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ١٨-٢١.

(٥) رجب، *العُمانيون والملاحة*، ٤٦؛ أرنولدز ويلسون، *تاريخ الخليج*، ترجمة: محمد أمين عبدالله، ط٣ (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م)، ٢٦.

(٦) أبوالعلا، *جغرافية إقليم عُمان*، ٢١-٢٢؛ عاشور، سعيد، وخليفات، عوض محمد، *عُمان والحضارة الإسلامية*، جامعة السلطان قابوس، ٤-٥.

(٧) أنيس، إبراهيم وآخرون، *المعجم الوسيط*، (بيروت: دار أمواج، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م).

(٨) جلفار: بالضم ثم الفتح والتشديد، وفاء وآخره راء: بلد بعُمان عامر كثير الغنم والجبن والسمن يجلب منها إلى ما يجاورها من البلدان. الحموي، *معجم البلدان*، ٢: ١٥٤.

(٩) جزيرة ابن أو بني كاوان، وتسمى أيضاً جزيرة لفت: يصفها الحموي بأنها جزيرة عظيمة تقع في بحر فارس (الخليج العربي) بين البحرين وعُمان، الحموي، *معجم البلدان*، ٢: ١٣٩.

(١٠) جزيرة جاش (الفارسية): وقد عربها العرب إلى القشم أو القسم، وتقع عند مدخل الخليج العربي بالقرب من جزيرة هرمز، العوتبي، سلمة بن مسلم (ت في ق. ٥هـ/١١م)، *الأنساب* (مسقط، ١٩٨٤م)، ٢: ٣٢٥.

(١١) عن الموضوع انظر: البلاذري، أبو الحسن أحمد بنب يحيى (ت ٢٧٩هـ)، *فتوح البلدان*، ط١ (بيروت: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ٣٧٤-٣٨٠؛ ابن الأثير، عز الدين أبوالحسن على بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني، *الكامل في التاريخ* (بيروت: ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ٣: ٣٩-٤٠؛ عاشور، سعيد، وخليفات، عوض محمد، *عُمان والحضارة الإسلامية*، ٢٧؛ عمر، فاروق (د)، *الخليج العربي في العصور الإسلامية*، ط١ (دبي: دار القلم، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ، ٤٣-٤٤؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، *تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)*، ط١ (بيروت: مؤسسة عز الدين، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ، ٤: ٣٢٩، ٣٩٧؛ العوتبي، *الأنساب*، ٢: ١٢٥- ١٢٨.

(١٢) الأزكوي، سرحان بن سعيد (ت قي ق. ١٢هـ/١٨م)، *تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة*، ٤٤ -٤٦؛ السالمي، نور الدين عبدالله بن حميد (ت ١٣٣٢هـ)، *تحفة الأعيان في سيرة أهل عُمان*، (مسقط: نشر مكتبة الإمام نور

الدين السالمي)، ١: ٧٤-٧٥؛ ابن رزيق، حميد بن محمد (ت ١٢٩١هـ)، *الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمان*، تحقيق: عبدالمنعم عامر (القاهرة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ١٢-١٥؛ ابن رزيق، حميد بن محمد (ت ١٢٩١هـ)، *الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين*، تحقيق: عبدالمنعم عامر، د. مرسي عبدالله، ط٢ (القاهرة: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ١١٣-١١٥؛ الخروصي، سليمان بن خلف، *ملامح من التاريخ العُماني*، ط٣ (مسقط: مكتبة الضامري، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)، ١٠٠-١٠١؛ انظر أيضاً: مايلز، س. ب. *الخليج وبلدانه وقبائله*، ترجمة: محمد أمين عبدالله، (سلطنة عُمان: وزارة التراث القومي والثقافة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٦٦-٦٨؛ رجب، *العُمانيون والملاحة*، ٤٩.

(١٣) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١١٤-١١٥؛ ابن رزيق، *الشعاع الشائع*، ٢٧-٣٢؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٠٤- ٢٠٥؛ الخروصي، *ملامح من التاريخ العُماني*، ١٠٨؛ عاشور، سعيد، وخليفات، عوض محمد، *عُمان والحضارة الإسلامية*، ٣٠.

(١٤) عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٠٥.

(١٥) أجمعت المراجع العُمانية على أنه عيسى بن أبي جعفر المنصور. انظر السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١١٨؛ ابن رزيق، *الشعاع الشائع*، ٢٢٥، ٣٢؛ السالمي، محمد بن عبدالله وناجي عساف، *عُمان تاريخ يتكلم* (دمشق: ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، ١٣٣؛ الخروصي، *ملامح من التاريخ العُماني*، ١٠٨، بينما ذكرت المراجع الأخرى ما أوردناه انظر: البلاذري، *فتوح البلدان*، ٨٤؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي* ، ٢٠٦؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله*، ٧٨.

(١٦) تورد غالبية المراجع العُمانية أنه مقارش بن محمد بينما يذكر ابن رزيق أن اسمه فارس بن محمد، وكذلك أخذ عنه مايلز، والسالمي، *تحفة الأعيان*؛ الخروصي، *ملامح من التاريخ العُماني*، ١٠٩؛ ابن رزيق، *الشعاع الشائع*؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله*.

(١٧) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٦: ٣٦٢. يذكر الزركلي أنه ولي السند من قبل هارون الرشيد من سنة ١٨٤هـ حتى وفاته ٢٠٥هـ، *الأعلام*، ٢: ٣٣٦.

(١٨) السالمي محمد، وناجي عساف، *عُمان تاريخ يتكلم*، ١٣٣؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٠٨؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله*، ٧٨-٧٩.

(١٩) أجمعت المراجع العُمانية على أنها ثلاثة مراكب بينما يذكر فاروق عمر أنها ٣٠٠ مركب، ٢٠٨.

(٢٠) ذكر الطبري أن اسمه ابن مخلد الأزدي، *الأمم والملوك*، ٨: ٤٨٥. بينما ذكر ابن رزيق أن اسمه أبوحميد بن فلح في كتابيه السابقين.

(٢١) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١١٨- ١١٩.

(٢٢) عمر، فاروق، *الخليج العربي* ، ٢٠٩.

(٢٣) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١١٨- ١١٩؛ ابن رزيق، *الفتح المبين*، ٢٢٥- ٢٢٦؛ *الشعاع الشائع*، ٣٢-٣٣.

(٢٤) البلاذري ، *فتوح البلدان*، ٨٤. انظر أيضاً عمر فاروق، *الخليج العربي* ، ٢٠٦؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله*، ٧٨.

(٢٥) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ* ، ٦: ١٥٨-١٩٨، ٢١١-٢١٤؛ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد (بيروت: دار المعرفة)، ٣: ٣٤٧.

(٢٦) عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٠٩؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله* ، ٨٠.

(٢٧) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٢٥؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢١٨-٢٢٠؛ مايلز، *الخليج وبلدانه وقبائله*، ٨١.

(٢٨) شـهابن حســن صالح، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*، وزارة التراث القومي والثقافة، ط١ (مسقط: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ١١٦.

(٢٩) تقع مدينة دبا بشبه جزيرة مسندم في المنطقة الشمالية من عُمان. مطلة على خليج عُمان اشتهرت بكونها مرفأ نشطا وسوقاً من أسواق العرب قبل الإسلام، وكان الجلندي بن المستكبر ملك عمان يعشر أهلها.

(٣٠) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٢٣.

(٣١) عن صناعة السفن العُمانية انظر: *عمان وتاريخها البحري*، ١٤٧. ابن رزيق، *الفتح المبين*، ٢٢٥-٢٢٦.

(٣٢) شهاب، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*، ١١٦-١١٨.

(٣٣) عن الموضوع انظر: الأزكوي، سرحان بن سعيد، *تاريخ عُمان المقتبس من كشف الغمة*، ٥١، الأزكوي، *تاريخ عُمان*، تحقيق: أحمد عبيدلي؛ ابن رزيق، *الشعاع*، ٣٥-٣٦، *والفتح المبين*، ٢٢٧؛ السالمي وناجي عساف، *عُمان تاريخ يتكلم*، ١٣٤؛ السالمي، *تحفـة الأعـيان*، ١: ١٢٢-١٢٣؛ مايلـز، *الخلـيج وبلدانه وقبائله*، ٨٢؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢١٦-٢١٨؛ رجب عبدالحليم، *العُمانيون والملاحة*، ٤٩؛ ارنولد، تاريخ الخليج، ٤٤.

(٣٤) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٢٥-١٢٦؛ شهاب، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*، ١١٨.

(٣٥) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٥٠؛ شهاب، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٢٤.

(٣٦) ســقطرى: بضم أوله وثانيه، وسكون طائه، وراءه، وألف مقصورة، اسم جزيرة عظيمة كبيرة تبلغ مساحتها ٣٦٢٦كم مربعاً، فيها عدة مراسي تتوسطها الجبال. فيها عدة قرى ومدن تقع جنوب عدن في المحيط الهندي، وهي إلى بر العرب أقرب منها إلى بر الهــند، وكانــت مركزاً للقراصنة الهنود الذين يقطعون على المسافرين والتجار والملاحين، ويبدو أن العُمانيين قد احتلوها بعد قضائهم على القراصنة الهنود في عهد الإمام غسان بن عبد الله، واتخذوها قاعدة لهم، وذلك لوقوعها على الطريق التجاري الهام الواصل بين شرق أفريقية والبلاد الواقعة إلى جنوب المحيط الهندي وبر الصين من جهة وعُمان من جهة ثانية، ثم لوجود مجموعة مــن الاباضــيين من أهلها على الرغم من أن غالبية سكانها من نصارى العرب خاصة قبائل مهرة، وبها ما يقارب عشرة آلاف مقاتل. الحموي، *الموسوعة العربية الميسرة*، مج٣، ٢٢٧.

(٣٧) مايلــز، *الخلــيج وبلدانه وقبائله*، ٨٢؛ رجب، *العُمانيون والملاحة*، ٤٩-٥٠؛ شهاب، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*، ١١٩-١٢٠.

(٣٨) نســبة إلى مدينة سمد الشأن، بالمنطقة الشرقية من عُمان تقع على ضفة واد عرف باسمها واد سمد، وهي من المدن القديمة، كانت قاعدة من قواعد ملوك بني نبهان ومعقلاً من معاقل زعامتهم. السيابي، سالم بن حمود، *العنوان عن تاريخ عُمان*، ٧٣.

(٣٩) الحــارثي، أحمــد بن عبدالله، و السالمي، الإمام نور الدين ، *اليسرى في إنقاذ جزيرة سقطرى*، ط١ (مسقط: مكتبة الضامرى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)، ٢-٧.

(٤٠) بعض ما قاله الجهضمي:

قل للإمام الذي ترجــى فضائلــه	ابن الكرام وابن الســادة النجــب
وابن الجحاجحة الشم الذين هــم	كانوا سناها وكانوا سادة العــرب
أمست سقطرى من الإسلام مقفرة	بعــد الشرائع والفرقــان والكتب
واستبدلت بالهدي كفراً ومعصيــة	وبالآذان نواقيسا مــن الخشــب

وبالذراري رجالاً لا خــلاق لهــم — من اللئام علــوا بالقهر والغلـــب
جار النصاري على واليك وانتهبوا — من الحريم و لم يالوا مــن السلـــب
إذ غادروا قاسما في فتيـــة نجـــب — عقوى مسامعهم في سبسب خـــرب
ما بال صلت ينام الليــل مغتبطــاً — وفي سقطرى حريم بادهـــا النهــب
ياللرجال أغيثوا كــل مسلمـــة — ولو حبوتم على الأذقان والركــب
حتى يعود عمــاد الدين منتصبــاً — ويُهلك الله أهل الجــور والريــب
وثم يصبح دعا الزهــراء صادقــة — بعد الفسوق وتحيـــا سنة الكتب

انظر السالمي، *تحفة الأعيان*، ١٦٧-١٦٨.

(٤١) وقوله:

السيف أصدق أنباء مــــن الكتـــب — في حـــدّه الحد بين الجـــدّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحـــائـــف — في متونهن جــلاء الشــك والريب
والعلم في شهب الارماح لامعــــة — بين الخميسين لا في السبعة الشهب
تـــدبير معتصـــم بالله منتقـــم — لله مرتقـــب في الله مرتهـــب
خليفة الل ه جازي الله سعيك عـــن — جرثومة الدين والإســـلام والحسب
أبقت بني الأصفر المصفر كاسمائهم — صفـــر الوجوه وجلت أوجه العرب

أبو تمام، حبيب بن أس الطائي، *ديوان أبي تمام*، تقديم وشرح د. محيى الدين صبحي، ط١ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٧م)، ١: ٩٦ -١٠٤.

(٤٢) عن فتح عمورية انظر: اليعقوبي، أحمد بن احمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٩٢هــ)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت، ١٤٠٠هــ/ ١٩٨٠م)، ٢: ٤٧٥-٤٧٦؛ ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٦: ٤٧٩-٤٨٨؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٦٧٧- ٧٣٣هــــ)، *نهاية الأرب في فنون الأدب*، تحقيق: د. محمد جابر عبدالعال الحسينين م. إبراهيم مصطفي (القاهرة: الهيئة المصـــرية العامة للكتاب، المكتبة العربية، ١٤٠٤هــ/١٩٨٤م)، ٢٢: ٢٥٠-٢٥٣؛ ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ابـــن محمـــد (ت ٥٩٧هــ)، *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، دراسة وتحقيق: محمد عبدالقادر عطا ومصطفي عبدالقادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٢هــ/١٩٩٢م)، ١١: ٧٨- ٨٣.

قال إبراهيم بن المهدي في غزو الروم لزبطرة:

يا غارة الله قـــد عاينـــت فانتهلـــي — هتك النساء وما منهم يرتكـــب
هب الرجال على اجرامهـــا قتلـــت — ما بال أطفـــال بالذبح تنتهـــب

المسعودي، *مروج الذهب*، ٤: ٥٩- ٦٠.

(٤٣) ومن بعض ما قاله الشيخ أحمد بن عبدالله الحارثي:

يا وقعة بسقطرى جلّ قائدهـــــا — وأنت زهراء فيهــــا أول السبب
لبى دعــــاك بجيش لا تزاحمـــه — الأفلاك في السبعة السيارة الشهب
فالصلت سلّ حسام الحـــق منتصباً — على البغـــاة فأرداهم على العقب

حتى أعاد سقطـرى وهي باسمـة ... تختال ما بين حد السيف والغضب
يا وقعة بسقطـرى شاكلـت مثلاً ... يوماً بوقعـة عمورية الكرب
تقاربت زمنـا والشبـه في عمـل ... كأن بينهمـا شيء من النشب
في تلك كـان أمير المؤمنين فـتى ... هـارون معتصمـاً بالله منتدب
لبى نداء شجيـا في استغاثتـه ... لحرة مـن بنات الدين والحسب
إذ قال لبيـك يا لبيـك مبتـدراً ... بجيشه قبـل نضج التين والعنب

الحارثي والسالمي، *اليسرى في إنقاذ جزيرة سقطرى* ، ١٠-١٨.

(٤٤) الشهاب، *من تاريخ بحرية عُمان التقليدية*، ١١٩-١٢٠.

(٤٥) العبادي، أحمد مختار، *في التاريخ العباسي والفاطمي*، دار النهضة العربية، ١١٨- ١١٩.

(٤٦) الحارثي والسالمي، *اليسرى في إنقاذ جزيرة سقطرى*، ٥ و١٥.

(٤٧) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٦٨.

(٤٨) عن الموضوع انظر: السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٦٦-١٨٣.
- السالمي وعساف، *عُمان تاريخ يتكلم*، ١٣٦-١٣٧؛ عمر، فاروق، *الخليج العربي*، ٢٩٨-٣٠١؛ عاشور، سعيد عبدالفتاح، بحث بحصاد ندوة الدراسات العُمانية، ١: ٢٨٠.

(٤٩) سورة الروم، آية ٤٧.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

مخلاف عثَّر في القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر للميلاد)

أحمد بن عمر الزيلعي
قسم الآثار والمتاحف – جامعة الملك سعود

مخلاف عثَّر أو المخلاف السليماني (حالياً منطقة جازان) من المناطق المجهولة في المصادر التاريخية، وخصوصاً في القـرون الخمسـة الأولى للهجرة النبوية الشريفة، وستظل كذلك مادام الباحثون والدارسون يتهيبون البحث فيها، ويتحاشون المساس بماضيها والغوص في مجاهل تاريخها، وما كان لها من أهمية حضارية، وأدوار تاريخية على المستويين المحلي والإقليمي، وخصوصاً علاقتها مع كل من مكة المكرمة واليمن. ولعلها لا تكون مجازفة من الباحث حينما يَقْدِم على موضوع شائك كهذا للمشاركة به في ندوة تاريخية مهمة لها حضورها العالمي المميز، لولا أنه على أمل أن يغطي البحـث عند تمامه فترة تاريخية مجهولة من فترات تاريخ مخلاف عثر أو المخلاف السليماني بعد أن أُطلقت عليه هذه التسمية الأخيرة فيما بعد، واشتهر بها. فما هو مخلاف عثر هذا؟ وأين موقعه؟ وما نصيبه من الذكر في المصادر العربية المتاحة، وما أهميته التاريخية والحضارية في زمن هذه الدراسة؟

وللإجابـة على هذه التساؤلات أو بعضها تجدر الإشارة إلى أن مدينة عثَّر ومخلافها المسمى باسمها والمنسوب إليها (مخلاف عثَّر)، لم يكن لهما -في حدود علمي- نصيب كبير من الذكر في المصادر التاريخية والجغرافية المتاحة في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر للميلاد، وما ذكر عنهما -وهي إشارات محدودة جداً- يمكن توظيفه في أربعة سياقات: أولها ورود عثَّر في الشعر الجاهلي على أنها مأْسَدة أي كثيرة الأسود، يقول عُرْوَة بن الورد (ت نحو ٣٠ ق.هـ/ ٥٩٤م)[١]:

تَبَغَّانِـيَ الأعــداءُ إمــا إلى دمٍ	وإمـا عُـراض الساعديـن مصـدّراً
يظـل الإبَـاءُ ساقطاً فـوق متنـةِ	له العدوةُ القصوى إذا القِرْن أصحـرا
كـأن خـواتَ الّرعْـدِ رزُّ زئيـرِه	مـن اللاء يْسكُـنَّ الغَرِيْـفَ بعَثَّـرا

ويقول آخر:[٢]

ليثٌ بعثَّرَ يصطادُ الرجَالَ إذا ما الليثُ كذَّبَ عن أقرانِهِ صدقا

ويقول ابن مقبل (تميم بني أُبيَّ ت. نحو ٣٧هـ/ ٦٥٧هـ): [٣]

جلوساً بها الُشمُّ العجافُ كأنهم أسودٌ بَترْجٍ أو أسودٌ بُعثُودا

وعُثُود جزء من مخلاف عثر كما سيأتي بعد. يتضح من هذا الوصف الشعري لموقع عثر أنه كان قبيل بعثة النبي ﷺ، وفي صدر الإسلام غابات تكثر فيها الأسود، وهو ما يتعارض مع اكتشاف دلائل أثرية على استيطان حضري قديم في موقع مدينة عثر يسبق الإسلام بقرون عديدة. [٤] ومن المحتمل أن المقصود بالأمكنة التي تكثر فيها الأسود من إقليم عثر، هي تلك التي تمثل الظهير الداخلي لمدينة عثر نفسها كونها معروفة حتى اليوم بغاباتها الكثيفة، وغطائها النباتي الغزير، وخصوصاً في وادي بيش الذي تقع مدينة عثر في غربيِّة تقريباً. [٥] ويؤيد هذا الاحتمال قول الهمداني: "وإلى حازَّة عثر تنسب الأسود التي يقال لها أسود عثر وأسود عتود"[٦]. ومعروف أن الحازَّة هي المقصودة هنا بكثرة الأسود، وهي تعني حتى اليوم في عرف الأهالي المحليين الأرض التي بين السهل والجبل[٧]، أي تلك التي أطلقنا عليها سابقاً ظهير مدينة عثر، أو امتدادها الداخلي في أودية كل من صَبْيَا وبَيْش وعُثُود وما وما حولها[٨].

ويلحظ من الأبيات السابقة ورود عثّر بتضعيف الثاء، وهو ما يتفق مع ورودها في معظم المصادر المتاحة، إلا أن هناك من الشعراء من يوردها بالتخفيف، أي بسكون الثاء (عَثْر) من ذلك قول عمرو بن زيد، أخي بني عوف[٩]:

جلوساً بها الُشمُّ العجافُ كأنهم أسودٌ بَترْجٍ أو أسودٌ بُعثُودا

وصلنا إلى عَثْرٍ وفي دارِ وائلٍ بها ليلُ منَّا سَادَةٌ وأُسُوْدُ

ومنه شعر الأحوص قوله[١٠]:

أَلَمَّت بعثْرٍ من قُباءٍ تزُوْرُنا وأنَّا قباءٌ للمُزَاورِ من عَثْرٍ

أما السياق الثاني في تناول مدينة عثر من قبل المصادر الجغرافية فيتمثل في كونها محطة من محطات طريق الحج والتجارة اليمني الساحلي الذي يأتي من عدن مقارباً لساحل البحر الأحمر، ومجتازاً لعدد كبير من محطات الطريق إلى الُشعَيْبة فجدّة، ثم شرقاً إلى مكة المكرمة[١١]. وهذا الطريق يتصل به طريق حضرموت الساحلي، وكذلك طريق عمان الذي يسلك ساحل البحر العربي عبر حضرموت إلى عدن[١٢]. وممن ذكرها في هذا السياق من الجغرافيين العرب الحربي (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م) جاعلاً إياها على طريق الحج والتجارة اليمني الساحلي إلى مكة المكرمة، ومحدداً مساره على عثر بقوله: "ومن جازان إلى بَيْش، ومن بيش إلى عثر، ومن عثر إلى ضَنْكان"[١٣] ويبدو التشويش واضحاً في نص الحربي إذ إن بيش وعثر اسمان لموقع واحد تقريباً؛ فالاسم الأول يطلق على الوادي، أو على الامتداد الداخلي

لـــلمكان، والـــثاني يطلق على الساحل أي على مدينة عثر الساحلية، أما ابن خرداذبة (في حدود ٣٠٠هــ/ ٩١٢-٩١٣م) فيضـــع عثر على مسار الطريق نفسه[١٤]، ولكنه تجاهل ذكر كل من جازان وبيش، وهو محق في ذلك، لأن جـــازان الساحل، أي مدينة جازان الساحلية المعروفة اليوم لم تكن معروفة في زمان ابن خرداذبة، وسابقه: إبراهيم بن إسحاق الحربي؛ ولأن بيش وعثر هما -كما ذكرنا للتو- شيء واحد على أساس أن مدينة عثر هي ساحل بيش، وهذا ما يقرره اليعقوبي (ت ٢٨٤هــ/ ٨٩٧م) الذي كان معاصراً في بعض سِنِيِّ حياته لابن خرداذبة من أن "عثر ساحل بيش"[١٥]. على أن قدامه بن جعفر البغدادي (٣٢٠هــ/ ٩٣٢م) الذي يجئ بعد سابقيه في هذا السياق، يبدو أنه أكثر فهمـــاً منهما، بجغرافية المكان، فهو، وإن اتفق معهما فيما أورد عن مسار الطريق إلى عثر جيئة وذهاباً، إلا أنه يضع خياراً يدلل -كما أوضحنا- على فهمه لطبيعة المكان وجغرافيته حينما يقول "فمن أراد طريق الجادة أخذ من عثر إلى العُـــرُش، ثم جاز على طريق الجادة المخاليفَ، ومن أراد الساحل أخذ من عثر إلى مرسى ضَنْكان، ثم مرسى حَلِيْ إلى السَّـــرَّين"[١٦]. ويتضح من قول قدامة "ثم جاز على طريق الجادة المخاليف" أي الجادة السلطانية التي تسلكها القافلة الرسمية من صنعاء، أو من تَعِز وزَبِيد ليس على طريق الساحل، وإنما قليلاً إلى الداخل بين السهل والجبل قاطعة الأودية الرئيســـية[١٧]، وهي ما يعبر عنها هنا بالمخاليف أي حيث الاتساع العمراني والزراعي لتهامة اليمن، ثم لمخلاف عثر، ومـــنهما إلى مكـــة المكـــرمة. ويتضح من نص قدامة أيضاً، ويتفق معه سابقه: ابن خرداذبة في التمييز بين ضنكان الداخلية، وضنكان الساحلية حينما أضافا الأخيرة إلى كلمة "مرسى" أي "مرسى ضنكان" تمييزاً لها عن الأولى التي هي معـــدن ذهب معروف في تلك الناحية[١٨]، وهما بذلك يزيلان اللبس الوارد في معلومات سابقهما: الحربي من حيث ذكره لضنكان فقط دون إضافة، وهو ما يتبادر إلى الذهن من أن المقصود هي ضنكان الداخل التي فيها معدن الذهب المذكـــور للتو، والتي هي أكثر شهرة من الأولى، وأقرب إلى طريق الجادة السلطانية من طريق الساحل، موضوع هذا الســـياق. أمـــا الـــبكري (ت ٤٧٨هــ/ ١٠٩٤م) فيربط عثر بالسرين التي تقع بدورها على طريق الحج والتجارة الســـاحلي إلى مكة المكرمة، وتمثل إحدى محطاته الرئيسية، ثم يذكر أنها (أي عثر) على مسيرة عشرة أيام من السرين بســـير الراكب في اتجاه الجنوب[١٩]. وهي مسافة تقترب من المسافة الحقيقية إذا قدرنا أن المرحلة في حدود ٤٠ كيلو متراً بقياسات العصر الحالي.

والسياق الثالث يتناول عثر بوصفها مدينة ساحلية عامرة، وسوقاً تجارياً مزدهراً من ذلك ما يصفه بها الهمداني (ت بعد ٣٤٤هــ/ ٩٥٥- ٩٥٦م) من أنها "سوق عظيم"[٢٠]، ويصفها المقدسي (ت ٣٨٠هــ/ ٩٩٠م) بأنها "مدينة كبيرة طيبة مذكورة، لأنها قصبة الناحية، وفرضة صنعاء وصعدة ، وبها سوق حسن، وجامع عامر"[٢١]، أما الحميري (ت ٧٢٧هــ/ ١٣٢٧م) فأبعد النّجْعَة حينما ذهب بعثر إلى ساحل عمان، وحينما صحَّف (هو أو الناسخ) ثاءها بتاء مثـــنَّاة فوقـــيَّة "عَتْر" بدلاً من رسمها الحقيقي بالثاء المثلثة "عثر"، ويصفها بأنها "مدينة واسعة .... بناؤها من الخشب والحشيش إلا حماماتها فإنها جيدة البناء، وبها مسجد جامع على الساحل، وأكثر طعامهم الذرة، ومبلغ منافع صاحبها

سـبعون ألف دينار"[٢٢]. الجدير بالإشارة إلى أن المحقق يقول في الهامش: "أقرب الصور لها "عَفْر" عند الإدريسي، و لم أجد لها هذا الوصف" -على حد قوله- على أنه يكاد يكون في حكم المؤكد أن هذا الوصف ينطبق على عثر، لقرب صورة رسم الكلمة، ولتشابه حرفي الثاء والتاء؛ ولأن أسلوب البناء، وصنف الطعام هما السائدان في المنطقة حتى عهد ليس بالبعيد.

أما السياق الرابع والأخير في المصادر المذكورة فيصف عثر على أنها ناحية جليلة، أو أنها عمل من أعمال مكة المكـرمة، أو مخلاف من مخاليفها. والمدلول الجغرافي في جميع هذه الأوصاف واحد، إذا إن الناحية والعمل والمخلاف بمعـنى واحـد عـلى أساس أن عثر كانت مركزاً إدارياً يتبعها عدد من الأودية والبلدان، وعليها والٍ يجبي الأموال، ويرفعها إلى وال أعلى هو هنا والي مكة المكرمة ، أو مباشرة إلى دار الخلافة العباسية ببغداد[٢٣].

ولعل خير من فصل في ذكر مخلاف عثر من الجغرافيين المسلمين إثنان هما: ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)؛ والمقدسي الذي أشرنا إلى تاريخ وفاته قبل، ومن المؤرخين واحد هو عمارة الحكمي (ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م)؛ فابن حوقل في معرض حديثة عن حكام تهامة أو ملوكها يقول: "ويتلوه [أي يتلو ابن زياد حاكم زبيد أو تهامة اليمن] في المُكْـنَة والمقدرة ابن طرف صاحب عثر، ويشتمل ملكه على وجوه الأموال، وضروب الجبايات، ويكون الواصل إليه كنصـف ما يصل إلى ولد ابي الجيش بن زياد من المال"[٢٤]. يتلو ابن حوقل المقدسي الذي تناول مخـلاف عثـر أو ناحية عثر -كما يحلو له تسميتها- بقوله: "وناحية عثر ناحية جليلة، عليها سلطان برأسه، ومدنها نفيسة"[٢٥] ويفهم مـن قـول المقدسـي "عليها سلطان برأسه" أن حاكم عثر مستقل بشؤونها الداخلية، وكونه كذلك فلابد أنه كان يحكمهـا حكمـاً وراثـيّاً، وأنه ينتمي إلى أسرة كانت قد استقلت بحكمها الداخلي مع ولائها وتبعيتها لوالي مكة العباسـي[٢٦]. أما عمارة الحكمي، وهو أول من عرض من المؤرخين لمخلاف عثر بمثل هذا القدر من التفصيل، فإنه يقـول: "وممن امتنع من عمال أبي الجيش بن زياد [حاكم تهامة اليمن ومقره زبيد] سليمان بن طرف، صاحب عثر، وهـو من ملوك تهامة، وعمله مسيرة سبعة أيام في عرض يومين، وهو من الشرجة إلى حلي، ومبلغ ارتفاعه في السنة خمسـمائة ألف دينار عثّرية"[٢٧]. أما من حيث التبعية فإن إقليم عثر أو مخلافها، وبعض المصادر تسميه مخلاف بيش، والمعـنى واحـد -كما أوضحنا قبل- فيتبع من الناحية السياسية لإمارة مكة المكرمة، وقد استمر هذا الوضع طوال فترات ازدهاره، ثم بعد ذلك حينما أصبح يعرف باسم المخلاف السليماني باستثناء فترات ليس هنا مجال ذكرها[٢٨].

ممـا سبق يتضح أن مسمى عثر يطلق على مدينة عثر نفسها، وعلى مخلافها الذي يمتد جنوباً من مدينة الشَّرْجة الواقعـة تقريـباً عـلى الحـدود الحالية بين المملكة العربية السعودية واليمن، وشمالاً إلى جنوب حدود إمارة حَلِيْ حيـنذاك[٢٩]، أي إلى الحدود الجنوبية لمركز البِرْك (بِرْك الغماد) الذي كان يتبع إمارة مكة المكرمة إلى أن انضم قبل ثـلاث سـنوات لمنطقة عسير[٣٠]، ومن الغرب يمتد مخلاف عثر من البحر الأحمر إلى الأطراف الجبلية لإمارة منطقة عسير؛ وخصوصاً من الجنوب الغربي. وهذا ما ينطبق تقريباً على الامتداد نفسه الذي تشغله اليوم منطقة جازان. ويُعَدّ

هـذا المخـلاف مـن أخصب المخاليف الجنوبية لإمارة مكة المكرمة على مدى تاريخها، ومن أكثرها غني بالمحاصيل الزراعـية، والثروة الحيوانية، وبه عدد من الأودية التاريخية التي تستمد سيولها من جبال السروات، وتصب في البحر الأحمر تاركه طبقة من الطينة الرسوبية الغنية التي تجود فيها الزراعة ، وينتشر حولها الاستيطان البشري مما جعل مخلاف عثر في زمانه، أو منطقة جازان حالياً من أكثر مناطق المملكة العربية السعودية كثافة بالسكان، ومن هذه الأودية من الشـمال إلى الجـنوب وادي حَمَضة ووادي يَتَمَة، ووادي رِيمْ، ووادي عُتْوُد، ووادي بَيْش ، ووادي صَبْيَا، ووادي ضَمَد، ووادي جازان، ووادي خُلَب[٣١]. وبمخلاف عثر عدد من المدن التاريخية بعضها لا يزال قائماً، وبعضها مندثر؛ فمن المدن التاريخية العامرة بها حتى الآن: جازان، العاصمة الإدارية للمنطقة، وأبو عريش، وضمد، وصبيا، وبيش[٣٢]، ومـن المدن المندثرة: الشرجة، وجازان العليا، والمنارة بوادي جازان، والراحة (راحة بني شريف في بيش)، وضَنْكان المشـهورة بمـنجم ذهـب، بالإضافة إلى مدينة عثر نفسها عاصمة الإقليم[٣٣]. فقد كانت مدينة عثر من أكثر المدن السـاحلية التهامـية ازدهاراً بوصفها محطة من محطات طريق الحج والتجارة الساحلي بين الحجاز واليمن، وعاصمة لإقلـيم يمتاز بالخصب، وبالكثافة السكانية والرعوية، وميناء نشطاً في تجارته مع موانىء اليمن الواقعة إلى الجنوب منه، ومـع مـوانىء الحجاز الواقعة إلى الشمال منه، فضلاً عن الموانئ المقابلة له مما يلي البر الحبشي. كما إنها كانت دار ضـرب للسكة ينسب إليها واحد من أشهر الدنانير المضروبة في جزيرة العرب، ذلك هو الدينار العثري الذي كانت تحسـب بـه مقاديـر عشور اليمن، وبعض أقاليم الجزيرة العربية الأخرى، وكذلك مختلف الجبايات التي كان يجري تقاضيها بالدينار العثري في نطاق تداولة[٣٤]. أما مدينة عثر فهي الآن في حكم المندثر، و لم يبق منها إلا تلول أثرية تقع على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قرية قَوْز الجَعَافِرَة التي أصبحت في الوقت الحاضر علماً على كامل المكان بما في ذلـك موقع عثر نفسها. وتقع قرية القوز أو قوز الجعافرة على بعد حوالي ٣٠ كيلومتراً إلى الشمال الغربي من مدينة صـبيا المعروفة. أما عثر فتقع على بعد حوالي ثلاثة كيلو مترات إلى الغرب من قرية القوز المذكورة، وهي خالية تماماً مـن أيـة سـكنى، وتبلغ مساحة موقعها حوالي ٢×١ كم ، وهي كما أسلفنا - عبارة عن تلول مرتفعة تطل على السـاحل مباشرة، وينتشر فوق سطحها العديد من الكسر الفخارية المتنوعة، بعضه يعود إلى عصور ما قبل الإسلام، ومعظمـه يعـود إلى العصور الإسلامية بما في ذلك وجود بعض نماذج من الخزف ذي البريق المعدني الذي يعود إلى العصـور العباسية[٣٥]، وينتشر حول الموقع عدد من الآبار القديمة المطمورة كشف السيل في إحدى السنين عن ثلاثين بئراً منها مما يدل على أهمية المكان واتساعة، وكثافة سكانه وأنْعَامه على حين ازدهاره[٣٦].

لقـي موقع عثر الأثري اهتماما ملحوظاً من قبل الإدارة العامة للآثار والمتاحف بوازرة المعارف (حالياً وكالة الآثـار والمتاحف) من حيث قيامها بمسحه عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م تحت مسمى القوز (٢١٧هـ - ١٠٨) المطل عـلى مضـيق يسـمى رأس طـرفة، وهو ميناء به مرسى طبيعي في تلك الجهة[٣٧]. ثم قامت الإدارة نفسها في عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م بإجـراء حفرية في موقع عثر ما لبثت نتائجها أن نشرت في مجلة **أطلال** في العام ١٤٠٥هـ/

١٩٨٥م، وكشفت تلك الحفريات عن نتائج في غاية الأهمية ليست مما يندرج تحت موضوع هذا البحث[٣٨].

الوضع السياسي لعثر ومخلافها:

أما الوضع السياسي لعثر في القرنين الثالث والرابع الهجريين التاسع والعاشر للميلاد فهو من أهم المشكلات التي يواجهها الباحثون لا من حيث ندرة المعلومات، ولا من حيث وضعها في سياق تاريخي منطقي، وذلك فيما يتعلق بالقليل والقليل جداً منها مما يمكن أن يعد إرهاصات أولى لتاريخ مخلاف عثر السياسي في هذين القرنين اللذين من المحتمل أن مخلاف عثر شهد خلالهما حكم أسر محلية، أو غير محلية استقلت بالشؤون الداخلية للمخلاف مع بقائها مرتبطة بالخلافة العباسية، وبولاتها المباشرين على مكة المكرمة حينذاك.

ولعل أول الإشارات الواضحة والدالة على هوية حكام عثر في تلك الفترة، ما وصلنا عن طريق الهمداني الذي يذكر في مكان من كتابه **صفة جزيرة العرب** بأن حكام هذا المخلاف هم موالي قريش[٣٩] دون أن يوضح إلى أي من قريش ينتمي أولئك الموالي؟ ولكنه في مكان آخر من الكتاب نفسه يقرر صراحة بأن "ملوكه من بني مخزوم ومن عبيدها"[٤٠].

وبالرجوع إلى الولاة العباسيين من بني مخزوم الذين وُلُّوا أمور الولاية الأم، وهي مكة المكرمة، يتضح أن أول من وليها منهم في منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي هو عيسى بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن عبدالحميد بن عبدالله بن عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، وقد وليها للخليفة المعتز بالله العباسي (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م) [٤١]، واستمرت ولايته على مكة (متصلة أو منفصلة) من سنة ٢٥١- ٢٥٤هـ/ ٨٦٥-٨٦٨م[٤٢] (٤٢). أما الرجل الثاني الذي ولي مكة من بني مخزوم فهو أبوعيسى محمد بن يحيى بن محمد بن عبدالوهاب بن سليمان المخزومي، وكان الذي ولاه إياها الخليفة العباسي المعتمد على الله أحمد بن جعفر المتوكل (ت ٢٧٩هـ ٨٣٠م) [٤٣]، ثم ما لبث الخليفة المعتمد أن عزل أبا عيسى هذا بابن عمه أبي المغيرة محمد بن عيسى بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المخزومي[٤٤]، ولد أمير مكة المذكور أعلاه والذي ذكرنا للتو أنه وليها في زمن الخليفة المعتز بالله، ويبدو أن أبا عيسى هذا امتنع من تسليم مكة لابن عمه المغيرة، فاقتتل الاثنان، فقتل أبوالمغيرة أبا عيسى، ودخل مكة -كما تذكر المصادر- ورأسه بين يديه[٤٥]، وقد ولي مكة فترة امتدت إلى سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨٢م، وربما إلى أبعد من ذلك[٤٦].

وعلى الرغم من ولاية بني مخزوم لمكة المكرمة حوالي عقدين من الزمن فإن المصادر التاريخية المتاحة لم تذكر أنهم أرسلوا ولاة من جانبهم، أو نواباً لهم على مخلاف عثر طوال حكمهم لمكة. غير أن هناك إشارة يتيمة يوردها ابن حزم (٣٥٦هـ/ ٩٦٧م) بقوله: "وبنو طرف الذين وُلُّوا بعض جهات اليمن هم موالي عيسى بن محمد والد أبي المغيرة"[٤٧].

ومن هنا يستطيع الباحث أن يمسك بأول خيوط الحقيقة الدالة على حكام عثر من موالي بني مخزوم، ويستطيع

كذلك الاستدلال على هوية هؤلاء الموالي وهم "بنو طرف" الذين كانوا ذوي قرابة قريبة من جهة الأمهات لبني مخزوم، ولاة مكة المشار إليهم آنفاً؛ لكون طرف، جد بني طرف المذكورين، ليس مولى لعيسى المخزومي، وإلى مكة في عهد المعتز، وحسب، وإنما هو صهره أي أخو زوجته وأم ولده، أبي المغيرة محمد بن عيسى، وذلك طبقاً لما يذكره ابن حزم الذي يقرر هذه الحقيقة بقوله: "وكان طرف، مولى عيسى، وجد أبي المغيرة لأمه، وابنه الحسن بن طرف خال أبي المغيرة"(٤٨)، إذاً، فهم أصهار عيسى، وأخوال ولده أبي المغيرة محمد بن عيسى الذي ذكرنا للتوّ أنه ولي مكة للخلفية العباسي المعتمد على الله. فليس من المستبعد أن يكون بنو طرف هؤلاء أهل مكانه وحسب مُعْتَبَرين عند أسيادهم بني مخزوم حتى يكونوا موضع ثقتهم، وخصوصاً جدهم طرف الذي نقدر أنه أول من تولى منهم حكم مخلاف عثر، كما نقدر أن الحكم استمر وراثياً في عقبه على الرغم من انتهاء ولاية أسيادهم بني مخزوم لمكة، بل إن حكم هؤلاء الموالي المخزوميين المدعوين بني طرف ربما استمر في عثر حتى نهاية هذه الفترة أي إلى أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ويعزز هذا الاحتمال عدد من الأدلة التاريخية؛ بعضها مستقى من المصادر الأدبية القليلة المتاحة، والآخر مما كُشف عنه من أسماء بعض حكام عثر المنقوشة على ما وصلنا من الدنانير الذهبية المضروبة في مدينة عثر نفسها، وبصورة خاصة تلك الدنانير العثرية التي ضربت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

فأما الأدلة التاريخية المستقاة من المصادر الأدبية فهي تنحصر في بعض الكتب الجغرافية والتاريخية المعاصرة لتلك الفترة. وهذه الكتب، وعلى الرغم من قلتها – فإنها تحتفظ بذكر حكام عثر في فترات تكاد تكون متصلة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ النصف الثاني من العاشر الميلادي، إلا أنها لا تذكر أياً منهم بالاسم، وإنما تطلق عليهم أوصافاً منها: "بنو طرف"، و"موالي بني مخزوم"، و"العبيد" هكذا مجردين من أي إضافة. فممن نعتهم ببني طرف ابن حزم، ثم معاصره ابن حوقل، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. أما الهمداني فيسمى حكام عثر أو ملوكها -كما قدمنا- "بني مخزوم وعبيدهم". وينعتهم صاحب سيرة الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني، وهو من رجال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي بنعت "العَبْدين" في أكثر من موضع من السيرة(٤٩). ويبدو أن هذين العبدين كانا يحكمان مخلاف عثر بالمشاركة، كما يبدو أنهما كانا أهل قوة ومنعة وبأس شديد حتى إن الإمام العياني نفسه لم يجرؤ على غزو ديارهما من الوهلة الأولى حيث تذكر السيرة أن الأشراف بني أبي الطيب الحسنيين وفدوا عليه في سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م، وطلبوا منه العون والمساعدة في توليتهم تهامة، وإقصاء العبدين من حكمها(٥٠)، كما إن الإمام نفسه كان يضمر الكراهية للعبدين من قبل، وكان ينوي غزو بلادهما، وتأديبهما، وإقصائهما عنها في أكثر من مناسبة(٥١). وعلى الرغم من النوايا المتكررة للإمام تجاه غزو ديار العبدين -كما تسميها السيرة- فإنه لم تكن لديه العزيمة الكافية على وضع نواياه تلك موضع التنفيذ، وإنه لم يجد استجابة مشجعة من رعاياه حينما خاطبهم في هذا الشأن، وإنما ردّوا عليه بكتبهم طالبين منه أن يمهلهم بعض الوقت لإصلاح خيولهم وركابهم وعُددهم؛ لكونهم عادوا للتو من سفرهم في غزو نجران. فعدل الإمام على مضض عن غزوه لعثر في سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م(٥٢)، وعوضاً عن ذلك كتب قصيدة

بعثها إلى رجاله رفق كتبهم التي أرسلوها إليه طلباً لإمهالهم بعض الوقت. ومما جاء في تلك القصيدة[٥٣]:

أمــــا أجبــــتم دعــــوتي فتأهــــبُّوا	لهــــبوطِ بــــيشٍ مــــترلِ العــــبدان [كذا]
هــــذا لــــنا حــــولٌ لُهــــمُ بأرضِــــهم	وتعــــوقُ عــــنه عوائــــقُ الحدثــــان [كذا]
لــــولا دنــــاة الناكــــثين وغدرِهــــم	ودبِّيــــبهم بالمكْــــر والبهــــتان
مــــا تمَّ للعبديــــن مــــاحظيــــا بــــه	من حَوْزِ ما ملكــــا مــــن البلــــدان

أمـــا الأدلة التاريخية المستقاة من المسكوكات المضروبة في عثر فتنحصر كذلك في القرن الرابع الهجري/ العاشر المـــيلادي، وتحديـــداً في عهود الخلفاء العباسيين المطيع لله (٣٣٤- ٣٦٣هـــ/ ٩٤٦- ٩٧٤م)، والطائع لله (٣٦٣- ٣٨١هــ/ ٩٧٤-٩٩١م) والقادر بالله (٣٨١-٤٢٢هــ/ ٩٩١-١٠٣١م). ويبدو أن أمراء عثر حققوا خلال هذه الفترة قدراً ملحوظاً من الاستقلال عن ولاة مكة خوّلهم سك أسمائهم جنباً إلى جنب مع الخلفاء العباسيين، وهو تقليد لا يُخَوّل إلا لكبار الولاة في الولايات الرئيسية، وليس في الأقاليم الصغيرة التابعة لتلك الولايات.

ونتيجة لسك أسماء أمراء عثر على الدينار المنسوب إلى بلدهم (دينار عثر أو الدينار العثري) أمكن العثور على أسمــاء ســتة منهم تقلبوا على حكم المخلاف حوالي ثمانية وأربعين عاماً امتدت من سنة ٣٤٦- ٣٩٤هــ/ ٩٥٧- ١٠٠٤م، وأول هؤلاء الأمراء أبو علي محمد بن القاسم الذي وجد اسمه ممهوراً على أحد عشر ديناً مؤرخة بين سنتي ٣٤٦هــــ، و ٣٥٩هــــ/ ٩٥٧-٩٧٠م[٥٤]، أي أن حكمه لمخلاف عثر امتد من خلال النقود حوالي أربعة عشر عاماً. والأمير محمد بن القاسم هذا يُعتقد -على رأي أحد الباحثين المحدثين- أنه ولد القاسم بن طرف، صاحب عثر في نهاية القرن الثامن الهجري/ مطلع القرن العاشر الميلادي[٥٥]، وهو الذي ورد ذكره في محاولات والي مكة التصدي لعــلي بــن الفضل -أحد زعيمي الدعوة الإسماعيلية باليمن حينذاك- حينما احتل زبيد، وهدد جميع التهائم بطغيانه وجــبروته[٥٦]. ومــن المعتقد أن محمداً هذا خَلَف والده القاسم في إمارة عثر، ولكننــا لا نعرف -على وجه الدقة واليقين- كيف ومتى وصل إلى الحكم سوى ما رأيناه من فترة حكمه الموضحة على الدنانير المنسوبة إليه. ومع ذلك، فمــن المحتمل أنه وصل إلى حكم عثر قبل هذا التاريخ بزمن ليس بالقصير، وأنه استمر في الحكم بعد عام ٣٥٩هــ/ ٩٧٠م، ذلك العام الذي يؤرخ لآخر دينار يحمل اسمه في حدود ما وصلنا من الدنانير المنسوبة إليه[٥٧]. على أنه يكاد يكون في حكم المؤكد أن فترة حكمه لم تتجاوز سنة ٣٦٨هــ/ ٩٧٩م، وذلك لأن أمير عثر في هذا التاريخ كان ابنه الأمير أبو القاسم علي بن محمد بن القاسم لظهور اسمه على دينار فريد -في حدود ما وصل إلى علمي- يحمل التاريخ المشار إليه[٥٨].

أمــا في خــلال سنتي ٣٧٣- ٣٧٤هــ/ ٩٨٣- ٩٨٥م -في حدود ما هو متاح من دنانير عثر- فكان يجلس على كرسي الإمارة في المخلاف الأمير أبو يعفر السمو بن محمد خلفاً لأخيه أبي علي محمد بن القاسم، وهو ثاني ولد

من أولاد محمد بن القاسم بن علي بن طرف يصل إلى سدة الحكم في مخلاف عثر[٥٩].

وفي سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩-٩٩٠م كان أمير عثر الابن الثالث لمحمد بن القاسم بن علي بن طرف، ويدعى أبا محمد المعمر بن محمد طبقاً لما هو منقوش على ظهر دينار فريد منسوب إليه حتى الآن[٦٠]. ويبدو أن هذا الأمير وصل إلى حكم عثر قبل هذا التاريخ، وأن ديناره هذا الذي بين أيدينا، هو آخر إصدار له أثناء حكمه؛ لأنه في سنتي ٣٨٠، ٣٩٢هـ/ ٩٩٠، ١٠٠١- ١٠٠٢م كان أمير عثر شخص يدعى أبا الفرج الطرفي طبقاً لهذين الدينارين المؤرخين والمنسوبين إليه في حدود ما وصل إلى أيدينا[٦١]. وتجدر الملاحظة إلى أن هذا الأمير لم يعترف بالخليفة العباسي الجديد القادر بالله (٣٨١- ٤٢٢هـ/ ٩٩١- ١٠٣١م) الذي وصل إلى الخلافة بعد عزل سلفه الخليفة الطائع لله في سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م[٦٢]، وإنما احتفظ باسم الخليفة المعزول على الدنانير المضروبة في عهده كما فعل غيره من حكام الدول المستقلة استقلالاً ذاتياً عن الخلافة العباسية حينذاك، ومنهم السامانيون، والغزنويون، وسواهم[٦٣].

ويلاحظ كذلك أن أبا الفرج هذا، وإن كان منسوباً إلى بني طرف أو طرف لا يبدو أنه من أبناء محمد بن القاسم بن علي، أو من حفدته، ولا نعرف إن كانت نسبته هذه تنميه إلى بني طرف، موالي بني مخزوم، أمراء عثر، أو أنه من موالي مواليهم، ولا نستبعد هذا الاحتمال الأخير؛ لأن النسبة بياء النسب إلى أسر الحاكمين غالباً ما تكون لمواليهم المنسوبين إليهم، والأدلة على ذلك كثيرة في التاريخ الإسلامي[٦٤]. فليس من المستبعد أن يكون أبوالفرج هذا مولى لبني طرف وصل إلى حكم عثر بالتغلب، أو بالوصاية على قاصر غمطه حقه في تسجيل اسمه على السكة، كما هي عادة بعض الأوصياء في مثل هذه الحالة[٦٥]. ويشبه أبا الفرج هذا أمير آخر لعثر ظهر اسمه على الدنانير العثرية مباشرة بعد سابقه، ويدعى بشري الطرفي، وأول ظهور له كان على دينار ضرب في عثر سنة ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢- ١٠٠٣م[٦٦]وكذلك على دينار آخر ضرب في المدينة نفسها في السنة الثانية، أي في سنة ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣- ١٠٠٤م، وإنما بعد أن تخلص من النسبة "الطرفي"، واستبدلها بنقش اسم والده إلى جانب اسمه هكذا: "بشري بن عبدالله"[٦٧]. فهل ما ذهبنا إليه بخصوص أبي الفرج الطرفي ينطبق على بشري هذا من حيث إن الاثنين من موالي بني طرف تغلبا على أسيادهما، واستبدا بالأمر دونهما، كما حدث مع جيرانهما موالي بن زياد في أواخر أيامهم[٦٨]. وهل أبو الفرج الطرفي وبشري الطرفي متعاصران وشريكان في السلطة والتسلط على أسيادهما، وكذلك في التعاقب على الحكم على النحو الذي يظهر على السكة؟ فإذا صحّت الإجابة على هذه التساؤلات بأي احتمالات لوقوعها فليس من المستعبد أن يكون الاثنان (أبو الفرج وبشري) هما العبدان المعاصران للإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني، والمذكوران في سيرته بهذا اللفظ كما قدمنا.

ولا يتعارض ما ذكر مع حقيقة وجود سليمان بن طرف الحكمي، وتوحيده لمخلافي عثر وحكم تحت مسمى المخلاف السليماني وفقاً لما هو متعارف عليه في أوساط الدارسين الذين تناولوا تاريخ منطقة جازان في العقود الستة أو الخمسة الماضية –وإنما يتعارض مع التاريخ الموضوع والمتداول لذلك الحدث الكبير في بعض الدراسات الحديثة،

وهــو عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م[٦٩]، ذلك أن هذا التاريخ لا يستند على أدلة ثابتة في المصادر التاريخية الموثوقة، وإنما بني عــلى آراء كانت معقولة ومقبولة في وقتها. أما الآن فتدحضها الحقائق التي أشرنا إليها سابقاً، وبصورة خاصة تلك المســتقاة من سيرة الإمام العياني، ومن المسكوكات التي ظلّت تحمل أسماء بعض أمراء عثر حتى عَشْر التسعينات من القرن الرابع الهجري/ مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، مما يعني أن زمن ظهور سليمان بن طرف وتوحيده لمخلاف حكــم عثر ربما جاء في وقت متأخر نسبياً عما هو متداول حتى الآن في بعض الدراسات الحديثة، أي عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م -كما أشرنا إلى ذلك للتو. لذلك، فمن المعتقد أن ظهور سليمان بن طرف، وما استتبع ذلك من أحداث ربما كان متزامناً مع مطلع القرن الخامس الهجري/ أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، ما لم يُكتشف من الأدلة التاريخية ما يخالف ذلك. وهذا ما نأمل معالجته في دراسة أخرى لاحقة إن شاء الله.

نخلــص مما سبق إلى أن عثر كانت من المدن الإسلامية المزدهرة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر للميلاد، وأنها كانت محطة من المحطات الرئيسية على طريق الحج والتجارة الساحلي بين اليمن ومكة المكرمة. كما كانت عاصمة لمخلاف سمي باسمها هو مخلاف عثر قبل أن يتحول اسمه إلى المخلاف السليماني في فترة لاحقة، ثم مــنطقة جازان في وقتنا الحاضر. وكان مخلاف عثر يمتد من الشرجة بالقرب من حدود المملكة العربية السعودية مع اليمن، إلى قُرَيْب حدود إمارة حلي بن يعقوب من الجنوب (حالياً تتبع محافظة القنفذة - إمارة مكة المكرمة). ويشتمل هــذا المخــلاف عــلى عدة أودية أشهرها وادي بيش الذي هو امتداد مدينة عثر الداخلي من الشرق حتى إن بعض المصادر تسمى عثر بيشاً، ومخلافها: مخلاف بيش.

ونخلص كذلك إلى أن مخلاف عثر يتبع إمارة مكة المكرمة، وكانت تحكمه أسرة من موالي بني مخزوم القرشيين، وأن هذه الأسرة توارث أفرادها حكم المخلاف طوال فترة الدراسة، وأنها بلغت من القدرة والتمكن بحيث استطاعت ضــرب دنــانير ذهبية حملت أسماء بعض حكامها، وأن تلك الدنانير بلغت من الشهرة، وقوة التداول والوثوق بها، وبنقاوة معدنها، وصدق عيارها، درجة خوّلتهاالأنْ تُحسب بها مقادير العشور، ومختلف الجبايات التي كانت تتقاضاها الخلافــة العباســية من الدويلات المحلية التابعة لها، والواقعة في نطاق تداول تلك الدنانير العثرية ذات السمعة الجيدة، والشهرة الواسعة في زمانها.

التعليقات

(١) ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي، *معجم البلدان* (بيروت: دار صادر - دار بيروت، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م)، ٤: ٨٥.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) الهمــداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، ٧٧.

(٤) هـــذا مـــا أورده فريق المسح الأثري التابع للإدارة العامة للآثار والمتاحف بوزارة المعارف تحت عنوان: "ظواهر حضارة جنوب الجزيـــرة العربـــية"، أنظر زارينس، يوريس، وعبدالجواد مراد، وخالد اليعيش؛ "التقرير المبدئي الثاني عن مسح المنطقة الجنوبية الغربية"، *أطلال* (الرياض: إدارة الآثار والمتاحف بوزارة المعارف، العدد الخامس، ١٤٠١ هــ/ ١٩٨١م)، ٢٦؛ العقيلي، محمد بـــن أحمـــد؛ *الآثار التاريخية في منطقة جازان* (الرياض: دار اليمامة، ١٣٩٩هــ/ ١٩٧٩م)، ٢٤؛ الزيلعي، أحمد بن عمر؛ *آثار منطقة جازان* (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣هــ/٢٠٠٣م)، ١١٠- ١١٣.

(٥) عن وادي بيش أنظر: العقلي، محمد بن أحمد؛ *تاريخ المخلاف السليماني* (الرياض: مطابع الرياض، ١٣٧٨هــ/ ١٩٥٨م) ج١، قســـم (١)، ٣٩؛ وأنظـــر لـــلمؤلف نفســـه، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: *مقاطعة جازان* (الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٩هــ/ ١٩٦٩م)، ١: ٦١- ٦٤.

(٦) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٧٧.

(٧) المصدر نفسه والصفحة نفسها، أنظر بصورة خاصة ملاحظة المحقق هامش رقم (١).

(٨) كل هذه الأودية تقع في منطقة جازان، وهي من الأدوية المشهورة قديماً وحديثاً، وتقع مراكزها على التوالي إلى الشمال الشرقي مـــن مدينة جازان الحالية، المركز الإداري لمنطقة جازان، وفي كل منها تجمعات سكانية وسكنية كبيرة، أشهرها: مدينة صبيا في وادي صبيا، ومدينة بيش في وادي بيش، ومدينة الدَّرْب في وادي عتود. أنظر: العقيلي، *المعجم الجغرافي*، ١: ٦١- ٦٤، ١٣٨- ١٤٢، ١٥٢- ١٥٣.

(٩) ياقوت، *معجم البلدان*، ٤: ٨٥.

(١٠) البكري، عبدالله بن عبدالعزيز؛ *معجم ما استعجم*، تحقيق: مصطفى السقا (بيروت: عالم الكتب، د.ت) ٣: ٩٢١.

(١١) عـــبدالله بن عبدالله؛ *المسالك والممالك*، تحقيق: م.ج. دي غويه (ليدن: مطبعة بريل، ١٨٨٩م)، ١٤٧-١٤٨؛ *نبذة من كتاب الخراج*، تحقيق: م.ج دي غويه (ليدن: مطبعة بريل ١٨٨٩م)، ١٩٢- ١٩٣.

(١٢) ابن خرداذبة، *المسالك والممالك*، ١٤٧- ١٤٨؛ قدامة بن جعفر، *نبذة من كتاب الخراج*، ١٩٢- ١٩٣.

(١٣) إبراهـــيم بـــن إسحاق؛ *كتاب المناسك وأماكن طرق الحج*، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٨٩هــ/ ١٩٦٩م)، ٦٤٦.

(١٤) ابن خرداذبة، *المسالك والممالك*، ١٤٧- ١٤٨.

(١٥) أحمد بن أبي يعقوب؛ *البلدان* (ليدن: مطبقة بريل، ١٨٩١م)، ٣١٩.

(١٦) قدامة بن جعفر، نبذة من *كتاب الخراج*، ١٩٢.

(١٧) طـــريق الجـــادة السلطانية ينطلق من صنعاء نحو تهامة إلى مكة، ويلتقي معه طريق تعز الذي يمر على ميدنة زَبِيْد ليس لأنها على مســـار هـــذا الطـــريق، ولكن لأنها كما يقول الجزيري: "وإنما يجيء إلى زبيد قصداً؛ لأنها دار الملك، وبها يجتمع شداد الركب ويـــتكامل" أنظر: الجزيري، عبدالقادر بن محمد عبدالقادر الأنصاري، *درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة* (القاهرة: المطبعة السلفية ومكتبتها، ١٣٨٤هــ)، ٤٦٩.

(١٨) تقع ضنكان المشهورة بكونها منجم ذهب في منطقة عسير إلى الشرق من مدينة القحمة الساحلية بحوالي عشرين كيلومتراً، وهي مهجـــورة إلا مـــن بقايا جدران منازلها ومسجدها الجامع. أنظر: الزيلعي، أحمد بن عمر وآخرون؛ *آثار منطقة عسير* (الرياض: وزارة المعارف، ١٤٢٣هــ/ ٢٠٠٣م)، ٧٤- ٧٥.

(١٩) الغنيم، عبدالله؛ *جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري*، ط١ (الكويت: ذات السلاسل، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م)، ٤٨؛ الزيلعي أحمد بن عمر وآخرون؛ *آثار منطقة عسير*، ٧٤- ٧٥، وعن منجم الذهب بها، أنظر: الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب؛ *كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء*، تحقيق: حمد الجاسر، ط١ (الرياض: المطابع الأهلية للأوفست، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م)، ٨٦، ٣٨١- ٣٨٢.

(٢٠) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٧٦.

(٢١) *أحسن التقاسيم*، ٨٦.

(٢٢) محمد بن عبدالمنعم؛ *الروض المعطار في خبر الأقطار*، تحقيق: إحسان عباس، ط٢ (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٥م)، ٤٠٨.

(٢٣) عن المخلاف والناحية ومدلولاتها أنظر: ياقوت، *معجم البلدان*، ٣٧.

(٢٤) أبوالقاسم النصيبي؛ *صورة الأرض* (بيروت: دار مكتبة الحياة، ١٩٩٢م)، ٣٢.

(٢٥) *أحسن التقاسيم*، ٨٦.

(٢٦) الزيلعي، أحمد بن عمر؛ *الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان*، ط١ (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ١٨-١٩.

(٢٧) *تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد*، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط٣ (صنعاء: الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م)، ٦٣- ٦٤.

(٢٨) أنظر على سبيل المثال: اليعقوبي، *البلدان*، ٣١٦؛ ابن خرداذبة، *المسالك والممالك*، ١٣٣؛ الإدريسي، أبوعبدالله محمد بن محمد الحسني؛ *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ط١ (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ١: ١٤٥؛ وعن تبعية المخلاف السليماني لإمارة مكة في بعض فتراته التاريخية، أنظر الزيلعي، الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية، في أمكنة متفرقة.

(٢٩) حَلِي: مخلاف حلي أو إمارة حلي تشتمل على وادي حلي المعروف على بعد حوالي ٦٠ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من القنفذة، وتمتد جنوباً إلى حدود إمارة جازان أو المخلاف السليماني، وعاصمتها مدينة حلي بن يعقوب المعروفة اليوم باسم "حلي قديم"، وكانت تحكمه أسرة محلية يقال لسلاطينها "بنو حرام". أنظر: الزيلعي، أحمد بن عمر، "المواقع الإسلامية المندثرة في وادي حلي (ق٣-٩هـ/ ٩-١٥م)، *حوليات كلية الآداب*، الرسالة التاسعة والثلاثون، الحولية السابعة (الكويت: جامعة الكويت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م)، ص١١؛ الزيلعي؛ أحمد بن عمر؛ "*بنو حرام (حكام حلي) وعلاقاتهم الخارجية (ق ٤-٩هـ/ ١٠-١٥م)*، *مجلة كلية الآداب*، المجلد الخامس عشر، العدد الأول (الرياض: عمادة شؤون المكتبات -جامعة الملك سعود، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ١٠١- ١٣٧.

(٣٠) البِرْك، أو براك الغماد، موقع مشهور منذ ماقبل الإسلام يقع على ساحل البحر الأحمر في الطرف الغربي لإمارة عسير، به بعض الآثار التي تعود إلى عصر السلطان الملك المنصور عمر بن علي بن رسول (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، مؤسس حكم بني رسول باليمن. أنظر: الزيلعي، *آثار منطقة عسير*، ٦٦- ٧٤.

(٣١) الزيلعي، *الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان*، ١٢.

(٣٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٣٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٣٤) أنظر على سبيل المثال: ابن حوقل، *صورة الأرض*، ٣٢٥؛ عمارة الحكمي، *تاريخ اليمن*، ٦٣- ٦٤.

(٣٥) الزيلعي، *آثار منطقة جازان*، ١١٢-١١٣.

(٣٦) العقيلي، *الآثار التاريخية في منطقة جازان*، ٢٥.

(٣٧) أنظر: زارنيس وعبدالجواد مراد، وخالد اليعيش، "التقرير المبدئي الثاني عن مسح المنطقة الجنوبية الغربية"*أطلال*، العدد الخامس، ٢٦ -٢٧.

(٣٨) أنظر: زارنيس، وعوض الزهراني، "الاستكشافات الحديثة في سهل تهامة الجنوبي موقعي عثر وسهي"، *أطلال*، العدد التاسع، ٦٩ - ١٠٢.

(٣٩) ٧٦.

(٤٠) ٢٥٩.

(٤١) الفاسـي، تقـي الديـن محمد بن أحمد الحسني؛ *العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين*، تحقيق: فؤاد سيد، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ٦: ٤٦٣.

(٤٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤٣) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسين، *شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام*، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ٢: ٢٩٧، ٣٠٠.

(٤٤) الفاسي، *العقد الثمين*، ٢: ٢٤٦، ٣٨٦.

(٤٥) ابـن حـزم، أبومحمد علي بن أحمد؛ *جمهرة أنساب العرب*، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١٤٩؛ الفاسي، شفاء الغرام، ٢: ٣٠٠؛ *العقد الثمين*، ٢: ٣٨٦.

(٤٦) أنظر: الفاسي، *العقد الثمين*، ٢: ٢٤٨؛ *شفاء الغرام*، ٢: ٣٠١.

(٤٧) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب*، ١٤٩.

(٤٨) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤٩) ابن يعقوب، الحسين بن أحمد؛ *سيرة الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني*، تحقيق: عبدالله بن محمد الحبشي، ط١ (صنعاء: دار الحكمة اليمانية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ٣١، ٤٠، ١٤٥.

(٥٠) ابن يعقوب، المصدر نفسه، ١٣٠، ١٤٤.

(٥١) ابن يعقوب، المصدر نفسه، ١٤٤.

(٥٢) ابن يعقوب، المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥٣) ابن يعقوب، المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥٤) الشـرعان، نايف عبدالله؛ "*نقود أموية وعباسية ضرب الحجاز ونجد وتهامة*"، رسالة ماجستير (الرياض: قسم الآثار والمتاحف - جامعة الملك سعود، ١٤١٨هـ)، ٥٧.

(٥٥) الشرعان، المرجع نفسه، ٥٦.

(٥٦) زكار، سهيل، *أخبار القرامطة في الإحساء - الشام - العراق - اليمن* (الرياض: دار الكوثر، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م)، ص٢٦٠-٢٦١.

(٥٧) الشرعان، *"نقود أموية وعباسية"*، ٥٧.

(٥٨) الشرعان، المرجع نفسه، ٥٨.

(٥٩) الشرعان، المرجع نفسه، ٥٨- ٥٩.

(٦٠) الشرعان، المرجع نفسه، ٥٩.

(٦١) الشرعان، المرجع نفسه، ٦٠.

(٦٢) ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي؛ *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، ط١ (حيدر آباد: ١٣٥٨هـ)، ٧: ١٥٦-١٥٧؛ ابـن الأثـير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد؛ *الكامل في التاريخ*، ط٤ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ٧: ١٤٨- ١٤٩.

(٦٣) انظر: قازان، وليم؛ *المسكوكات الإسلامية* (بيروت: البنك المركزي، ١٩٨٣م)، ٤١٠؛ الشرعان، "نقود أموية وعباسية"، ٦١؛ ويذكـر ابـن الأثير أن الخطبة في خراسان ظلت للطائع، وظل أهلها متمسكون ببيعته وعدم البيعة للقادر، *الكامل في التاريخ*، ٧: ١٤٩.

(٦٤) مثال ذلك كافور الأخشيدي (ت ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) نسبة إلى سيده محمد بن طغج الأخشيد (ت ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م)، وآقباش الناصري، أمير الحج العراقي المقتول في مكة سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢١م نسبة إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (ت ٥٧٥هـ/ ١١٨٠م). انظر ابن الجوزي، *المنتظم*، ٧: ٥٠- ٥١؛ الفاسي، *العقد الثمين*، ٣: ٣٢٢- ٣٢٤.

(٦٥) مـن مـثل كافور الأخشيدي الذي كان عبداً خصياً لأبي بكر محمد بن طغج الأخشيد، حاكم مصر، فلما توفي الأخير في عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م قام كافور بالوصاية على ابني سيده وهما: أبو القاسم أنوجور بن الأخشيد، وأبو الحسـن على بن الأخشيد واحـداً تلو الآخر، واستبد بالأمر دونهما، فلما ماتا استقل بمصر حتى وفاته في جمادي الأولى عام ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م. انظر ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف؛ *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة* (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د. ت) ٤: ١- ٢.

(٦٦) الشرعان، "نقود أموية وعباسية"، ٦١.

(٦٧) الشرعان، المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(٦٨) آخر من تولى الإمارة من بني زياد في تهامة اليمن، وعاصمتهم زبيد، طفل صغير يدعى "عبدالله أو إبراهيم" على حد قول عمارة الحكمـي. وقـد أدى التنافس بين موالي بني زياد من العبيد الأحباش، وتكالبهم على الملك إلى إقصاء الطفل الزيادي وعمته، وتأسيس دولة بني نجاح في زبيد في سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م. أنظر عمارة الحكمي، *تاريخ اليمن*، ٧٥- ٧٧.

(٦٩) العقيلي، *المخلاف السليماني*، ١: ٨٠؛ الزيلعي، *الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان*، ١٩؛ أبوداهش، عبدالله ابـن محمـد؛ *أهل تهامة: المخلاف السليماني وحلي بن يعقوب وأحوازها في القرون الإسلامية الوسيطة*، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م)، ٤٧.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

العلاقة العدائية بين اليمنيين وولاة الخلافة العباسية

منذ عهد السفاح حتى عهد الرشيد (١٣٢-١٩٣هـ)

محمد عبده السروري

قسم التاريخ- جامعة تعز

اتسمت علاقة أهل اليمن بولاة الخلافة العباسية بثلاث حالات هي: العلاقة الجامدة، العلاقة الطيبة، العلاقة العدائية.

ففي العلاقة الجامدة لم يرصد المؤرخون أي حدث إلا تولية الولاة أو عزلهم واهتمامهم بجباية الأموال والإشراف على الدواوين والنظم الإدارية. أما في العلاقة الطيبة فقد اهتم الولاة وهم قلة بإصلاح أمور مهمة في اليمن مثل تبويب جامع صنعاء الكبير من قبل الوالي عمر بن عبدالمجيد الخطابي الذي تولى اليمن من قبل السفاح[1]، ومنها إحداث غيل صنعاء المسمى غيل البرمكي في سنة ١٨٣هـ. وهو عبارة عن شق قناة للمياه من جنوب مدينة صنعاء ليمر في مزارع صنعاء الجنوبية والغربية ويستمر جريانه حتى مزارع شعوب والروضة شمال صنعاء[2]. كذلك عمل على بناء مسجد في سوق اللساسين. وكان كثير الصدقة[3]. وبخصوص العلاقة العدائية فهي الأكثر تدوينا من قبل المؤرخين. وسينحصر حديثنا عنها لما لها من أهمية في أحداث اليمن والمتمثلة في الخروج على ولاة الخلافة العباسية. ومن أهم الأسباب التي جعلت أهل اليمن يخرجون عن طاعة ولاة الخلافة العباسية هي ظلم وقسوة الولاة، وتشدد الخلفاء العباسيين، والعصبية القبلية، والخلاف المذهبي. فضلاً عن فرض الولاة الأموال زائدة على أهل اليمن وذلك كله ما سنوضحه خلال الحديث عن علاقة الولاة خاصة معن بن زائدة الشيباني وحماد البربري بأهل اليمن وهي كالآتي:

علاقة الولاة بأهل صنعاء:

تبدأ علاقة الولاة بعلاقتهم بأهل صنعاء لأنها تعتبر عاصمة ولاية اليمن ومقر الولاة. وأي حدث فيها يؤثر على بقية مناطق اليمن. فقد بدأت العلاقة العدائية بين ولاة الخلافة وأهل صنعاء منذ بداية ظهور الخلافة العباسية، زمن خلافة أبي العباس السفاح. وذلك حين ولى على اليمن أحد رجاله وهو محمد بن يزيد بن عبدالله بن عبدالمدان الحارثي الذي وصل إلى صنعاء في ٩ رجب ١٣٣هـ فبدأ بالقيام بأعمال نقم منها اليمنيون وهي أنه فكر بفكرة غير طيبة

تتمثل بأنه هم بإحراق المجذومين الذين كانوا بالسرار من صنعاء. وأمر بجمع الأحطاب لتنفيذ ذلك الحرق وبرر ذلك بقوله: "لو كان بهم خيراً ما أوقع الله بهم الجذام"[٤]. إلا انه مات قبل أن ينجز عمله ذلك. وكما يبدو أن هذا الوالي نظر إلى أن مرض الجذام مرض معدٍ وغير قابل للشفاء آنذاك. ولذلك فكر بإحراقهم حتى لا تنتشر العدوى من مرضهم إلى بقية أهل صنعاء الأصحاء. والواقع إن هذا العمل يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي ومع ما جاء في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الأعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[٥].

ومن ضمن علاقة ولاة اليمن بأهل صنعاء ما حدث في ولاية الوالي علي بن الربيع بن عبدالمدان الحارثي من نزاع بين أهل صنعاء والأبناء، وهم بقايا الفرس في اليمن، بشأن الأراضي الواسعة التي كانت في الرحبة شمال صنعاء. ولما وصل هذا الوالي إلى صنعاء اتجه الطرفان إلى تحكيمه في أمر تلك الأراضي. فاختار أهل صنعاء عمرو بن ثمامة وكيلاً لهم، كما اختار الأبناء إبراهيم بن فراس وكيلاً لهم. وأثناء التحاكم أخرج إبراهيم بن فراس كتاب رسول الله ﷺ أنها للأبناء[٦]، إلا أن عمرو بن ثمامة أنكر هذا الكتاب وقال إنه يكفر به. وحينذاك غضب الأمير علي بن الربيع من عمرو بن ثمامة وقال له مستغرباً "تكفر بكتاب رسول الله ﷺ". ولذلك أنزل عقابه عليه بأن جرده من ثيابه وضربه خمسة وسبعين سوطا[٧]. كما يتضح أن عمرو بن ثمامة لا يقصد أن يكفر بكتاب رسول الله، ولكنه يشك أن ذلك الكتاب من رسول الله فعلاً فلم يصدق به أي أنه اعتبر الكتاب مزيفًا، وهذا ما لم يقبله الوالي. ويوحي هذا بأنه أحد مظاهر العصبية القبلية فيما بين الأبناء وأهل صنعاء. ولما جاء التحكيم لصالح الأبناء أدى ذلك إلى غضب أهل صنعاء من ولاة الخلافة العباسية واستمرار تذمرهم عن طاعة الولاة.

وبالنسبة لعلاقة جند الولاة بأهل صنعاء ما حدث من صراع في الخلافة المهدي العباسي في أيام ولاية رجاء بن زنباح الجذامي لليمن. والذي دخل صنعاء في ذي الحجة سنة ١٥٩هـ. أدى هذا الصراع إلى حدوث قتال فيما بين الطرفين في يوم العيد. نتج عنه عدة قتلى بين الطرفين أجبر جند الولاة إلى الخروج إلى شعوب شمال باب صنعاء الشمالي للتمركز فيه. وبعد هذا القتال تمت المصالحة بين الطرفين. فرجع جند الولاة إلى صنعاء للإقامة بها[٨]. ولم توضح المصادر سبب هذا القتال. ولكن سببه كما يتضح هو تذمر أهل صنعاء وتضايقهم من وجود جند ولاة الخلافة بين مساكنهم داخل صنعاء. إضافة إلى ظلم وطغيان هؤلاء الجنود على أهل صنعاء.

ويستمر الصراع فيما بين جند ولاة الخلافة وأهل صنعاء. ففي عهد الرشيد أثناء دخول الغطريف بن عطاء إلى صنعاء سنة ١٧٠هـ حيث وجد الفتنة مشتعلة بين الجند وأهل صنعاء لمدة شهرين من رجب حتى شعبان سنة ١٧٠هـ. وفي هذا الخلاف تمكن الغطريف من الصلح بينهم وحل الخلاف[٩]. وكما يتضح أن قرابة الغطريف من الخليفة الرشيد هي التي مكنته من حل الخلاف. أما مسببات هذا الخلاف فهي نفس المسببات السابقة وهي تذمر وتضايق أهل صنعاء من تواجد جند ولاة الخلافة بينهم بدون حق.

علاقة معن بن زايد بأهل اليمن:

نظــراً لأتصاف الخلافة العباسية في عصرها الأول باستخدام القوة والشدة نحو رعاياها فكان لابد لها لتحقيق ذلــك من اختيار ولاة على الأمصار يحملون هذه الصفة. لذلك جاء اختيار معن بن زائدة الشيباني لولايــة اليمــن نابعا من هذا السبب إضافة إلى عدة مسببات أخرى. ويتمثل بالآتي:

الســبب الأول: اتصاف معن بن زائدة بالقسوة والجبروت وهذا ما يلاحظ من خلال استخدام معن للقوة مع أهل الحافر أو الجند وأهل حضرموت وقتله للآلاف منهم. وهذا ما سنوضحه فيما بعد.

الســبب الثاني: دفاع معن بن زائدة عن الخليفة المنصور عندما حاول الراوندية قتله وكان حدوث ذلك عندما ثــارت الــراوندية على أبي جعفر المنصور سنة ١٣٧هـــ أو ١٤١هـــ. وأرادوا قتله. فوقف معن بن زائدة في صف الخلــيفة وقــاتل الــراوندية حتى انتصر عليهم. وكان معن قبل ذلك مختفياً عن أنظار المنصور لأنه قاتل المسودة أو العباسيين مع ابن هُبيرة والي العراق لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. وكان يبحث عن الأمان من المنصور في حين كــان المنصــور يبحث عنه لمعاقبته[١٠]. فعندما ظهر معن في قتال الراوندية ورأى المنصور صدق قتاله رضي عنه[١١]. وأعطاه الأمان ثم كافئه بعشرة آلاف درهم وولاية اليمن[١٢].

الســبب الثالــث: عصبية معن القيسية كانت العصبية القبلية فيما بين القيسية واليمنية أواخر الخلافة الأموية وبدايــة الخلافة العباسية على أشدها مشتعلة في أنحاء الخلافة الإسلامية. حيث كان ولاة الخلافة القيسية يستخدمون الشــدة مــع أهل اليمن وأينما وجدوا والعكس كان اليمنيون يستخدمون الشدة مع القيسيين أينما وجدوا. وكان الخلفــاء العباســيون يشجعون ذلك. من ذلك أنَّ الخليفة المنصور العباسي لما ولىَّ معن بن زائدة الشيباني على اليمن طلـــب مــنه استخدام العصبية القبلية وقال له: "وليتك اليمن فابسط السيف فيهم حتى تنقض حلف ربيعة واليمن وابلغ في ذلك ما يحب أمير المؤمنين"[١٣].

والمقصــود بحلــف ربيعة واليمن هو الحلف القديم الذي قام بين اليمن وربيعة بن نزار في عهد تبع بن حسان، وكان هدف هذا الحلف هو النصرة والإخاء فيما بين الطرفين[١٤]. وظل هذا الحلف يتجدد بين ربيعة واليمن في عدة مــرات امــتد إلى زمــن الإسلام. منها ما حدث من تحالف بين كلب من ربيعة لخثعم. وحلف ربيعة جميعاً لكندة، وحلف بكر بن وائل للازد بالبصرة على تميم[١٥]، وكذلك حلف ربيعة واليمن في بلاد السند وهو الحلف الذي ضربه الــوالي عُيينه بن موسى فقتل الكثير منهم وأدى إلى ظهور العصبية هناك[١٦]، ونتيجة لما يشكله هذا التحالف من قوة بــين عرب الشمال وعرب الجنوب فقد رأى الخليفة المنصور العباسي خطورة ذلك على نفوذه وسلطانه، لذلك أراد إنهاء هذا التحالف القديم بإيجاد العصبية القبلية بين الطرفين في داخل اليمن نفسها.

السبب الرابع: اتصاف الخليفة المنصور العباسي بالعنف والجبروت تجاه جميع رعاياه. وذلك يتضح مــن خلال إقدام

الخليفة المنصور العباسي على قتل أبي مسلم الخرساني في شعبان سنة ١٣٧هـ[١٧]. وذلك عقب توليه الخلافة ما يقرب من سنة. وأبومسلم يعد من أهم من عمل على مناصرة الثورة العباسية في خرسان وقاتل من أجلها حتى قامت الخلافة العباسية. فلم يشفع له ذلك أمام الخليفة المنصور. كذلك لم يرحم الخليفة المنصور أبناء عمومته العلويين الذين ناصروا الثورة العباسية. حيث كان شعار الدعوة هي الرضا من آل محمد[١٨]. فتنكر المنصور عن ذلك وتخلى عن هذا الشعار. فأقدم على قتل محمد بن عبدالله بن حسن الملقب بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم بن عبدالله وجمعاً من أسرتيهما عندما خرجا عليه في كل من الحجاز والعراق وذلك سنة ١٤٥هـ[١٩].

السبب الخامس: عصيان أهل اليمن ورد فعل الخلافة العباسية وولاتها على اليمن، وذلك ما يوضحه قول الخليفة المنصور الذي اقتبسناه آنفاً عندما أتاه الخبر بأن أهل اليمن قد أظهروا المعصية وأن عبدالله بن الربيع عامل اليمن قد هرب ممن وثب عليه وضعف عنهم ... وجه بمعن بن زائدة الشيباني إلى اليمن[٢٠]. والواقع أن ظهور عصيان أهل اليمن كان نتيجة لاستخدام ولاة الخلافة العباسية الظلم والقسوة والعصبية تجاههم. فقد اعتبر اليمنيون ذلك ظلماً لا يجب السكوت عليه بل يجب مقاومته، لذلك أعلنوا العصيان خروجا على ولاة الخلافة وعدم طاعتهم. في حين أن الخلافة العباسية اعتبرت هذا العصيان خروجا على سلطانها، فعملت على تكليف ولاتها على اليمن بزيادة استخدام القوة.

السبب السادس: هو أن ولاية معن كانت ناتجة عن وجود اختلافات باليمن يوضح ذلك ابن الأثير بقوله: "وكان المنصور قد استعمل معن بن زائدة على اليمن لما بلغه من الاختلاف هناك"[٢١]. وكما يتضح أنه يقصد بالاختلاف هو الخلاف الذي حدث بين أهل صنعاء والأنباء حول أرض الرحبة في زمن الوالي السابق لمعن بن زائدة وهو علي بن الربيع.

السبب السابع: عدم طاعة والي اليمن عبدالله بن الربيع الخلافة في استخدام القوة نحو أهل اليمن. يظهر ذلك من خلال عزم الخليفة المنصور العباسي إرسال معن بن زائدة إلى اليمن. وقوله: "إن صاحب اليمن قد هم بمعصيتي وإني أريد أن آخذه أسيرا. ولا يفوتني شيء من ماله فما ترى؟" قال معن: "يا أمير المؤمنين ولني اليمن، واظهر أنك ضممتني إليه". فقال الخليفة: "يا ربيع إنا قد ضممنا مَعْناً إلى صاحب اليمن، فأزح علته من الكراع والسلاح ولا يمسي إلا وهو راحل"[٢٢]. وكما يتضح أن الخلافة العباسية كانت تريد من وإلى اليمن عبدالله بن الربيع بن عبدالله بن عبدالمدان الحارثي استخدام العنف والقسوة تجاه أهل اليمن.

فعصى هذا الوالي أمر الخلافة و لم يعمل على طاعتها في هذا الجانب. كونه ينتمي إلى العصبية اليمنية، ولا يريد الأضرار بعصبيته. لذلك خرج من اليمن بعد أن ترك ابنه عليها والذي سار على نهج أبيه في هذا الأمر لذلك اعتبرت الخلافة أن هذا الأمر عصيانٌ عليها. فأوكلت أمر القسوة على أهل اليمن إلى عصبية قيسية وليس يمنية.

وعلى الرغم من اختلاف المصادر في ذكر السنة التي تولى بها معن بن زائدة الشيباني اليمن. فيما بين سنة ١٤٠هـ[٢٣]. وسنة ١٤١هـ[٢٤]. وسنة ١٤٢هـ[٢٥]. إلا أنه من المرجح أنها سنة ١٤٠هـ. استناداً إلى قول المصادر اليمنية في هذه التولية. والواقع أن الاختلاف أن يرجع الزمن إلى الذي حدثت به الحرب ضد المنصور من قبل الراوندية، وهم قوم من أتباع أبي مسلم الخرساني. فقد ورد أن حركة الراوندية جاءت ضمن أحداث سنة ١٤١هـ. وفي هذا الشأن علق الطبري في تاريخه (٥٠٢/٧) على حركتهم بأنها حدثت كما قيل سنة ١٣٦هـ أو ١٣٧هـ. وذلك بعد قتل أبي مسلم الخرساني مباشرة. ومن المرجح أن حركة الراوندية حدثت في عدة سنوات منها سنة ١٧١هـ وسنة ١٤٧هـ. وعلى ذلك فإن معن بن زائدة كسب عطف الخليفة المنصور لمنحه الأمان بعد حربه للراواندية سنة ١٣٧هـ. حيث ظل بعد ذلك معن أحد سمار الخليفة المنصور الذين كانوا يدخلون عليه كل ليلة لمسامرته إلى أن ولاه اليمن سنة ١٤٠هـ.

جاء معن بن زائدة الشيباني إلى اليمن بجيش كثيف فلما وصل إلى صنعاء على الأرجح سنة ١٤٢هـ أول عمل قام به هو أخذ الوالي السابق أسيراً واستلامه الولاية منه بعد أن قرر أن قرأ عليه عهد الخليفة له بولايته على اليمن[٢٦]. كما عمل على إرسال أخيه أو ابن عمه والمسمى سليمان والياً على إقليم الجند فسكن في إحدى قراها الخارجية والمسماه قرية الزريبة قبلي الذنبتين. وهي على ربع مرحلة من الجند من جهة القبلة أي الشمالية للجند[٢٧].

لم يسلك هذا الوالي سلوكاً دينياً فيه العدل والطيبة مع أهل الجند ولكنه سلك معهم بما لم يرض به الدين الإسلامي أوضح ذلك الجندي بقوله: "فساءت سيرة معن على أهل مخلاف الجند بحيث شاء فيهم الحليلة (أي الزوجة) واحتقرهم وصار مولعاً بإذلالهم فمن جملة ما ذكر عنه أنه كانت لا تزف امرأة إلى بعلها حتى تعرض عليه وربما وقع بها"[٢٨].

لذلك لم يقبل أهل الجند هذا التصرف غير الديني أو غير الإنساني من قبل هذا الوالي الظالم. فعملوا على قتله انتقاماً لأفعاله القبيحة. ومهما يكن من أمر هذه القصة وصحتها من عدمه فإنها توحي بمدى الظلم من هذا الوالي تجاه أهل اليمن. وإنهم لم يتجهوا لقتله إلا لأنه تمادي كثيراً في ظلمه لهم.

ولما وصل الخبر إلى مسامع معن بن زائدة إلى صنعاء بقتل أهل الجند لواليه وقريبه ثارت ثائرته وعمل على الانتقام له بطريقة العصبية الجاهلية فبدلاً من أن يتجه معن إلى معرفة أخطاء واليه على أهل الجند أو أخطاء أهل الجند على واليه بطريقة دينية منصفة، ويحل الخلاف بإنصاف الجميع، أو حتى يعمل على قتل من قتل قريبه فقط. بل أنه عمد إلى الأخذ بثأر قريبه بطريقة غير دينية وغير منصفة فأسرف في ذلك وظلم.

إذ أنه أسرع في غزو الجند ونواحيها فعمل على تخريب القرية التي قتل فيها قريبه سليمان، وهي قرية الزريبة، وقتل منهم نحو ألفي رجل، وكان كلما خاطبه أهل الجند بالكف عن قتل أهل القرية رحمة بهم رفض ذلك وقال: "لا أكف حتى أقتل الفين". ثم ينشد:

إذا تمت الألفان كادت حرارة على صدر من ذكر سليمان تبرد[٢٩].

لم يكتف معن بهذا العمل وهو تخريب قرية الزريبة وقتل أهلها بل عمل على تغوير المياه حتى لا تستفيد منه الأنعام والناس في الشرب وري الأرض. وهي المياه التي كان بقاع الجند منها (الماء الموجود في محارث إليهاقر وغيره)[٣٠]. وهكذا كان عمل معن مع أهل الجند في غاية الوحشية والقسوة.

كذلك لم يقتنع معن بذلك العمل بل تصرف تصرفاً آخر وهو أنه الزم الناس لبس الثياب المصبغة بالنيل وترك شعورهم منشورة فصار ذلك لهم عادة حتى صاروا يعدونه جمالاً وزينة لقدم عهدهم به ومعرفتهم له[٣١].

وسيراً على منوال الظلم والقهر من قبل معن فقد اتجه إلى منطقة أبين فخاض مع أهلها عدة وقعات منها وقعة (يوم الكثيب الأبيض بناحية عدن)[٣٢]. والتي انتصر فيها على أهلها أجبرهم على الطاعة.

وفي غضون ذلك (انقض أهل حضرموت على معن)[٣٣]. بسبب ما اتصف به معن من الظلم والجبروت فوجد معن ذلك فرصة له للاستمرار في أعماله الوحشية لقهر أهل اليمن تنفيذا لسياسة الخلافة العباسية. مدعيا أن حضرموت خرجوا عن سلطانه وإنهم إباضية يجب محاربتهم. فجهز جيشاً كبيراً واتجه بنفسه إلى حضر موت: (فدخل صوران وشبام ونال منهم ما أراد. وقتل عمرو بن زيد الاشباوي وكان ملكا)[٣٤] وهو من سلالة ملوك حضرموت القدماء.

ويأتي أهم أعمال معن مع أهل حضرموت عندما اتجه لمحاربتهم محاربة شديدة في عدة معارك وعدة وقائع في أنحاء حضرموت أسفرت تلك المعارك على إسرافه الكثير في قتل رجال حضر موت حيث بلغ عدد قتلاهم ١٥ ألف[٣٥]. وهكذا اتصفت أعمال معن بالوحشية تجاه أهل اليمن.

لم يقتصر ظلم معن على أهل اليمن بأنه أسرف في قتل رجالهم فقط بل فرض عليهم زيادة في مقدار عشور حاصلاتهم الزراعية من ذلك أنه عندما أراد الذهاب إلى حضرموت من صنعاء (مرّ بديار في وادي مسور -خولان- فعظم في عينه ما رأى من جريرة الزبيب فقال لنائبه لا تقبل منهم إلا عشرة ألاف ذهباً). وعلى الرغم من أنهم جمعوا أعشار زبيبهم حسب ما طلب معن (عشرة آلاف ذهباً) إلا أنهم ظلوا يطالبونه أن يخفف عنهم من ذلك فخفض عنهم ألف ذهب بنوا به مسجداً لهم[٣٦].

لم تتوقف محاربة معن لأهل الجند وحضرموت فقط بل امتدت إلى محاربة بعض قبائل صعدة حيث قتل أحد رجالها وهو الشاعر عمر بن زيد الغالبي في معركة المنضح في بلاد واداعة الشام شمال صعدة. مما أدى إلى قيام محمد ابن أبان ثائراً فحارب معنا حتى أخذ بثأر عمر. ويبدو أن سبب قتل عمر يرجع إلى أنه هجا الربعيين في شعره فأدى ذلك إلى طرده من البلد. وبعد ذلك ظل عمر يترفق في شعره للربعيين حتى عاد عن طريق توسط ابن خالته جرير بم حجر بن رعنه الأصغر[٣٧]. وبعد ذلك لقي عمر مصرعه على يد معن.

الموقف من تصرفات معن بن زائدة في اليمن:

وقفـــت الخلافة العباسية مؤيدة لتصرفات معن بن زائدة في اليمن إذ أن معنا لم يكن يتصرف خارجاً عن رغبة الخلافـــة العباسية. وهذا ما يوضحه معن نفسه عندما (كتب إلى أبي جعفر المنصور يعلمه مما كان منه فأجابه أبوجعفر المنصـــور يصـــوب له رأيه)[٣٨]. وليس غريباً أن يصوب المنصور رأي معن ابن زائدة في حروبه مع أهل اليمن. إذ أن المنصور نفسه استخدم الظلم والجبروت والقتل نحو الكثير من أبناء عمومته وإخوانه وغيرهم من العرب والمسلمين.

وبالنســـبة لموقـــف الكـــثير من الناس فقد استنكروا تصرفات معن القاسية ضد أهل اليمن. وبالتحديد قسوته الشـــديدة تجاه أهل حضرموت وأخذوا يتحدثون عن أفعاله وقسوته من ذلك حديث القرشيين مع المنصور نورده هنا لمعرفة رأي الخليفة المؤيد لقتل أهل حضرموت وسببه وهو الآتي:

- قال رجل من قريش للمنصور: "ألا ترى يا أمير المؤمنين إلى ما فعل معن بأهل حضرموت كاد أن يأتي عليهم".
- فقـــال المنصور: "يا ابن أخي خبرني عن قوم نساك من قومك ومن الأنصار كنت أعرفهم بملازمة السواري في مؤخرة مسجد الرسول ﷺ. وقد اصفرت ألوانهم من العبادة. قال قتلهم الخوارج يوم قديد.
- فجعـــل المنصور يسأله قال: فأخبرني عن الرجل الصالح الذي كان يلازم السارية الفلانية حتى كأنه خشبة من العبادة. قال: قتل يوم قديد.
- قال فأخبرني عن البيت الصالح بني فلان ما فعل الدهر بهم قال: قتلوا يوم قديد.
- فجعل المنصور يسأله عمن قتل يوم قديد من المهاجرين والأنصار من وجوه أهل المدينة وعبادهم ونساكهم وهو يقول قتلوا يوم قديد.
- قـــال المنصـــور: يا ابن أخي أفتعيب على معن من قتل أهل حضرموت؟ وقد أخذ بثأركم. فسكت عن ذلك القرشي[٣٩].

يتضح من هذا الحديث أن سبب قتل أهل حضرموت أولاً: أنهم كانوا من الخوارج! وثانيها: أن هؤلاء الخوارج قـــتلوا المهاجـــرين والأنصار يوم قديد. والواقع أن حادثة يوم قديد بين الخوارج والأمويين سنة ١٣٠هـــ وليس ضد العباســـيين. وأن أغلـــب الخوارج قد قتلوا يوم قديد في حربهم مع بني أمية في حين أن قتال معن لأهل حضرموت في العصر العباسي بعد أكثر من ١٥ سنة من حادثة قديد. و لم يكن لأهل حضر موت ذنب في ذلك.

اشتهر معن بن زائدة بالجود والكرم إلى جانب اشتهاره بسفك الدماء. فلما أنفق الكثير من الأموال أثناء ولايته للـــيمن غضـــب منه الخليفة المنصور العباسي. ومن الغريب أن يغضب الخليفة المنصور لكثرة إنفاق المال و لم يغضب لكثرة سفكه لدماء أهل اليمن. أي أن الأموال أكثر ثمناً من دماء أهل اليمن في نظر الخليفة؛ مما يدل على منتهى الظلم والقسوة.

وفي غضون ذلك عمل معن على استرضاء الخليفة فبعث وفدا من قومه يطلب العفو منه والرضا عنه وفي ذلك قـــال معن موجهاً خطابه للمنصور: "قد أفنيت عمري في طاعته وأتعبت نفسي، وأفنيت رجالي في حرب في حرب اليمن، ثم يسخط عليّ أن أنفقت المال في طاعته".

وعندما دخل الوفد العراق ودخلوا على الخليفة المنصور طلب منه رئيس الوفد الاقتصاد بحاجته وحاجة صاحبه فقال الوفد للخليفة: "يا أمير المؤمنين معن بن زائدة عبدك وسيفك رميت به عدوك، فضرب وطعن ورمى، حتى سهل ما حزن وذل ما صعب، واستوى ما كان معوجا من اليمن، فأصبحوا من خول أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فإن كان في نفـــس أمير المؤمنين هنة من ساع أو واش أو حاسد فأمير المؤمنين أولى بالتفضيل على عبـــده، ومن أفنى عمره في طاعـــته". ولمـــا سمع الخليفة المنصور كلام الوفد اقتنع به، فقبل وفادهم وقبل العذر عن معن، وأمر بعودهم إليه. فلما وصلوا إلى معن وقرأ عليه الكتاب بالرضا شكر لأصحابه صنعهم ذلك وخلع عليهم، وأجازهم كما توجه إلى الخليفة المنصور لشكره[٤٠].

وبعد أن أمضى معن بن زائدة ست سنوات في ولايته لليمن. عاد إلى العراق إلى الخليفة المنصور وذلك لإرساله إلى خرسان لقتال الخوارج بها فسار إلى بُست من سجستان وبقى بها ثلاث سنوات ثم قتل سنة ١٥١هـــ. أما بالنسبة للـــيمن فقد استخلف عليها عند خروجه منها أبنه زائدة بن معن وظل بها ثلاث سنوات[٤١]. ولما علم زائدة بقتل أبيه خرج من اليمن واتجه إلى العراق.

نهاية معن بن زائدة:

هناك روايتان عن قتل معن أحدهما رواها الهمداني والأخرى رواها ابن كثير وهما كالتالي:

الرواية الأولى: أوردها الهمداني وهي أن نهاية معن كانت على أيدي الحضارمة انتقاماً لقتل الكثير منهم. وقصة ذلـــك الآتي: كان لعمرو بن الشباوي ولدان صغيران فلما بلغا أرادا الذهاب إلى معن للثأر لأبيهما فأخذا ما يكفيهما مـــن النفقة وخرجا مختفيين وسارا نحو معن فحضرا موسم الحج ثم ذهبا إلى بغداد ثم إلى المدينة التي كان بها معن وهي مديـــنة بُســـت بسجستان فعملا على الوصول إليه بكل وجه فلم يتمكنا من الوصول إليه ثم ظلا يتابعانه فلما خلا الموضع يوماً ودخل معن يهريق الماء في بعض بيوت تلك المدينة وكان قد أحتجم ذلك اليوم كما كبر سنه فتبعه الأكبر بسكينة مسمومة فقتله بها ثم هرب مع أخيه فاختفيا عند بعض اليمانية بتلك البلد لبعض الوقت حتى سكن الطلب عن مـــن قـــتله. ثم خـــرجا فقصدا الشام ثم مصر ثم ركبا من القلزم حتى عدن فلقيهما وجوه اليمن فاستقبلوهما استقبال الأبطال[٤٢].

الرواية الثانية: أوردها ابن الأثير ونصها الآتي: "انكر قوم من الخوارج سيرته فاندسوا مع فَعَلة كانوا يبنون في منزله فلما بلغوا السقف أخفوا سيوفهم في القصب ثم دخلوا عليه بيته وهو يحتجم فقتلوه بها وشق بعضهم بطنه بخنجر

كان معه" وبعد قتله لم يتمكن أحد منهم من النجاة فقد ألقى القبض عليهم ابن أخيه يزيد بن مزيد فقتلهم[٤٣].

ومهما يكن من أمر فقد كانت نهاية معن القتل نتيجة ارتكابه أعمالاً وحشية ضد أهل اليمن وضد الخوارج . تلك هي قصة معن بن زائدة مع أهل اليمن.

علاقة الهيصم بولاية اليمن:

ازداد تذمــر أهل اليمن من تصرفات ولاة الخلافة العباسية في اليمن، واتسع نطاق خروجهم في عهد الرشيد. وامــتد ذلك على اتساع مغارب صنعاء أو ما يسمى بمغارب اليمن. وهي المناطق الممتدة من حراز حتى حجة بما فيها شــبام حمير أو جبل ذخار. كذلك اختلف خروج القبائل اليمنية عن ولاة الخلافة العباسية في عهد الرشيد. فبدلاً من الخــروج القبلي غير المنظم، كما حدث لقبائل الجند وحضرموت في عهد معن والمنصور، أخذ الخروج شكلاً منظماً في عهــد الرشــيد عن طريق قيادة الزعامات القبلية لقبائلها في هذا الخروج. كما أخذت القبائل تحارب من مناطق محصــنة وهي الجبال بدلاً من بيوتها.وكذلك اخذ هذا الخروج يستمر لفترة طويلة. ويبدو أن تصرفات معن مع أهل اليمن هي التي جعلت من القبائل اليمينة أن تعمل على تنظيم نفسها ذلك التنظيم. وتعتبر حركة الهيصم خير مثال لهذا التذمر وهذا الاتساع والتنظيم وذلك ما سيتوضح في الآتي:

ظهر الهيصم بن عبدالمجيد[٤٤] أو عبدالصمد[٤٥] البحري[٤٦] الهمداني[٤٧] معلناً الخروج على ولاة الخلافة العباسية بناحية قيس المسمى جبل بني حبش في المحويت[٤٨]. وامتدت حركة إلى جبال العضد أو جبال مســور حجة ومنطقة لاعــة وبيت ذخار في شبام حمير أو شبام كوكبان[٤٩]. كما امتدت إلى منطقة حراز ومنطقة عشتان[٥٠]. وكان ذلك على الأرجح سنة ١٨١هــ[٥١].

أسباب خروج الهيصم:

الفترة الأولى: تدرجت أسباب عصيان الهيصم على ولاة الخلافة العباسية في اليمن، وأخذت شكلاً تصاعدياً. ففي البداية أمتنع الهيصم عن طاعة الولاة في مناطقه والمتمثلة في عدم دفع المخصصات المالية الزائده المفروضة عليه. ولم يعمــل في هذه المرحلة على محاربة الولاة. وامتد هذا العصيان فيما بين سنة ١٧٩هـــ[٥٢] حتى سنة ١٩١هــ وعلى الرغم من عدم ذكر المصادر لأسباب هذا الامتناع وهذا العصيان. هل هو خلاف مذهبي؟ متمثل في انتماء الهيصم إلى مذهــب الخوارج أو الشيعة أو الأمويين أو غيره. أو عصبية قبلية؟ أو أنه ناتج عن زيادة فرض أموال على أراضيه من قــبل الــولاة العباسيين؟ وممكن استنتاج ذلك بأن ظلم ولاة الخلافة لأهل اليمن وقسوتهم واستخدم الوحشية نحوهم فضلاً عن زيادة فرض الأموال على أراضيه من قبل الولاة. وأيضاً العصبية القبلية هي الأسباب الرئيسة لعصيان الهيصم على ولاة الخلافة العباسية في اليمن.

الفــترة الثانــية: فترة خروج الهيصم على والي الخلافة العباسية أحمد بن إسماعيل في شهر ربيع الآخر من سنة

١٨١هـ. وقيامه بقتل ابن عروة القرشي وسليمان بن عبدالله اللخمي[٥٣].

الفـترة الثالـثة: فـترة اعتداء والي حماد البربري على جارية الهيصم ونهبها بالقوة واتجه الهيصم للانتقام بقتله والقصة كما أوردها الهمداني تتمثل بالآتي:

إن والي منطقة لاعة في حجة من قبل حماد البربري عندما أخبره أحد رجاله بأن عند أخت الهيصم جارية جميلة مولدة. فبعث هذا الوالي إلى أخت الهيصم يطلب شراء هذه الجارية إلا أن أخت الهيصم رفضت بيعها بسبب أن ولاية هذه الجارية تحت تصرف أخيها الهيصم وليس تحت تصرفها. وأخوها الهيصم آنذاك كان متواجداً في جبل تيس وليس في لاعة لذلك لا يمكن لها أن توافق على بيعها[٥٤]. وآنذاك لم يعمل والي لاعة على مكاتبة الهيصم وإنما استخدم القوة والجبروت وذلك عن طريق الهجوم على أخت الهيصم وأخذ الجارية منها بالقوة فلما بلغ خبر هذا الحادث إلى الهيصم في جـبل تيس أخذته العزة بالإثم وثارت ثائرته وركبته العصبية القبلية والعار. فانحدر مسرعاً من جبل تيس في اتجاه لاعـة وتصرف مع هذا الوالي الذي أخذ الجارية بأكثر من فعله وتصرفه في أخذ الجارية حيث أقدم الهيصم على قتل هذا العامل.

وبعـد ذلـك شعر الهيصم بخطئه وعمل على مكاتبة حماد البربري والي الخلافة العباسية على اليمن وأعلمه أنه أرتكـب خطـأ في قتله بعض ولاته وأنه على استعداد لدفع دية هذا العامل. وأنه على استعداد لطاعة حماد البربري ومسـالمته. إلا أن حمـاداً رفض مسالمته وطاعته بسبب إقدامه على قتل أحد عماله فاتجه حماد لمقاتلته وآنذاك لم يجد الهيصم بدا من الدفاع عن نفسه ومقاتلة حماد[٥٥].

الفترة الرابعة: استخدم حماد البربري القوة والشدة والعنف تجاه أهل اليمن وازدياد ظلمه بسبب انضمام الكثير من أهل اليمن إلى حركة الهيصم. ذلك ما أوضحته المصادر اليمنية حينما تحدثت عن حماد بالقول: "فخالف عليه خلق كثير من اليمن بسبب ما نالهم من العنف وقائدهم الهيصم بن عبدالصمد"[٥٦]. كما أوضح ذلك اليعقوبي عند حديثه عن توليه أعمال اليمن بقوله: "وولى حماد البربري مولاه فجار على أهل اليمن وغلظ عليهم"[٥٧].

ومـن جهة السبب الذي جعل الرشيد يولي حماداً اليمن هو خروج بعض مناطق اليمن عن طاعة الخلافة وذلك أثناء ولاية محمد بن برمك على اليمن. والذي كتب إلى الخليفة الرشيد يشكو إليه خروج أهل عك بتهامة على طاعته وطاعـة الخلافـة. لذلك طلب الخليفة الرشيد مولاه حماد الحضور إليه ليوليه على اليمن ويرسله إليها وقال له عبارة توحـي بغضـبه عـلى أهـل اليمن ورغبته بإنزال أقصي العقوبة عليهم وهي قولته المشهورة: "أسمعني أصوات أهل اليمن"[٥٨]، فسار حماد نحو صنعاء فوصلها في شوال سنة ١٨٤هـ[٥٩].

الأحـداث: لم يقبل حماد مسالمة الهيصم ودفعه دية الوالي المقتول لأنه توقع لأنه سيتمكن من الايقاع بالهيصم سريعاً وسيعمل على القصاص منه. لذلك أصر على محاربته. كما أصر الهيصم جهته على محاربة حماد وتأليب اليمنيين

عليه، فاشتدت حركة الهيصم بانضمام عدة زعامات بقبائلها إلى الهيصم مثل عمرو بن خالد الحميري في عشتان. والصباح بن أبرهة في حراز. وإبراهيم أخي الهيصم في تيس[٦٠]. والضحاك بن كثير وغيرهم[٦١]. لذلك امتدت حركة الهيصم إلى أنحاء مغارب اليمن الأعلى من حراز وشبام كوكبان والمحويت إلى لاعة ومسور حجة[٦٢].

وفي غضون امتداد حركة الهيصم إلى مناطق كثيرة من مغارب اليمن الأعلى واستخدم حماد القسوة والشدة نحوهم رفضوا الدخول في طاعة حماد البربري كما رفضوا دفع الخراج المفروض عليهم زيادة من قبل حماد. فاستنجد حماد بالخلافة العباسية فكتب إلى الخليفة هارون الرشيد يطلب امداده بالجنود للقضاء على الهيصم واتباعه فأمده الخليفة الرشيد بجيش كبير تحت قيادة عشرة من قواد من أهل العراق وخرسان[٦٣].

ولما وصل ذلك الجيش إلى حماد البربري في صنعاء ازدادت وطئته وقسوته وظلمه على أهل اليمن (وسام أهلها سوء العذاب) فاشتكى أهل اليمن حماد البربري إلى هارون الرشيد. وذلك عندما حج بعض أهل اليمن والتقوا بالرشيد أثناء وجوده في مكة للحج في أحد حجاته فقالوا له: "نحن نعوذ بالله وبك يا أمير المؤمنين: اعزل عنا حماد البربري إن كنت تقدر! فقال: لا. ولا كرامة"[٦٤]. والواقع عن رفض الخليفة هارون الرشيد عزل حماد والعفو عن الهيصم واتباعه نابع من خوفه من امتداد حركة الهيصم إلى أنحاء اليمن. وكذلك تقليد اتباعها في بقية أمصار الخلافة. كما أنه نابع من اتجاه ولاية الرشيد على اليمن إلى استخدام القوة والعنف والوحشية ضد أي حركة تخالف رأي الخلافة العباسية وولاتها على اليمن. لذلك لم يعمل الرشيد على عزل حماد والعفو عن الهيصم وأتباعه.

ومن جراء تشدد الخليفة العباسي الرشيد وواليه على اليمن حماد البربري في استخدام القوة والوحشية. استمرت الحرب فيما بين الهيصم وأنصاره من جهة وبين الوالي حماد من جهة أخرى لمدة ٩ سنوات.

أسفرت هذه الحرب فيما بين الطرفين إلى حصاد أكثر من ٢٠ ألف رجل[٦٥] معظمهم من أهل اليمن. وهذا يدل على شدة القتال فيما بين الطرفين كما يدل على وحشية وظلم حماد والخلافة العباسية لأهل اليمن، لأن الخلافة هي التي سمحت لحماد بهذا التصرف وكذلك يدل على إصرار كل طرف عدم التنازل للطرف الآخر أو الخضوع لأوامره.

ومن الواضح أن مناعة جبال اليمن وحصونها وشراسة قتال الهيصم وأنصاره جعلت من الصعب على حماد التمكن من القضاء على حركة الهيصم ولما لم يستطع حماد تحقيق النصر على حركة الهيصم بالقوة لجأ إلى استخدام أسلوب آخر يحقق له النصر يتفق مع حصانة تلك الجبال وشراسة المقاتلين فيها. وهو عمل على إبعاد الزعامات القبلية المتحالفة مع الهيصم عن القتال بجانبه. فطلب حماد منهم التخلي عن القتال ضده مقابل منحهم الأمان وتخفيف الخراج عنهم. وبالفعل اقتنع الكثير من الزعامات القبلية واتباعهم بعدم جدوى الحرب وفائدتها فاتجهوا إلى تسليم أنفسهم لحماد مقابل منحهم الأمان لإنهاء عدة سنوات من الحرب بين الطرفين. وممن سلموا أنفسهم لحماد وطلبوا منه الأمان

مـــن الـــزعامات القبلية إبراهيم أخو الهيصم[٦٦]، والصباح بن ابرهة[٦٧]، وعمرو بن خالد[٦٨]، وكذلك الضحاك بن كثير[٦٩]. وتعتبر هذه الزعامات التي وقفت بجانب الهيصم وناصرت حركته.

ولـمـا تخلت هذه الزعامات القبلية عن مناصرة الهيصم والقتال إلى جانبه. أدى ذلك إلى ضعف قوات الهيصم، فأصـــبح من السهل على حماد القضاء على حركة الهيصم. فاستغل حماد الضعف فأسرع في الاتجاه بقواته إلى السيطرة عـــلى جبال العضد في مسور حجة وهي معقل الهيصم، فتمكن من الاستيلاء عليها بسهولة. وبالنسبة للهيصم نفسه فإنه لما عجز عن مقاومة حماد البربري اتجه إلى النزول من قلعته والهروب إلى قرية بيش[٧٠] من تهامة للاختفاء بها.

لما اختفى الهيصم عمل حماد على نشر جواسيسه في أنحاء المناطق التي ثارت مع الهيصم، وذلك بهدف الإسراع على القضاء على الهيصم وحركته نهائياً. ولما وصل العلم إلى مسامع حماد بوجود الهيصم مختفياً في قرية بيش عن طريق أحـــد رجال تلك القرية المذكورة أسرع حماد إلى إرسال جيش للإلقاء القبض عليه. أوضح ذلك اليعقوبي بقوله: "ثم صـــار إلى حماد رجل من أهل البلد، فأعلمه أن الهيصم قد نزل من قلعته، وصار إلى قرية من القرى متنكراً يتجسس الأخبار، فوجه معه إلى تلك القرية بقائد يقال له حراد فأخذ الهيصم"[٧١].

وبعـــد إلقاء القبض على الهيصم قال: "والله إن القتل لشيء ما أنكره، وما خلقت الرجال إلا للموت والقتل" وأنشد قوله:

فشفـــاءُ مـــا لا تشتهيـــــــــــ ـــــيه النفسُ تعجيلُ الفـــراق[٧٢].

وكمـــا يظهر مما سبق أن حمادًا أوعز إلى الهيصم بتسليم نفسه مقابل منحه الأمان إلا أن الهيصم وقع في الشك فيما بين تصديق منح حماد الأمان له أو تكذيبه. فقلل ذلك من عزيمة الهيصم على المقاومة. فضلاً عن ذلك فإن الأكثر تثبـــيطاً لعزيمة الهيصم في الاستمرار في القتال واتجه إلى التخفي هو تخلي الزعامات القبلية عن مناصرته وخاصة أخوه إبراهـــيم. أوضحت ذلك المصادر بقولها: "فاستأمن إبراهيم بن عبدالمجيد أخو الهيصم إلى حماد فأمنه فكان سبب ظفر حمـــاد بجـــبال العضـــد فهـــرب الهيصم إلى بيش تهامة"[٧٣]، وبعد ذلك حمل الهيصم إلى صنعاء على جمل تحت رحمة الأسر[٧٤].

وعندما تمكن حماد من اسر الهيصم وذلك في سنة ١٩١هـ[٧٥]، واستسلم الكثير من رجال الهيصم بعد منحهم الأمان عمل حماد على إرسالهم إلى الخليفة هارون الرشيد فأرسل بالهيصم وبأهل بيته وبأخيه إبراهيم وبعدة وجوه من أهـــل الـــيمن ممـــا كـــان من رؤسائهم ممن كان يتهمه بالميل إلى الهيصم[٧٦] قدر عددهم بحوالي ٦٠٠ رجل منهم الصباح[٧٧]. ويتضح من هذا أن حمادًا خدع إبراهيم أخا الهيصم والصباح وغيرهم من وجوه أهل اليمن بمنحهم الأمان ثم إرســـالهم إلى الخليفة الرشيد لمعاقبتهم أو العفو عنهم ومنحهم الأمان. وهذا يتنافى مع وعود حماد في منحهم الأمان مقابل تخليهم عن الحرب.

نهايـــة الهيصم: تجمع المصادر على أن نهاية الهيصم كانت القتل إلا أن هناك ممن يرجح سبب القتل إلى خديعة حمـــاد له ويوضـــح ذلك ما أورده الهمداني أن حماداً خدع الهيصم حين أوعز إليه أن يعترف للخليفة هارون الرشيد بخروجه عليه إذا أراد عفوه بقوله: "وكان حماد قد دس من ينصحه وقال: إذا سألك أمير المؤمنين عن جرمك فأقر له حتى يعفو عنك، ولا آمن عليك إن جحدت وقد صح عنده العلم"(٧٨).

صـــدق الهيصـــم نصيحة حماد الخادعة فلما وصل إلى الخليفة هارون الرشيد إلى الرقة التي كان الخليفة آنذاك متواجداً بها(٧٩) بدأت المحاكمة السريعة له فقال الخليفة هارون الرشيد للهيصم: "أنت الخارج على أمير المؤمنين وقاتل أجـــناده والمطل على الكعبة البيت الحرام بالفتن"، فقال الهيصم: "نعم فلما أقر له استحل هارون قتله فأمر به فضربت عنقه(٨٠). وبذلك نجحت خديعة حماد للهيصم في أمرين:

الأول: قبوله الاستسلام بمنحه الأمان.

الثاني: اعترافه بالخروج على الخليفة الرشيد فأدي ذلك إلى قتله ونهاية حركته.

نهاية أنصار الهيصم:

وبالنسبة إلى أنصار الهيصم هناك ثلاث روايات توضح كيف كان التعامل معهم وهي الآتي:

الرواية الأولى: تحكي عن العفو عن أنصار الهيصم والسماح لهم بالعودة إلى اليمن دون عقاب. وقصة ذلك أنه بعـــد أن نجح الخليفة من أخذ الإقرار من الهيصم أراد أن يأخذ من الضحاك بن كثير الإقرار بخروجه على الخليفة حتى يحكـــم عليه بالقتل إلا أن الضحاك أدرك أن الخليفة يريد أن يأخذ الاعتراف منه ليس ليعفو عنه ولمن ليقتله كما فعل بالهيصـــم لذلـــك لم يعترف له. فأسند سبب ذلك الخروج إلى واليه على اليمن حماد. أوضح ذلك الهمداني بقوله عن الرشـــيد: "فـــلما دعا بالضحاك بن كثير فذكر له مثل مقالته للهيصم". فقال: "الذي فعل ذلك خادمك حماد. قال: كـــيف ذلك؟ فقص له الخبر من مبتدأ مشاقة الهيصم له. فلما علم الخبر سقط من يده فتندم على قتل الهيصم وأطلق الضـــحاك وأصحابه وحباهم وأمر بحملهم إلى اليمن وغضب على حماد حتى مات(٨١). ويظهر مما سبق أن الضحاك يشـــير إلى اتجاه حماد إلى مقاتلة الهيصم وعدم مسالمته وقبول دفع الدية منه. مما جعل الكثير من مغارب اليمن الأعلى تقف مع الهيصم ضد الخلافة العباسية في اليمن في تلك الحرب التي أثارها الهيصم، وكان بإمكانه توقيف القتال بقبول مسالمة الهيصم.

الـــرواية الثانية: يذكر سجن الهيصم في سجون بغداد أوضحت ذلك المصادر اليمنية وهي أن الخليفة هارون الرشيد أمر بضرب عنق الهيصم وصرف من كان معه إلى السجن في بغداد فأقاموا هناك إلى أن هلك الرشيد (٨٢)سنة ١٩٣هـــ، ومنهم من مات في سجنه والباقون خرجوا من السجن في زمن الأمين محمد بن هارون(٨٣).

الرواية الثالثة: تتحدث عن قتل جميع أنصار الهيصم أوضح ذلك اليعقوبي أنه لما ألقى حماد القبض على الصباح

وأخذه أسيراً ووجه به إلى الرشيد مع ٦٠٠ رجل من أصحاب الهيصم فضرب أعناقهم جميعاً وصلب الهيصم الصباح معـــاً[٨٤]. ويبدو أن الخلافة في بغداد أشاعت قتل الهيصم وأنصاره في جميع أمصار الخلافة حتى لا يفكر أحد بالخروج على الخلافة العباسية، أما قتلهم فلا نميل إلى تأييده.

إن روايـــة الهمـــداني ورواية المصادر اليمنية الأخرى أرجح من غيرها وليس هناك تناقض كبير فيما بين رواية الهمداني التي تذكر بإطلاق أهل اليمن جميعاً في عهد الرشيد أو بين الرواية الثانية التي تذكر دخول أهل اليمن السجن فترة قصيرة ثم خروجهم من السِجن في عهد الأمين. وبالنسبة لرواية قتل الرشيد لمن حضر لديه من أهل اليمن لا يمكن تصـــديقها إذ أنـــه لـــو قتلهم جميعاً لانتشر ذلك الخبر لدى أهل اليمن وكان له رد فعل في زيادة الثورة ضد الخلافة العباسية تحت ضغط العصبية القبلية الموجودة بقبائل اليمن.

لم تكن معاملة حماد البربري لأهل اليمن مقتصرة على العسف والجبروت وقتل رجالهم فقط بل شرد جمعاً كبيراً ممـــن ثاروا عليه إلى أنحاء متفرقة من اليمن. وبذلك أجبر الكثير منهم على الرضوخ لطاعته. كما أجبرهم على دفع ما علـــيهم من خراج مقررة، وكذلك دفع ما فرضه عليهم من زيادة في الخراج[٨٥] ذلك ما أوضحته المصادر بأنه لما قدم حمـــاد إلى الـــيمن "عامـــلهم بالعسف والجبروت وقتل من رؤسائهم جماعة وشرد جمعاً في البلاد حتى دانوا وأطاعوا بالخراج المعتاد وزيادة عليه ما أراد"[٨٦].

وبعـــد ذلـــك قـــتل الهيصم وانتهت حركته لم يستطع أحد من أهل اليمن الخروج عن ولاية الخلافة العباسية وبالتحديد في المدة الأخيرة من زمن حكم حماد وسكن أهل اليمن وهدأ تمردهم نتيجة خوفهم من بطش حماد وقهره ووحشية تصرفه. أدى ذلك إلى انتشار الأمن ورخص الأسعار وخاصة صنعاء وخصب اليمن. ذلك ما فسر من وجهة نظر الخلافة وولاتها وهو ما أوردته المصادر اليمنية بقولها: "وأمنت الطرق في أيامه أماناً لم يكن في عهد مثله حتى أن الجلب كان يسير من اليمامة إلى صنعاء لا يخشون عاسفا وحملتهم يضلون بالأغنام في عنق كل شاه مخلات مملوءة تمرا فتباع بالرخص، وأخصب اليمن في أيامه خصباً لم يعهد، ورخصت الأسعار"[٨٧]. وعلى الرغم من انتشار ذلك إلا أن الناس في اليمن تعبوا من حماد من شدة عنفه وعسفه[٨٨].

وفي الواقـــع يمكن تفسير ذلك على أنه بعد انتهاء الحرب في اليمن بدأ النشاط التجاري فيما بين اليمن والبلدان الإســـلامية الأخـــرى وغيرها من البلدان. فاتسع النشاط التجاري وازدادت حاجة الناس لشراء السلع التجارية بعد انقطاعهـــا فترة الحرب فيما بين حماد والهيصم والممتدة لتسع سنين. أما بالنسبة لخصب اليمن فإن ذلك عامل طبيعي يعـــتمد على حالة الطقس في اليمن. ومن خلال النظرة في حالة الطقس تلك نجد أنه في بعض السنوات يزداد هطول الأمطار على اليمن بغزارة فينتشر الخصب. وفي بعض السنوات عكس ذلك يقل هطول الأمطار في اليمن فينتشر فيها الجفاف والجدب. ومن جراء الخصب في اليمن واتساع النشاط التجاري ترخص الأسعار وعلى ذلك فهذه الحالة التي

حدثت في أواخر حكم حماد هي حالة من جملة الحالات التي يتكرر حدوثها في اليمن في العديد من السنوات.

عـــزل حماد: وفي عهد الخليفة العباسي الأمين تغيرت سياسة الخلافة نحو حماد فقد عزل عن ولايته لليمن نتيجة شـــكوى أهل اليمن. وولت مكانه محمد بن عبدالله الخزاعي والذي عمل عند قدومه إلى صنعاء على مصادرة أموال عمال حماد وإنصاف أهل اليمن. ويوضح ذلك ابن جرير الصنعاني حين تحدث عن ولاية الخزاعي لليمن بقوله: "وأخذ ما قدر عليه من عمال حماد فجعل يستأديهم ويحققهم حتى يخرجوا إليهما طالبهم به من المال فجبى بذلك مالاً عظيماً وعدل في أهل اليمن"(٨٩).

وحـــول عـــزل حماد اختلفت المصادر في ذلك فاليعقوبي يوضح أن عزله كان في أواخر حياة الرشيد، كما أنه يذكر أن ولاية حماد لليمن استمرت ثلاث عشرة سنة اعتبر أن ولايته تبدأ من ١٧٩هـــ عندما بدأ أول ظهور لحركة الهيصم(٩٠). ونرجح رواية المصادر الأخرى التي تذكر أن ولاية حماد لليمن كانت سنة ١٨٤هـــ وعزله عنها كان في بداية خلافة الأمين سنة ١٩٣هـــ، وابن جرير الصنعاني الذي ذكر أن حماداً عندما تولى اليمن دخل صنعاء في شوال ســـنة ١٨٤هـــــ(٩١)، وانتهـــت ولايته في بداية خلافة الأمين حيث أنه خرج من صنعاء مستهل شهر رمضان سنة ١٩٣هـــ(٩٢).

وعـــن ولايـــة حماد أشار ابن الأثير أن ولايته سنة ١٨٤هـــ كانت لليمن ومكة(٩٣). وهذا يعني أن حماداً كان يقضـــي في مكة أشهر الحج وهي ثلاث أشهر من شوال حتى محرم وبقية الأشهر يقضيها في اليمن. أشار إلى ذلك ابن جرير الصنعاني بأن حماداً كان لا يدع حضور الحج وكان يستخلف على صنعاء إذا خرج منها مرة مسلم بن منصور ومرة محمد بن إبراهيم(٩٤).

ممـــا سبق نجد أن معاملة معن بن زائدة الشيباني وحماد البربري القاسية تركت أثراً سيئاً على أهل اليمن حيث مـــال أهل اليمن فيما بعد إلى مناصرة الزيدية في صعدة ومناصرة الإسماعيلية في مسور لاعة ومذيخرة، ومناصرة علي الصـــليحي في حراز الذي أعلن موالاته للفاطميين. كما أدت إلى ظهور الزعامات القبلية في اليمن مثل آل الكرندي وآل المناخي وآل يعفر. فنتج عن ذلك ظهور دويلات مستقلة في اليمن عن الخلافة العباسية.

التعليقات

(١) الجـــندي، أبـــو عـــبدالله بهاء الدين، محمد بن يوسف بن يعقوب، *السلوك في طبقات العلماء والملوك*، تحقيق: محمد الأكوعن منشـــورات وزارة الإعلام اليمينة، ط١ (بيروت: ١٤٠٣هـــ/١٩٨٤م)، ١:٢٠٧؛ الخزرجي، أبوالحسن على بن الحسن بن أبي بكـــر (ت٨١٢)، *العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك*، ط٢ (دمشق: دار الفكر)، مصور، ٢٤؛ ابن الديبع، عبد الرحمن ابن علي (ت٩٤٣)، *قرة العيون بأخبار اليمن الميمون*، تحقيق: محمد الأكوع، (القاهرة: المطبعة السلفية)، ١١٩.

(٢) مجهول، *تاريخ اليمن*، ق١٦٣؛ الطبري، إسحاق بن يحيى بن جرير الصنعاني (ت٤٥٠)، *تاريخ صنعاء*، تحقيق: عبدالله الحبشي،

نشر مكتبة السنحاني، ٥٠؛ الجندي، *السلوك*، ٢١٣؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٨، ٢٩؛ محمد عيسى الحرري، *الاتجاهات المذهبية في اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري*، ط٢ (بيروت: عالم الكتب، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ٣٦.

(٣) الرازي، أحمد بن عبدالله بن محمد (ت٤٦)، *تاريخ مدينة صنعاء*، تحقيق: حسين العمري، ط٢ (دمشق: ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ١٥٦؛ الجندي، *السلوك*، ٢١٣:١، ٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني في أخبار القطر اليماني*، تحقيق: عبدالفتاح عاشور، (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ١: ١٤٢؛ الحداد، محمد بن يحيى، *التاريخ العام لليمن، اليمن في موكب الإسلام (١)*، ط١ (بيروت: دار التنوير، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ٦٩؛ الحرري، *الاتجاهات*، ٣٦.

(٤) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤٠؛ الجندي، *السلوك*، ٢٠٧:١؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢٠.

(٥) سورة الفتح، الآية ٥.

(٦) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤٠؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢١.

(٧) الخزرجي، *العسجد*، ٢٥؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢١.

(٨) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٢٥؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٧.

(٩) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٢٧؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٨.

(١٠) الطبري، *تاريخ الطبري*،٥٠٧:٧؛ ابن الأثير، أبو الحسن عز الدين على، *الكامل في التاريخ*، ط١ (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ٣: ٤٥٩،٥٤٨.

(١١) ابن كثير، *البداية والنهاية*، تحقيق: مكتبة التراث، مؤسسة التاريخ العربي (بيروت: دار إحياء التراث، ١٩٩٣م)،٨٢:١٠.

(١٢) الطبري، *تاريخ الطبري*،٥٠٨:٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥٤٩:٣؛ ابن كثير، *البداية*،٨٢:١٠.

(١٣) ابن الديبع، *قرة*، هامش٢، ١٢٢.

(١٤) الهمداني، *الدامغة*، ٤١٩.

(١٥) الهمداني، *الدامغة*، ٤١٣.

(١٦) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر، *تاريخ اليعقوبي*، تحقيق: عبدالأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، ٣: ٣١١.

(١٧) ابن كثير، *البداية*،٧٧:١٠.

(١٨) حسن محمود، *العالم الإسلامي*، ٢٤-٢٦.

(١٩) اليعقوبي، *تاريخ*، ٣١٥:٢، ٣١٨.

(٢٠) اليعقوبي، *تاريخ*، ٣١٠:٣.

(٢١) ابن الأثير، *الكامل*، ٦٢١:٣.

(٢٢) الطبري، *تاريخ الطبري*، ٦٤:٨-٦٥؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١٢٢.

(٢٣) ابن الديبع، *قرة*، ١٢٢؛ الجندي، *السلوك*، ٢٥؛ الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤١.

(٢٤) الطبري، *تاريخ*، ٥٠٨:٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥٤٨:٣.

(٢٥) اليعقوبي، *تاريخ*، ٣١٠:٢؛ الحمزي، عماد الدين إدريس (ت١٤)، *كتر الأخبار في معرفة السير والأخبار*، تحقيق: عبدالمحسن المدعج (الكويت: مؤسسة التراث العربي، ١٩٩٢م)، ٣٥.

(٢٦) الطبري، *تاريخ الطبري*، ٦٥:٨؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١٢٢.

(٢٧) الجندي، *السلوك*، ١:٢٠٩.

(٢٨) الجندي، *السلوك*، ١:٢٠٩-٢١٠؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٣٦.

(٢٩) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤٢؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٢٦؛ الجندي، *السلوك*، ١:٢١٠؛ ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٢٩-٣٠؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٥؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٣٠؛ زبارة، *خلاصة المتون*، ١٤٧؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٢؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٣٦.

(٣٠) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٠؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٣٦.

(٣١) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٠.

(٣٢) الهمداني، *الدامغة*، ٤٠٣.

(٣٣) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٠؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٦؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢٣؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٣٦؛ زبارة، *خلاصة المتون*، ١٤٧؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٤٦.

(٣٤) الهمداني، *الدامغة*، ٤٠٤.

(٣٥) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٦؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٦؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢٣؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٣٦؛ يحيى بن الحسين، *غاية*، ١:١٣٠؛ زبارة، *خلاصة*، ١٤٧؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٦٥، أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٢.

(٣٦) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٠؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٦؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢٣؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٣٦؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٤٦؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٢.

(٣٧) الهمداني، الحسن بن علي بن يعقوب (ت٣٤٠)، *الإكليل*، ج١ ،٢ ، تحقيق: محمد الأكوع، ط٢ (بيروت: دار الأدب، ١٩٨٣م؛ الدامغة، تحقيق: محمد الأكوع، ١٢٩،١٢١:٢؛ محمد أمين صالح، تاريخ اليمن الإسلامي في القرون الثلاث الأولى للهجرة (عصر الولاة)، ط١ (القاهرة: مطبعة الكيلاني، ١٩٧٥م)، ١١٣.

(٣٨) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤٢؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٣٦؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٢.

(٣٩) ابن عبدالمجيد، *بهجة*، ٣١؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٦؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٢٣؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٣٧؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٦٥؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٣٧.

(٤٠) الطبري، *تاريخ الطبري*، ٨:٦٦؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٣:٦٢٩.

(٤١) الجندي، *السلوك*، ١:٢١١.

(٤٢) الهمداني، *الدامغة*، ٤٠٥؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٦٥؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٣.

(٤٣) ابن الأثير، *الكامل*، ٣:٦١٣-٦١٤.

(٤٤) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١؛ ابن عبدالمجيد، *بهجة*، ٤٣.

(٤٥) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٢٢٣.

(٤٦) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٤٧) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٤٨) الحمادي، محمد بن مالك، *كشف أسرار الباطنية*، تحقيق: محمد الأكوع، ط٢ (نشر مركز الدراسات اليمنية، ١٩٩٤م)، ٩٩-١٠٠.

(٤٩) ابن الديبع، *قرة العيون*، ٤٩؛ ابن عبدالحميد، *بهجة*، ٣٤؛ الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٥٧.

(٥٠) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣؛ الخزرجي، *العسجد*، ١:١٣٢؛ الجندي، *السلوك*، ١:١٣٢؛ الفقي، عصام الدين، *اليمن في ظل الإسلام*، ط١ (دار الفكر العربي، ١٩٨٢م)، ٧٧؛ الحرري، *الاتجاهات*، ٣٨.

(٥١) مجهول، *تاريخ*، ١٦٣؛ الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٤٩؛ ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٤.

(٥٢) اليعقوبي، *تاريخ*، ١:٣٠٥.

(٥٣) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٨.

(٥٤) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٢؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٥-١٤٤؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي الأول ١٣٢-٢٠٣هـ*، ط١ (الشارقة: دار الثقافة العربية، جامعة عدن، ٢٠٠١م)، ١٤٥.

(٥٥) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٢-٣٢٣.

(٥٦) الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٣١.

(٥٧) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٥٨) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٣١؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٤٣؛ زبارة، محمد ابن يحيى، *خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون*، مركز التراث والبحوث اليمني، ط١، ١٥١؛ الحرري، *الاتجاهات*، ٣٨.

(٥٩) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١؛ الخزرجي، *العسجد*، ٥٩؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٧٠؛ زبارة، *خلاصة المتون*، ١٥١.

(٦٠) ابن عبدالمجيد، *بهجة*، ٣٥؛ ابن الديبع، *قرة العيون*، ١٣٤؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٣٤؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٦٩؛ شمسان، إيمان، *اليمن عصر الولاة*، ١٤٤-١٤٥.

(٦١) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣.

(٦٢) اليعقوبي، *تاريخ*، ٣٥٩.

(٦٣) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١؛ ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٤٠؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٣٤.

(٦٤) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٦٠؛ الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٥٩.

(٦٥) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩؛ ابن الديبع، *قرة*، ١٣٤.

(٦٦) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٤٠؛ الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٥٧؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٤٣؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٤٦.

(٦٧) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٦٨) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩؛ ابن الديبع، *قرة العيون*، ١٣٤.

(٦٩) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣.

(٧٠) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١:١٤٣.

(٧١) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٧٢) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٧٣) ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٥.

(٧٤) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩.

(٧٥) أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٥.

(٧٦) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٧٧) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩؛ الفقي، *اليمن في ظل الإسلام*، ٧٧.

(٧٨) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣.

(٧٩) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٨٠) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣.

(٨١) الهمداني، *الإكليل*، ٢:٣٢٣؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٥.

(٨٢) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١–٥٢؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ ابن عبد المجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٥٧؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٤٠؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٣٤.

(٨٣) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٨٤) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩؛ شمسان، إيمان، *اليمن في العصر العباسي*، ١٤٦.

(٨٥) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩.

(٨٦) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩.

(٨٧) ابن عبدالمجيد، *بهجة*، ٣٥؛ الحمزي، *كنز الأخبار*، ٤٠؛ الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤؛ الخزرجي، *العسجد*، ٢٩؛ الحداد، *تاريخ اليمن*، ٦٩؛ الفقي، *اليمن في ظل الإسلام*، ٧٧؛ أمين، محمد، *اليمن عصر الولاة*، ١١٤.

(٨٨) الجندي، *السلوك*، ١:٢١٤.

(٨٩) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٩٠) اليعقوبي، *تاريخ*، ٢:٣٥٩–٣٦٠.

(٩١) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٩٢) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

(٩٣) ابن الأثير، *الكامل*، ٤:٦.

(٩٤) الطبري، *تاريخ صنعاء*، ٥١.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

العوامل المؤثرة في النشاط الزراعي في الجزيرة العربية خلال العصر العباسي (١٣٢- ٤٠٠هـ)

عبدالله بن محمد السيف
كلية الآداب – قسم التاريخ
جامعة الملك سعود

لدراسة النشاط الزراعي أهمية في معرفة الأحوال الاقتصادية للسكان بيد أننا في هذا البحث سنتناول العوامل المؤثرة في النشاط الزراعي في الجزيرة العربية في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري كالعوامل الإيجابية مثل خصوبة التربة، وتوفر المياه، وتدفق رأس المال، والأيدى العاملة، وتنوع الأرض الزراعية. إضافة إلى استتباب الأمن، وحسن الموقع الجغرافي للجزيرة العربية الذي ساعد على تسويق الإنتاج الزراعي، وجلب بعض النباتات الجديدة. كما أننا لم نغفل العوامل السلبية التي عرقلت النشاط الزراعي في بعض الفترات في الجزيرة العربية خلال هذه الفترة كالفتن والاعتداءات القبلية، والهجرة إلى الأمصار الإسلامية بسبب القحط وسوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى الكوارث الطبيعية والأوبئة والآفات مثل الزلازل، والسيول الجارفة، وزحف الرمال وتراكم الأملاح على الأرض الزراعية، ومهاجمة الجراد والقرود لمناطق الإنتاج الزراعي.

من المعروف أن الحياة السياسية في الجزيرة العربية في العصر العباسي شهدت مرحلتين: المرحلة الأولى ويمثلها العصر العباسي الأول، وفيه كانت الخلافة العباسية قوية وجميع أقاليم الجزيرة العربية تقريباً تخضع مباشرة لها عن طريق الولاة الذين يتم تعيينهم في هذه المناطق. أما الثانية فتبدأ مع ضعف الخلافة العباسية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري وظهور النزعات الاستقلالية لدى بعض الكيانات السياسية في الجزيرة العربية مثل بني زياد وبني يعفر الحواليين وبني الرسي في اليمن،إضافة إلى الدولة الأخيضرية في اليمامة والقرامطة في البحرين، والإباضية في عمان، بينما كان الحجاز يخضع أحياناً للعباسيين والفاطميين. ولا شك أن مثل هذه الاضطرابات السياسية لها تأثير على النشاط الزراعي وسنتحدث عن ذلك خلال حديثنا عن العوامل المؤثرة في النشاط الزراعي في كل إقليم من أقاليم الجزيرة العربية.

أولاً: العوامل الإيجابية:

لا شك أن خصوبة التربة، وتوفر المياه لهما دور كبير في إزدهار الزراعة، وقد من الله على الجزيرة العربية،

بتنوع في المناطق الزراعية الخصبة، فالأرض الزراعية كانت تتنوع بين المنطقة الساحلية والأودية والواحات في المناطق الصحراوية، إضافة إلى سفوح المناطق الجبلية، وهذا التنوع في الأرض الزراعية الخصبة أدى إلى تنوع وتكامل في الإنتاج الزراعي لأقاليم الجزيرة العربية.

لقد توفرت الأراضي الخصبة في إقليم الحجاز في واحات المدنية المنورة وأوديتها والمناطق القريبة منها مثل أراضي خيبر[١] وفدك[٢] وينبع[٣] ووادي القرى[٤]. وفي المناطق المجاورة لمكة مثل وادي مرّ الظهران[٥] وخليص[٦] وتربة[٧]. أما الطائف فيذكر عرام "أنها ذات مزارع ونخيل ... وسائر الفواكه بها"[٨]. وفي بلاد بني سليم تنتشر الواحات الخصبة مثل واحات الأتم والرحضية وصفينة والسوارقية[٩]. ومن المناطق المشهورة بخصوبة التربة رنيه[١٠] وبيشة[١١]. وفي إقليم نجد توجد الأراضي الخصبة في ضرية[١٢] وفيد[١٣] والنباج[١٤] والشريف[١٥]. وتعتبر اليمامة أهم المناطق الزراعية المعروفة في نجد بخصوبة التربة ووفرة إنتاجها من التمور والحبوب حتى كان إنتاجها الزراعي يصدر إلى الأقاليم الأخرى[١٦]. وكان لأسود بن مالك بن عبدالله (من بني يشكر بن بكر بن وائل) نخل موقوفة "تصرم في كل سنة مرتين"[١٧]. وذكر ياقوت عن السكوني قرية سدوس بأنها من أخصب قرى اليمامة[١٨]، ويعتبر وادي الخرج أحد الأودية المشهورة بخصوبة التربة، وهو "خير واد باليمامة أرضه أرض زرع ونخل"[١٩]. ويذكر المقدسي أن اليمامة بلد جيدة التمور[٢٠]. وتنتشر المناطق الخصبة في مناطق اليمامة مثل: قرقري[٢١] والوشم[٢٢] وسود باهله[٢٣]، والفقي[٢٤]. ويعتبر وادي الغيل في الفلج من أشهر المناطق الزراعية الخصبة حيث تكثر المزروعات وأشجار النخيل فيروى الأصفهاني أنه واد بين جبلين "ملآن نخيلاً"[٢٥].

أما في شرق الجزيرة العربية فكانت خصوبة التربة عاملاً مهماً من العوامل التي ساعدت على نمو النشاط الزراعي في البحرين، فمن المناطق التي كانت تمتاز أرضها بخصوبة التربة في البحرين هجر والمشقر والقطيف وجزيرة اوال[٢٦]، وجواثا،[٢٧]، ووادي الستارين[٢٨] وكذلك يبرين[٢٩]، فضلاً عن خصوبة السهول الزراعية في عمان[٣٠]، حيث يشبه المقدسي حفيت في عمان بهجر في البحرين[٣١].

أما في إقليم اليمن فيذكر بتروفسكي أن نسبة ٨٠٪ من الأراضي اليمنية في الأودية والسهول صالحة للزراعة[٣٢]. لقد انتشرت المناطق الخصبة في معظم بلاد اليمن وأوديتها كتلك التي استوطنتها قبائل حمير كوادي الجنات ومخلاف ذي جرة وخولان[٣٣] وتعتبر منطقة ذمار ومنطقة رعين والسحول من المناطق الخصبة في اليمن[٣٤] وكذلك الأراضي الخصبة شمال مدينة صنعاء. حيث يجري وادي ضهر المشهور بخصوبة تربته[٣٥]. أما في منطقة همدان فتشتهر بخصوبة التربة هنوم، وقرى حقل البون في ريدة وأثافت[٣٦]. وفي منطقة خولان في صعده كانت الأراضي الخصبة توجد في وادي علاف[٣٧]. كما اشتهرت مأرب ورمع وزبيد بخصوبة التربة[٣٨]. يقول البكري عن مدينة زبيد التي تقع على وادي زبيد. "وليس باليمن بعد صنعاء أكبر من زبيد... واسعة الرساتيق كثيرة المياه والفواكه"[٣٩]. وتعتبر منطقة خيوان من المناطق الخصبة المشهورة بالانتاج الزراعي[٤٠]. ومن المناطق الخصبة أيضاً شبوة وأبين في

منطقة حضرموت[٤١] ومنطقة نجران وقراها مثل قرية شوكان[٤٢].

لقـــد كانـــت الأرض الزراعية في جنوب الجزيرة العربية تتنوع بين المناطق الساحلية إلى سفوح المناطق الجبلية إضـــافة إلى الأودية والواحات. واستفاد المزارعون من زراعة سفوح المناطق الجبلية حيث توجد التربة الخصبة وذلك باستصلاحها على شكل مدرجات يقول الهمداني عن وادي الجنات: "وهو كثير الغيول والمآجل والمسايل فيه الأعناب مخـــتلطة في أعالـــيه مـــع جميع الفواكه وأسفله جامع للموز وقصب السكر والأترج والخيار والذرة والقثاء والكزبرة وغيره"[٤٣]. كما ازدهر النشاط الزراعي في الأودية الخصبة حيث تكثر الواحات على هذه الوديان كوادي حضرموت ووادي رمـــع ووادي سردد ووادي نجران وغيرها[٤٤]. ولا شك أن هذا التنوع في الأرض الزراعية أدى إلى تنوع في المحاصيل الزراعية.

ومن العوامل التي ساعدت على إزدهار النشاط الزراعي في الجزيرة العربية في العصر العباسي توفر الميـــاه من الأمطـــار والعيون والآبار الجوفية القريبة من سطح الأرض. لقد كانت الزراعة في الحجاز تعتمد أحياناً على الأمطار الشـــتوية وكانت هذه المياه تنحدر عبر الوديان الكثيرة. وكان الزراع يسقون نخيلهم وزروعهم من هذه المياه. فيروى الســـمهودي نقـــلاً عن ابن زباله أن وادي مهزور في المدينة المنورة سال في سنة ١٥٨هـــ في عهد أبي جعفر المنصور حـــتى ارتفـــع المـــاء في المزارع إلى انصاف النخل[٤٥]. وكانت مزارع ذرة تعتمد على الأمطار حيث يذكر عرام أن "زرعها أعذاء "والعذي" هو الذي لا يسقى"[٤٦] ونظراً إلى أن الأمطار الشتوية غير كافية للزراعة لذلك اتجه السكان إلى حفر العيون والآبار التي كان بها مياه باطنية كافية لري مساحات واسعة.

لقد ذكرت المصادر عدداً من العيون التي استخدمت في العصر العباسي لري المزروعات فيروي الحربي أن ببدر عيانان جاريتان يزرع عليهما الحناء والموز والعنب والنخل[٤٧]. وفي ينبع مئة عين عذبة[٤٨]. ويذكر عرام أن الصفراء كـــثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها[٤٩]. وفي وادي ساية أكثر من سبعين عيناً[٥٠]. أما وادي رهاط ففيه عين جاريـــة علـــيها النخل والموز والأترج ويحمل ثمرها إلى ذات عرق ومكة والطائـــف[٥١]. وفي وادي يَلْيَل عين كبيرة عذبـــة تسمى عين البحير[٥٢]. كما توجد الينابيع في شَمَنْصير التي يزرع عليها النخل والتين[٥٣]. وفي قرية الفعر وقرية الشَـــرّع مزارع ونخيل تسقي من العيون[٥٤]. وتوجد العيون الكثيرة في قرية مَرّان[٥٥]. ووادي مرّ الظهران[٥٦]. وبَديع حيث يزرع الرمان والنخل علي هذه العيون الكثيرة[٥٧]. كما توجد العيون الخرارة الكثيرة في خيف ذي القبر وخيف النَعم[٥٨].

وفي الطـــائف يزرع النخيل والموز والأعناب وسائر الفواكه على المياه الجارية[٥٩]. كما توجد العيون الجارية في السقيا والكديد[٦٠] ورنيه[٦١] ورابغ وخليص[٦٢] وورقان[٦٣]. وبالقرب من الحديبية توجد المياه الجارية يقول عرام "ومـــياههم بُثور وهي أحساء وعيون ليست آباراً"[٦٤]. ويروي أيضاً بان مياه رنيه وبيشة وتثليث تعتمد على البثور

التي تجري تحت الحصى بالقرب من سطح الأرض "على مقدار ذراع وذراعين ودون الذراع"[٦٥].

ومع التوسع في الزراعة ازداد حفر الآبار لري المزروعات فيروي السمهودي نقلاً عن الأسدي أن في بطن نخل "أكثر من ثلاثمائة بئر كلها طيبة"[٦٦]. ويستخرج أهل السوارقية الماء من آبار لهم في واد يقال له سَـوارِق، ويزرعون عليها الفواكه المختلفة[٦٧]. وكان في قرية أمج عشرون بئراً لري المزروعات والنخيل[٦٨]. ويدلنا على التوسع في حفر الآبار ما رواه الحربي من أنه على بعد ميل من قرية السقيا "مزارع نخل صدقات الحسن بن زيد، فيها من الآبار المطوية بالخشـب يـزرع علـيها أصناف الخضر ثلاثون بئراً"، وهناك مما أحدث في خلافة المتوكل خمسون بئراً أخرى[٦٩]. ويوجـد بالسيالة آبار كثيرة[٧٠]. ويذكر ابن حوقل أن نخيل المدينة تسقي من الآبار[٧١]. وفي وادي الصحن مجموعة آبار متصلة ببعضها يزرع عليها الحنطة والشعير[٧٢]. ويروي الحربي أن بحَاذه ست وثلاثون بئراً "وبقاع حَاذة على نحو مـيل مـنها نحو من مائتي بئر غزيرة"[٧٣]. وفي وادي بيضان آبار كثيرة تزرع عليها الحنطة والشعير والقت[٧٤]. كما انتشرت الآبار لري المزروعات في ا لحجاز مثل رابغ[٧٥]، وملل والأبواء والجحفة وقديد وعسفان[٧٦].

من هذه الأمثلة نلاحظ أن السكان في الحجاز اعتمدوا على مياه الآبار في إرواء مزروعاهم فيرفعونها من الآبار بواسـطة النواضح فيروي اليعقوبي أثناء حديثه عن المدينة قوله: "وبها آبار يسقى منها النخل والزرع تجرها النواضح وهي الإبل التي تعمل في الزرانيق"[٧٧].

لقد اقيمت بعض السدود والقنوات في الحجاز في القرن الأول الهجري لري المزروعات مثل (سد معاوية) وسد (سيسد) الذي أنشأه معاوية في شرق الطائف سنة ٥٨هـ. وسد عبدالله بن عمرو بن عثمان في العقيق بالمدينة وقناة عروة بن الزبير للاستفادة من سيول أودية العقيق[٧٨]. ومن المحتمل أن هذه السدود والقنوات كانت تؤدي دورها في العصـر العباسي . فتذكر المصادر أن سد معاوية ﷺ الذي عمل على هيئة البركة حتى ينحبس فيه الماء كان به ماء كـثير في العصـر العباسـي[٧٩]. وبالقرب من الحديبية وضع حِبيس كبير من الحجارة لحجز مياه الأمطار للاستفادة منها[٨٠]. ويروي الأزرقي أنه كان يوجد سد بالثُقبة في مكة امتلأ حتى فاض بمياه السيول في خلافة المأمون[٨١].

كانـت الـزراعة في الـيمامة في العصر العباسي تعتمد أحياناً على الأمطار الشتوية وكان المزارعون يسقون أراضـيهم الزراعـية من هذه المياه. يقول ابن الفقيه: "وأما حنطتهم فتسمى بيضاء اليمامة وهي عذى لا سقى"[٨٢]. ويروي الأصفهاني أن رياض السِّلي (روضة سويس، روضة البديع، وروضة الطنب، وروضة الجرداء) تسقى من وادي بنبان "وهي مزارع أعذاء لبني حنيفة"[٨٣]. ويذكر الهمداني أن من الأودية التي تصب في الخرج ذو أرول ومأوان وتمر وقلاب حيث تجتمع في واد واحد[٨٤].

ونظراً إلى أن الأمطار الشتوية موسمية وغير كافية للزراعة لذلك اتجه السكان إلى حفر الآبار والعيون وإقامة بعض القنوات التي ساعدت على استصلاح كثير من الأراضي الزراعية. فكانت العيون باليمامة كثيرة مثل عين هيت،

وعـين جَو. وعين الهجرة. وعين الخَضْراء[٨٥]. أما المياه الجارية على سطح الأرض فيذكر ابن الفقيه أن "بالمجازة نهران وبأسفلها نهر يقال له سيح الغَمر وبأعلاها قرية يقال له نعام بها نهر يقال له سيح نعام"[٨٦]. كما إنتشرت العيون في النباج[٨٧] والفواره[٨٨] وفيد[٨٩] التي يقول عنها البكري "وأول من حفر فيه حفراً في الإسلام ابوالديلم مولى يزيد بن عمر بن هبيرة، فاحتفر العين التي هي اليوم قائمة، وأساحها وغرس عليها".

وفي إقليم الفلج باليمامة انتشرت العيون والأنهار الجارية مثل سبح الزهدمي وسيح اسحق وعين الذبّاء التي " يخرج منها سبعة عشر نهراً"[٩٠]. وقد عدد الهمداني عيون الفلج بقوله: "ولبنى جعدة سيحان يقال لأحدهما الرقادي والآخر الأطلس. وأما سيح قشير فاسمه سيح اسحق. فأما الرقادي فان مخرجه من عين يقال لها عين ابن أصبع ومن عين يقال لها عين الذباء مختلطتين وأما الأطلس فان مخرجه من عين يقال لها عين الناقة"[٩١]. ويذكر خسرو أن المياه في اليمامة وفيرة حيث تجرى في قنوات، وفي إقليم الفلج وحدها أربع قنوات لسقي أشجار النخيل[٩٢].

وفي بعض المناطق الزراعية في اليمامة كانت المياه تجري تحت الحصى بالقرب من سطح الأرض مثل عقيق اليمامة (عقيق تمرة) الذي كانت مياهه بثور توجد بالقرب من سطح الأرض (وربما أثارته الدواب بحوافرها) [٩٣]. وكان ماء نفي يسقي خمسة آلاف بيت وهو "أحساء تحسى من البطحاء"[٩٤]. وقد عدد الحربي الآبار والعيون التي كانت في فيد قائلاً (وبها ... ثلاث عيون، وآبار ليست بالعذبة..) [٩٥].

ومع التوسع في الزراعة ازداد حفر الآبار لري المزروعات؛ ففي الفقي توجد الآبار الكثيرة[٩٦]. كما توجد الآبار في قارة العنبر. وقارة الحازمي. وغمرة. والهدّار. وآكمه والمذارع والغيل في الفلج وحولها النخيل والزروع[٩٧]. وفي سوق الفَلَج مائتان وستون بئراً[٩٨]. وعلى الرغم من أن القوافل التجارية كانت تتزود من هذه الآبار بالماء إلا أنه يبدو أن هذه الآبار استخدمت أيضاً في ري المزروعات والبساتين، حيث يذكر الأصفهاني أن "منازل بني قشير في ناحية السوق على شط الوادي نخيل ودور وحيطان"[٩٩]. كما كانت توجد الآبار أيضاً في قرية السّال باليمامة[١٠٠]، وكان المزارعون يرفعون المياه من الآبار بواسطة النواضح من الابل لارواء مزروعاتهم. يقول الهمداني: "الهدّار فيه نخل وزرع على آبار وسوان من الإبل"[١٠١] ويذكر خسرو أن المياه في الفلج تستخرج من الآبار بواسطة الجمال[١٠٢].

وفي شرق الجزيرة العربية كانت الأمطار موسمية وغير كافية للزراعة، لذلك اتجه السكان إلى الاستفادة من المياه الجوفية القريبة من سطح الأرض، وذلك بحفر الآبار واستنباط العيون وشق بعض القنوات التي ساعدت على إستصلاح كثير من الأراضي الزراعية، يقول البكري عن البحرين "وهي بلاد سهلة كثيرة الأنهار من العيون، عذبة المياه، ينبطون الماء على القامة والقامتين"[١٠٣]. وأهم العيون في البحرين عين محلم وتقع في هجر، يقول الأزهري عنها: بأنها "عين فوارة بالبحرين وما رأيت عيناً أكثر ماء منها، وماؤها حار في منبعه، وإذا بَرَدَ فهو ماء عذب.. ولهذه العين إذا جرت في نهرها خلج كثيرة، تتخلج منها تسقي نخيل جؤاثا وعسلج وقريات من قرى هجر"[١٠٤]. ويصف الهمداني

عـــين محـــلم بالبحرين بأنها نهر عظيم وهي "في أرض العرب بمنزلة نهر بلخ في أرض العجم"(١٠٥). ويروي ياقوت أن السري والصفا نهران يتخلجان من نهر محلم بالبحرين يسقى قرى هجر كلها(١٠٦). ومن العيون التي كانت تعتمد عليها الزراعة عين هجر وعين متالع وعين الزارة(١٠٧). ويذكر الهمداني(١٠٨) أن يبرين نخل وحصون وعيون جارية، أما المشقر بالبحرين ففيه "نخل لا يبرح الماء في أصوله"(١٠٩) ويقول ناصر خسرو الذي زار الأحساء سنة ٤٤٣هـــ بأن العيون بها كثيرة، وعلى كل العيون "سواقي ترفع الماء تسقي المزارع، جل ماء العيون في المدينة يستنفد في سقي المزارع الكثيرة بها"(١١٠).

أمـــا في إقليم عمان فكانت العيون العذبة توجد في بلدة (خَوْر فُكان)(١١١) وبلدة كمزار(١١٢) والسر ونزوة التي يقول المقدسي عن أهلها "شربهم من أنهار وآبار"(١١٣). ويذكر البكري أن صحم ماؤها من العيون حيث يزرع النخل الكـــثير وقصـــب السكر(١١٤). وللتغلب على مشكلة المياه حفر السكان الآبار لري مزروعاتهم والشرب منها. وقد أوردت المصـــادر ذكـــراً لعدد من الآبار، فيروي الهمداني أن بئر النقير بناحية البحرين على عشر قيـــم (أي قامات) وكانـــت غزيـــرة المياه(١١٥). وفي شراف بالبحرين ثلاث آبار رشاؤها أقل من عشرين قامة(١١٦). كما توجد الآبار الكثيرة القريبة من سطح الأرض في كاظمة ويبرين(١١٧). يقول الشاعر المخبل القريعي:

وسارت إلى يبرين خمساً فاصبحت ... يخر على أيدى السقاة جدالهـــا(١١٨)

قال الأصمعي "إنما يقع الجدال على أيدي السقاة إذا نزعوا الدلاء، لأن الآبار تحت النخل"(١١٩).

أمـــا في عمان فيصف المقدسي أهل صحار بأن لهم "آبار عذيبية وقناة حلوة"(١٢٠). كما توجد الآبار في نزوة والســـر التي تحيط بها النخيل(١٢١). ويجمل المقدسي حديثه عن عمان قائلاً بأنها "كورة جليلة تكون ثمانين فرسخا في مثلها كلها نخيل وبساتين عامة سقياهم من آبار قريبة ينزعها البقر أكثرها في الجبال(١٢٢). وعلى الرغم من المعلومات الجـــيدة والمفصـــلة التي أوردها المقدسي عن عمان، إلا أنه يؤخذ عليه تعميمه الواضح في قوله بأن عمان كلها نخيل وبساتين عامة.

أما في جنوب الجزيرة العربية فكانت الزراعة تعتمد على مياه الأمطار الموسمية التي تنحدر عبر الوديان الكثيرة في الـــيمن. وكان المزارعون يسقون مزارعهم من هذه المياه فيروي الهمداني أن وادي الجنات كثير المسايل(١٢٣). وكانت بعـــض الأراضـــي البعلية لا تشرب إلا من الأمطار(١٢٤). ويذكر الهمداني أن رحبة ورحابة تشرب من مياه الأمطار المـــنحدرة مـــن جبل دقرار، وكان بها نخل عظيم(١٢٥). أما في منطقة همدان فكان الموز يسقى من مياه الأمطار(١٢٦). وكان أهل مأرب يزرعون على مياه جاريه من ناحية سد مأرب(١٢٧).

ونظراً إلى أن المرتفعات الجنوبية لسلسلة جبال السروات ترتفع ارتفاعاً ملحوظاً بحيث تسقط الأمطار وتسير في أوديـــة كـــثيرة عـــلى جانبي السلسلة الجبلية سواء إلى ساحل تهامة غرباً أو إلى السهول الجنوبية أو إلى الشرق باتجاه

الصحراء (الربع الخالي) [١٢٨] لذلك فكر السكان في تنظيم هذه المياه وخزنها والاستفادة منها طول العام. وقد اشتهرت اليمن بتطوير نظام الري وإنشاء عدد من السدود لتخزين مياه السيول حيث كانوا يبنون بالحجارة سدوداً في الممرات الضيقة من الوديان ويعملون لها مقاسم في كل طرف تصرف المياه إلى الأراضي على جانب الوادي ويحتفظون بكميات منه للري بين موسم وآخر. كما أن حجز المياه وخزنها يساعد على ارتفاع منسوب المياه الجوفية في الوديان والأراضي السهلية. ومن أهم هذه السدود سد الخانق بصعدة وسد ريعان في وادي ضهر وسد العرائس في لحج وسدود أودية بيحان وجردان ووادي عمد وحقل يحضب[١٢٩] ويتحدث الهمداني عن النظام الذي كان متبعاً في الري بمثال وادي ضهر حيث كانت تروى المزارع بالترتيب وهو "أن يشرب الأول فالأول ولا يؤثر فيه سلطان على يتيم ولا ذمي" وكان بعض خدم السلطان جر الغيل إلى عنب السلطان بغير علم الدائل فهدم غروسه كلها "ولم يغير عليه السلطان"[١٣٠].

لقد ترتب على ذلك أن أصبحت بعض أودية اليمن من المناطق الزراعية المشهورة مثل وادي الجنات ومخلاف ذي جرة وخولان الذي وصف بأنه خزانة اليمن[١٣١] وكذلك ذمار ورعين والسحول التي وصفت بأنها مصر اليمن[١٣٢].

ونظراً لاختلاف المناطق الزراعية في اليمن -كما أسلفنا- لذلك اختلفت كميات الأمطار الساقطة عليها فأصبحت في بعض المناطق غير كافية للزراعة لذلك اتجه السكان إلى الاستفادة من العيون الجارية فيروي الهمداني أن قرية شبام أقيان فيها عيون تسقي البساتين.[١٣٣] وفي قريتي الهجريين "غيل يصب من سفح جبل يشربونه". وزروعهم النخل والبر والذرة[١٣٤]. كما توجد الغيول في وادي الجنات ووادي ضهر[١٣٥]. وفي المذيخرة عين يسيل منها نهر يسقي عدة قرى في اليمن[١٣٦]. وفي سنة ١٨٣هـ تولى ولاية صنعاء محمد بن خالد البرمكي فحفر غيل البرمكي يقول الرازي "وهو الذي أحدث الغيل بصنعاء اليوم... وهو نهر بصنعاء منفعته ظاهرة بها" فكان يسقى بساتين صنعاء وبعض القرى القريبة منها مثل قرية الرحبه ووادي الروضة[١٣٧]. وكان في الخريمة بساتين ومياههم سيح[١٣٨]. ويذكر الهمداني ان دامغ القريبة من ذمار كثيرة الأنهار الجارية[١٣٩].

وفي بعض المناطق اتجه السكان إلى حفر الآبار للاستفادة منها في الشرب والزراعة ففي وادي السر كانت توجد العيون والآبار[١٤٠]. ويذكر الهمداني ان ذمار "بها زروع وآبار قريبة ينال ماؤها باليد"[١٤١]. ويقول البكري عنها "ومياههم عيون جارية، وآبار قريبة ينال ماؤها باليد وآبارهم قريبة الارشيه"[١٤٢]. وفي برط تنعمه استخدم المزارعون النواضح لرفع المياه من الآبار يقول الهمداني عن برط: "وزروعه كثيرة أعقار وعلى المساني وهي النواضح"[١٤٣]. وفي أواخر القرن الرابع الهجري حفر حسين بن سلامة الآبار في اليمن[١٤٤]. وكانت بئر سراقة لمراد في أسفل الجوف "وماؤها عذب فرات، لا تكدرها الدلاء..."[١٤٥].

لقد قسم ابن رسته ضياع اليمن وطريقة ريها إلى عدة أقسام: "صنف منها أعذاء وصنف منها على العيون

وصـــنف على الآبار يستقي منها بالإبل والبقر وصنف وهي اسراها وأكثرها قيمة على ماء السد سكر قد اتخذ على فوهة جبال قد احاطت بمواضع تقرب من ضياعهم قد نصبوا على أسافل ذلك السد أفواها يجرون منها المياه في أنهار قد احتفروها إلى ضياعهم"[١٤٦].

ويعتـــبر رأس المـــال وتدفقـــه من العوامل المساعدة على تقدم الزراعة وازدهارها. وقد تضخمت الثروات في العصرين الراشدي والأموي لدى الحجازيين نتيجة للفتوحات الإسلامية وتدفق الأموال على الحجاز كذلك الأعطيات السـخية التي درج خلفاء بني أمية على إعطائها للحجازيين. وكان العطاء يصرف لأغلب السكان، ولقد ترتب على هذا النمو السريع للثروات ارتفاع مستوى المعيشة وازدهار الزراعة نتيجة للطلب على المنتجات الزراعية[١٤٧].

وفي العصـــر العباســـي اهـــتم العباســـيون بالحجاز، وبدأت الأموال تتدفق على سكانه، سواء من العطاء أو الأعطيات، فيذكر الزبير بن بكار أن الخليفة أبا جعفر المنصور حج في إحدى السنوات وأعطى كل واحد من أشراف القرشيين ألف دينار "ولم يترك أحداً من أهل المدينة إلا أعطاه، إلا أنه لم يبلغ بأحد ما بلغ بالإشراف، فكان ممن أعطى الألف دينار هشام بن عروة. وأعطى قواعد قريش صحاف الذهب والفضة وكساهن، وأعطى بالمدينة عطايا لم يعطها أحد كان قبله"[١٤٨].

ويروي الأصفهاني أن والي الخليفة أبي جعفر المنصور على مصر يزيد بن حاتم المهلبي أعطى ابن المولى محمد بن عبدالله بن مسلم عشرة آلاف دينار فاشترى بها ضياعاً تغل ألف دينار[١٤٩]. وعندما اشتكى شاب من ولد عمرو بن حـــزم إلى المنصور ظلم الأمويين لآل حزم باستصفاء أموالهم أمر أبوجعفر المنصور بإعطاء هذا الشاب عشرة آلاف درهم وكتب إلى عماله "أن ترد ضياع آل حزم عليهم ويعطوا غلاتها في كل سنة من ضياع بني أمية"[١٥٠].

ومـــن المحتمل أن الخليفة أبا جعفر المنصور حرم بعض سكان الحجاز من العطاء نتيجة لاشتراكهم في الثورات التي قامت ضد العباسيين مثل ثورة محمد ذي النفس الزكية. فلما جاء الخليفة المهدي أمر بإعادة العطـــاء إلى من حرم مـــنه[١٥١]. فيذكر ابن بكار أن المهدي ولى المغيرة بن حبيب العطاء لأهل المدينة وأعطاء ألف فريضة يفرضها لمن شاء مـــن أهـــل المدينة[١٥٢]. وفي سنة ١٦٠هـــ حج المهدي فقسم في مكة والمدينة أموالاً عظيمة "بلغت ثلاثين ألف ألف درهـــم. حملـــت معه (ووصله) من مصر ثلثمائه ألف دينار. ومن اليمن مائتا ألف دينار فقسم ذلك كله. وفرق من الثـــياب مائـــة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب"[١٥٣]. وعندما وفد عليه الحسين بن علي بن الحسن أعطاه أربعين ألف ديـــنار[١٥٤]. وقدم عليه بعض سكان المدينة في خلافته فأمر لكل رجل منهم بسبعمائة دينار[١٥٥]. وفي سنة ١٦٤هـــ قســـم الخلـــيفة المهدي على يد المغيرة بن حبيب أموالاً على أهل المدينة حسب مكانتهم الاجتماعية شملت بني هاشم وقريش والأنصار والموالي . ويذكر الزبير بين بكار أن عدد الذين استفادوا من هذه الأموال ثمانين ألف إنسان أعلاهم خمسة وستون ديناراً وأقلهم أربعة دنانير[١٥٦]. وعندما قدم المهدي المدينة وزع على الناس الأموال فأصاب الرجل من

قـــريش ثلاثمائة دينار[١٥٧]. ويروي الأصفهاني أن الخليفة المهدي عندما مدحه الشاعر محمد بن عبدالله بن مسلم (بن المولى) أمر له بعشرة آلاف درهم وألحقه وأبناءه في شرف العطاء[١٥٨].

واســـتمرت الأعطيات تتوالى على سكان الحجاز في عهد هارون الرشيد فيروى ابن بكار أن الزبير بن حبيب وفــد علــيه حــين ولي الخلافــة فأعطاه أربعة آلاف دينار[١٥٩]. وفي سنة ١٧٠هـــ قسم أموالاً كثيرة في أهل مكة والمديــنة[١٦٠]. وفي سنة ١٨٦هـــ حج الخليفة هارون الرشيد ومعه إبناه محمد الأمين وعبدالله المأمون فوزع العطاء في المديــنة ومكــة للــرجال والنســاء حتى بلغ ما انفق "ألف ألف دينار وخسمين ألف دينار"[١٦١] كما فرض العطاء لخمسمائة من وجهاء موالي المدينة وألحق بعضهم في شرف العطاء[١٦٢]. وفي سنة ١٨٨هـــ حج الرشيد وأعطى أهل المديــنة نصف العطاء[١٦٣]. واستمرت الأعطيات تنهال على سكان الحجاز من الخلفاء العباسيين فيروي اليعقوبي أن الخلــيفة الواثق فرق أموالاً جمة بمكة والمدينة وسائر البلدان على الهاشميين وسائر قريش والناس[١٦٤]. وفي عهد المتوكل أخــذ محمد بن عبدالله بن طاهر حين حج بالركب العراقي سنة ٢٤٦هـــ "ثلاثمائة ألف دينار لأهل مكة، ومائة ألف دينار لأهل المدينة، ومائة ألف لإجراء الماء من عرفات إلى مكة"[١٦٥].

ولا ريب أن هذه الأموال التي تدفقت على الحجاز في العصر العباسي ساعدت على نمو الزراعة. إضافة إلى ما ورثــه الحجـــازيون مـــن أملاك وثروات عن آبائهم. ولقد ترتب على نمو الثروات ارتفاع مستوى المعيشة، وازدهار الـــزراعة نتـــيجة للطلـــب على المنتجات الزراعية، فتوسع المزارعون وأصّلحوا كثيراً من الأراضي، كما جلبوا بعض النباتات الجديدة.

والـــيد العاملة من العوامل الأساسية في نهضة الزراعة، ونحن نعلم أن الرقيق تدفق بشكل كبير على الحجاز في أواخر العصر الراشدي وخلال العصر الأموي، ومن ضمن المجالات التي عمل فيها الرقيق الزراعة. والذي لا نشك فيه أن بعض هؤلاء الرقيق ساهموا في تحسين أساليب الزراعة بخبرتهم ومعرفتهم لبعض النباتات التي جُلبت فيما بعد لتزرع في الحجاز[١٦٦].

وفي العصـــر العباســـي وردت إشارات تدل على أن الرقيق كان موجوداً بكثرة في الحجاز[١٦٧]. وكان يعمل بجانـــب أسياده في المزارع[١٦٨]. ويقول الجاحظ عن بني سليم وأنهم ليتخذون المماليك للرعي والسقي والمهنة والخدمة من الروميين والصقالبة مع نسائهم[١٦٩]. ويذكر ابن حوقل أن المدينة لها نخيل كثيرة ومياه نخيلهم وزروعهم من الآبار يســـقون بهـــا العبيد[١٧٠]. ويروي الطبري أن داود بن عيسى الوالي العباسي على مكة جمع موالي بني العباس وعبيد حوائطهم لمناهضة ثورة الطالبيين[١٧١].

أمـــا في اليمامة فكان الرقيق يعمل في المزارع في العصر الأموي. حتى أنه كان في الخضارم وحدها أربعة آلاف رقـــيق يعملون وأسرهم على استصلاح الأراضي واستثمارها لزيادة الإنتاج الزراعي[١٧٢]. ومن المحتمل أن الرقيق في

العصر العباسي استمر يعمل في المجال الزراعي، حيث وردت اشارات في المصادر تدل على وجوده بكثرة في اليمامة[١٧٣]. ويروي الخطيب البغدادي أن الخليفة أبا جعفر المنصور طلب من والي اليمامة السرّي بن عبدالله الهاشمي أن يشتري له رقيقاً من رقيق اليمامة للعمل كبوابين له، فاشترى مائتي غلام من اليمامة[١٧٤]. ويروي الحربي أن قرة ابن جابر أحد سكان قرية أضاح قال: "كنا نضح على حرث لنا بناحية أضاح، ولنا غلام ونحن نعمل في حرثنا، وكان يلح على رطانة بالزنجية حتى رويناها قال: وقف علينا زنجي قد إستعرب وفهم"[١٧٥].

ويستفاد من هذا النص أن الرقيق كان يعمل في اليمامة في الزراعة، كما أن هناك رقيقاً ممن تعلموا اللغة العربية وفهموها، وبالمقابل وجد رقيق جديد لا يتكلم العربية.

أما في شرق الجزيرة العربية فهناك بعض الروايات التي تدل على أن الرقيق عمل في الزراعة فيذكر ناصر خسرو[١٧٦] أن أبا سعيد الجنابي اعتنى بإصلاح الأراضي في البحرين، ووفر لها الأيدي العاملة حيث كان لديه ثلاثون ألف عبد زنجي وحبشي يعملون في الزراعة. ويروي ابن الأثير[١٧٧] أن قبائل المنتفق هاجمت في سنة ٣٧٨هـ القطيف فنهبت مواشيها وعبيدها وأموالها. ومن الراجح أن العبيد كانوا يعملون في الزراعة في عمان نظراً لكثرة الزنوج فيها في القرن الرابع الهجري[١٧٨]. ويذكر ابن الجوزي[١٧٩] أن حريقاً وقع في عمان سنة ٣٢٤هـ "فاحترق من العبيد السود سوى البيض إثنا عشر ألف" وعلى الرغم من المبالغة في هذا الرقم إلا أنه يدلنا على أهمية الرقيق وكثرتهم في عمان في القرن الرابع الهجري[١٨٠].

أما في جنوب الجزيرة العربية فاشتغل بالزراعة بعض العرب والموالي والرقيق. فالقبائل العربية في اليمن استقرت في مناطقها وزاولت الزراعة فيها[١٨١]. كما زاول الأبناء في اليمن الزراعة في أخصب أودية اليمن وسكنوا قراها. وكان تركيزهم على الأراضي القريبة من صنعاء المعروفة بخصوبة التربة ومن هذه المناطق بني بهلول وبيت بوس وبعض الأراضي الواقعة بين صنعاء ومأرب، حيث عرفت بانتاجها الزراعي الكبير حتى قيل عنها بأنها خزانة اليمن[١٨٢].

وساهم الرقيق في اليمن في النشاط الزراعي مع سادتهم، وتشير المصادر إلى كثرة الرقيق في اليمن في العهود الإسلامية الأولى[١٨٣]. ومن الراجح أن هؤلاء الرقيق إستمر وجودهم في العصر العباسي لأن المقدسي يذكر أن اليمن معدن العصائب والعقيق والأدم والرقيق[١٨٤].

لقد ساعد استتباب الأمن في الجزيرة العربية خلال معظم فترات الحكم العباسي على ازدهاد الزراعة وتسويق المنتجات الزراعية حيث أصبحت الطرق آمنة. وتنقل الأشخاص والسلع دون قيود فيروي الرازي أن حماد البربري مولى هارون الرشيد تولى ولاية اليمن سنة ١٨٤هـ فقضى على الفتن والثورات وتتبع الأعراب وأمن الطرقات حتى أصبحت المنتجات الزراعية تصل إلى الأسواق[١٨٥]. كما قام بعض الولاة في اليمن بإصلاح الطرقات وحفر بعض الأنهار التي يستفيد منها السكان مثل محمد بن خالد البرمكي الذي حفر غيل البرمكي بصنعاء وأصلح الطرق المؤدية إلى مكة[١٨٦].

وعلاوة على ما تقدم فان الجزيرة العربية تمتعت بموقع إستراتيجي هام حيث كانت تمر به شرايين التجارة العالمية في ذلــك الوقــت، كما ارتبط بشبكة من الطرق البرية الداخلية والخارجية مع الأقاليم الأخرى. ولا شك أن حسن الموقع الجغرافي من ناحية ساعد على تسويق المنتجات الزراعية محلياً وخارجياً مثل تصدير التمور من اليمامة والبحرين إلى الحجاز واليمن[١٨٧] وتصدير الفواكه من اليمن إلى الحجاز[١٨٨]. ويذكر البكري أن "ميرة البحرين يجلب إليها من فـــارس، ويجلـــب إلى فارس منها التمر والدبس".[١٨٩] كما تم جلب بعض المزروعات الجديدة من ناحية أخرى مثل إســـتيراد بعـــض الحمضـــيات من الهند إلى عمان في القرن الرابع الهجري ثم نقلها فيما بعد إلى العراق والشام فيذكر المسعودي "أن شجر النارينج والأترج المدور، حمل من أرض الهند إلى أرض غيرها بعد الثلثمائة، فزرع بعمان، ثم نقل إلى البصرة والعراق والشام، حتى كثر في دور الناس"[١٩٠].

ثانياً: العوامل السلبية:

لقد ذكرنا أهم العوامل التي ساعدت على نمو الزراعة وتطورها في الجزيرة العربية في العصر العباسي، بيد أننا لا نـــنكر أن هـــناك بعض العوامل التي عرقلت الزراعة وحدت من تطورها في بعض الفترات فقد شهد إقليم الحجاز في العصـــر العباسي بعض الثورات والاضطرابات الداخلية كثورة محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالـــب ســـنة ١٤٥هـــ ضد الدولة العباسية وقد أيدته بعض القبائل في الحجاز مثل "جهينة ومزينة وسليم وبنو بكر وأســـلم وغفـــار". إلا أن هذه الثورة أخمدت على يد القائد العباسي عيسى بن موسى بعد أن قتل محمد بن عبدالله والكثير من أتباعه[١٩١].

وفي سنة ١٦٩هـــ ثار الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ضد الدولة العباسية وأيده أناس كثير مـــن أهـــل الحجاز. إلا أن هذه الثورة –أيضاً– فشلت وقتل ا لحسين مع عدد من مؤيديه[١٩٢]. ولا ريب في أن هذه الفـــتن والـــثورات كان لها تأثير على نمو الزراعة. لأن بعض من يقتل في هذه الحروب كان يعمل في الزراعة فيروى الطـــبري أن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عندما أعلن الثورة ضد العباسيين سنة ٢٠٠هـــ وقف ضده موالي بني العباس وعبيد الحوائط من عبيد العباسيين[١٩٣]. بل امتدت يد التدمير في بعض الأحيان إلى المزارع نفسها فيروي الطبري أن الوالي العباسي العمري عندما علم بمقتل الحسين بن علي "وثب على دار الحسين ودور جماعة من أهل بيته وغيرهم ممن خرج مع الحسين. فهدمها وحرق النخل"[١٩٤]. ويروي السمهودي أن الخليفة المـــتوكل أرســـل أبا الساج في جيش ضخم لاخماد ثورة محمد بن صالح بن عبدالله بن موسى الحسني فهزمهم وقتل بعضـــهم "وأخرب سويقة وعقر بها نخلاً كثيراً"[١٩٥]. ويذكر الطبري في حوادث سنة ٢٣٠هـــ قائلاً: "وحازت بنو سليم الكراع والسلاح والثياب، وغلظ أمر بني سليم، فأستباحت القرى والمناهل، فيما بينها وبين مكة والمدينة." بيد أن الخليفة العباسي الواثق أرسل لهم القائد بغا الكبير فتمكن من هزيمتهم[١٩٦].

أما في اليمامة فأثرت الإضطرابات الداخلية على النشاط الزراعي ففي سنة ٢٣٢هـــ كانت قبائل بني نمير تغير

عـــلى المناطق القريبة منها في اليمامة . فكتب الخليفة الواثق إلى قائده بغا الكبير يأمره بالقضاء على فتنتهم فسار إليهم وقـــتل منهم "زهاء ألف وخمسمائة رجل" وكان بعضهم "أصحاب نخل وشاه"(١٩٧). ويروي الأصفهاني أن الحروب وقعـــت بين جعدة وقشير بسبب الخلاف على سيح اسحاق "وهو نهر مخرجه من قناة، وهو بطيحة واسعة، وعليه من الـــنخل ما لا يدري ما مبلغه"(١٩٨). وعندما استولى بنو الأخيضر على اليمامة كانت سياستهم الداخلية تتسم بالجور وســـوء التعامل، يقول ابن حوقل وفي سنة ٢٣٨هـــ في عهد الخليفة المتوكل دخل محمد بن يوسف الحسني الأخيضر اليمامة فجلا أهلها بسبب "جوره إلى أرض مصر والمعدن في آلاف كثيره"(١٩٩) ويقول اليعقوبي بأن أكثر من بالعلاّقي في مصر "قوم من ربيعة من بني حنيفة من أهل اليمامة انتقلوا إليها بالعيالات والذرية"(٢٠٠). وكانت قُرّان من المناطق الزراعية في اليمامة وعندما استولى بنو الأخيضر على اليمامة وعاملوا أهلها معاملة سيئة ترك أهل قران بلدهم وهاجروا في سنة ٣١٠هـــ من اليمامة إلى البصرة "لحيف لحقهم من ابن الأخيضر في مقاسماهم وجدب أرضهم..)"(٢٠١).

فهـــل كانـــت هذه الهجرة من بعض قبائل اليمامة مثل بني حنيفة إلى مصر والعراق بسبب الظلم الأخيضري والقحط وتغيير نظام الأرض الزراعية السائد إلى نظام المقاسمة وهو تعبير عن تذمر هذه القبائل من حكم الأخيضريين بســـبب تدهور العلاقات معهم، أم أن هذه الهجرة كان لها دوافع أخرى كالاضطرابات القبلية(٢٠٢)، وسوء الأوضاع الاقتصـــادية في الـــيمامة عكـــس الأقاليم التي تمت الهجرة إليها والتي كانت تتمتع بوضع اقتصادي جيد حيث يذكر اليعقوبي هجرة بني حنيفة إلى وادي العلاقي بمصر أحد المراكز المهمة لإنتاج الذهب حيث يقول: "وأكثر من بالعلاقي قـــوم مـــن ربـــيعة من بني حنيفة، من أهل اليمامة، إنتقلوا إليها بالعيالات والذرية ووادي العلاقي وما حواليه معادن للتبر"(٢٠٣).

ولا شـــك أن هذه الهجرة كان لها تأثير سلبي على النشاط الزراعي في إقليم اليمامة، والتي كانت الزراعة أهم الجوانب الاقتصادية فيها.

وفي النصف الأول من القرن الخامس الهجري زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو اليمامة. وذكر أن جيشـــاً من العرب مر بالفلح وطلب من أهلها خمسمائة منّ من التمر، فلم يوافقوا على ذلك فحاربهم الجيش وقتل "من أهل القلعة عشرة رجال وقلعت ألف نخلة"(٢٠٤).

وعـــلى الرغم من المبالغة في هذه العبارة إلا أنها تدلنا على كثرة أشجار النخيل في اليمامة، وأثر الاضطرابات الداخلية على الزراعة.

أمـــا في شرق الجزيرة العربية فأدت الفتن والاضطرابات الداخلية التي راح ضحيتها عدد من العاملين في المجال الـــزراعي إلى تدهـــور النشاط الزراعي ففي سنة ١٣٤هـــ مثلاً قتل عدد كبير من أهل عمان بالقرب من جلفار في معركة ضد الدولة العباسية(٢٠٥)، وفي سنة ١٥١هـــ ثار أهل البحرين ضد الدولة العباسية، فسار إليهم عقبة بن سلم

والي البصـــرة مما أدى إلى مقتل عدد منهم وأسر عدد آخر[٢٠٦]. كما تأثرت بعض مدن شرق الجزيرة العربية لهجوم القــرامطة عليها مثل مدن صحار وهجر والقطيف ويبرين، مما أدى إلى تشريد عدد من سكانها ومقتل آخرين[٢٠٧]، يــروي المسعودي أن أبا سعيد الجنابي القرمطي خرب في سنة ٢٨٧هـــ قرية يبرين التي كانت كثيرة النخل والعيون، فــيقول "فأبــاد أهــلها وكانــت مـــن أطيب بلاد الله وأكثرها أهلاً وعمائر ونخلاً وشجراً، فلا أنيس بها إلى هذا الوقت"[٢٠٨].

ومن المشكلات التي كانت تواجه الزراعة الاعتداءات القبلية على المناطق الزراعية، فيذكر ناصر خسرو أن أحد أمراء الأعراب هاجم في سنة ٤٤٣هـــ كثيراً من المزارع والنخيل في القطيف[٢٠٩].

أمـــا في جنوب الجزيرة العربية فهناك بعض العوامل التي أثرت على تطور الزراعة وحدت من نشاطها في بعض الفترات وأهمها الفتن الداخلية والثورات التي أدت إلى تدمير بعض المناطق الزراعية فيروي الهمداني أن رحبة ورحابة في مخلاف مأرب كان بها نخل عظيم وكان أكثر تمر صنعاء منها "ثم اخربتها الفتنة"[٢١٠]. وفي سنة ١٩٩هـــ قدم إبراهيم ابـــن موســـى بـــن جعفر العلوي إلى اليمن فناصرته بعض قبائل خولان فأخرب "سد الخانق بصعدة وكان عليه من البساتين والحدائق ما يطول ذكره"[٢١١].

وفي سنة ٢٧٠هـــ تدهورت الأوضاع السياسية في اليمن بعد مقتل محمد بن يعفر الحوالي فاعتدت القبائل على بعضـــها[٢١٢]. كمـــا أن موالي بني يعفر الطريفين استولوا على بعض القرى في اليمن، وفرضوا عليها ضرائب باهظة، وتحكمـــوا في رقـــاب أهلها، وقام أحدهم وهو إبراهيم بن خلف ببيع بعض السكان من القرى التي استولى عليها في سوق النخاسة في مكة[٢١٣]. وفي سنة ٢٨٥هـــ سار الهادي يحيى بن الحسين إلى نجران فقطع أشجار النخيل والأعناب في قـــرية شـــوكان[٢١٤]. وتكـــرر ذلـــك في ســـنة ٢٩٢هـــ عندما ثار بنو الحارث بنجران حيث حاصرهم وقطع نخيـــلهم[٢١٥]. كما استولى أصحاب الهادي علي وادي علاف في مخلاف صعدة سنة ٢٩٠هـــ. وقطعوا أعناب أهله واخـــربوا مـــنازلهم[٢١٦]. وعـــندما هاجم القرامطة اليمن سنة ٢٩٩هـــ. قصدوا بعض مدنها واستباحوها مثل مدينة صنعاء[٢١٧]، ومدينة زبيد مما أدى إلى تشريد عدد من سكانها ومقتل آخرين[٢١٨].

كمـــا أن طبـــيعة المناطق الجبلية جعلت المزارع في جنوب الجزيرة العربية يواجه صعوبات بسبب جرف مياه الأمطـــار للتربة. لكن أهل اليمن استطاعوا الاستفادة من هذه المرتفعات وذلك بزراعتها على شكل مدرجات . كما أن الســـيول الجارفـــة التي تجرف التربة وتغمر المنتجات الزراعية، وتشرد الناس، وتدمر طرق المواصلات من العوامل الســـلبية التي واجهت المزارع في جنوب الجزيرة العربية مثل السيل المدمر الذي داهم صنعاء سنة ٢٥٩هـــ، ويعرف بسيل يعمد "خرب دوراً كثيرة، واحتمل أموالاً وعالماً لا تكاد تحصى"[٢١٩]. وفي سنة ٢٦٢هـــ سقطت الأمطار على صـــنعاء بغزارة مما أدى إلى خسائر بشرية ومادية كبيرة حيث اخرب الدور واتلف الأموال، وأهلك الناس[٢٢٠]. وقد

شـــهدت الحجـــاز بعض السيول الجارفة فيروى الأزرقي أن مكة دهمها سيل عظيم في سنة ١٨٤هـــ فذهب بالناس وامتعتهم وغرق الوادي في أثره. وفي سنة ٢٠٢هـــ أصاب مكة سيل عظيم هدم الدور وقتل الأنفس "وأصاب الناس بعـــده مـــرض شديد من وباء وموت فاش"(٢٢١). وفي سنة ١٩١هـــ وسنة ٢٥١هـــ بلغ السيل في عمان مواضع لم يبلغها من قبل(٢٢٢).

ومن المشكلات التي حدت من توسع الزراعة وتطورها في الحجاز، زحف الرمال على الأرض الزراعية فيروي عرام أثناء حديثه عن يَلْيَلْ بأنها عين غزيرة الماء تجرى في رمل فلا تمكن الزراعة عليها إلا في مواضع يسيرة مـــن أحناء الرمل(٢٢٣). وفي شرق الجزيرة العربية تتحول الكثبان الرملية من مكان إلى آخر بفعل الرياح والعواصف، يقول البكري "وبلاد البحرين منهالة الكثبان جارية الرمال حتى يسكروه بسعف النخل، وربما غلب (عليهم) في منازلهم، فاذا أعياهم حملـــوا النقوض وتحولوا"(٢٢٤). وقد أثرت الرمال على الطرق البرية فكان الطريق البري من عمان إلى البحرين تغطيه الرمال في معظم الأحيان(٢٢٥).

ولا ريـــب أن شدة الحرارة في فصل الصيف وارتفاع نسبة الرطوبة وتراكم الأملاح في الأرض الزراعية بسبب شـــدة التبخير، كانت من المشكلات التي تواجه المزارعين. يقول البكري عن أهل البحرين "وبساتينهم على نحو ميل مـــنها، ولا يأتونها إلا غدوا أو رواحاً لإفراط حر الرمضاء"(٢٢٦). ويقول المقدسي عن أهل عمان بأنه يترل عليهم في اللـــيالي شـــبه الدبس(٢٢٧). وقد وردت إشارات تدل على تراكم الأملاح في بعض مناطق الإنتاج الزراعي في الجزيرة العربية مما يؤثر على المحاصيل الزراعية(٢٢٨). يقول السجستاني: "إنما يستحر الفغا بالأرض السبخة الملحة الماء ويتجنب العذاب"(٢٢٩). ويروي ابن سعد نقلاً عن الواقدي أن سعيد بن محمد بن أبي زيد كانت له "أريضة سبخة تغل في السنة دينارين"(٢٣٠).

وتعتـــبر الزلازل من الكوارث الطبيعية التي تعرض لها جنوب الجزيرة العربية وأثرت على النشاط الزراعي فيه مـــثل الزلزال الذي تعرضت له صنعاء وعدن سنة ٢١٢هـــ حيث سقطت المنازل. "وخربت القرى، وهلك خلق لا يحصـــى"(٢٣١). وفي سنة ٢٤٥هـــ تعرض وادي ضهر القريب من صنعاء والمشهور بإنتاجه الزراعي إلى زلازل شديدة يقـــول الهمـــداني "وكـــان هذا الغيل في الجاهلية ضعف ما هو عليه اليوم حتى وقعت في اليمن زلازل قطعت بعض مـــياته"(٢٣٢). وتؤثـــر قلة الأمطار على الزراعة، فإذا قلت الأمطار أصاب الناس القحط والمجاعات وهلكت المواشي فـــيروي الهمـــداني أن اليمن تعرضت للقحط سنة ٢٦٠هـــ يقول: "ومن ولد بحير أحمد بن حفص وأهل بيته بوادي ضـــهر، وكـــان أحمد والي صنعاء لمحمد بن يعفر، وفي أيامه قحطت صنعاء في سنة الستين ومائتين فسميت شدة ابن حفـــص، وكان حسن الأثرة بها"(٢٣٣). كما اشتد القحط في اليمن سنة ٢٩٠هـــ وسنة ٢٩١هـــ حتى خربت عدة قـــرى، ومات خلق كثير يقول الهمداني: "أن آل أبي حبيش فنوا في حطمة التسعين ومايتين،في اليمن، بعد أن نفدت أموالهم، وبذلوا وجوههم للمسألة"(٢٣٤).

وعندما قلت الأمطار في شرق الجزيرة العربية أصاب الناس القحط والمجاعات وقلة الإنتاج الزراعي، فيروي ابن الجوزي في أخبار سنة ٣٢٤هـ قوله "وردت الأخبار عن الأحساء وعن تلك البلاد أن الأقوات عدمت، فأضطر أهل بادية فيها إلى أكل مواشيهم. وفارق أهل البوادي منازلهم"[٢٣٥]. وكانت تفرض بعض الضرائب على الزراعة فيروي المقدسي أنه كان "يؤخذ بعمان من كل نخلة درهم"[٢٣٦]. ولا ريب أن هذه الضريبة تعتبر مرتفعة إذا عرفنا كثرة أشجار النخيل في شرق الجزيرة العربية، ويعتبر الجراد من الآفات التي كانت تهاجم المناطق الزراعية في الجزيرة العربية وتتلف المحاصيل الزراعية[٢٣٧]. وكانت القرود في جبال عمان تضر بأهل عمان، وتفسد الإنتاج الزراعي[٢٣٨] ولا ريب أن القرود الكثيرة في جبال السروات كانت تضر بالمزارعين وتفسد عليهم إنتاجهم من الأعناب وقصب السكر وغيرها من الإنتاج الزراعي[٢٣٩]. وكانت بعض المناطق الزراعية وبئة على الرغم من أنها منتجة يقول الرازي عن أبين: "أرض ميرتنا وريفنا وهي وبئة شديدة الوباء"[٢٤٠]. وكانت بعض جذوع الأشجار في منطقة نجران تتعرض للتسوس بسهولة يقول الجاحظ "ولهو أسرع فيه من الأرضة في الجذوع النجرانية"[٢٤١]. ويعتبر القمل من الآفات التي كانت تهاجم المناطق الزراعية ففي سنة ٢٣٤هـ كثر القمل (قمل الزرع)، برستاق اليمن الكبرى حتى يئس الناس من غلاتهم[٢٤٢].

الخاتمة:

تلك هي أهم العوامل المؤثرة في النشاط الزراعي في الجزيرة العربية في العصر العباسي سواءً كانت إيجابية أم سلبية بيد أن العوامل الإيجابية كانت أكثر تأثيراً على النشاط الزراعي من العوامل السلبية، كما أن التفكك السياسي الذي أصاب الجزيرة العربية، بعد ضعف الخلافة العباسية في النصف الأول من القرن الثالث الهجري، وبروز الكيانات السياسية المتعددة في القرنين الثالث والرابع للهجرة لم يؤثر كثيراً على النشاط الزراعي لأن المعلومات المتوفرة في المصادر تشير إلى ازدهار الزراعة وتنوع الإنتاج الزراعي في مختلف أقاليم الجزيرة العربية[٢٤٣].

التعليقات

(١) ياقوت، *معجم البلدان*، لا يبزج، ١٨٦٧م، ٣: ٦٨٢؛ السمهودي، *وفاء الوفاء* (بيروت: ١٣٩٣هـ)، ٤: ١٢١.

(٢) الأصفهاني، *بلاد العرب* (الرياض: ١٣٨٨هـ)، ٧٦.

(٣) المقدسي، *أحسن التقاسيم* (ليدن: ١٩٠٦م)، ٣٨؛ البكري، *معجم ما استعجم* (القاهرة: ١٣٦٤هـ)، ٢: ٦٥٦.

(٤) ابن حوقل، *صورة الأرض* (ليدن: ١٩٧٦م)، ١٣.

(٥) عرام السلمي، *أسماء جبال تهامة*، تحقيق: عبدالسلام هارون (القاهرة: ١٣٩٤هـ)، ٥١٤.

(٦) الحربي، *المناسك*، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: ١٣٩٨هـ)، ٤٦١.

(٧) الأصفهاني، *بلاد العرب* (الرياض: ١٣٨٨هـ)، ١٠٩؛ ياقوت، المصدر السابق، ١: ٨٣٤.

(٨) عرام السلمي، *أسماء جبال تهامة*، تحقيق: عبدالسلام هارون (القاهرة: ١٣٩٤هـ)، ٤٢٠.

(٩) المصدر نفسه، ٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٦.

(١٠) ابن خرداذبة، *المسالك والممالك* (لندن: ١٨٨٩م)، ٤٣١.

(١١) عرام، المصدر السابق، ١٩٤.

(١٢) البكري، *معجم ما استعجم*، ٣: ٨٦٠.

(١٣) المصدر نفسه، ١٠٣٣، وفيد لا تزال إلى العصر الحاضر على السفح الشرقي لجبل سلمى المعروف في وسط جزيرة العرب. وعن مظاهر الحضارة في مدينة فيد خلال العصر العباسي؛ انظر: عبدالعزيز السنيدي، *مظاهر الحضارة في مدينة فيد خلال العصر العباسي*، مجلة الدارة، العدد الثالث (الرياض: ١٤٢٣هـ)، ٧١ وما بعدها.

(١٤) الحربي، *المناسك*، ٥٨٧، ٦٢٢.

(١٥) ياقوت، معجم البلدان، ٣: ٧٠٤.

(١٦) ابن هشام، *سيرة النبي*، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة: ١٣٥٦هـ)، ٤: ٣١٦- ٣١٧؛ ابن الأثير، *الكامل*، (القاهرة: ١٣٥٦هـ)، ٣: ٣٥٣؛ ويذكر ابن سعد أن ثمامة لما أسلم ضيق "علي قريش فلم يدع حبة تأتيهم من اليمامة"، (بيروت: انظر الطبقات، دار صادر)، ٥: ٥٥٠؛ والميرة جلب الطعام للبيع انظر: ابن منظور، *لسان العرب* (طبعة بولاق)، ٧: ٩٣؛ ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٣: ٣٥٢.

(١٧) ابن حزم، *جمهرة أنساب العرب* (القاهرة: دار المعارف)، ٣٠.

(١٨) ياقوت، معجم *البلدان*، ٤: ٤٨؛ المشترك وضعا، ٣٤٥؛ وسدوس قرية لا تزال تعرف بهذا الاسم، وهي بلدة عامرة ذات نخيل ومزارع؛ انظر: ابن بليهيد *صحيح الأخبار* (القاهرة: ١٣٩٢م) ٣: ٨٠١؛ وأبوعبدالله السكوني هو أحمد بن الحسن بن إسماعيل السكوني، كان مختصاً بالخليفة العباسي المكتفي ثم الخليفة المقتدر، وقد ألف كتاباً في أسماء مياه العرب؛ انظر: ياقوت، *معجم الأدباء* (القاهرة: مطبعة دار المأمون، ١٣٥٧هـ)، ٣: ٨- ٩.

(١٩) ياقوت، *معجم البلدان*، ٢: ٤١٩؛ ولا تزال منطقة الخرج منطقة زراعية ذات غلة وإنتاج انظر: عبدالله بن خميس، معجم اليمامة، ١: ٣٧١.

(٢٠) المقدسي، *أحسن التقاسيم* (ليدن: ١٩٠٦م)، ٤٩.

(٢١) ياقوت، معجم *البلدان*، ٤: ٢٦. وقرقري أرض واسعة تعرف الآن باسم البطين، وتشتهر بإنتاج القمح والتمور وفيها عدد من القرى منها ضرماء، والمزاحمية، والعويند والبرة؛ انظر عبدالله بن خميس، *معجم اليمامة*، ٢: ٢٧٤- ٢٧٦.

(٢٢) الهمداني، *صفة جزيرة العرب* (الرياض: ١٣٩٤هـ)، ٢٨٤؛ إقليم الوشم إقليم واسع يقع جنوب القصيم، ويضم عدداً من القرى أهمها شقراء وأشيقر، ومرات، ثرمداء، وأثيثية؛ انظر: مصطفى الدباغ، *الجزيرة العربية* (بيروت: ١٣٨٢هـ)، ١: ١٥٩- ١٦٠.

(٢٣) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٦٨- ٣٦٩؛ ويعرف الآن باسم العرض وأشهر قراه القويعية، انظر نفس المصدر، ٢٣٦، هامش ٢.

(٢٤) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٨٥؛ والفقي أصبح يعرف الآن باسم سدير، وبه قرى كثيرة ومزارع انظر عبدالله بن خميس، *معجم اليمامة*، ٢: ٢٥٦.

(٢٥) الأصــفهاني، *بلاد العرب*، ٢٢٧. والفلج في الجزء الجنوبي من اليمامة يعرف الآن باسم الأفلاج منطقة عامرة بالسكان والنخيل والزروع؛ انظر عبدالله ابن خميس، *معجم اليمامة*، ١: ٥٩- ٩٧.

(٢٦) السجستاني، *كتاب النخل*، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة (بيروت: ١٤٠٥هـ)، ٤٤- ٤٥؛ الهمداني، *صفة جزيرة العــرب* (الرياض: ١٣٩٤هـ)، ٢٧٩، ٣٣٠؛ ابن حوقل، *صورة الأرض* (بيروت: دار الحياة، د.ت)، ٣٣؛ البكري، *جزيرة العــرب مــن كتاب الممالك والمسالك*، تحقيق: عبدالله الغنيم (الكويت: ١٣٩٧هـ)، ٩٣، وأوال تسمى الآن البحرين؛ انظر: الأحسائي، *تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء القديم والجديد* (الرياض: ١٤٠٢هـ)، ٥.

(٢٧) ياقوت، *معجم البلدان*، ٢: ١٧٥.

(٢٨) الأزهري، *تهذيب اللغة*، ١٢: ٣٨٢؛ ابن منظور، *لسان العرب*، ٤: ٣٤٥.

(٢٩) الهمــداني، *صــفة جزيرة العرب*، ٢٨١؛ المسعودي، *التنبيه والإشراف* (بيروت: ١٣٨٨هـ)، ٣٤١؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ١: ١٧، (رواية الأزهري).

(٣٠) السجستاني، *النخل*، ٤٤، ٤٥؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٢: ٤٠٠.

(٣١) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٩٣.

(٣٢) بيتروفيسكي، *اليمن قبل الإسلام والقرون الأولى للهجرة*، تعريب محمد الشعيبي (بيروت: ١٩٨٧م)،٩٦.

(٣٣) الهمــداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٣٦، ٢٣٥، ووادي الجنات لا يزال معروفاً ومشهوراً بالزراعة؛ انظر: نفس المصدر، ١٣٦، هامش ٣.

(٣٤) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٣٥؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٦٩.

(٣٥) الهمــداني، *الاكليل*، تحقيق: محمد الأكوع (بيروت: ١٩٨٦م)، ١١٩، ولا يزال وادي ضهر شمال صنعاء ويبعد عنها ١٦ كيلاً تقريباً. انظر، يوسف محمد عبدالله، المرجع السابق، ٣٣.

(٣٦) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٩٧ ،٣٥٠؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ١: ٨٩.

(٣٧) الهمــداني، *صــفة جزيرة العرب*، ٢٤٩؛ يحيى بن الحسين بن القاسم، *غاية الأماني في أخبار القطر اليماني*، تحقيق: سعيد عاشور ومصطفى زيادة (القاهرة: ١٣٨٨هـ)، ١٨٨.

(٣٨) الهمــداني، *صــفة جزيرة العرب*، ٢٢١؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٥٣، ٦٨؛ القزويني، *آثار البلاد وأخبار العباد*، دار صادر (بيروت: ١٣٨٠هـ)،٦٠.

(٣٩) الــبكري، *جزيــرة العرب*، ٣١، ومدينة زبيد تقع على وادي زبيد في بلاد الأشاعر، وقد أسسها والي اليمن محمد بن زياد سنة ٢٠٤هـ بأمر من الخليفة العباسي المأمون، انظر: الجندي، *السلوك*، ٢٢١.

(٤٠) قدامــة بــن جعفر، *الخراج وصنعة الكتابة*، تحقيق: محمد حسين الزبيدي (بغداد: ١٩٨١م)، ٨٣؛ الادريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق* (بيروت: ١٤٠٩هـ)، ١: ١٤٧.

(٤١) الرازي، *تاريخ صنعاء*، تحقيق: حسين العمري وعبدالجبار زكار، ١٤٤.

(٤٢) البكري، *معجم ما استعجم*، ٢: ٨١٧؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٧٠.

(٤٣) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٣٦- ١٣٧.

(٤٤) انظر: يوسف محمد عبدالله، المرجع السابق، ١٤- ١٥.

(٤٥) السمهودي، *وفاء الوفاء*، ٣: ١٠٧٨، ويذكر ابن شبه أن هذا السيل، حدث في سنة ١٥٦هـ في عهد أبي جعفر المنصور، المصدر نفسه والصفحة.

(٤٦) عرام السلمي، *أسماء جبال تهامة*، ٤٠٧.

(٤٧) الحربي، *المناسك*، ٤١٩؛ البكري، *معجم ما استعجم*، ١: ٢٣١.

(٤٨) الحربي، المصدر السابق، ٤١٣؛ البكري، المصدر السابق، ٢: ٦٥٦.

(٤٩) عرام السلمي، *أسماء جبال تهامة*، ٣٩٨؛ البكري، *معجم ما استعجم*، ٣: ٨٣٦.

(٥٠) البكري، المصدر السابق، ٣: ٨١١؛ السمهودي، *وفاء الوفاء*، ٤: ١٢٣١

(٥١) الحربي، *المناسك*، ٣٤٩- ٣٥٠.

(٥٢) عرام السلمي، المصدر السابق، ٣٩٨.

(٥٣) المصدر نفسه، ٤٠٩.

(٥٤) المصدر نفسه، ٤٠٨.

(٥٥) المصدر نفسه، ٤٣٨.

(٥٦) المصدر نفسه، ٤١٥؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ٥٨١.

(٥٧) الحربي، *المناسك*، ٥٤٢.

(٥٨) عرام، المصدر السابق، ٤١٤- ٤٥١.

(٥٩) المصدر نفسه، ٤٢٠.

(٦٠) البكري، *معجم ما استعجم*، ٣: ٧٤٢، ٤: ١١١٩.

(٦١) ابن خرداذبة، المسالك *والممالك* (ليدن: ١٨٨٩م)، ١٣٤.

(٦٢) الحربي، *المناسك*، ٣٦١، ٤٥٦.

(٦٣) البكري، المصدر السابق، ٤: ١٣٧٧.

(٦٤) عرام السلمي، المصدر السابق، ٤٢٠.

(٦٥) المصدر نفسه، ٤٢١.

(٦٦) السمهودي، *وفاء الوفاء*، ٤: ١١٤٩.

(٦٧) عرام السلمي، المصدر السابق، ١٣٤؛ البكري، *معجم ما استعجم*، ١: ١٠٠؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ١٨٠.

(٦٨) الحربي، *المناسك*، ٤٦١؛ السمهودي، *وفاء الوفاء*، ١١٣٠.

(٦٩) الحربي، *المناسك*، ٤٥١، ٤٥٢.

(٧٠) المصدر نفسه، ٤٤٢.

(٧١) ابن حوقل، *صورة الأرض*، ٣٠.

(٧٢) عرام السلمي، المصدر السابق، ٤٣٥؛ الفيروز أبادي، *المغانم المطابة* (الرياض: ١٣٨٩هـ)، ٢١٦.

(٧٣) الحربي، *المناسك*، ٣٣٦.

(٧٤) عرام، المصدر السابق، ٤٣٥.

(٧٥) الحربي، المصدر السابق، ٤٥٦.

(٧٦) ابن خرداذبة، *المسالك والممالك*، ١٣٠- ١٣١.

(٧٧) اليعقوبي، *البلدان*، (ليدن: ١٩٨١م)، ٣١٣.

(٧٨) انظر كتابنا الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الفصل الأول.

(٧٩) الحربي، *المناسك*، ٣٣٠؛ السمهودي، *وفاء*، ٤: ١٣٣٢.

(٨٠) عرام السلمي، المصدر السابق، ٤١٠.

(٨١) الأزرقي، *أخبار مكة*، ٢: ١٧٠.

(٨٢) ابن الفقيه، *البلدان*، ٢٩.

(٨٣) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٣٠٤-٣٠٥، ولا يزال السلي معروفاً ويقع في شرق مدينة الرياض؛ انظر: نفس المصدر، ٢٠٣، هامش ٤.

(٨٤) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٨.

(٨٥) ابن الفقيه، *البلدان*، ٢٨.

(٨٦) نفس المصدر، ٢٨.

(٨٧) الحربي، *المناسك*، ٥٨٧، ٦٢٢.

(٨٨) المصدر نفسه، ٦٠٧.

(٨٩) البكري، المصدر السابق، ٣: ١٠٣٣.

(٩٠) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٢.

(٩١) الهمداني، المصدر السابق، ٣٠٦.

(٩٢) خسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب (بيروت: ١٩٧٠م)، ١٤٠- ١٤٢.

(٩٣) عرام، *أسماء جبال تهامة*، ١٢٤، ويعرف عرام في نفس الصفحة البثر بأنه يشبه الأحساء ويجري تحت الحصى على مقدار ذراع وذراعين ودون الذراع.

(٩٤) الهمداني، المصدر السابق، ٢٨٩.

(٩٥) الحربي، *المناسك*، ٣٠٩.

(٩٦) الهمداني، المصدر السابق، ٢٨٥.

(٩٧) نفس المصدر، ٢٨٥- ٢٨٦، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣١٢.

(٩٨) نفس المصدر، ٣٠٤.

(٩٩) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٢٢.

(١٠٠) الأدريسي، *نزهة المشتاق*، ٤٥.

(١٠١) الهمداني، المصدر السابق، ٣٠٤.

(١٠٢) خسرو، *سفرنامة*، ١٤٠.

(١٠٣) البكري، *جزيرة العرب*، ٣٨، والقامة قامة الإنسان وتجمع على شكل قامات وقيم؛ ابن منظور، *لسان العرب*، ١٢: ٤٩٩.

(١٠٤) الأزهـــري، *تهذيـــب اللغة* (القاهرة: ١٩٦٧م)، ج٥: ١٠٨؛ ابن منظور، *لسان العرب*، ١٢: ١٤٩؛ ياقوت، معجم *البلدان*، ٤: ١٧٩.

(١٠٥) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٠٦.

(١٠٦) ياقوت، معجم *البلدان*، ٣: ٢١٩.

(١٠٧) ياقوت، معجم *البلدان*، ٣: ١٢٦، ٥: ٥٢، ٣٩٣.

وعن عين متالع يقول ذو الرمة:

نحاها لثـــاج نحيـــة ثم إنـــه توخي بهـــا العينين عيـــني متالـــع

أنظر: الأصفهاني، *بلاد العرب* (الرياض: منشورات دار اليمامة، ١٣٨٨هـــ)، ٣٤٥.

(١٠٨) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٨١؛ ياقوت معجم *البلدان*، ١: ٧١.

(١٠٩) الهمداني، المصدر السابق، ٣٣٠.

(١١٠) خسرو، المصدر السابق، ٤٢.

(١١١) ياقوت، معجم *البلدان*، ٢: ٤٠٠.

(١١٢) المصدر نفسه، ٤: ٤٧٩.

(١١٣) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٩٣.

(١١٤) البكري، *جزيرة العرب*، ٣٧.

(١١٥) الهمداني، المصدر السابق، ٣٠٩.

(١١٦) ياقوت، معجم *البلدان*، ٣: ٣٣١.

(١١٧) أبوالفداء، *تقويم البلدان*، ٨٥.

(١١٨) السجستاني، *النخل*، ٧٥، والجدال جمع جدالة وهي البلحة إذا اخضرت واسدارت قبل أن تشتد، نفس المصدر والصفحة.

(١١٩) المصدر نفسه، ٧٥.

(١٢٠) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٩٢.

(١٢١) المصدر نفسه، ٩٣.

(١٢٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ١٣٦.

(١٢٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ١٣٦.

(١٢٤) المصدر نفسه، ٣٦٠.

(١٢٥) المصدر نفسه، ٢٢١.

(١٢٦) المصدر نفسه، ٣٦٢.

(١٢٧) ياقوت، معجم *البلدان*، ٥: ٣٥.

(١٢٨) انظر: الهمداني، *الاكليل*، ١: ١٨٦- ١٨٧؛ يوسف محمد عبدالله، المرجع السابق، ٨١.

(١٢٩) الهمداني، *الاكليل*، ٤١٨٦-١٨٧؛ وانظر: الحديثي، *أهل اليمن في صدر الإسلام*، ٤٠.

(١٣٠) الهمداني، *الاكليل*، ٨: ١٨٦- ١٨٧؛ وانظر: يوسف محمد عبدالله، المرجع السابق، ١٥.

(١٣١) الهمداني، *الاكليل*، ٨: ١٢١.

(١٣٢) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٣٥؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٦٩.

(١٣٣) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٣٢، *الاكليل*، ٨: ١٥١؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٦٩.

(١٣٤) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٧١.

(١٣٥) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ١٣٧؛ *الاكليل*، ٨: ١١٩.

(١٣٦) ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٩٠.

(١٣٧) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٠٦، وعن غيل البرمكي؛ انظر أيضاً الهمداني، *الاكليل*، ١: ٤١٤- ٤١٥؛ الجندي، *السلوك*، ٢١٣؛ ابن الديبع، *قرة العيون بأخبار اليمن الميمون*، ٩٨- ٩٩؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٢٤.

(١٣٨) البكري، *جزيرة العرب*، ٣٤.

(١٣٩) الهمداني، *الاكليل*، ٨: ١١٧.

(١٤٠) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٣٦، وعن صفات الآبار وأسمائها؛ انظر: ابن زياد الاعرابي، كتاب البئر، تحقيق: رمضان عبدالتواب (بيروت: ١٩٨٢م)، ٥٤ وما بعدها.

(١٤١) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٢٤؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ٦٨.

(١٤٢) البكري، *المسالك والممالك*، ٣٠.

(١٤٣) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٥١.

(١٤٤) يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ٢٣٢.

(١٤٥) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٦١.

(١٤٦) ابن رسته، *الاعلاق النفيسة*، ١١٢.

(١٤٧) انظر كتابنا، *الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي*، (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ).

(١٤٨) الزبير بن بكار، *جمهرة نسب قريش*، (القاهرة: ١٣٨١هـ)، ٣٠٣.

(١٤٩) الأصفهاني، *الأغاني*، (طبعة دار الكتب)، ٣: ٢٩١.

(١٥٠) الطبري، *تاريخ الرسل*، (طبعة دار المعارف)، القاهرة، ٨: ٨٥.

(١٥١) صالح العلي، *العطاء في الحجاز في العهود الإسلامية الأولى*، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٢٠، ١٩٧٠م، ٦٧.

(١٥٢) الزبير بن بكار، المصدر السابق، ١٠٩.

(١٥٣) الطبري، *تاريخ الرسل*، ٨: ١٣٣.

(١٥٤) المصدر نفسه، ٢٠.

(١٥٥) الزبيري، *نسب قريش*، (القاهرة: ١٩٦٧م)، ٢٤٢- ٢٤٣.

(١٥٦) ابن بكار، المصدر السابق، ١١١.

(١٥٧) الزبيري، المصدر السابق، ٢٤٢.

(١٥٨) الأصفهاني، *الأغاني*، ٣: ٢٩٩.

(١٥٩) اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي*، (بيروت: ١٩٧٠م)، ٢: ٤٠٧.

(١٦٠) الطبري، *تاريخ الرسل*، ٢: ٢٣٤.

(١٦١) المصدر نفسه، ٢٧٥، ٣٦٤.

(١٦٢) المصدر نفسه، ٣٦٤.

(١٦٣) المصدر نفسه، ٣١٣.

(١٦٤) اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي*، ٢: ٤٨٣.

(١٦٥) ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة* (القاهرة: دار الكتب، ١٣٨٣هـ)، ٢: ٣٢٢.

(١٦٦) صالح العلي، *ملكيات الأراضي في الحجاز في القرن الأول الهجري مجلة العرب*، (الرياض: ١٩٦٩م/ ١٣٩٨هـ)، ١١: ٩٦٨.

(١٦٧) الطبري، *تاريخ الرسل*، ٧: ٦٠٩، ٨: ١٩٥، ١٣٢.

(١٦٨) المصدر نفسه، ٨: ٥٣٢.

(١٦٩) الثعالبي، *ثمار القلوب في المضاف والمنسوب*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطباعة، (القاهرة: ١٣٨٤هـ: ١٩٦٥م)، ١٢٣.

(١٧٠) ابن حوقل، *صورة الأرض*، ٣٠؛ الادريسي، *نزهة المشتاق*، طبع الجزء الخاص بجزيرة العرب، تحقيق: الدكتور إبراهيم شوكة، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد ٢١، لسنة ١٩٧١م، ٢٥.

(١٧١) الطبري، *تاريخ الرسل*، ٨: ٥٣٢- ٥٣٩.

(١٧٢) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٣: ٣٥٢، والخضارم تشمل الآن قرية اليمامة والسلمية والسيح في إقليم الخرج؛ انظر: الحربي *المناسك* (الرياض: ١٣٩٨هـ)، هامش (١).

(١٧٣) انظر: ابن الفقيه، *البلدان*، ٢٩؛ الأصفهاني (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ١٩: ٣٢،٣٠١: ١، ٤٢: ١٣٧.

(١٧٤) الخطيب البغدادي، *تاريخ بغداد* (القاهرة: ١٣٩٤هـ)، ٣: ١٧١؛ ياقوت، *معجم الأدباء*، ٣: ٣؛ العبودي، أخبار ابي العيناء اليمامي (الرياض: ١٣٩٨هـ)، ٨.

(١٧٥) الحربي، *كتاب المناسك*، ٣٢١؛ ولا تزال قرية أضاح معروفة وتنطق وضاح؛ انظر: نفس الصفحة، هامش ٢.

(١٧٦) ناصر خسرو، جزيرة *العرب كما رآها الرحالة خسرو*، ترجمة أحمد البدلي، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، (الرياض: ١٩٧٩م)، المجلد السادس، ٤٣.

(١٧٧) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٩: ٥٩.

(١٧٨) ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، ٨: ٥٦٧؛ السالمي، *تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان* (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٣٨٠هـ)، ١: ٢٨٥.

(١٧٩) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٣: ٣٥٧.

(١٨٠) عبدالرحمن العاني، *عمان في العصور الإسلامية الأولى*، بغداد، ١٩٧٦م، ٢٤٧.

(١٨١) انظر: الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٩٧، ١٧١، ٢٣٥، ٢٤٩؛ *الاكليل*، ١٠: ٦٢- ٦٣؛ ابن رسته، *الاعلاق النفيسة*، ١١٣.

(١٨٢) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٣٥، والأبناء هم بقايا الجيش الفارسي في اليمن، وعندما جاء الإسلام أسلموا. لمزيد من المعلومات عنهم وعن الآراء التي قيلت بشأنهم، انظر: عبدالمحسن المدعج، *الأبناء منذ دخولهم اليمن حتى نهاية القرن الثالث*

الهجـــري، مجلـــة دراسات تاريخية، العددان ٣٧، ٣٨ جامعة (دمشق:١٩٩٠م)، ٢٠؛ بيتروفسكي، المرجع السابق، ٣٠٩ وما بعدها.

(١٨٣) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ٣٤٤؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٠٠.

(١٨٤) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٩٧.

(١٨٥) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٠٨- ١١٠؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٤٣.

(١٨٦) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٠٦؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٤٢.

(١٨٧) ابن الفقيه، *كتاب البلدان* (ليدن: ١٣٠٢هـ)، ٢٩؛ الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٠٨- ١١٠.

(١٨٨) ابن الفقيه، *البلدان*، ١٢٥.

(١٨٩) البكري، *جزيرة العرب*، ٤٠.

(١٩٠) المسعودي، *مروج الذهب* (بيروت: لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ)، ١: ٣٨٢؛ وانظر أيضاً: عبدالعزيز الدوري، *تاريخ العراق الاقتصادي*، (بيروت: لبنان، ١٩٧٤م)، ٦٩- ٧٠، حيث يذكر أن أشجار البرتقال والليمون جلبت من الهند إلى عمان ثم مـــنها إلى العراق لأول مرة في القرن الرابع الهجري؛ وانظر أيضاً: فالح حسين، *الحياة الزراعية في بلاد الشام في العصر الأموي* (الأردن: ١٣٩٨هـــ)، ١٠٦؛ سليمان العسكري، *التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي* (القاهرة: ١٩٧٢م)، ١٦٣.

(١٩١) الطبري، *تاريخ*، ٧: ٥٨١.

(١٩٢) المصدر نفسه، ٥٩٠؛ اليعقوبي، *تاريخ اليعقوبي*، ٢: ٣٧٦.

(١٩٣) اليعقوبي، *التاريخ*، ٢: ٤٠٤ — ٤٠٥؛ الطبري، المصدر السابق، ٨: ١٩٤- ١٩٧.

(١٩٤) الطبري، *التاريخ*، ٨: ٥٣٢- ٥٣٩.

(١٩٥) المصدر نفسه، ٢٠٠.

(١٩٦) المصدر نفسه، ٩: ١٣٠.

(١٩٧) الطبري، *تاريخ الرسل والملوك* (طبعة دار المعارف بمصر: ١٩٧٥م)، ٩: ١٤٦، ١٤٨.

(١٩٨) الأصفهاني، *بلاد العرب*، ٢٢٥.

(١٩٩) ابن حوقل، *صورة الأرض*، ٥٨.

(٢٠٠) اليعقوبي، *البلدان* (ليدن: ١٨٩٢م)، ٣٣٤.

(٢٠١) ياقوت، *معجم البلدان* (طبعة دار صادر، ٤: ٣١٩)، قران تعرف الآن بالقرينة قرية عامرة ذات نخيل ومزارع، انظر: ابن خميس، *معجم اليمامة*، ٣: ٢٦٨.

(٢٠٢) عبدالله الزيدان، *حملة بغا التركي*، مجلة جمعية التاريخ والآثار لدول مجلس التعاون (الرياض: ١٤٢١هـ)، ١: ١٠٤- ١٠٥.

(٢٠٣) اليعقوبي، *كتاب البلدان*، ٣٣٤.

(٢٠٤) ناصـــر خســـرو، *ســـفرنامه*، ١٤٠، والمن يساوي شرعاً رطلين، كل رطل ١٣٠ درهماً، انظر: فالترهنتس، *المكاييل والأوزان الإسلامية*، (عمان: ١٩٧٠م)، ٤٥- ٦٤.

(٢٠٥) ابن الجوزي، *المنتظم*، ٧: ٣٢٤؛ ابن الأثير، *الكامل*، ٥: ٤٥٢؛ السالمي، *تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان*، ١: ٩٥.

(٢٠٦) البلاذري، *أنساب الأشراف*، تحقيق: عبدالعزيز الدوري (بيروت: ١٣٩٨هـ)، ٣: ٢٤٥؛ الطبري، *تاريخ الرسل والملوك* (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥م)، ج٨، ٣٩؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، ٨: ١٤٩.

(٢٠٧) المسعودي، *التنبيه والإشراف*، ٣٤٠- ٣٤١؛ البكري، *جزيرة العرب*، ٣٩- ٦٤؛ شيخ الربوة، *كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر*، (بيروت: لبنان، ١٩٨٨م)، ٢٨٧.

(٢٠٨) المسعودي، *التنبيه والإشراف*، ٣٤١.

(٢٠٩) خسرو، المصدر السابق، ٤٥.

(٢١٠) الرازي، *صفة جزيرة العرب*، ٢٢١.

(٢١١) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ٢٣٥- ٢٣٦؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٤٨- ١٤٩.

(٢١٢) الهمداني، *كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين*، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: ١٤٠٨هـ)، ٩٠.

(٢١٣) يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٧٧؛ بتروفسكي، المرجع السابق ٢٠٥.

(٢١٤) يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٧٠.

(٢١٥) المصدر نفسه، ١٩٥.

(٢١٦) المصدر نفسه، ١٨٨.

(٢١٧) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ٢٦٣- ٢١٠.

(٢١٨) الجندي، *السلوك في طبقات العلماء والملوك*، تحقيق: محمد الأكوع (بيروت: ١٤٠٣هـ)، ١: ٢٣٨- ٢٤٠.

(٢١٩) المصدر نفسه، ٢٢٩- ٢٣٠.

(٢٢٠) ابن الديبع، *قرة العيون*، ١٢٠؛ يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٦٢.

(٢٢١) الأزرقي، *أخبار مكة، تحقيق: رشدي ملحس* (طبعة دار الأندلس)، ٢: ١٧٠.

(٢٢٢) السالمي، *تحفة الأعيان*، ١: ١٢٠، ٢٦٣.

(٢٢٣) عرام السلمي، المصدر السابق، ٣٩٨.

(٢٢٤) البكري، *جزيرة العرب*، ٣٩.

(٢٢٥) المصدر نفسه، ٤٦.

(٢٢٦) المصدر نفسه، ٣٨.

(٢٢٧) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، (ليدن: ١٩٠٦م)، ٩٥.

(٢٢٨) المسعودي، *التنبيه والإشراف*، ٣٤١؛ الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٢٨١؛ ياقوت، *معجم البلدان*، ٥: ١٨؛ أبوالفدا، *تقويم البلدان* (باريس: ١٨٤٠م)، ٨٤.

(٢٢٩) السجستاني، *النخل*، ٨٤، والفغايا جمع فغية، وإذا ركب النخل غبار فغلظ جلد بسرته، فذلك الفغا؛ انظر كتاب *النخل*، ٨٤.

(٢٣٠) ابن سعد، *الطبقات*، (بيروت: ١٣٧٧هـ)، ٥: ٤١١.

(٢٣١) يحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٥٢.

(٢٣٢) الهمداني، *الاكليل*، ٨: ١٢٢، وعن الزلازل التي تعرض لها وادي ضهر؛ انظر: الرازي، *تاريخ صنعاء*، ٢٤٣؛ ويحيى بن الحسين، *غاية الأماني*، ١٥٨؛ ويذكر الطبري أنه في سنة ٢٤٢هـ وقعت باليمن زلازل مع خسف، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد

أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٧هـ)، ٩: ٢٠٧.

(٢٣٣) الهمداني، *الاكليل*، ٢: ١٥٧.

(٢٣٤) الهمداني، *الاكليل*، ١٠: ١٦٨- ١٦٩؛ وانظر أيضاً: ابن الديبع، قرة العيون، ٢١٩؛ يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ١٩٠؛ والحطمة سنة الجدب والقحط، لأنها تحطم كل شئ، انظر: الهمداني، كتاب الجوهرتين، ٢٧٤.

(٢٣٥) ابن الجوزي، *المنتظم*، ١٥: ٢٢٧.

(٢٣٦) المقدسي، *أحسن القاسيم*، ١٠٥.

(٢٣٧) لقد هاجم الجراد المناطق المجاورة للبحرين وأضر بأشجارها وثمارها في السنوات ٣١١هـ، ٣٢٧هـ، ٣٤٤هـ، ٣٤٧هـ، انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ١٣: ٢١٨، ٣٧٨، ٤١: ٩٨، ١١٤.

(٢٣٨) الإدريسي، *نزهة المشتاق في إختراق الآفاق* (بيروت: ١٤٠٩هـ)، ١: ١٥٩؛ شيخ الربوة، *نخبة الدهر*، ٢٨٧.

(٢٣٩) المسعودي، *مروج الذهب* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ)؛ ١: ٢٠٣؛ عرام، المصدر السابق، ٣١٧.

(٢٤٠) الرازي، *تاريخ صنعاء*، ١٤٤.

(٢٤١) الجاحظ، *البخلاء*، تحقيق: أحمد العوامري وعلي الجارم (بيروت: ١٤٠٨هـ)، ١ :١٠٩.

(٢٤٢) النويري، نهاية الارب في فنون الأدب، تحقيق: أحمد كمال زكي، محمد مصطفى زيادة (القاهرة:١٩٨٠م)، ٢٣: ١٨٨، لقد ورد في ابن الجوزي (*المنتظم*، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا (بيروت: ١٤١٢هـ)، ١٤: ٤٨) برستاق القيمرة الكبرى.

(٢٤٣) ابن الفقيه، *البلدان*، ٢٩؛ الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٣٤٩-٣٦٠؛ ابن حوقل، *صورة الأرض*، ٣٣؛ ابن بكار، *جمهرة نسب قريش*، ٥٢.

الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب، الرياض (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م)

موانئ الجزيرة العربية على الخليج العربي في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري

سعيد بن عبدالله القحطاني
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الملك سعود

تعتبر موانئ الساحل الشرقي للجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي -الذي يشكل ذراعًا بحريًا رأسه في منطقة الرافدين، ويتجه إلى الجنوب حتى خليج عمان[1]، ثم يلتقي بالبحر العربي فالمحيط الهندي- من أهم المراكز التجارية التي كانت تستقبل السفن الآتية من الهند، والصين، وشرق أفريقيا، ومن جنوب الجزيرة العربية وغيرها من مختلف الجهات، والمتجهة إلى سيراف[2] والبصرة وغيرها من الموانئ الأخرى المتناثرة على جنبات هذا الساحل[3].

ولموانئ الجزيرة العربية في هذا الجانب دور بارز في النشاط التجاري كمحطات هامة على مرِّ العصور بحكم كونها مراكز تصدير واستقبال للسلع التي يحملها العديد من التجار الذين يرتادون ساحل الجزيرة العربية الشرقي في مختلف المواسم، ومعهم السلع والبضائع التجارية من مناطق التبادل التجاري سواء القريب منها أو البعيد، وقد زاد نشاطها مع قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، وتحول مركز الخلافة الإسلامية من الشام إلى العراق، واتخاذ بغداد عاصمة للعباسيين، عندما أسسها أبوجعفر المنصور سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م[4]، حيث زادت فعاليات موانئ هذا الساحل التجاري، واستعادت مكانتها الاقتصادية، التي كانت قد تقلصت زمن الأمويين لتحول الطرق التجارية البحرية العالمية في معظمها إلى البحر الأحمر والبحر المتوسط آنذاك[5].

لهذا فإن موانئ الجزيرة العربية على الخليج العربي بلغت مكانة مرموقة في النشاط التجاري خلال العصر العباسي الأول، الذي شهد ازدهارًا تجاريًا حظي بتشجيع الخلفاء العباسيين الأوائل، حيث بذلوا قصارى جهدهم لتوفير الأمن والاستقرار لمسالك الطرق التجارية البرية منها والبحرية، وذلك بتأكيد سلطتهم على مناطق نفوذهم والتصدي للعابثين بأمن الطرق من اللصوص وقطاع الطرق. وفي ذلك الحين كانت دولة بني العباس شديدة البأس، قد منحت الطرق جانبًا من عنايتها، فوضع الحكام على طول الساحل متارس ومخافر، وكان السفر مأمونًا، فزادت حركة تداول السلع والبضائع، تبعًا لزيادة الطلب عليها في الأسواق نظرًا لتطور الاستهلاك الذي نتج عن تسارع النهضة

الحضارية في المدن الإسلامية، فاتجه التجار نحو استيراد البضائع التجارية على مختلف أنواعها وتباين إنتاجها، الكمالية منها والضرورية، تلبية لاحتياجات الخلفاء والوزراء وكبار موظفي الدولة، ومجتمع الطبقة الثرية الذين ساهموا في نمو التجارة في هذه الفترة، فضلاً عن حاجة العامة من عناصر طبقات المجتمع الأخرى، ولمواجهة زيادة نمو سكان المدن في منطقة الخليج العربي وفي العراق(٦).

لقد أصبحت موانيء الجزيرة في جانبها الشرقي تمثل أكبر المراكز التجارية لاتصالها مع بلاد الهند، وسرنديب (سيلان)، والصين وغيرها من الأقطار الأخرى، ومما ساعد على انتعاش نشاطها التجاري أيضًا، صلاحية هذه الموانيء كمحطات للسفن التجارية لتوفر ضروريات الحياة التي من أبرزها المياه العذبة التي يتزود بها أصحاب السفن في رحلاتهم البحرية الطويلة(٧)، حيث تنعدم في معظم محطات الساحل الشرقي للخليج. كذلك ما يتمتع به تجار الخليج العربي من خبرة تجارية، ومعرفتهم بمسالك الطرق البحرية الآمنة عبر المحيط الهندي وغيره من الممرات البحرية الأخرى، ومهاراتهم في صناعة المراكب والسفن البحرية(٨)، ودرايتهم بأسرار هبوب الرياح الموسمية في مختلف الجهات، والتي يستعينون بقوتها أثناء تنقلهم عبر مياه البحار في مختلف المواسم(٩)، وعمل بعضهم وسطاء وأدلاء لهذا زادت الحركة التجارية بين موانيء الجزيرة العربية الشرقية وبين المحطات التجارية في العراق من جهة وبين مناطق التبادل التجارية الخارجة من جهة أخرى، مثل بلاد الهند التي أشار لها السيرافي في رحلته أثناء حديثه عن فرضة كَلَه(١٠) بالهند التي تقع في منتصف الطريق بين عُمان والصين، فقال: "وبكلَّه مجتمعُ الأمتعة، من العود، والكافور، والصندل، والعاج والرصاص القلعَيِّ، والأبنوس والبقَّم والأفاوية. كلُّها وغير ذلك مما يتسع ويطولُ شرحه والجهازُ من عُمان في هذا الوقت إليها،، ومنها إلى عُمان واقع"(١١).

لقد ركزت كثير من المصادر العربية التاريخية والجغرافية، وكتب الرحلات على الدور التجاري لموانئ الجزيرة العربية على ساحلها الشرقي، ففي هذه الموانيء كانت السفن ترسو لتحمل المتاجر أو تفرغها حسب الحاجات والأوقات والفصول، فقد أسهمت في ازدهار النشاط التجاري بين البلاد العربية وأقطار جنوب شرق أسيا، وشرق أفريقيا، حيث كانت لها صلات تجارية مباشرة، تدفقت معها أنواع السلع والبضائع المختلفة على هذه الموانيء ومنها تنقل إلى مختلف الأسواق داخل الجزيرة العربية أو في أسواق موانئ الساحل الشرقي أو خارجها، وسيتناول البحث هذه الموانيء كما يلي:

ميناء مَسْقط؛ الذي يعتبر المحطة الأمامية الرئيسة للسفن التجارية التي تسلك الطريق البحري المتجه نحو الهند حتى تحط رحالها في ميناء كَوْلَم ملي (كويلون) على ساحل المليبار الهندي(١٢)، وكانت الرحلة تستغرق بين هاتين المحطتين مدة شهر على اعتدال الريح(١٣)، ومن كَوْلَم ملي تفترق الطرق فإما إلى ساحل الدكن جنوب الهند الشرقي، وإما إلى سرنديب (جزيرة سيلان)، ثم يخرج الطريق نحو الشرق مرورًا بكله(١٤)، التي تقع على منتصف الطريق البحري إلى ميناء الصين الكبير خانقو والمعروف حاليًا باسم كانتون، وكان أصحاب السفن القادمة من العراق وسيراف(١٥) ومن

ســـاحل جنوب الجزيرة العربية الشرقي في طريقهم إلى المراكز التجارية في الهند، والسند، وسرنديب، والصين، أو إلى الحبشة وغيرها من الجهات الأخرى، يمرون على ميناء مسقط في الذهاب والإياب، يتزودون منه بالماء العذب، قبل أن يستأنفوا رحلتهم للمراكز التجارية الأخرى التي يقصدونها سواء على سواحل الخليج العربي أو على المحيط الهندي[١٦].

فكانـــت السفن التجارية القادمة من المحيط الهندي والبحر العربي في طريقها للخليج ترسو في هذا الميناء الذي يستأثر بأكبر قدر مما تحمله من سلع وبضائع تجارية بحكم موقعه في آخر عمان من تلك الجهة، وقد تحدث ابن الفقيه عـــن أهمـــية مَسْقَط كمحطة تجارية تلتقي عندها السفن على مختلف جهاتها فقال على لسان التاجر سليمان: "وذكر سليمان أن السفن الصينية تحمَّل من البصرة وعُمان وتعبأ بسيراف، وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر، وقلة الماء في مواضـــع مـــنه، فـــإذا عُـــبيء المتاع استعذبوا الماء إلى موضع منها، يقال له مُسْقَط، وهو آخر عُمان، وبين سيراف وهـــذا الموضـــع نحـــو مائتي فرسخ[١٧] وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيرَاف ومَسْقَط من البلاد سيف (ساحل) بني الصفّاق وجزيرة ابن كاوان، وفي غربي هذا البحر جبال عمان وفيها الموضع المسمى دردور[١٨] وهو مضيق بين جبلين[١٩]"[٢٠].

فمـــن هذه النصوص نستدل على وجود ملاحة مباشرة ومنتظمة فيما بين ميناء مَسْقَط ومختلف الجهات التي لها علاقـــة تجارية بأقطار الخليج العربي. فقد كان هذا الميناء يعج بالحركة التجارية، فكثرت به البضائع والسلع التجارية متبايـــنة المصـــادر التي تحملها السفن الآتية من كل حدب وصوب والتي يستقبلها ميناء مسقط بحكم موقعه كمحطة تجارية في آخر عُمان من الجنوب الشرقي. وكان لتجار مَسقَط علاقة تجارية مع الموانيء الهندية، والصينية، وسومطرة، ومـــع موانيء شرق أفريقيا، لذلك نشطت حركة أسواقها لكثرة التجار الذين يأتون إليها في مختلف المواسم ويزاولون نشاطهم التجاري في أسواقها، ويعزز هذا الرأي ما أشار إليه المسعودي في قوله: "إن رجلاً من أهل مدينة سمرقند من بـــلاد مـــا وراء النهر خرج من بلاده ومعه متاع كثير، حتى انتهى إلى العراق، فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة، وركب البحر حتى أتى إلى بلاد عمان، وركب إلى بلاد كله وهي منتصف الطريق وإليها تنتهي مراكب أهل الإسلام مـــن الســـيرافيين والعمانيين في هذا الوقت، فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم، وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك، وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان... وساحل البحرين"[٢١].

كما أن التجار العمانيين كانوا يرتادون الأسواق الخارجية فقد ذكر المسعودي المراكب العمانية التي كانت تحط رحالها في الساحل الأفريقي الشرقي فقال: "وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الـــزنج، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج. والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب... وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عَرَبٌ من الأزد"[٢٢]. ومما تجدر الإشارة إليه بأن العمانيين إلى جانب عملهم الـــتجاري والملاحـــي قد ساهموا مع غيرهم من أبناء العرب المسلمين في نشر الإسلام واللغة العربية في تلك البقاع، وشـــكلوا بها جاليات إسلامية زاولت معظمها أعمال التجارة[٢٣] فكان لا بد لهم من التفاهم مع التجار العرب بلغة

يفهموها، فانتشرت الثقافة العربية، ودخلت مصطلحات وكلمات عربية كثيرة في لغات شعوب شرق أسيا، وأفريقيا، حتى أنه سميت بعض المدن في الهند بأسماء عربية مثل مدينة المنصورة باسم منصور بن جمهور عامل بني أمية على السند[٢٤] وقد أورد المسعودي رواية تؤكد انتشار الجاليات الإسلامية في الهند فقال: "وقد حضرت إلى بلاد صيمور من بلاد الهند سنة أربع وثلاثمائة... وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة[٢٥]، وسيرافيين، وعمانيين، وبصريين، وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن في تلك البلاد، وفيهم خلق من وجوه التجار"[٢٦].

ونتيجة لهذه العلاقة الطيبة قويت الصلات التجارية، فكانت منتجات هذه الجهات لم تنقطع عن ميناء مَسْقَط والموانيء الأخرى على سواحل الخليج العربي في هذه الفترة، فكانت الأقمشة الحريرية والصوفية، والطيب بأنواعه، والبهارات، وأدوات الزينة تزدحم بها أسواق مَسْقط. ومما زاد من أهميتها التجارية كونها تقع في منطقة غنية بالزراعة فقد ساعدتها البيئة الجغرافية بأن تكون معظم الأراضي القريبة غنية بأشجار النخيل والفواكه الجرومية[٢٧]. وتكثر فيها البساتين لزراعة الحنطة والشعير، فكان إنتاجها الزراعي يواجه حاجة السكان، ويصدر الفائض الزراعي ضمن صادرات عمان إلى مختلف الجهات الأخرى[٢٨]، مثل التمر الذي يجلب منها إلى بلاد فارس، وقد اشتهر عندهم بأنه طعام الملوك[٢٩]. ومن العوامل الجغرافية الأخرى التي ساعدت على صلاحية ميناء مسقط ليكون محطة تجارية لاستقبال السفن الملاحية التجارية القادمة من الهند، والصين، والزنج، ومن مختلف الجهات، الجبال المرتفعة التي تحيط به من الجهة الغربية والجهة الجنوبية، التي تحد من قوة اندفاع التيارات الهوائية في اتجاه البحر، لهذا كان من أفضل المراسي التي يفضله أرباب السفن، وكذلك توفر المياه العذبة التي تجذب المسافرين للتزود منها في رحلاتهم الطويلة"[٣٠].

ميناء صُحار: يعتبر هذا الميناء من أهم المرافيء في منطقة الساحل الشرقي للجزيرة العربية، فهو أيضًا مدينة مزدهرة بمظاهرها الحضارية، فالمصادر العربية تجمع على أن صحار أعمر مدينة بإقليم عُمان في هذه الفترة التي يعنيها البحث، فقد وصفها الأصطخري كونه شاهد عيان بقوله: "وعُمان مستقله بأهلها... وقصبتها صُحار وهي على البحر، وبها متاجر البحر وقصد المراكب، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالاً، ولا تكاد تعرف على شاطيء بحر فارس بجميع بلاد الإسلام أكثر عمارة ومالاً من صُحار وبها مدن كثيرة"[٣١]. فمن هذه الرواية يتبين لنا أهمية ميناء صُحار[٣٢] التجارية والتي استلزمت حركة ملاحية دائبة ونشيطة صوب الهند، والصين، واليمن، والعراق، وبلاد فارس، حيث أصبحت محطة صُحار مركز حط وإقلاع بحري وسوقًا للتجارة لعرض منتجات تلك الجهات، فمكانة صحار التجارية قديمة، فقد كانت من إحدى أسواق العرب السنوية قبل الإسلام المشهورة التي أشار إليها اليعقوبي بقوله: "كانت أسواق العرب عشرة أسواق يجتمعون بها في تجاراتهم ويجتمع فيها سائر الناس ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم ... فمنها صُحار يقوم في رجب في أول يوم من رجب، ولا يحتاج فيها إلى خفارة ..."[٣٣].

فمن الطبيعي أن تستفيد صُحار من هذه المكانة، الاقتصادية، كميناء ومدينة بحرية، فاستمرت نشاطاتها التجارية في صـــدر الإسلام، وازدهرت تجارتها خلال العصر العباسي الأول، باعتبارها قصبة عمان ومركزًا تجاريًا مع الشرق، بالإضـــافة إلى كونهـــا مركزًا له أهميته في تجارة الجزيرة العربية. فكانت أسواقها رائجة التجارة وملتقى للتجار الذين يحملـــون السلع من العراق، ومن بقية أقاليم الجزيرة العربية مثل الحنطة، والحبوب، والتمور التي لا يوجد مثيل لها في غيرهـــا، واللـــبان وبعض المنسوجات، والخيول، وكثير من صادرات الدولة الإسلامية والتي يحملها التجار إلى الهند والصـــين وإلى مختلف الأفاق[٣٤]. وكانت هذه المراكب[٣٥] التي تخرج من ميناء صحار إلى مختلف الجهات لا تعود من رحلاتها فارغة، بل تشحن بالسلع والبضائع المتنوعة التي تزخر بها المراكز التجارية في الهند، وسرنديب والصين، أو من موانيء البحر العربي، والساحل الشرقي لأفريقيا والتي يتم استيرادها إلى موانيء الجزيرة العربية الشرقية. وتنقل منها إلى الأســـواق الأخـــرى في بلاد الرافدين أو الشام، أو إلى غيرها من مناطق التبادل التجاري. فقد كانت السلع الصينية والهـــندية وخاصـــة الكمالية منها تشهد إقبالاً من قبل التجار لأنها تحقق لهم مكاسب كبيرة لكثرة الطلب عليها من الخلفـــاء وموظفي الديوان، والأثرياء، فالغالب أن معظم هذه السلع الواردة من أثمن السلع لندرتها، لهذا كانت أسواق مدينة صُحار تتميز بكثرة تجارتها، لأنها تتمتع بمركز تجاري مرموق، ترفأ فيها سفن التجار القادمين من معظم الجهات، فـــتزدحم أسواقها بالتجار. وأصبحت من أهم المحطات التجارية التي تصب فيها الطرق البحرية عبر الخليج العربي، مما أدى ذلـــك إلى اتصالها بالتجارة الخارجية في مختلف المواسم، لهذا وصفها ابن حوقل بأنها مركز تجاري هام، يأتي إليه الـــتجار مـــن كل جانب يحملون السلع والبضائع التي يتم تداولها في أسواقها الرائجة، فقال: "إنها دهليز[٣٦] الصين، وخزانة الشرق، والعراق ومغوثة اليمن"[٣٧].

كـــان التجار يحملون إلى أسواق ميناء ومدينة صُحار من المتاع أحسنه، فمن الصين يحمل الحرير، والدار صيني (القـــرفة)، والمســـك[٣٨] الفاخـــر، والعقاقير الطبية، والورق[٣٩]، ومن الهند القرنفل، والصندل، والفلفل، والكافور، والـــزابج[٤٠]، والـــبَقَّم، والنيل، والخيزران، والياقوت، والألماس من سرنديب، والكركدن، والطاووس[٤١]، والببغاء، والدجاج السندي وجميع أنواع العطر والصَّيْدَلَه[٤٢].

و لم تقتصـــر السلع التجارية الواردة على ميناء صحار على ما ذكرناه آنفًا؛ بل تعدى ذلك إلى البضائع التي ترد إلـــيها مـــن مـــوانيء البحر الأحمر والبحر العربي متنوعة المصدر، بالإضافة إلى ما تسهم به أقاليم الجزيرة العربية من منـــتوجات زراعية، وصناعية، وحيوانية، يتم تصديرها ضمن عروض التجارة إلى مختلف الأسواق. ولقد حافظ ميناء صـــحار عـــلى دوره الـــتجاري كمركز للتجارة العالمية على الخليج العربي، حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. ومما يؤيد استمرارية ازدهار نشاط هذا الميناء التجاري، ما ذكره المقدسي، في وصفه الشيِّق لأسواق صحار العجيبة، ولقصورها الشاهقة باعتباره شاهد عيان، زارها في أواسط هذا القرن عندما قال: "صُحار هي قصبة عُمان، لـــيس على بحر الصين اليوم بلدًا أجلَّ منه، عامرٌ آهِلٌ حسنٌ، طيب، نزه، ذو يسار، وتجار، وفواكه، وخيرات، أسرى

من زبيد وصنعاء، أسواق عجيبة وبلدة ظريفة، ممتدة على البحر، ودُورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة، والجامع على البحر ... في آخر السوق... وهم في سعة من كل شيء، ودهليز الصين، وخزانة الشرق والعراق، ومغوثة اليمن، قد غلب عليها الفرس"[٤٣].

فمن هذا الوصف الجميل للأسواق والمساكن والتجار نستدل منه على نشاط ميناء صحار التجاري، ومهارة السكان في أعمال التجارة والملاحة، وصلتهم بمختلف المناطق، كل هذا ساعد على ازدهار أسواقها وتنمية ثرواتها، حتى أصبحت تفوق زبيد وصنعاء اقتصاديًا. كما يتبين لنا من هذه الرواية؛ فقد كانت تزدحم بالتجار الذين يفدون عليها من الصين والهند، ومن فارس، ومن العراق وغيرهم، لرواج أسواقها المكتظة بالبضائع والتجارات التي تحملها السفن التجارية والتي تقصدها من كل مكان فقد قال عنها الإدريسي: "أقدم مدن عمان وأكثرها أموالاً قديمًا وحديثًا، ويقصدها في كل سنة من تجار البلاد ما لا يحصى عددهم، وإليها تجلب البضائع من اليمن، ويتجهز منها أنواع التجارات"[٤٤].

فلا غرو أن توصف فرضة صُحار بأنها المنفذ الرئيس لتجارة الشرق والغرب، حيث كانت تمثل حلقة وصل بين هاتين المنطقتين، ومركز إبحار واستقبال السفن المحملة بكثير من السلع الخاصة بالتجارة الشرقية، والتي تعج بها أسواقها، والتي كانت تفيض على أصحابها فيوضًا، وسعة من الثروة، لهذا كان أهل صحار يسكنون مساكن عالية مبنية من الآجر وخشب الساج الهندي الثمين، فقد ذكر المقدسي أنهم في سعة من كل شيء، ومثله قال الإدريسي: "وأحوال أهلها واسعة جدًا ومتاجرهم مربحة"[٤٥]. ومما زاد من أهمية ميناء صحار، أنه كان المركز الرئيس للإدارة في إقليم عمان، وقويت شوكته بعد أن استقلت ولاية عمان عن الخلافة العباسية في بداية النصف الأول من القرن الرابع الهجري، حتى أن قواتها البحرية هاجمت البصرة فيما بين عامي ٣٣١/ ٣٣٤هـ - ٩٤٣/ ٩٥٣م[٤٦]. وقد وصف أحد الباحثين المحدثين بأن القرن الرابع الهجري، كان بمثابة العصر الذهبي لمدينة صحار، لتفوقها في كل مناشط الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، والعسكرية، وقد أصبح أهل المناطق الأخرى يخشون سطوة العمانيين في هذه الفترة، مثل أهل مدينة سيراف الذين شيدوا سورًا منيعًا حول مدينتهم لصد هجمات العمانيين[٤٧].

ومع أنها تعرضت لحملات عسكرية وجهتها ضدها الخلافة العباسية، عندما حرص البويهيون على إخضاعها لسلطة بغداد واتخذوا منها قاعدة لأسطولهم البحري سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م[٤٨]، كما تعرضت لهجمات القرامطة[٤٩] الذين حاولوا بسط نفوذهم على إقليم عمان[٥٠]، إلا أن وضعها التجاري لم يتأثر، فقد حافظت على علاقتها التجارية العالمية وظلت كميناء رئيس تصب فيه تجارة الشرق والغرب، فقد وصفها البكري بعد هذه الأحداث، فقال في عبارات تحمل دفء شهود العيان بأنها سوق عمان، وعدها من المدن التجارية الهامة في الجزيرة العربية[٥١]. فمن هذه الرواية وغيرها نستدل على أن صحار في هذه الآونة ما زالت هي قاعدة عمان، فكانت من أهم موانيء الخليج العربي لمكانتها التجارية والإدارية.

موانيء البحرين:

إن للــبحرين موانيء كثيرة على الساحل الغربي للخليج العربي الممتد من البصرة شمالاً وحتى عُمان جنوبًا، لهذا كانـــت هذه المحطات التجارية تشكل نقطة اتصال بين المحطات التجارية الواقعة في جنوب الخليج العربي،وبين حاضرة الخلافـــة العباسية، وما يليها من مراكز تجارية أخرى. فقد اشتهرت موانيء البحرين بنشاطها التجاري في الفترة التي يعنـــيها البحـــث، ساعدها على ذلك موقعها الجغرافي الاستراتيجي، كما أسلفنا من قبل ، بالإضافة إلى خبرة أهلها بالملاحة ومواسمها، وصناعة السفن، وارتباطهم أيضًا بمواسم صيد اللؤلؤ الذي تميزت البحرين بإنتاج أجوده بين البلدان الأخرى(٥٢).

لهـــذا أصبحت موانيء ء البحرين مراكز رسو وإبحار، وأسواق تصدير واستيراد لعمليات تجارية واسعة، حيث كانـــت مرافئ جيدة لرسو كثير من السفن التجارية في رحلاتها عبر مياه الخليج العربي، من الصين، والهند، وجنوب الجزيـــرة العربية، ومن بلاد العراق، وفارس، وغيرها من الأقطار الأخرى(٥٣). وكانت نتيجة ذلك أيضًا ازدياد حركة أسواق مدن البحرين التجارية، لاستفادتها من الطريق التجاري البحري القادم من المحيط الهندي ومن البحر العربي من خلال الخليج العربي، في اتجاه حاضرة الخلافة العباسية بغداد، فكانت السفن التي تسلكه في الجيئة والعودة، تحمل السلع والبضائع من أماكن الوفرة إلى أسواق الدولة الإسلامية التي تحتاج إليها ، وحيث إن موانيء الجزيرة العربية الشرقية هي المجاز والممر الرئيس لهذه السلع التجارية في معظم الأوقات، فقد امتلأت أسواقها بالتجار الأجانب الذين يحملون معهم منتجات بلادهم ويزاولون نشاطهم في أسواق البحرين المنظمة والموانيء الآمنة التي أسهمت في ازدهار التجارة في هذه الفترة، فكانت البحرين واسطة العقد بين مرافئ جنوب الخليج العربي وبلاد الرافدين كما أسلفنا من قبل لا سيما وأن الدولة العباسية اتجهت في تجارتها في العصر العباسي الأول نحو الشرق، فانتقل تبعًا لذلك مركز النقل التجاري البحري إلى منطقة الخليج العربي بحكم قربه من حاضرة الخلافة العباسية بغداد(٥٤)، لهذا برز عدد من موانيء البحرين والتي من أهمها ما يلي:

قطر:

تـــأتي شـــبه جزيرة قطر، التي تقع على سيف الخط بين عُمان والعُقير، من أبرز المحطات التجارية الواقعة على الطـــريق البحري الذي يمر بساحل الجزيرة العربية الشرقي، وهذه المحطة تتشكل من عدة جزر، نستدل على ذلك من وصـــف الـــرحالة والمؤرخ المسعودي للأماكن التي تقابل ساحل فارس من جهة الغرب الذي كان شاهد عيان بحكم تنقله مع أصحاب السفن في رحلاته إلى مختلف الأقاليم الواقعة على المحيط الهندي وغيره، فقال: "بلاد البحرين وجزائر قطـــر"(٥٥). ومـــثله الهمـــداني الذي عدها من المحطات التي تقع على سيف الخط عندما قال: "وأخذ البحر من ذلك الموضـــع- أي عَـــبّادان(٥٦) - مُغَـــرِّبًا مطيفًا ببلاد العرب منعطفًا عليها فأتى منها سَفْوَان(٥٧)، وكاظمة(٥٨) ونَفَذ إلى القَطيف، وهَجَر، وأسْيَاف البحرين، وقَطَر، وعُمان، والشِّحر..."(٥٩).

فكانت هذه المحطة من الموانيء التي تمر بها السفن والمراكب التي تجوب مياه الخليج من مختلف الاتجاهات، وهي تحمـــل الســـلع والبضـــائع مثل الطيب، والجواهر، والبهارات، والرقيق وغيرها من تجارات الشرق والغرب المتنوعة، الكمالية منها والضرورية. ومما عزز من مكانة هذا الميناء التجارية، أنه محطة هامة من محطات الطريق البري التي تخرج مـــن البصرة في اتجاه عُمان بمحاذاة الساحل، فقد ذكرها ابن خرداذبة في جملة مراحل هذه الطريق بقوله: "... ثم إلى ساحل هجر، ثم إلى العُقَيْر(٦٠) ثم إلى قطر، ثم إلى السنجة ثم إلى عُمان"(٦١) لهذا لا نستبعد أن مرافيء قطر قامت عندها تجـــارات واســـعة حقق معها تجار الخليج وغيرهم أرباحًا طائلة"(٦٢)، لا سيما وأن قطر اشتهرت بصيد اللؤلؤ الذي يســـتخرج من سواحلها(٦٣)، فكان لذلك أثره الإيجابي على تنشيط حركة أسواقها التجارية، لإقبال التجار من مختلف الأقطار على تداول تلك اللآليء لجودتها، إضافة إلى ذلك أن قطر اشتهرت بصناعة الثياب التي عُرفت بالبرود القطرية ذات اللون الأحمر، والتي فاقت شهرتها الآفاق، وتغنى بها الشعراء، لما تتميز به من جودة نسيجها ودقة صناعتها، لهذا كانـــت تحمـــل ضمن الهدايا التي تقدم للخلفاء العباسيين في هذه الفترة. فقد ذكر الجاحظ أن الشاعر أبا العتاهية(٦٤) أهـــدى للخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨- ٢١٨هـــ/ ٨١٣- ٨٣٣م) هدايا كثيرة من جملتها أردية قطـــرية(٦٥). وكان العلماء يستحسنون لبسها، فقال في هذا الشأن الإمام الشافعي: "وأحب ما يلبس إليّ البياض فإن جـــاوزه بعصب اليمن والقطري وما أشبهه مما يصنع غزله ولا يصبغ بعد ما ينسج فحسن"(٦٦). وقد ورد في المعاجم اللغوية أن القطرية ضرب من البرود وهي حلل جياد تتميز بلونها الأحمر(٦٧).

فمـــن هـــذه الرواية وغيرها يتضح أن تجارة الثياب القطرية كانت رائجة ومزدهرة، لأنها على درجة عالية من الجـــودة كما أسلفنا، حيث توافق مختلف أذواق الناس، و لم تكن شهرتها وليدة الفترة التي يعنيها البحث، فقد كانت تُصدر إلى الحجاز وخاصة مكة عند ظهور الإسلام، كما ورد أن الرسول ﷺ كان يلبسها، وكذلك بعض الصحابة، يؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: "كان على رسول الله ﷺ ثوبـــان عمانـــيان أو قطريان"(٦٨). كما اشتهرت مرافيء قطر بتصدير الإبل التي تسمى بالجياد، حيث تجلب لأسواقها بكثرة من المناطق المجاورة لها"(٦٩).

يتـــبين من الروايات السابقة أن أسواق فرضة قطر لم تقتصر على أن تكون مراكز استقبال للسفن القادمة من عـــرض مياه الخليج العربي، وكذلك للقوافل البرية القادمة إليها عبر الطريق البري فحسب، بل كان لها نشاط تجاري تميزت به فيما يجلب إليها من السلع والبضائع المتنوعة والتي يعاد تصديرها إلى مختلف السلع، بالإضافة إلى ما تنتجه أو مـــا تشـــتهر بـــه مـــن سلع تجارية، مثل نجائب الإبل التي تنسب إليها وما والاها من البر، وكذلك التمور والنعام، والمنســـوجات التي أشرنا إليها آنفًا؛ فجمعت بين أوجه النشاط الاقتصادي، من تجاري، وصناعي، وزراعي،مما أهل أســـواقها إلى اســـتقطاب التجار وأصحاب المهن للاستقرار بها، وزاولوا نشاطهم التجاري وغيره من أوجه الأنشطة الاقتصـــادية الأخرى. وساهم ذلك في تطور الموانيء القطرية، التي استمر دورها التجاري مزدهرًا فكانت على اتصال

وثـــيق بموانيء الهند، والصين، والحبشة، واليمن، والعراق، والموانيء الإسلامية الأخرى، حتى أصبحت إحدى المحطات التجارية الهامة في شرق الجزيرة العربية.

وأتفـــق مع ما ذهب إليه أحد الباحثين أن تجارة قطر الخارجية كانت مرتبطة إلى حد كبير بالبحرين، وهذا ما حـــدا بالجغرافـــيين والـــرحالة والمؤرخـــين المسلمين في العصر العباسي أن يتكلموا عن قطر من خلال كتاباتهم عن البحرين[٧٠]، وأعتقد أن مرد ذلك يعود إلى تبعيتها الإدارية، فغلب اسم الولاية كوحدة إدارية على نشاط هذا الميناء، الذي أصبح آهلاً بالسكان واستمر في التطور حتى أصبحت قطر إحدى دول الخليج العربي الهامة في وقتنا الحاضر.

ميناء العُقَيْر:

كـــان من الموانيء التي أسهمت في استقبال ونقل تجارة الجزيرة العربية على ساحلها الشرقي، فهو يعتبر فرضة مديـــنة هجر العظمى، حاضرة بلاد الأحساء التي تقع إلى الغرب من ميناء العُقير، والتي تتميز بثرواتها الزراعية، لتوفر موارد المياه بها، وخصوبة تربتها؛ لهذا اشتهرت بزراعة النخيل، وكثرة الثمار؛ ولهذا فقد فاق هذا الميناء غيره في تجارة التمور التي تنتجها منطقة الأحساء، فكانت هجر مضرب المثل بكثرة تمورها، حيث قال القائل: "كمستبضع التمر إلى هجـــر"[٧١]. فاشتهرت بإنتاج أنواع كثيرة من التمور والتي تنافس غيرها من إنتاج المناطق الأخرى. ومما زاد الإقبال على تمور هجر رخص أسعارها لكثرة محصولها، حتى أن الرحالة الفارسي ناصري خسرو ذكر رخص تمورها في زمانه فقال: "أنه قد يباع أكثر من ألف مَنّ[٧٢] بدينار واحد"[٧٣]. وزاد على ذلك بأنه كان يستعمل طعامًا للمواشي وهذا دلـــيل على غزارة الإنتاج؛ وكما هو معروف في عروض التجارة أنه كلما زاد العرض رخص السعر. ومما يؤكد على ازدهار زراعة النخيل في هجر كثافتها، التي وصفها الشاعر بقوله:

حبس بين رملة[٧٤] وقف[٧٥] وبين نخل هجر الملتف[٧٦]

وكذلـــك اشـــتهرت هجر بصناعة المنسوجات التي تميزت بجودة حياكتها، حيث كانت تصدر البرود الهجرية والأثواب من صناعة هجر إلى مختلف النواحي، فقد ذكر ابن سعد أنها كانت تهدى لعلية القوم[٧٧].

إن ميـــناء العُقير يعتبر من المحطات التجارية البحرية التي يمر بها الطريق البحري المحاذي للساحل الغربي للخليج العـــربي، فكانت هذه المحطة تستقبل السفن التجارية القادمة من الصين، والهند، ومن جنوب الجزيرة العربية، وكذلك من البصرة وغيرها من البلاد الأخرى؛ كما أنها مرحلة من مراحل الطريق البري الذي يخرج من البصرة في اتجاه عمان بمحـــاذاة الســـاحل الشـــرقي للجزيرة العربية. وقد أشار الحربي عندما عدّد المراحل التي تقع على هذا المسار فقال: "وبَالعُقير منبر[٧٨] لبني الرجاف من عبدالقيس، وهي فرضة الصين، وعمان، والبصرة، واليمن على ساحل البحر"[٧٩] فنســـتدل مـــن هـــذه الرواية أن ميناء العُقير كان أشهر موانيء البحرين من الناحية التجارية في العصر العباسي، فقد انتعشـــت تجارته وتوسعت، حيث كان يستقبل السفن التي تحمل البضائع النفيسة من أسواق الهند والصين وغيرها من

الآفاق الأخرى، خاصة بعد بناء بغداد واتخاذها عاصمة للخلافة الإسلامية، وتكاثر سكانها، لذلك غدا هذا الميناء من أهم موانيء البحرين التي يعج أسواقها بمختلف السلع والبضائع التجارية سواء المستوردة أو المنتجة محليًا.

ومما ساعد على ازدهار نشاط أسواق العُقير التجاري خبرة أهل البحرين بأعمال الملاحة، فكان لهم سفنهم التي تخرج في تجارتهم الداخلية والخارجية. وساعدهم كذلك معرفتهم الجيدة بصناعة وسائل النقل البحري، ودرايتهم بالظروف المناخية، مثل العواصف والأنواء، وهبوب الرياح الموسمية، علاوة على ذلك فإن هذا الميناء يخدم منطقة الأحساء حيث لا يعد موقعه الجغرافي كثيرًا عنها، فهو فرضتها على البحر. وهذه المنطقة غنية كما أسلفنا بثرواتها الزراعية والحيوانية والصناعية، وتضم قاعدة إقليم البحرين هجر العظمى، وغدت الأحساء مقرًا للدولة القرمطية التي شجعت على مزاولة مختلف الأنشطة الاقتصادية، وفي مقدمتها النشاط التجاري الذي ازدهر معه نشاط ميناء العُقير الذي يعد من أبرز المحطات التجارية في البحرين ويرتاده التجار في مختلف المواسم(٨٠).

وظل ميناء العقير الميناء الرئيسي لمنطقة الأحساء حتى وقت قريب، حيث حل محله ميناء الدمام في خدمة المنطقة تجاريًا بعد اكتشاف البترول في الساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية.

جزيرة أُوال:

كانت من الموانيء الهامة في إقليم البحرين التي أسهمت في النشاط الاقتصادي للساحل الشرقي للجزيرة العربية في الفترة التي يعنيها البحث وفي العصور السابقة، بحكم موقعها الجغرافي الاستراتيجي. فهي من المحطات التجارية للطريق البحري الواصل بين شمال الخليج العربي وجنوبه. تقصدها السفن التجارية من الصين، والهند، ومن اليمن، ومن البصرة، ومن بقية الأقاليم الأخرى(٨١)، ويدل على ذلك قول تميم بن أُبَيّ بن مُقْبل:

عَمَدَ الحُداةُ بها لعارضِ قَرْيَة فكأنَّها سُفُنٌ بِسِيفِ أُوَالِ(٨٢)

وقال جرير كذلك:

وشَبَّهْتُ الحُدُوجَ غَدَاة قَوٍّ سَفِينَ الهِندِ رَوَّحَ من أُوالاَ(٨٣)

وأُوال من مراكز اللؤلؤ التي يلتقي عندها التجار الذين يقصدونها من مختلف الأقطار، معهم الأموال الكثيرة، وأنواع السلع التجارية التي تختلف باختلاف الأقاليم حرًا وبردًا، وتختلف باختلاف طبائع الأرض، فليس في كل إقليم كل حاجاته إلا ما ندر، فالصناعات غير متحدة، كما أن درجة إجادتها ليست متفقة في كل الأصناف، لهذا كان الإقبال على شراء اللؤلؤ الذي تكثر مصائده في جزيرة أُوال(٨٤). ويعتبر اللؤلؤ من السلع التجارية الكمالية الهامة التي تحمل إلى العراق وغيره؛ لتلبية حاجة السكان على اختلاف درجاتهم وأذواقهم، فعلى سبيل المثال، نجد أن الحياة المدنية قد نضجت في مدينة بغداد في هذه الفترة، وفي المدن الأخرى، في إطار دولة الخلافة العباسية، وغيرها من الدويلات

المستفرعة عنها، فكان على التجار أن يلبوا مطالب الناس الذين زاد إقبالهم على شراء العطور، والتوابل، والأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية الفاخرة، والمجوهرات النادرة، لاستعمالات التجميل والزينة، واللؤلؤ يأتي في مقدمة أدوات الزينة ويفضل على غيره لما يتميز به من جودة ولمعان يبهر الأبصار[٨٥].

لقد امتازت جزيرة أُوال على المراسي الأخرى بسعة مراسيها وبعدها عن العوائق البحرية، إذ كانت مقصد القوافل البحرية الواردة من كل مكان، كما أشرنا من قبل، لكونها محطة تجارية تصب فيها تجارة الهند، والصين، والعراق، وخلاف ذلك، لهذا أصبحت سوقًا يلتقي عندها التجار القادمون من مختلف الآفاق، ومعهم السلع والبضائع المتنوعة؛ وفي نفس الوقت يشترون منها اللؤلؤ الذي يفضلونه على غيره[٨٦]، والذي تكثر فيها مصائده[٨٧]، فتنشط على أثر ذلك أسواقها. إن اللؤلؤ الذي تشتهر به البحرين وعُمان كان محل اهتمام الدولة العباسية، لهذا استحدثت ولاية للإشراف على أعمال الغوص، أضيفت إلى ولاية الخليج العربي[٨٨]. هذا ومما زاد في أهمية هذا الميناء أنه محاط بأرض خصبة تكثر فيها الزروع والنخيل، وفيها من العيون والآبار العذبة ما يسد حاجة أهلها، فازدهرت زراعتها، إلى جانب نشاطها التجاري الذي كانت تعج به أسواقها فإليها تجلب البضائع من أنحاء المعمورة، ففي هذه الأسواق كانت تباع طرائف الصين والهند مثل القمح، والأرز، والسكر، والبقول، والخزف، والمسك والعود، والكافور والدارصيني (القرفة) والحفائر الخزفية، واللبود، والعقاقير، والطواويس، والأقفال، والفضة، والسروج، والكاغد[٨٩]. وقد استمر هذا النشاط فيما بعد الفترة التي يعنيها البحث، يؤيد ذلك ما أشار إليه الإدريسي، بأن التجار يقصدون أسواق جزيرة أُوال ويقيمون بها الأشهر الكثيرة، يزاولون فيها نشاطهم التجاري؛ فكانت أسواقها في ذلك الحين موضع فخار ومصدر ثروات كبيرة[٩٠].

والخلاصة فإن جزيرة أُوال تعتبر من أهم موانيء الجزيرة العربية الشرقية على الخليج العربي، لا سيما وأن أهل هذه الجزيرة لهم خبرة واسعة في صناعة السفن ويتفوقون على أقرانهم في هذا المجال، وفي صيد اللؤلؤ وتجارته، فلهم خبرة ومعرفة بأوقات الغوص لاستخراج اللؤلؤ الذي تشتهر به سواحلها، فيعرفون أماكن وجود صدفه، لأن للصدف مراعٍ يتجول فيها ويتنقل إليها في أوقات معينة من فصول السنة، لا يعرفها إلا دليل ماهر. ويعطي الإدريسي خلاصة لمهمة الدليل، فيقول: "فإذا خرج الغواصون عن أُوال تقدمهم الدليل والغواصون خلفه في مراكبهم صفوفًا، لا تتعدى جريه ولا تخرج عن طريقه، فكلما مرّ الدليل بموضع من تلك المواضع التي يصاد فيها اللؤلؤ تنحىّ عن ثيابه وغطس في البحر ونظر، فإن وجد ما يرضيه خرج فأمر بحط قلاعه وأرسى دونه وحطت جميع المراكب حوله فأرست وانتدب كل غواص إلى غوصه"[٩١].

وعلاوة على ذلك كانت هذه المحطة تمتاز بموقعها الجغرافي المناسب حيث إنها تقع على الطريق البحري الذي يربط شمال الخليج بجنوبه، فكانت لها علاقة بحرية وتجارية مع الهند والصين باعتبارها محطة تجارية تمر عليها معظم السفن القادمة من مختلف الجهات في طريقها إلى العراق أو العائدة منه، وهي محملة بالسلع والبضائع، لهذا اجتمعت في

ســـوقها جميع التجارات والبياعات، من أهمها اللؤلؤ الذي يتوفر فيها بكثرة، بالإضافة إلى العطور، والطيب، والملابس الحريـــرية، وغيرهـــا مـــن السلع الأخرى متباينة المصدر، والتي كانت ترد من مختلف البلدان ومنها تحمل للأسواق الأخرى.

ومـــن المـــوانيء الأخرى التي أسهمت في تجارة الجزيرة العربية في هذا الجانب، ميناء القطيف؛ الذي كان من المراكـــز الـــتجارية في هذه الفترة على ساحل الخليج الغربي، ونستدل على ذلك بما ذكره الحربي بأن القطيف مدينة كبيرة(٩٢)، تكثر تجارها البحرية والبرية بحكم موقعها وقربها من سواحل جزيرة أُوال، وسهولة وصول السفن لمرساها الذي يعرف بالقُليعة(٩٣).

كمـــا أن محطة القطيف التجارية كانت تلتقي عندها طرق التجارة البرية فهي مرحلة من مراحل الطريق البري الســـاحلي الذي يخرج من العراق إلى جنوب الجزيرة العربية بمحاذاة الساحل الشرقي حتى عُمان ومنه إلى عدن(٩٤)، فكانت أسواقها عامرة بالتجارات التي تأتيها عن طريق البحر، أو ما تحمله القوافل البرية القادمة من الصحراء بالإضافة إلى مـــا تنـــتجه من حاصلات زراعية لخصوبة أرضها وتوفر مياه الري العذبة،بها وقد اشتهرت بكثرة المزروعات من أبـــرزها أشجار النخيل(٩٥)، وقد ذكرها الهمداني بأنها قرية عظيمة، فقال: (القطيف قرية عظيمة الشأن وهي ساحل أكـــبر من العُقير)(٩٦). وقال في موضع آخر: (العُقير من دونه وهو ساحل وقرية دون القطيف)(٩٧). نستنتج من هذه المقارنة، أن ميناء القطيف يخدم مدينة لها شأن عظيم كثيفة السكان تأتي إليه السفن التجارية ومعها السلع التجارية التي تجلـــب مـــن مختلف الآفاق، وتنقل منه بعض الصادرات الثمينة مثل اللؤلؤ والتمر، لهذا علا نجم القطيف الاقتصادي والحضـــاري فـــيما بعد حتى عدها البكري إحدى مدينتي البحرين بعد هجر(٩٨)، بل إنها أصبحت في القرن السادس الهجري عاصمة بلاد البحرين وأعظم مدنها(٩٩) فقد قال عنها ياقوت: "وهي مدينة بالبحرين، هي اليوم قصبتها وأعظم مدنها" (١٠٠).

وكانـــت موانيء الجزيرة العربية على الساحل الغربي للخليج العربي على اتصال وثيق بالموانيء الأخرى الواقعة عـــلى ساحله الشرقي في الجانب الفارسي، ومما عزز العلاقة التجارية بين الجانبين القرب المكاني، حيث إنه لا يفصل بين هرمز والساحل العماني إلا مضيق يسهل قطعه لقصر المسافة بينهما، فكانت المراكب التجارية تنتقل بين الساحلين في مخـــتلف المواســـم. وقد زادت هذه الصلات التجارية في العصر العباسي الأول لكون المنطقتين تحت نفوذ الدولة العباســـية والتي حرصت على توفير الأمن لكافة محطات الخليج العربي، مما شجع على تنقل التجار بين الموانيء في يسر وســـهولة دون أن تعترضـــهم عوائق حدودية. هذا ويأتي في مقدمة الموانيء الواقعة على الساحل الشرقي في الجانب الفارسي عدة موانيء من أهمها:

ميناء هُرمز:

يعتبر ميناء هرمز من أهم موانيء الخليج العربي، لأهمية موقعه الجغرافي على مدخل الخليج من جهة المحيط الهندي،

فكـــان هـــذا الميناء يقوم بدور الوسيط التجاري، حيث يستقبل تجارة الشرق والغرب؛ لهذا اشتهر بنشاطه التجاري، ونستدل على ذلك من وصف الأصطخري لهذه الفرضة عندما قال: "وينتهي على ساحل هذا البحر إلى هُرْمُز، وهي فرضة كِرْمَان، مدينة غراء كثيرة النخل حارة جدًا"(١٠١). وقال في موضع آخر: "إنما هي مجمع تجار كرمان... فرضة الـــبحر وموضـــع السوق... مساكن التجار في رستاقها متفرقين في القرى نحو فرسخين، وبلدهم كثير النخل"(١٠٢). فكانت أسواق ميناء هرمز مليئة بالسلع والبضائع الهندية والصينية، منها التوابل، والأحجار الكريمة وخاصة الياقوت، والعقـــاقير، والكـــافور، والعنبر، والعود الهندي، وجلود النمور، والصندل الأبيض، والأبنوس، وجوز الهند، والفيلة، والـــرماح، والمســـك التبتي(١٠٣). ومن الصين الحرير والثياب الحريرية ومن اليمن البرود، والأدم، والعصائب، والعنبر الـــثمين، والديـــباج والورس، والبخور، والمرّ، والدروع، والسيوف، والنحاس، والزئبق(١٠٤)، ومن البحرين اللآلىء، والخيول، والنعام، وهناك سلع كثيرة تأتي من أقطار الجزيرة العربية الأخرى يضيق المجال عن حصرها.

وتشـــتهر هرمـــز بزراعة الكمون الكثير، والنيلج(١٠٥) الذي يفوق غيره في الجودة ويصدر إلى كل الآفاق(١٠٦). وأيضًـــا بعـــض أنواع الحبوب من أبرزها الشعير الذي أشار إليه الإدريسي بقوله: "والشعير هو أكثر زراعاتهم وجل حبوبهم"(١٠٧). وكان الملح يكثر في المنطقة المجاورة للميناء، حيث يستخرج من تلال صخرية ناصعة البياض يتم تداوله في الأسواق، وهو من الصادرات ذات القيمة الكبيرة(١٠٨). هذا ومن الطبيعي أن تزدهر أسواق هرمز ويرتادها أخلاط مـــن الـــتجار العرب والعجم، لتبادل البضائع والسلع التجارية التي تشتهر بها أسواقها الرائجة، لذلك كان هذا الميناء مساندًا لموانيء الجزيرة العربية وعلى وجه الخصوص الواقعة على الخليج العربي.

ويأتي ميناء سيراف(١٠٩) في مقدمة الموانيء الشرقية التي لها صلات تجارية قوية بموانيء البحرين وعُمان، لأنه يمثل مركـــز الـــتجارة العالمية في الخليج العربي، فقد كان يستقبل السفن الصينية الكبيرة الحجم وغيرها، والتي تحمل تجارة الشـــرق المتنوعة، حيث كان يتعذر عليها الوصول إلى شمال وغرب الخليج، لعدم عمق المياه في هذا الجانب، فتتوقف عند ميناء سيراف في الجانب الفارسي، وتفرغ حمولتها فيه، ومن ثم تحمل وتنقل في مراكب صغيرة الحجم إلى الموانيء الأخرى، المتناثرة على ساحل الجزيرة العربية الشرقي وفي موانيء العراق(١١٠).

وممـــا يؤيد صلة موانيء الجزيرة العربية على الخليج العربي بميناء سيراف ما ذكره السيرافي عندما قال: "إن أكثر السفن الصينية تُحَمّل من سيراف، وأن المتاع يُحْمَّلُ من البصرة وعُمان،وغيرها من سيراف، فيعبأ في السفن بسيراف، وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر، وقلة الماء في مواضع منه"(١١١).

ويتضـــح مـــن هـــذه الرواية وغيرها بأن ميناء سيراف غدا في هذه الفترة التي نعنيها بالبحث من أهم المحطات الـــتجارية التي برزت فيها خدمة التجارة الشرقية، فقد أشاد الأصطخري وهو شاهد عيان، بعمران هذه المدينة الدال على سعة أهلها الاقتصادية فقال: "... إن سيراف تضاهي شيراز بحجمها وازدهارها، وأن بيوتها عدة طوابق مبنية من

خشـــب الساج المستورد من بلاد الزنج"[١١٢]. وأشار ابن حوقل في رواية قريبة من وصف الاصطخري، حيث قال: "سيراف وهي الفرضة العظيمة لفارس، وهي مدينة جليلة، وأبنيتها ساج، وتتصل أبنيتها إلى جبل يطل على البحر ... وهـــي مـــن أغنى بلدان فارس"[١١٣]. وقد أشار المقدسي للباقة أسواقها؛ فذكر أنها دهليز الصين دون عُمان وخزانة فـــارس، وأن دورهـــا بنيت من خشب الساج والآجر، شَاهقة"[١١٤]. فهذه الروايات تعطينا صورة للنشاط التجاري والملاحي والعمراني لفرضة سيراف وأسواقها التي يرتادها التجار من كل مكان وخاصة من الساحل الشرقي للجزيرة العربـــية، فقد كانت من المحطات التجارية التي يزاولون فيها نشاطهم التجاري، لأنها من أثرى البلاد بسبب الازدهار التجاري الذي تتصف به أسواقها.

وقـــد أثـــنى المسعودي على مهارة الملاحين السيرافيين في أعمال الملاحة عبر البحار، وخبرتهم بالطرق البحرية الآمنة في تنقلاتهم البحرية إلى مختلف البلاد بمراكبهم المحملة بالسلع والبضائع متباينة المصدر، فقد ذكر أنهم وصلوا إلى الساحل الشرقي لأفريقيا، وإلى غيره من الأقطار الأخرى[١١٥]، لهذا أصبحت سيراف محطة تجارية لكثير من المنتجات العالمية، فارتادها تجار الجزيرة العربية مع غيرهم لشراء ما تحتاجه أسواق بلادهم من مختلف التجارات،فكانت أسواقها مـــزدحمة بالسلع التجارية مثل الأخشاب، والطيب، والكافور، والحرير، وغير ذلك مما ينقل لها من سلع الصين والهند وبلاد فارس، فقد غدت من أهم المدن التجارية على الخليج العربي. وفي الوقت نفسه يتم تسويق ما يحمله التجار من السـلع الـــتي تـــتوفر في أقاليم الجزيرة العربية في هذه المحطة، كما أنها توفر على تجار الجزيرة العربية مشقة السفر إلى الأقطار البعيدة، طالما أن معظم المنتجات التجارية لتلك الأقطار متوفرة في أسواق فرضة سيراف القريبة منهم وبأسعار في متـــناول اليد، فمن الطبيعي أن تقوى العلاقة بين موانيء الساحل الشرقي للخليج العربي مع نظائرها على الساحل الغربي منه، لا سيما وأن هذه المنطقة جميعها تحت سيادة دولة الخلافة العباسية.

أيضًـــا كانـــت موانيء البحرين وعُمان على صلة وثيقة بميناء البصرة الذي أصبح أهم الموانيء العراقية في فترة البحث، لا سيما بعد أن توسع هذا الميناء وحل محل ميناء الأُبلة، فقد أصبح ميناء البصرة يزدحم بالسلع التجارية التي تجلب من كل الآفاق، في مقدمتها البضائع الهندية والصينية، فقد كانت هذه السلع تأتي إليه إما مباشرة وإما عن طريق مـــوانيء الجزيـــرة العربية الشرقية، لأنها كانت تقوم بدور حيوي في تجارة العراق المزدهرة في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي[١١٦].

ففـــي البصـــرة يلتقي تجار الجزيرة العربية بتجار العراق وغيرهم من أخلاط التجار من مختلف الأقاليم؛ فكانت أســـواق البصرة تعج بحركة البيوع، حيث تتوفر فيها المنتجات العراقية والشامية، مع منتجات الصين، والهند، وبلاد الأفرنج[١١٧].

كانت السفن التي تخرج من ميناء البصرة في اتجاه جنوب الخليج العربي تمر في الغالب على معظم موانيء الجزيرة العربية على الخليج العربي، لتتزود بالمؤن أو للمبادلات التجارية، لأن الموانيء البحرينية والعمانية كانت تشكل محطات

مهمـــة لـــتجارة جـــنوب شرق أسيا، إضافة إلى ما يردها من السلع اليمنية أو الحبشية وغيرها من الأقطار الأخرى، فكانت السلع تتوفر في أسواقها وبكثرة مثل الفلفل، والزعفران، واللبان، والقرفة، والمسك، والحديد، والعنبر، واللؤلؤ وغير ذلك من أنواع السلع والبضائع المتنوعة فكان ينقل الكثير منها إلى العراق حيث مركز الخلافة والأسواق الرائجة.

ولا شك في أن هذه الموانيء التي أشرنا إليها على الساحل الشرقي للخليج العربي أو في شماله كانت ذات أهمية كـــبيرة في ربـــط الحركة التجارية بين ساحل الجزيرة العربية الشرقي وتلك المناطق، ولذا كان من الأهمية الإشارة إلى الحـــركة الـــتجارية بين موانيء البحرين وعمان وبلاد فارس والعراق في هذه الفترة، وبشيء من الإيجاز، فقد كانت التجارة تدر على أصحابها أرباحًا واسعة من الثروة. ونتيجة لذلك كان أهل سيراف يسكنون مساكن شاهقة مبنية من خشـــب الساج الهندي الثمين، وقد عدهم الرحالة من أغنياء التجار. وفي الوقت نفسه كان التجار العمانيون لهم باع طويـــل في الـــتجارة فقد كانوا يلعبون دورًا هامًا في التجارة الدولية، حيث نجد أن هناك إشارات في مصادر البحث تذكـــر أن الـــتجار العمانيين وصلوا إلى المراكز التجارية في الصين والهند، وكذلك في أفريقيا، وكانوا يتحدون جميع المخاطر ، لهذا شاطروا غيرهم في السيطرة على التجارة في الخليج العربي، وعملوا على منافسة تجار سيراف والبصرة في تجـــارة جنوب شرق أسيا، ووصلوا إلى مجاهل أفريقيا، فكانت لهم علاقات تجارية مع مختلف مناطق التبادل التجاري الخارجية في الصين، والهند، وشرق جنوب أفريقيا، ولا نستبعد هذا فقد كانت لهم السيادة على مدخل الخليج العربي الجـــنوبي، وقـــد ساعدهم على ذلك معرفتهم بمسالك الطرق البرية والبحرية، وخبرتهم بالأوقات الصالحة للرحلات التجارية والملاحة في البحر العربي والمحيط الهندي فضلاً عن الخليج العربي.

الخاتمة

يتـــبين مـــن البحث اتساع رقعة سواحل الجزيرة العربية الشرقية مما أهّلها لنشاط تجاري بارز في الفترة موضع الدراســـة، فكانـــت لهـــا صلات تجارية بمناطق التبادل التجاري، حيث تمر بها بعض طرق التجارة العالمية في العصر العباســـي، سواء البرية منها، أو البحرية، فقد تميزت موانيء هذا الجانب بموقعها الذي يربط بين المنطقة الموسمية المتمثلة في أقطار جنوب شرق آسيا مثل: الهند والصين والتي اشتهرت بإنتاج التوابل والصناعات الحريرية والصوفية، والمنطقة الأخـــرى أقطار حوض البحر المتوسط التي اشتهرت بإنتاج الحبوب وبعض المصنوعات المترلية، مما مكن تجار الجزيرة العربية في ساحلها الشرقي من مزاولة نقل السلع التجارية بين هاتين المنطقتين بالإضافة إلى ما تسهم به الجزيرة العربية من إنتاج أقاليمها من السلع والبضائع التي تدخل ضمن عروض التجارة.

فكانت المراكب البحرية التجارية تستخدم كثيرًا من الموانيء المنتشرة على طول شواطيء الجانب الشرقي، فقد لعبت دورًا بارزًا في النشاط التجاري كمحطات هامة بحكم كونها مراكز تصدير واستقبال للسلع التي يحملها العديد مـــن الـــتجار الذيـــن يرتادون أسواق الجزيرة العربية في مختلف المواسم، ومعهم البضائع التجارية من مناطق التبادل التجاري سواء القريب منها أو البعيد، ومن أبرز هذه الموانيء، ميناء مسقط، وميناء صحار، وموانيء شبه جزيرة قطر،

وميـــناء العقـــير، وميناء جزيرة أوال، وميناء القطيف، وقد أوضح البحث نشاط كل ميناء وتعد هذه الموانىء من أهم المراكز التجارية، التي كانت تستقبل السفن الآتية من الهند والصين وشرق إفريقية ومن جنوب الجزيرة العربية والمتجهة إلى ســيراف والبصـــرة وغيرها من الموانيء الأخرى الواقعة على الجانب الشرقي للخليج العربي أو شماله، وبالعكس، بالإضافة إلى القوافل البرية التي تربطها ببقية أقاليم الجزيرة العربية الأخرى.

التعليقات

(١) يبلغ أقصى عرض الخليج العربي ٣٨٦كم، وأقصى ضيق له حوالي ١٢٩كم، ويبلغ طوله من ساحل عمان إلى نهايته عند سهول بلاد الرافدين ٧٢٢كم، وتبلغ مساحته الكلية ١٤٥,٠٠٠كم٢، (الهاشمي، رضا جواد، *النشاط التجاري القديم في الخليج العربي وآثاره الحضارية* (بغداد: مجلة المؤرخ العربي، العدد ١٢، لعام ١٩٨٠م)، ٦٨.

(٢) ســيراف: هــي مديـــنة جليلة على ساحل بحر الخليج العربي الشرقي في بلاد فارس، وهي قديمًا كانت فرضة الهند، فهي مدينة عظــيمة، أغــنى بـــلاد فارس. ياقوت، شهاب الدين أبوعبدالله ياقوت بن عبدالله، (ت ٦٢٦هـــ/ ١٢٢٨م)، *معجم البلدان* (بيروت، دار صادر، ١٩٧٩م)، ٣: ٢٩٤- ٢٩٥.

(٣) يوسف، محمد، *علاقات العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلى القرن الرابع الهجري*، المجلد ٥ (القاهرة: مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م)، ١: ١٦- ٢٠.

(٤) الطـــبري، أبوجعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـــ/٩٢٢م)، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧م)، ٧: ٦١٤.

(٥) الشـــامي، أحمـــد، *العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى* (بغداد: مجلة المؤرخ العربي، ١٩٨٠م)، العدد ١٢، ١٠٦.

(٦) الشامي، أحمد عبدالحميد، *العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي والسواحل الغربية للهند في العصور الوسطى*، حصاد الندوة الرابعة التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة، رجب ١٤١٧هـــ/ نوفمبر ١٩٩٦م، ١١٩.

(٧) ابن الفقيه، أبوبكر أحمد بن محمد الهمذاني (ت ق ٣هـــ/ ٩م)، *مختصر كتاب البلدان* (ليدن: مطبعة بريل، ١٣٠٣هـــ)، ١١.

(٨) وقد ورد في الشعر العربي أدلة على معرفة العرب من سكان هذه المنطقة قبل الإسلام، لصناعة السفن، وخوضهم عباب البحر، من ذلك ما ورد في معلقة طرفة بن العبد:

كـــأن حُدوجَ المالكيةِ غـِــدوةً	خلايا سفينٍ بالنواصـــفِ من دَدِ
عَدَوليةٌ أو من سفينِ ابن يامـــنٍ	يجورُ بهـــا الملاحُ طورًا ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومُها بهـــا	كمـــا قَسَمَ الترب المفايلُ باليد

وقد قال ياقوت: (عدولي قرية بالبحرين تنسب إليها السفن)، معجم البلدان، ٤: ٩٠؛ وقد اشتهر أزد عمان باحتراف الملاحة، فقال عنهم أحد الشعراء :

"إذا أزديـــة ولـــدت غلامًـــا	فبشرهـــا بمـــلاح مجيــــد"

انظر، أحمد محمد عبدالعال، *دور الخليج في حركة التجارة في العصر العباسي الأول*، وانظر شرح القصائد العشر. صنفه الخطيب

التبريزي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ط٤ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ٩٧-٩٨؛ من بحوث ندوة مكانة الخليج العربي في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة، فبراير ١٩٨٥م، ١٠٧؛ وكان العمانيون يصنعون السفن، بعد أن يحصلوا على الأخشاب من الجزر الهندية. أشار لذلك أبوزيد السيرافي، في معرض حديثه عن هذه الصناعة لدى العمانيين. رحلة السيرافي، ١٠٠؛ وانظر العاني، عبدالرحمن، *دور العمانيين في الملاحة والتجارة حتى القرن الرابع الهجري* (سلطنة عمان: نشر وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨١م)، ١٢- ١٣.

(٩) كان أرباب السفن على معرفة باختلاف مهاب الرياح على كل من الخليج العربي والمحيط الهندي، طبقًا لمنازل الشمس والبروج، فكانوا يعرفون هبوب الرياح، فقد ذكر المسعودي بأنه كانت لهم دلائل وعلامات يعملون بها أبان هيجانه وأحوال ركوده وثوراته، (*مروج الذهب*، ١: ١٢٩)؛ وأضاف ابن رسته إيضاحًا لهذا الأمر، فقال: (وأول ما تبتدئ صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفي، فلا يزال في كل يوم تكثر أمواجه وتتقاذف، ويصعب ظهره إلى أن تصير الشمس إلى الحوت. وأشد ما يكون صعوبة ظهره وكثرة أمواجه وشدته في آخر زمان الخريف عند كون الشمس في القوس، فإذا كان قرب الاستواء الربيعي يبتدئ في قلة الأمواج ولين الظهر وسهولة المركب إلى أن تعود الشمس إلى السنبلة، وألين ما يكون ظهرًا وأسهل مركبًا في آخر زمان الربيع وهو عند كون الشمس في الجوزاء ... وأما بحر الهند، فإذا صارت الشمس في السنبلة تقل ظلمته وتنقص أمواجه ويلين ظهره ويسهل مركبه إلى أن تصير الشمس في الحوت. وألين ما يكون ظهرًا عند كون الشمس في القوس). ابن رسته، أبوعلي أحمد بن عمر، (كان حيًا سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م)، *الأعلاق النفيسة*، نشر بعناية دي غويه، (ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٧م)، ٨٦- ٨٧؛ ويشهد الخليج العربي هبوب رياح شمالية غربية ويستمر هبوبها ٩ أشهر في السنة، وتهب عليه كذلك رياح جنوبية غربية، وجنوبية شرقية، الهاشمي، المرجع السابق، ص٦٨.

(١٠) كَلَه، فرضة بالهند، وهي محطة في منتصف الطريق بين عُمان والصين وموقعها من المعمورة في طرف الاستواء؛ (ياقوت، *معجم البلدان*، ٤: ٤٧٨).

(١١) سليمان التاجر (ت ٢٣٧هـ/ ٨٥١م)، السيرافي، أبوزيد (كان حيًا سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م)، *أخبار الصين والهند*، تحقيق: إبراهيم خوري (بيروت: مطبوعات دار الموسم للأعلام، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ٧٠.

(١٢) ابن الفقيه، *مختصر كتاب البلدان*، ١١- ١٢؛ أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، *تقويم البلدان* (بيروت: دار صادر)، ٣٩١؛ ومدينة كَوْلَم هي أحسن بلاد المليبار وأسواقها حسان وتجارها لهم أموال عريضة، انظر ابن بطوطة، أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧هـ)، *رحلة ابن بطوطة*، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، ٥٧٥.

(١٣) سلمان، التاجر، أخبار الصين والهند، ٣٦.

(١٤) الألوسي، عادل محيي الدين، *تجارة العراق مع أندونيسيا حتى أواخر القرن السابع الهجري أواخر القرن الثالث عشر الميلادي*، ٢٥٤.

(١٥) كان أهلها يفضلونها على البصرة لشدة عمارتها وحسن دورها، ولباقة أسواقها ويسار أهلها وبعد صيتها. (السيرافي، *أخبار الصين والهند*، ١١٠).

(١٦) المسعودي، أبوالحسن علي بن الحسن بن علي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، *مروج الذهب ومعادن الجوهر*، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد (بيروت: دار المعرفة، ١٩٤٨م)، ١/١٤٩.

(١٧) الفرسـخ يـتألف من ٣ أميال، أي أن طول الفرسخ كان حوالي ٦كم، (فالترهنتس، *المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها بالنظام المتري*، ترجمة: كامل العسلي، (عمان: الجامعة الأردنية، ١٩٧٠م)، ٩٤.

(١٨) الـدردور وجمعها دردورات، وهي ثلاثة، أحدها بالقرب من جزيرة بني كاوان والثاني بالقرب من جزيرة قِمّارَ (موضع بالهند)، والثالث في آخر الصين، والدردور هو مضيق بين جبلين (أبوالفداء، *تقويم البلدان*، ٣٧٣؛ وانظر أحمد عبدالعال، *دور الخليج في حركة التجارة البحرية في العصر العباسي*، ١٢١.

(١٩) الجبلان هما كُسير وعوير وهما في وسط البحر الشرقي ويظهران على الماء شيئًا يسيرًا ويخاف على المراكب في ذلك الموضع وهما عن عمان في البحر خمسون فرسخًا؛ (أبوالفداء، *تقويم البلدان*، ٣٦٩).

(٢٠) ابـن الفقـيه، كتاب *مختصر البلدان*، ١١؛ وانظر البكري، أبوعبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد، (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، *جزيرة العرب*، من كتاب *الممالك والمسالك*، تحقيق: عبدالله يوسف الغنيم (الكويت: المطبعة العصرية، ١٣٩٧هـ)، ٦٢٦.

(٢١) المسعودي، مروج الذهب، ١٤٠/١.

(٢٢) المسعودي، المصدر السابق، ١٠٧.

(٢٣) المسعودي، المصدر السابق، ١٣٨.

(٢٤) المسعودي، المصدر السابق، ١٦٨/١.

(٢٥) البياسـرة، مصـطلح يـراد به من ولد من المسلمين بأرض الهند، وأحدهم بيسر وجمعهم بياسرة، المسعودي، المصدر السابق، ٢١٠.

(٢٦) المسعودي، المصدر السابق، ٢١٠.

(٢٧) الأصطخري، ابن اسحق إبراهيم محمد الفارسي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، *المسالك والممالك*، تحقيق: محمد جابر عبدالعال الجيني (القاهرة: دار القلم، ١٣٨١هـ/ ١٩٩١م)، ٢٧.
الجـرم: الحـر فارسي معرب والجمع جروم، وأرض جرم توصف بالحر، وفواكه الجروم هي فواكه المناطق الحارة، ابن منظور، جمـال الديـن أبوالفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م)، *لسان العرب*، إعداد وتصنيف يوسف خياط (القاهرة: دار المعارف)، ١: ٤٤٧.

(٢٨) البكري، *جزيرة العرب*، ١٣٦.

(٢٩) الشامي، أحمد، العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى، ٩٠.

(٣٠) المسعودي، *مروج الذهب*، ١٤٩/١.

(٣١) الأصطخري، المسالك والممالك، ٢٧.

(٣٢) بلـغ طول مرسي مينائها فرسخًا في عرض فرسخٍ، كروما، أدولف، صحار، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٤، نشر طهران، ١٤٦- ١٤٨.

(٣٣) الـيعقوبي، أحمـد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، *تاريخ اليعقوبي* (بيروت، دار صادر، ١٩٨٠م)، ١: ٢٧٠؛ وتقوم هذه السوق لعشرين يومًا من رجب؛ المرزوقي، أبوعلي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١هـ/ ١٠٢٠م)، *الأزمـنة والأمكنة* (حيدر أباد: الدكن، مطبعة مجلس إدارة المعارف، ١٣٢٢هـ)، ٢: ١٦٣؛ وانظر كذلك، حمور، عرفان بن محمد، *أسواق العرب* (بيروت: دار الشورى، ١٩٧٠م)، ١٧٨.

(٣٤) العـــاني، عبدالرحمن، *دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية حتى القرن الرابع الهجري* (وزارة التراث القومي والثقافي في سلطنة عمان، ١٩٨١م)، ٢٩- ٣٠.

(٣٥) كان هناك نوعان من السفن تستخدم في نقل التجارة بين الصين وبلاد العرب. الأولى مصنوعة على شكل ألواح صفوف، تثقب من أطرافها لتدق بها المسامير الخشبية، وتشد بألياف النخيل، ثم تطلى قيعانها بزيت السمك ولها سارية واحدة، وتستخدم الحبال في الأرساء. أما النوع الثاني من السفن فهي مراكب كبيرة لاجتياز مالا يجتازه غيرها من السفن الصغيرة من المضايق والممرات، (بولو، ماركو (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م)، *رحلات ماركوبولو*، ترجمة: عبدالعزيز جاويد (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م)، ٥٨، وتذكـر بعـض الأبحـاث أن سفن الخليج ومراكب البصرة بيضاء لأنها تستخدم الشحم والنورة في طلائها، (الحمارنـة، صـالح، *دور الأُبلة في تجارة الخليج* (الكويت، مجلة المؤرخ العربي)، العدد ٤، ٤٩). ويبدو أن العرب التجار كانوا يفضلون الإبحار بالسفن الكبيرة من صحار إلى المحيط الهندي أو البحر العربي، حيث يتوفر لهم الأمان على تجارتهم، لتوفر الحماية من قبل الحراس المرافقين للتجار.

(٣٦) الدِّهْلـيزُ: ما بين الباب والدار؛ (الرازي، محمد بن أبي بكر (ت ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م) *مختار الصحاح* (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، ١٠٨، وأضاف ابن منظور والدهليز الجيئة، *لسان العرب*، ١/١٠٢٦). وأعتقـد أن هذا كناية على استمرار الاتصال بين صحار والصين حتى كأنها في القرب مثل ما بين الباب والدار.

(٣٧) ابن حوقل، أبوالقاسم محمد البغدادي (ت نحو ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، *صورة الأرض* (بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٧٩م).

(٣٨) المسـك من العطور الزكية الرائحة، فالمسك هو مادة حيوانية تستخرج من غدة في بطن حيوان يعرف بقط الزباد، والمسلك من أغلى العطور ثمنًا، ظل حكرًا على المترفين، وصار مظهراً من مظاهر الأبهة، الألوسي، تجارة العراق البحرية مع أندونيسيا، ٢١٨.

(٣٩) زيتون، محمد محمود، *الصين والعرب عبر التاريخ* (القاهرة: دار المعارف)، ٢٥- ١٠٤.

(٤٠) الزابج: أي النارجيل، لزيادة في الشرح انظر الألوسي، المرجع السابق، ٢٥٢.

(٤١) ذكـر المسعودي بأن للطواويس في الهند شأن عظيم، والذي يحمل منها إلى أرض الإسلام وتخرج عن أرض الهند فتبيض وتفرخ تكون صغيرة الأجسام وتشبه بالهندية بالشبه اليسير، *مروج الذهب*، ٢: ٣٨.

(٤٢) ابن الفقيه، *مختصر كتاب البلدان*، ١٥- ١٦.

(٤٣) المقدســي، أبوعبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّا الحنفي (ت ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم* (ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٩م)، ٩٢.

(٤٤) الإدريسي، محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، *جزيرة العرب منتزهة المشتاق*، تحقيق: إبراهيم شوكة (بغداد: مجلة المجمع العلمي العراقي، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، المجلد ٢١، ٤٠- ٤١.

(٤٥) المصدر السابق، ٤١.

(٤٦) المســري، عــلي بــن حسين، *العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق ومنطقة الخليج العربي* (بيروت: دار الحداثة والنشر والتوزيع، ١٩٨٢م)، ١٤٥- ١٤٦، ٣١٠.

(٤٧) الشــامي، أحمد، *العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي والسواحل الغربية للهند في العصور الوسطى*، حصاد ٤ ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، رجب ١٤١٧هـ/ نوفمبر ١٩٩٦م، ١٤٤.

(٤٨) ابــن الأثــير، أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، *الكامل في التاريخ*، باعتناء

الشيخ عبدالوهاب النجار (القاهرة: ١٣٥٧هـ)، ٧: ١٧، ٥٧.

(٤٩) القـرامطة: شيعة عملوا على نشر المذهب الإسماعيلي وعُرفوا بهذا الاسم، نسبة إلى كبير دعامتهم، حمدان بن الأشعث، الملقب بقـرمط لصغر قامته ورجليه؛ (سرور، محمد جمال، *نفوذ الفاطميين في جزيرة العرب* (القاهرة، ١٩٥٦م)، ٢١). وهناك إجماع بـين الباحثين على ارتباط أصول القرامطة بالدعوة الإسماعيلية، انظر، زعرور، إبراهيم، ***العلاقات بين قرامطة البحرين والخلافة الفاطمية في مصر***، اتحاد المؤرخين العرب، حصاد ٤، ٢٠١.

(٥٠) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، *تاريخ ابن خلدون*، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، ١٩٥٧م، ١٩٨/٤؛ ولمزيد من المعلومات انظر، Wendell Phillips, Omana historg, London ١٩٠٦, p.١٣.

(٥١) البكري، *جزيرة العرب*، ١٣٧، ١٦٠.

(٥٢) ابـن رسـته، الأعلاف النفيسة، ١٨٢؛ ولمزيد من المعلومات انظر أحمد، العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي والسواحل الغربية للهند في العصور الوسطى، ١١٦.

(٥٣) الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، *صفة جزيرة العرب*، تحقيق: محمد ابن علي الأكـوع (الـرياض: دار اليمامة، ١٩٧٤م)، ٥٧، ٢٥٩- ٢٨٠؛ زريق، قسطنطين، التجارة الإسلامية، مجلة المقتطف، الجزء الخامس من المجلد ٧٨ سنة ١٩٣٥م، ٥٤٢ وما بعدها.

(٥٤) الشامي، أحمد، *العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي، والسواحل الغربية للهند*، ١١٩.

(٥٥) المسعودي، *مروج الذهب*، ١: ١١٠.

(٥٦) عَـبّادان: هـو موضع تحت البصرة قرب مياه الخليج، وهذا الموضع في الجزيرة بين النهرين على الطريق إلى سيراف في الجانب الفارسي؛ (ياقوت) *معجم البلدان*، ٤: ٧٤.

(٥٧) سَـفْوَان: ماء بين المِربَد والبصرة، وأصبح بلدة بين البصرة والكويت، وهو في الحدود العراقية، انظر، هامش ٣ صفحة ٥٧ من الهمداني، *صفة جزيرة العرب*.

(٥٨) كاظمَة: تقع على سيف الخليج العربي في دولة الكويت، البكري، *جزيرة العرب*، ٥٠، هامش رقم ١.

(٥٩) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ٥٧؛ وانظر، البكري، جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، ١٩، ٢٠، ١٠٨.

(٦٠) العُقَيْرُ: تقع على خليج البحرين إلى الجنوب من القطيف، البكري، *جزيرة العرب*، ١٣٦؛ وقال عنها ياقوت: "القصير مدينة على البحر بينها وبين هجر ليلة"، *معجم البلدان*، ٤: ١٣٨.

(٦١) ابـن خرداذبة، أبوالقاسم عبيدالله بن عبدالله بن أحمد (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، *كتاب المسالك والممالك* (ليدن: مطبعة برايل، ١٩٦٧م)، ٦٠.

(٦٢) ماركو بولو، رحلات ماركوبولو، ٥٥- ٥٨.

(٦٣) وسـواحل قطـر من أشهر مغاصات اللؤلؤ؛ (شيخ الربوة، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م)، *كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر* (ليبزج: ١٩٢٣م)، ٧٨، فكان اللؤلؤ من أهم حاصـلات أهل قطـر، مثـلهم في ذلك مثل أهل جزيرة أوال، وعُمان. انظر، المسري، حسين علي، ***العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق ومنطقة الخليج العربي في العصر العباسي*** (بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٢م)، ٢٣٨.

(٦٤) أبــو العتاهــية: هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد، الشاعر المعروف، نشأ بالكوفة وسكن بغداد، كانت ولادته سنة ١٣٠هـ وتوفي سنة ٢١٣هـ ببغداد؛ ابن خلكان، أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٠٨هـ/ ١٢١١م - ٦٨١هـ/ ١٣٧٩م)، *وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان*، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م)، ١: ٢١٩- ٢٢٣.

(٦٥) الجــاحظ، أبــو عــثمان عمــرو بن بحر بن محبوب بن طراد الكناني البصري (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، *البيان والتبيين*، تحقيق: عبدالسـلام هــارون، لجنة التأليف والترجمة (القاهرة: ١٩٤٨م)، ٣: ١٢١؛ ولمزيد من المعلومات انظر السيف، عبدالله محمد، *الصـناعة في الجزيرة العربية في العصر العباسي*، الرياض، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، المجلد ١٢، العدد ٢، ١٩٨٥م، ٣٣٣- ٣٣٤.

(٦٦) الشافعي، أبوعبدالله محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، *الأم* (بولاق: المطبعة الأميرية، ١٣٢١هـ)، ١: ١٧٤؛ ولمزيد من المعلومات انظر، العاني، عبدالرحمن عبدالكريم، *البحرين في صدر الإسلام، وأثرها في حركة الخوارج* (بغداد: دار الحرية للطباعة، ١٩٧٣م)، ٨٣.

(٦٧) الجوهــري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٧هـ/ ١٠٠٧م)، *الصحاح*، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار (القاهرة: مطابع دار الكتاب العــربي، ١٣٧٦هــ/ ١٩٥٦م)، ٢: ٧٩٦؛ ابــن سيده، أبوالحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، *المخصص* (بولاق: المطبعة الكبرى الأميرية، ١٣١٦هـ)، ٤: ١٣٥.

(٦٨) ابن حنبل، أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م)، *المسند* (القاهرة: ١٣١٣هـ)، ٥: ٢٤، ٦: ١٤٧.

(٦٩) ابن منظور، *لسان العرب*، ج٣، ص١١٤.

(٧٠) الشامي، أحمد، *العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي والسواحل الغربية للهند في العصور الوسطى*، ١١٦.

(٧١) المـيداني، أبوالفضـل أحمـد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨هـ/ ١١٢٤م)، *مجمع الأمثال* (القاهرة: ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م)، ٢: ٩٨.

(٧٢) مَنّ، والمن وهو المينة القديمة، يساوي شرحًا رطلين، كل رطل ١٣٠ درهمًا. هنتس، فالتر، *المكاييل والأوزان الإسلامية*، ترجمة: كامل العسلي، ٤٥.

(٧٣) خســرو، ناصــري علوي (ت ٤٨١هـ/ ١٠٢٧م)، *سفر نامة*، ترجمة: يحيى الخشاب (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م)، ٩٤.

(٧٤) الرملة: قرية بني عامر بن بني عبدالقيس بالبحرين. ياقوت، *معجم البلدان*، ٣: ٦٩.

(٧٥) قُــفُ، ما ارتفع من الأرض وغُلظ، وهو جبل غير أنه ليس بالطويل. فيه إشراف على ما حوله، وقيل هي قفاف الصمان وهي بلاد عريضة؛ ياقوت، المصدر السابق، ٣٨٤/٤.

(٧٦) القــالي، أبوعــلي إسماعيل بن القاسم البغدادي (ت ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، *الأمالي* (دار الكتب المصرية، ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م)، ٢: ١٠٠.

(٧٧) ابن سعد، محمد الزهري (ت ٢٣٠هـ، ٨٤٤م)، *الطبقات الكبرى* (بيروت: دار صادر)، ١: ٢٦٢.

(٧٨) المقصــود بالمنبر المكان الذي تقام فيه الجمعة، ويتفق الفقهاء على أن من شروط إقامته وجود مجتمع مقيم ذو عدد كاف، ويرى البعض ضرورة وجود وال فيه دون أن يعينوا مكان ذلك الوالي، العاني، عبدالرحمن، *البحرين في صدر الإسلام*، ١٢٠.

(٧٩) الحربي، إبراهيم بن إسحاق (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)، *المناسك وأماكن طرق الحج، ومعالم الجزيرة*، تحقيق: حمد الجاسر (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، مطبعة المتنبي، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م)، ٦٢٠- ٦٢١.

(٨٠) زكار، سهيل، *الدولة القرمطية في البحرين* (القاهرة: منشورات اتحاد المؤرخين العرب، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م)، حصاد الندوة (٤)، ١٣٥.

(٨١) البكري، *جزيرة العرب*، ص١٣٦، وأوال هي الجزر التي تتكون منها مملكة البحرين حاليًا.

(٨٢) ياقوت، *معجم البلدان*، ١/ ٢٧٤.

(٨٣) البكري، *معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع*، حققه وضبطه مصطفى السقا (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ١: ٢٠٨، والشاعر جرير بن عطية بن الخطفي من فحول شعراء الإسلام، عاش في العصر الأموي، وكانت وفاته في سنة إحدى عشرة ومائة، انظر ابن خلكان، *وفيات الأعيان*، ١: ٣٢٦.

(٨٤) المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، ١٠١.

(٨٥) نصر، علي منصور، *مكانة الخليج العربي التجارية في العصر العباسي، اتحاد المؤرخين العرب*، ندوة طرق التجارة العالمية (القاهرة: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، ٤٢٥.

(٨٦) الجاحظ، *كتاب التبصر بالتجارة* (مصر: مكتبة الخانجي)، ٣٢؛ المسري، حسين، *العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق ومنطقة الخليج العربي*، ٢٣٤.

(٨٧) الأصطخري، *المسالك والممالك*، ٣؛ المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ١٠١؛ شيخ الربوة، *نخبة الدهر وعجائب البر والبحر*، ٧٨.

(٨٨) العسكري، سليمان إبراهيم، *التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي* (الكويت: مؤسسة الشراع، ١٩٨٨م)، ١١٣.

(٨٩) الجاحظ، *التبصر بالتجارة*، ٢٦؛ اليعقوبي، *كتاب البلدان* (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م)، ١٠، ١٢٠ - ١٢٥؛ ولمزيد من التفصيل انظر، نصر، مكانة الخليج العربي التجارية في العصر العباسي، ٤٣٣.

(٩٠) الإدريسي، *جزيرة العرب*، ٥١- ٥٢.

(٩١) الإدريسي، *جزيرة العرب*، ٥٢.

(٩٢) الحربي، *المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة*، ٦٢١.

(٩٣) القُليعة -بالتصغير- بالبحرين لعبدالقيس. وأهل القطيف يطلقون اسم القلعة على القسم الذي يقع على ساحل البحر من مدينتهم، وقد يكون الاسم حديثًا، انظر الهامش رقم ٢ صفحة ٦٢١، الحربي، المصدر السابق.

(٩٤) الأصطخري، *المسالك والممالك*، ٢٧؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ٤٧.

(٩٥) البكري، *جزيرة العرب*، ١٣٦.

(٩٦) الهمداني، *صفة جزيرة العرب*، ٥٧.

(٩٧) الهمداني، المصدر السابق، ٢٧٩، ٣١٧.

(٩٨) البكري، *جزيرة العرب*، ١٣٥.

(٩٩) البكري، المصدر السابق، ١٣٦.

(١٠٠) ياقوت، *معجم البلدان*، ٤/ ٣٧٨.

(١٠١) الأصطخري، *المسالك والممالك*، ٣١.

(١٠٢) الأصطخري، المصدر السابق ، ١٠٠.

(١٠٣) عبدالجواد، ليلى، *الحياة في هرمز في العصور الوسطى* (القاهرة: منشورات اتحاد المؤرخين العرب، حصاد (٤) ندوة عقدها الاتحاد، ١٤١٧هـ)، ٣٤٧.

(١٠٤) الجاحظ، *التبصر بالتجارة*، ص٢٧؛ ابن الفقيه، *مختصر كتاب البلدان*، ٢٥٢؛ المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٩٧؛ ماركوبولو، *رحلات*، ٤٥.

(١٠٥) النيلج، نوع ممتاز من النيلة يستخدم في صناعة اللون الأزرق؛ عبدالجواد، *الحياة في هرمز*، ٣٦٢ هامش رقم ١٠٤.

(١٠٦) الإدريسي، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق* (بيروت: بدون تاريخ)، ١: ٤٣٦.

(١٠٧) الإدريسي، المصدر السابق، والصفحة نفسها.

(١٠٨) سونيا، هو، *في طلب التوابل*، ترجمة: محمد عزيز رفعت (القاهرة: ١٩٥٧م)، ١٥٠؛ عبدالجواد، المرجع السابق، ٣٤٨.

(١٠٩) مدينة جليلة على ساحل بحر فارس، فرضة الهند، وكانت أغنى بلاد فارس، ياقوت، معجم *البلدان*، ٣: ٢٩٤– ٢٩٥.

(١١٠) التاجر، سليمان، والسيرافي، أبوزيد، أخبار الصين والهند، ٣٥.

(١١١) السيرافي، المصدر السابق، ٣٥.

(١١٢) الأصطخري، *المسالك والممالك*، ٣١.

(١١٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ٥٤.

(١١٤) المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ٤٢٦– ٤٢٧.

(١١٥) المسعودي، *مروج الذهب*، ١: ١٠٨.

(١١٦) العسكري، سليمان إبراهيم، *التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي* (القاهرة: مطبعة مدني، ١٩٧٢م)، ٩٤؛ القوصي، عطية، تجارة الخليج بين المد والجزر في القرنين الثاني والثالث الهجريين، نشرة دورية تصدر عن قسم الجغرافيا، جامعة الكويت، ٨– ٩.

(١١٧) الجاحظ، *التبصر بالتجارة*، ١ وما بعدها.

Studies in the History of Arabia

Vol. V

Arabia from the rise of the Abbasid State to the end of the ٤th century A. H.

(part one)

Editorial Committee

Prof. Dr. Abdulaziz S. Al- Hilabi

Prof. Dr. Mohammed al- Jameel

Prof. Dr. Ahmad O. Al- Zaylai

Dr. Moshalleh K. Al- Moraekhi

Dr. Khalid A. Al- Bakr